السيرة الحلبية

في

سيرة الأمين المأمون

إنسان العيون

الجزء الثالث

تأليف

علي بن برهان الدين الحلبي

(٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ)

١٤٠٠هـ ١٩٨٠م
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح مكة شرفها الله تعالى

كان فى رمضان سنة ثمان . وكان السبب فى ذلك أنه لما كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش كان فيه أن : من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر فى عهد قريش ، ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وكان قبل ذلك بينهما دماء ، أى فحجز الإسلام بينهما لتشاغل الناس به ، وهم على ما هم عليه من العداوة ، وكانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم ، أى يناصرونه على عمه نوفل بن عبد مناف .

فإن المطلب لما مات وثب نوفل على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه ، فلم ينهض معه أحد منهم ، وقالوا له لا ندخل بينك وبين عمك ، وكتب إلى أخواله بنى النجار ، فجاءه منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا وقالوا له : ورب البنية لتردن على ابن أختنا ماأخذت وإلا ملأنا منك السيف ، فرده ثم حالف خزاعة بعد أن حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس ، وكان صلى الله عليه وسلم يعلم بذلك الحلف فإنهم أوقفوه على كتاب عبد المطلب وقرأه عليه أبى بن كعب رضى الله عنه : أى بالحديبية ، وهو باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذا قدم عليه سرواتهم وأهل الرأى منهم ، غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم أن بيننا وبينكم عهود الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا ، اليد واحدة والنصر واحد ، ما أشرق ثبير وثبت حرا مكانه ، وما بل بحر صوفة .

وفى الإمتاع أن نسخة كتابهم : باسمك اللهم ، هذا ماتحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة ، تحالفوا على التناصر والمواساة ما بلّ بحر صوفة ، حلفا جامعا غير مفرق ؛ الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا ينقض ولا ينكث ، ما أشرقت شمس على ثبير ، وحنّ بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان ، وعمر بمكة إنسان ، حلف أبد لطول أمد ، يزيده طلوع الشمس شدّا ، وظلام الليل مدا ، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون ، فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب فى شرق أو غرب أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى بالله جميلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف .

فلما كانت الهدنة ، وهى ترك القتال التى وقعت فى صلح الحديبية اغتنمها بنو بكر : أى طائفة منهم يقال لهم بنو نفاثة .

أى وفى الإمتاع : وسببها أن شخصا من بنى بكر هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه ، فثار الشرّ بين الحيين لما كان بينهم من العداوة ، فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم بذلك ، فبيتوا خزاعة : أى جاءوهم ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوتير ، فأصابوا منهم : أى قتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا ، منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ، أى وعكرمة ابن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو رضى الله عنهم ، فإنهم أسلموا بعد ذلك ، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة ؛ أى ولم يشاوروا فى ذلك أبا سفيان . قيل شاوروه فأبى عليهم ذلك ، وظنوا أنهم لم يعرفوا ، وأن هذا لا يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق ندموا ، وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فقال : هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه ، وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد ؛

ولقد حدثتني هند بنت عتبة يعني زوجته أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة فكره القوم ذلك .

وعند ذلك خرج عمرو ، وقيل عمر بضم العين وصححه الذهبي ابن سالم الخزاعي : أي سيد خزاعة في أربعين راكبا : أي من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين الناس وقال من أبيات :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت ياعمرو بن سالم ،أي ودمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وقال : لاينصرني الله . وفي لفظ : لا نصرت إن لم أنصر بني كعب : يعني خزاعة مما أنصر به نفسي . وفي رواية : لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي. زاد في رواية : وأهل بيتي ثم مرّت سحابة في السماء وأرعدت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إن هذا السحاب ليستهلّ ، أي وفي لفظ : لينصب بنصر بني كعب يعني خزاعة .

أي وعن بشر بن عصمة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « خزاعة مني وأنا منهم » وقبل قدوم عمرو بن سالم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلامه بذلك حدّثت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الوقعة قال لها : لقد حدث في خزاعة حدث ، قالت : فقلت : يارسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم ؟ فقال : ينقضون العهد لأمر يريده الله ، فقلت : خير ، قال خير ، وفي لفظ قالت : لخير أو لشر ؟ قال لخير .

وعن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بات عندها ليلة ، فقام ليتوضأ للصلاة ، قالت : فسمعته يقول لبيك لبيك لبيك ثلاثا. نصرت نصرت نصرت ثلاثا ، فلما خرج قلت : يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك ثلاثا نصرت نصرت نصرت ثلاثا كأنك تكلم إنسانا ، فهل كان معك أحد ؟ قال : هذا راجز بني كعب يعني خزاعة يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل : أي بطنا منهم وهم بنو نفاثة ، قالت ميمونة : فأقمنا

ثلاثا ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ، فسمعت الراجز يقول :

* يارب إنى ناشد محمدا * إلى آخر ما تقدم، انتهى .

وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لعمرو بن سالم وأصحابه : فيمن تهمتكم ؟ قالوا : بنوبكر ، قال : كلها ؟ قالوا : لا ولكن بنو نفاثة ، قال : هذا بطن من بكر .

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد أرسلوا أبا سفيان ليشد العقد ويزيد فى المدة ، فقالوا له : ما لها سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة ، فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين فأسرع السير ، لأنه يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس قبل قدوم أبى سفيان : كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة ، وهو راجع بسخطه ، ثم رجع أولئك الركب من خزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان ، أى ومولى له كل على راحلة وقد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشد العقد ويزيد فى المدة ، وقد خافوا مما صنعوا ، فسألهم : هل ذهبتم إلى المدينة ؟ قالوا : لا ، وتركوه وذهبوا ، فجاء إلى مبركهم بعد أن فارقوه ، فأخذ بعرا وفته فوجد فيه النوى ، فعلم أنهم ذهبوا إلى المدينة الشريفة .

قال : وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمرو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرقوا فى الأودية ، أى ليخفى مجيئهم للنبى صلى الله عليه وسلم. فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل ، أى وفيهم عمرو بن سالم . وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق ، وإن أبا سفيان لقى بديل بن ورقاء بعسفان، فأشفق أبوسفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فقال للقوم : أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ، فقالوا : لا علم لنا بها ، أى وقالوا : إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل. ثم صبر أبوسفيان حتى ذهب أولئك القوم . وفى لفظ قال : من أين أقبلت يا بديل؟ قال : سرت إلى خزاعة فى هذا الساحل ، قال : ما أتيت محمدا ؟ قال لا ، فلما راح بديل إلى مكة : أى توجه إليها ، قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى ، قال أبو سفيان : أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا انتهى .

فلما قدم أبوسفيان المدينة دخل على ابنته أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها ، ولما أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال :

يا بنية ما أدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش النبى صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، قال : والله لقد أصابك بعدى شر ، فقالت : بل هدانى الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لايسمع ولا يبصر ، وا عجبا منك ياأبت وأنت سيد قريش وكبيرها ، فقال أنا أترك ماكان يعبد آبائى وأتبع دين محمد ؟ ثم خرج حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا فى المدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لذلك جئت ياأبا سفيان ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان فيكم من حدث ؟ قال : معاذ الله ، نحن على عهدنا وصلحنا لانغير ولانبدّل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن على مدتنا وصلحنا ، فأعاد أبوسفيان القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يردّ عليه شيئا هذا.

وفى كلام سبط ابن الجوزى رحمهما الله أن مجيئه لأم حبيبة رضى الله عنها بعد مجيئه للنبى صلى الله عليه وسلم . ثم ذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما أنا بفاعل. وفى رواية قال لأبى بكر : جدّد العقد وزدنا فى المدة ، فقال أبو بكر : جوارى فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم . ثم أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم : أى بها . وفى رواية أنه قال له : ماكان من حلفنا جديدا أخلقه الله ، وماكان مقطوعا فلاوصله الله ؛ فعند ذلك قال له أبوسفيان : جزيت من ذى رحم شرا . وفى لفظ سوءا ؛ ثم جاء إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال : إنه ليس فى القوم أقرب بى رحما منك فزد فى المدة وجدد العقد ، فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا ، فقال عثمان : جوارى فى جواره صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ثم جاء فدخل على علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه وعنده فاطمة وحسن رضى الله عنه غلام يدب بين يديها ، فقال : يا على إنك أمسّ القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك ياأباسفيان ، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر مانستطيع أن نكلمه ، فالتفت إلى فاطمة رضى الله عنها ، فقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله مايبلغ بنىّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وفى رواية أنه قال لفاطمة : أجيرى بين الناس ،

فقالت : إنما أنا امرأة ، قال : قد أجارت أختك يعنى زينب أبا العاص بن الربيع يعنى زوجها وأجاز ذلك محمد ، قالت : إنما ذاك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فأمرى أحد ابنيك ، قالت : إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير . قال : فكلمى عليا ، فقالت : أنت تكلمه ، فكلم عليا ، فقال : يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتات على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار ؛ وقول فاطمة رضى الله عنها فى حق ابنيها إنهما صبيان ليس مثلهما يجير هو الموافق لما عليه أئمتنا من أن شرط من يؤمن أن يكون مكلفا ، وأما قولها وإنما أنا امرأة فلا يوافق ما عليه أئمتنا من أن للمرأة والعبد أن يؤمنا لأن شرط المؤمن عند أئمتنا أن يكون مسلما مكلفا مختارا . وقد أمنت زينب بنت النبى صلى الله عليه وسلم زوجها أبا العاص بن الربيع ، وقال صلى الله عليه وسلم « قد أجرنا من أجرت » وقال « المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم » كما سيأتى فى السرايا ، وقد تقدم ذلك قريبا عن أبى سفيان . وسيأتى قريبا أن أم هانئ أجارت ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لها « أجرنا من أجرت يا أم هانئ » لكن سيأتى أن هذا كان تأكيدا للأمان الذى وقع منه صلى الله عليه وسلم لأهل مكة لا أمان مبتدأ .

ثم إن أبا سفيان أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول جوارى فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء إلى على كرم الله وجهه وقال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد انسدت على فانصحنى ، قال : والله لا أعلم لك شيئا يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى أجرت بين الناس . زاد فى رواية : ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد ، ولا يرد جوارى ، قال : وفى رواية أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنى أجرت بين الناس ، أى وقال : لا والله ما أظن أحدا يخفرنى ويرد جوارى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ وفى لفظ : يا أبا سفيان انتهى .

ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش وقد طالت غيبته واتهمته قريش أنه صبأ واتبع محمدا سرا وكتم إسلامه وقالت له زوجته : إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل ، فلما أخبرها : أى وقد دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته فضربت

برجلها فى صدره وقالت : قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير ، فلما أصبح أبوسفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة ، وذبح عندهما البدن ، ومسح رءوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رأته قريش قالوا : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله ، لقد أبى علىّ ، وقد تتبعت أصحابه ، فما رأيت قوما لملك أطوع منهم له . وفى رواية قال : جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد علىّ شيئا ، ثم جئت إلى ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أدنى العدو . أى وفى رواية : أعدى العدوّ ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علىّ بشىء صنعته ، فوالله لاأدرى أيغنى عنى شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس : أى قال لى لم تلتمس جوار الناس على محمد ولاتجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لايخفر جواره ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا ، أى وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدنى ، قالوا : رضيت بغير رضا ، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئا ، ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك : أى إزالة خفارتك عليهم لهين ، والله أراد الرجل : يعنون عليا كرم الله وجهه أن يلعب بك . قال : والله ماوجدت غير ذلك ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، أى قال لعائشة جهزينا وأخفى أمرك ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته عائشة رضى الله عنها وهى تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى تجعل قمحا سويقا ودقيقا . وفى لفظ : وجد عندها حنطة تنسف وتنقى ، فقال : أى بنية أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجهيزه ؟ قالت : نعم فتجهز ، قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى ، وإن ذلك قبل أن يستشير صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فى السير إلى مكة كما سيأتى . ثم إنه صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتجهيز .

أى وفى الإمتاع أن أبا بكر رضى الله عنه لما سأل عائشة رضى الله عنها دخل عليه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أردت سفرا ؟ قال نعم ؟ قال : أفأتجهز ، قال نعم ، قال : فأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشا ، وأخف ذلك يا أبا بكر ، وأمر صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز ، وطوى عنهم الوجه الذى يريده ، وقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة؟ قال إنهم غدروا ونقضوا العهد »

واطو ما ذكرت لك ، وفى رواية أن أبا بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجا ، قال : نعم ، قال : لعلك تريد بنى الأصفر ، قال : لا ، قال أفتريد أهل نجد . قال : لا ، قال : فلعلك تريد قريشا ، قال : نعم ، قال : يارسول الله أليس بينك وبينهم مدة ، قال : أو لم يبلغك ماصنعوا ببنى كعب : يعنى خزاعة ، قال : وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، أى وذلك بعد أن تشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى السير إلى مكة ؛ فذكر له أبو بكر رضى الله عنه ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له : هم قومك ، وحضه عمر رضى الله عنه حيث قال : نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر ، وأنك كذاب ، وذكر له كل سوء كانوا يقولون ، وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة ؛ فعند ذلك ذكر صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر كإبراهيم ، وكان فى الله ألين من اللين ؛ وأن عمر كنوح وكان فى الله أشد من الحجر ؛ وأن الأمر أمر عمر ، وتقدم نحو هذا لما استشارهما صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر ، أى ثم قدمت المدينة من قبائل العرب : أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها ، أى وفى رواية قال : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة ، وأخذ بالأنقاب : أى الطرق ، أى أوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، أى وقال لهم : لا تدعوا أحدا يمرّ بكم تنكرونه إلا رددتموه .

ولما أجمع صلى الله عليه وسلم المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش : أى إلى ثلاثة منهم من كبرائهم ، وهم : سهيل بن عمرو ، وصفوان ابن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل رضى الله عنهم — فإنهم أسلموا بعد ذلك كما تقدم — كتابا يخبرهم بذلك ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ، ويقال أعطاها عشرة دنانير وكساها بردا ، أى وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرسا فسلكت غير الطريق ، قال وتلك المرأة هى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية بمكة ، وكانت قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلمت ، وطلبت منه الميرة ، وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله

صلى الله عليه وسلم : ماكان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت : إن قريشا منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء ، فوصلها صلى الله عليه وسلم ، وأوقر لها بعيرا طعاما ، فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام ، وكان ابن خطل يلقى عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغنى به انتهى ، فجعلت الكتاب فى قرون رأسها أى ضفائر رأسها خوفا أن يطلع عليها أحد ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليا والزبير وطلحة والمقداد ، أى وقيل عليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد ، أى ولا مانع أن يكون أرسل الكل ، وبعض الرواة اقتصر على بعضهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أدركا امرأة بمحل كذا ، قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فخرجا حتى أدركاها فى ذلك المحل الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فقالا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب ، فاستنزلاها وفتشاها والتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب ، أو لنكشفنك ، أو أضرب عنقك ، فلما رأت الجد منه قالت أعرض ، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه . وفى البخارى أخرجته من عقاصها ، ولا منافاة ، وفيه فى محل آخر أخرجته من حجزتها ، والحجزة معقد الإزار والسراويل . قال بعضهم : ولا مانع أن يكون فى ضفائرها وأنها جعلت الضفائر فى حجزتها فدفعته إليه ، وسيأتى أنها ممن أباح صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح ، ثم أسلمت وعفا عنها . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الكتاب . أى وصورة الكتاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم ، فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه . وقيل فيه : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر ، وقيل فيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آذن بالغزو ولا أراه إلا يريدكم ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم .

أقول : لامانع أن يكون جميع ما ذكر فى الكتاب ، بأن يكون فيه : إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد آذن ، أى أعلم بالغزو وقد نفر : أى عزم على أن ينفر ، فإما إليكم وإما إلى غيركم ، ولا أراه إلا يريدكم ، وهذا كان قبل أن يعلم بسيره إلى مكة ، فلما علم ألحق بالكتاب

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه ، أى يريد التوجه إليكم بجيش إلى آخره . وبعض الرواة اقتصر على ما فى بعض الكتاب والله أعلم .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال له : أتعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم ، فقال : ماحملك على هذا ؟ فقال : والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ماغيرت ولابدلت . وفى لفظ : ماكفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكنى ليس لى فى القوم أهل ولاعشيرة ، ولى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . أى وفى لفظ قال : يا رسول الله لا تعجل علىّ إنى كنت امرأ ملصقا : أى حليفا من قريش . وفى كلام بعضهم ما يفيد أن الملصق هو الذى لا نسب له ولا دخل فى حلف . قال : ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهليهم بمكة ، ولم يكن لى قرابة ، فأحببت أن أتخذ فيهم يدا أحمى بها أهلى ، أى وهى أمه .

ففى بعض الروايات : كنت غريبا فى قريش ، وأمى بين أظهرهم ، فأردت أن يحفظونى فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام ، وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغنى عنهم كتابى شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد صدقكم ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : يا رسول الله دعنى لأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، وفى لفظ قال له : قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم . وفى رواية : دعنى أضرب عنقه ، لأنه يعلم أنك يارسول الله أخذت على الطريق ، وأمرت أن لاندع أحدا يمر ممن تنكره إلا رددناه انتهى .

وأقول : مراد سيدنا عمر بقوله قد نافق ، أى خالف الأمر ، لا أنه أخفى الكفر لقوله صلى الله عليه وسلم « قد صدقكم » ورأى أن مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم مقتضية للقتل ، ولكن رواية البخارى : إنه قد صدقكم ، ولا تقولوا له إلا خيرا » وعليها يشكل قول عمر المذكور ودعاؤه عليه بقوله : قاتلك الله . إلا أن يقال : يجوز أن يكون قول عمر لذلك كان قبل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكر . وعند قول عمر رضى الله عنه : دعنى لأضرب عنقه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وفى رواية « فقد وجبت لكم الجنة » وفى رواية : « لا يدخل النار أحد شهد بدرا » فعند ذلك فاضت عينا عمر رضى الله عنه بالبكا ، أى وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا

لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) الآيات . وفى قوله «عدوى وعدوكم» منقبة عظيمة لحاطب رضى الله عنه بأن فى ذلك الشهادة له بالإيمان ، وقوله « تلقون إليهم بالمودة » أى تبدونها لهم ، وذكر بعضهم أن البلتعة فى اللغة : التظرف بالظاء المشالة ، يقال تبلتع فى كلامه : إذا تظرف فيه .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم ابن الحصين الغفارى ،وقيل ابن أم مكتوم وبه جزم الحافظ الدمياطى فى سيرته. وخرج لعشر ، وقيل لليلتين ،وقيل اثنتى عشرة ،وقيل ثلاث عشرة ،وقيل سبع عشرة ،وقيل ثمان عشرة ،وهو فى مسند الإمام أحمد بسند صحيح. قال ابن القيم : إنه أصح من قول من قال إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، أى وصدّر به فى الإمتاع ،.وقيل خرج لتسع عشرة مضين من شهر رمضان فى سنة ثمان . قال فى النور لا أعلم خلافا فى الشهر والسنة.

وما فى البخارى أن خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة كان على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمة المدينة ، أى فيكون فى السنة التاسعة فيه نظر ،وكان صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف ،أى باعتبار من لحقه فى الطريق من القبائل كبنى أسد وسليم ؛ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا ، وقيل كان صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر ألفا .

ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى الأبواء أو قريبا منها لقيه أبو سفيان ابن عمه الحارث وكان الحارث أكبر أولاد عبد المطلب ، وكان يكنى به كما تقدم ، وكان أبو سفيان أخاه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة على حليمة كما تقدم ، ولقيه عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب أخو أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها لأبيها ،لأن والدة أم سلمة عاتكة بنت جندل الطعان،وكان عند أبيها أمية بن المغيرة زوجتان أيضا كل منهما تسمى عاتكة ، فكان عنده أربع عواتك . وكان مجىء الحارث وعبد الله له صلى الله عليه وسلم يريدان الإسلام ، وكان رضى الله تعالى عنهما من أكبر القائمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أشد الناس إذاية له صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن كان الحارث قبل النبوة آلف الناس له صلى الله عليه وسلم لايفارقه كما تقدم ، وقد تقدم بعض ذكر

أذيتهما له صلى الله عليه وسلم ، فأعرض صلى الله عليه وسلم عنهما فكلمته أم سلمة رضى الله عنها فيهما : أى قالت له: لايكون ابن عمك وابن عمتك أى وصهرك أشقى الناس بك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى : يعنى أبا سفيان فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى يعنى عبد الله أخا أم سلمة فهو الذى قال لى بمكة ماقال: أى قال له : والله لاآمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك إلى آخر ماتقدم . فلما خرج الخبر إليهما ، قال أبو سفيان ومعه ابن له : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت جوعا وعطشا، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما ، ثم أذن لهما فدخلا عليه وأسلما وقبل صلى الله عليه وسلم إسلامهما .

وقيل إن عليا كرم الله وجهه قال لأبى سفيان : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه ، فقل له ماقال إخوة يوسف ليوسف (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فإنه صلى الله عليه وسلم لايرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين). وكان أبو سفيان رضى الله عنه بعد ذلك لايرفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه لأنه عاداه صلى الله عليه وسلم نحو عشرين سنة يهجوه ولم يتخلف عن قتاله .وكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يحبه ويشهد له بالجنة ، ويقول: أرجو أن يكون خلفا من حمزة رضى الله عنهما ، أى وقال له صلى الله عليه وسلم يوما « الصيد كل الصيد فى جوف الفرا » وفى رواية قال له صلى الله عليه وسلم « أنت ياأبا سفيان كما قيل : كل الصيد فى جوف الفرا » .

وفى سفره صلى الله عليه وسلم صام وصام الناس ، حتى إذا كانو بالكديد بفتح الكاف وكسر الدال المهملة الأولى : أى وهو محل بين عسفان وقديد أفطر ، أى وقيل أفطر بعسفان ، وقيل أفطر بقديد ، وقيل أفطر بكراع الغميم . ولا منافاة لتقارب الأمكنة . وقال بعضهم : لامانع أن يكون صلى الله عليه وسلم كرر الفطر فى تلك الأماكن لتتساوى الناس فى رؤية ذلك ، فأخبر كل منهم عن محل رؤيته .

قال: وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج ووصل إلى محل يقال له الصلصل قدم

أمامه الزبير بن العوام رضى الله عنه فى مائتين ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر .

أى وفى الإمتاع : لما خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة نادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ، وفى بعض الأيام صب رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسه الماء ووجهه من شدة العطش ، وفى لفظ : من شدة الحر وهو صائم .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ الكديد بلغه أن الناس شق عليهم الصيام ، أى وأنهم ينظرون فيما فعلت ، فاستوى صلى الله عليه وسلم على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء ، وقيل لبن فشرب ، ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام ، فقال : أولئك العصاة ، أى لأنهم خالفوا أمره صلى الله عليه وسلم لهم بالفطر ليقووا على مقاتلة العدو ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال للصحابة لما دنوا من عدوهم : إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم يفطر حتى انسلخ الشهر انتهى .

أى وفى قديد عقد صلى الله عليه وسلم الألوية والرايات ، ودفعها للقبائل ، ثم سار حتى نزل بمر الظهران : أى وهو الذى يقال له الآن بطن مروعشاء ، أى وقد أعمى الله الأخبار عن قريش إجابة لدعائه صلى الله عليه وسلم ، فلم يعلموا بوصوله إليهم ، أى ولم يبلغهم حرف واحد من مسيره إليهم ، فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان العباس رضى الله عنه قد خرج قبل ذلك بعياله مسلما ، أى مظهراً للإسلام مهاجرا ، فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة ، وقيل بذى الحليفة ، فرجع معه إلى مكة ، أى وأرسل أهله وثقله إلى المدينة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هجرتك ياعم آخر هجرة كما أن نبوتى آخر نبوة » قال العباس رضى الله عنه : ورقت نفسى لأهل مكة ، أى وقال : ياصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . قال العباس رضى الله عنه : فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء أى زاد بعضهم التى أهداها له دحية الكلبى ، فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة يخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة

فوالله إنى لأسير إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، أى وقد خرجا وحكيم بن حزام: أى بعد أن خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ، فلقيا بديلا فاستصحباه وخرجوا يتجسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به ؟ أى لأنهم علموا بمسيره صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا إلى أى جهة .

وفى سيرة الدمياطى : ولم يبلغ قريشا مسيره إليهم فلا ينافى ماقبله . وهم مغتمون يخافون من غزوه إياهم ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتجسس الأخبار وقالوا : إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا ، أى فلما سمعوا صهيل الخيل راعهم ذلك وأبو سفيان يقول : مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ، هذه كنيران عرفة ، وبديل يقول له : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، وحمشتها بالحاء المهملة والشين المعجمة : أى أحرقتها وقيل بالسين المهملة : أى اشتدت عليها من الحماسة وهى الشدة ، وأبو سفيان يقول : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . أى وفى رواية أن القائل هذه خزاعة غير بديل ، وأن بديلا هو القائل هؤلاء أكثر من خزاعة وهو المناسب ، لأن بديلا من خزاعة . قال العباس رضى الله عنه : فعرفت صوت أبى سفيان ، أى وكان أبو سفيان صديقا للعباس ونديمه ، قال العباس ، فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صوتى ، فقال : أبو الفضل ؟ فقلت نعم ، قال : مالك فداك أبى وأمى ؟ قلت : والله هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به ، أى وفى رواية : قد جاءكم بعشرة آلاف ، فقال : واصباح قريش والله فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتيك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، فركب خلفى ، أى ورجع صاحباه ، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا ؟ وإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ وقام إلىّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال أبو سفيان عدوّ الله، الحمد لله الذى قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فركضت البغلة فسبقته فاقتحمته عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فى أثرى ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان ، أى عدوّ الله قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه ، قال : قلت يارسول الله إنى قد أجرته . ولعل العباس

وعمر رضى الله عنهما لم يبلغهما قوله صلى الله عليه وسلم إنكم لاقون بعضهم . فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه إن صح .

قال العباس رضى الله : ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة رجل دونى ، فلما أكد عمر فى شأنه ، قلت : مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدىّ بن كعب ما قلت مثل هذا ، أى ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف ، قال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، ومابى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به يا عباس إلى رحالك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

وفى البخارى أن الحرس ظفروا بأبى سفيان ومن معه وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا .

وجمع بعضهم بأنه يجوز أن يكون العباس أخذهم من الحرس ، أى ويؤيده قول ابن عقبة رحمه الله لما دخل الحرس بأبى سفيان وصاحبيه لقيهم العباس بن عبد المطلب فأجارهم ، أى وأتى بأبى سفيان وتأخر صاحباه، قال وفى لفظ :أخذهم نفر من الأنصار بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عيونا فأخذوا بخطم أبعرتهم ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وها هو ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ، فجاءوا بهم إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه كان فى تلك الليلة على الحرس كما تقدم ، فقالوا : جئناك بنفر من أهل مكة ، فقال عمر وهو يضحك إليهم : والله لو جئتمونى بأبى سفيان ما زدتم ، فقالوا : والله أتيناك بأبى سفيان ، فقال : احبسوه ، فحبسوه حتى أصبح ، فغدوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى ، وفيه مالا يخفى ، فان الجمع بينه وبين ما قبله بعيد .

قال العباس : ولما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب به يا عباس إلى رحلك فذهبت به ، فلما أصبح غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى بعد أن نودى بالصلاة وثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال للعباس يا أبا الفضل ما يريدون ؟ قال الصلاة .

وفى رواية : ما للناس؟ أأمروا فىّ بشىء ؟ قال : لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة ورأى

المسلمين يتلقون وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رآهم يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ، فقال للعباس : يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه ، فقال له العباس : لونهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه ، فقال : ما رأيت ملكا مثل هذا لاملك كسرى ولا ملك قيصر ولا ملك بنى الأصفر ، ثم قال للعباس : كلمه فى قومك هل عنده من عفو عنهم ؟ فانطلق العباس بأبى سفيان حتى أدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى وأمى أنت ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد ، قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، أما والله هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئا .

قال : وفى رواية أن بديلا وحكيم بن حزام لم يرجعا بل جاء بهم العباس ، وأن العباس قال : يا رسول الله أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرتهم وهم يدخلون عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخلهم ، فدخلوا عليه ، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم ، أى عن أهل مكة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا أنى رسول الله ، فشهد بذلك بديل وحكيم بن حزام ، فقال أبوسفيان : ما أعلم ذلك ، والله إن فى النفس من هذا شيئا فأرجئها انتهى : أى أخرها إلى وقت آخر .

وفى أسد الغابة أنه صلى الله عليه وسلم ، قال ليلة قرب من مكة فى غزوة الفتح : إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم فى الإسلام : عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو ، أى وهذا يدل على القول بأن جبيرا أسلم يوم الفتح كمن ذكر معه . وذكر بعضهم أنه أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح .

فقال العباس رضى الله تعالى عنه لأبى سفيان ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق فأسلم .

وذكر عبد بن حميد أن النبى صلى الله عليه وسلم حين عرض الإسلام على أبى سفيان ، قال له : كيف أصنع بالعزى ؟ فسمعه عمر رضى الله تعالى عنه من وراء القبة ، فقال له : تخرأ عليها ، فقال له أبو سفيان : ويحك يا عمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى

فإياه أكلم ، وكان فى هذا تصديق أمية بن أبى الصلت ، فإنه كان يقول : كنت أرى فى كتبى أن نبيا يبعث فى حرتنا فكنت أظن بل كنت لا أشك أنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم إذ هو فى بنى عبدمناف ، فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحدا يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة فلما جاوز الأربعين سنة ولم يوح إليه علمت أنه غيره . قال أبوسفيان : فخرجت فى ركب أريد اليمن فى تجارة فمررت بأمية بن أبى الصلت فقلت له كالمستهزىء به : يا أمية قد خرج النبى الذى قد كنت تنعته ، قال إنه حق فاتبعه ، قلت ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعنى من اتباعه إلا الاستحياء من بنيات ثقيف ، إنى كنت أحدثهم أنى هو يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف ، ثم قال لأبى سفيان : كأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيكم بما يريد ، رواه الطبرانى فى معجمه .

وذكر بعضهم أن أمية هذا كان يتفرس فى بعض الأحيان فى لغات الحيوان ، فمر يوما على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو ، فقال : هذا البعير يقول إن فى رحله مسلة تصيب ظهره ، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل ، فوجدوا المسلة كما قال .

وذكر أن حكيم بن حزام قال : يا رسول الله أجئت بأوباش الناس من يعرف ومن لايعرف إلى أهلك وعشيرتك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أظلم وأفجر ، قد غدرتم بعقد الحديبية ، وتجاهرتم على بنى كعب يعنى خزاعة بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه ، فقال بديل : صدقت والله يا رسول الله ، فقد غدروا بنا ، والله لو أن قريشا خلوا بيننا وبين عدونا مانالوا منا الذى نالوا ، فقال حكيم : قد كنت يارسول الله حقيقا أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحما وأشد عداوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو أن يجمعها لى ربى فتح مكة ، وإعزاز الإسلام بها ، وهزيمة هوازن وأخذ أموالهم وذراريهم ، وقال له أبو سفيان : يارسول الله ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، من كف يده وأغلق داره فهو آمن ، قال العباس : فقلت : يا رسول الله إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن .

أى فحكيم بن حزام من مسلمة الفتح ، وكان عمره ستين سنة ، وبقى فى الإسلام مثل ذلك ، كان من أشراف قريش فى الجاهلية والإسلام ، وأعتق فى الجاهلية مائة رقبة ، وفى الإسلام مثل ذلك ، فإنه حج فى الإسلام ، وأوقف بعرفة مائة وصيف فى أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها « عتقاء الله عن حكيم بن حزام » وأهدى مائة بدنة قد جللها بالحبرة ، وأهدى ألف شاة . وعقد صلى الله عليه وسلم لأبى رويحة الذى آخى صلى الله عليه وسلم بينه وبين بلال لواء ، وأمره أن ينادى : من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن ، أى وإنما قال ذلك لما قال له أبو سفيان وما تسع دارى ، وما يسع المسجد ؟ ولما قال له صلى الله عليه وسلم ذلك قال أبو سفيان : هذه واسعة ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم العباس أن يحبس أبا سفيان وبديلا وحكيم بن حزام [ ] أى وعليه إنما خص أبوسفيان بالذكر فى بعض الروايات لشرفه قال له : احبسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها . قال العباس : ففعلت ، فمرت القبائل كلها ، كلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا عند محاذاته . قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالى ولسليم ، أى فإن أوّل القبائل مرّ سليم ، وفيها خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، ثم تمر القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفدت بالفاء والدال المهملة القبائل كلها ، ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا قلت له بنو فلان ، قال : مالى ولبنى فلان .

أى وقد ذكرها بعضهم مرتبة ، فقال : أوّل من مر خالد بن الوليد فى بنى سليم بضم السين . فقال أبوسفيان : يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا خالد بن الوليد، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، قال : ومن معه ؟ قال : بنو سليم ، قال : مالى ولبنى سليم .

ثم مر على أثره الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب ؟ فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال الزبير ، قال : ابن أخيك ؟ قال : نعم .

ثم مرت بنو غفار بكسر الغين المعجمة ، ثم أسلم ، ثم بنو كعب ، ثم مزينة ، ثم جهينة ثم كنانة ، ثم أشجع .

ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ، قال العباس : أدخل الله الإسلام قلوبهم ، فهذا فضل الله [ ] حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء للبسهم الحديد . والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق

السواد على الخضرة ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد : أى فيها ألفا دارع وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : رويدا حتى يلحق أولكم آخركم. قال: سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ فقلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، فقال أبو سفيان : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، فقلت : يا أبا سفيان إنها النبوة ، فقال : نعم إذن ، ثم قلت له : النجاء بالفتح والمد إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة أم معاوية رضى الله تعالى عنهم ، فأخذت بشاربه وقالت كلاما : معناه اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه ، قبح من طليعة قوم .

أى وفى رواية أنها أخذت بلحيته ونادت : يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ فقال لها : ويحك اسكتى وادخلى بيتك . وقال : ويحكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا قبحك الله ، وما تغنى عنا دارك؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم ابن حزام فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، أى وبهذا استدل على أن مكة فتحت صلحا لا عنوة . وبه قال إمامنا الشافعى رحمه الله . وقال غيره: فتحت عنوة .

وفى رواية : أن النبى صلى الله عليه وسلم وجه حكيم بن حزام مع أبى سفيان بعد إسلامهما إلى مكة ، وقال من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن وكانت بأسفل مكة ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن وكانت بأعلى مكة ، واستثنى صلى الله عليه وسلم جماعة أمر بقتلهم ، وهم أحد عشر رجلا ، أى وفى الإمتاع : ستة نفر ، وأربع نسوة وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن أبى سرح ، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ، وكان فارس بنى عامر ، وكان أحد النجباء الكرام من قريش رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، وعبدالله بن خطل وقينتاه ، وعكرمة ابن أبى جهل رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، والحويرث بن نفيل ، ومقيس بن حبابة ، وهبار بن الأسود رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وكعب بن زهير رضى

الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهو صاحب بانت سعاد ، والحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وهو أخو أبى جهل لأبويه ، وزهير بن أمية رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب رضى الله تعالى عنها فإنها أسلمت بعد ذلك وعاشت إلى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وتقدم أنها كانت حاملة لكتاب حاطب بن أبى بلتعه ، وصفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وزهير ابن أبى سلمى(١): أى وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، ووحشى بن حرب رضى الله تعالى عنه [ ] فانه أسلم بعد ذلك .

وفى رواية أن سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه كان معه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى على الأنصار .

ولما مر على أبى سفيان وهو واقف بمضيق الوادى ، قال أبو سفيان : من هذه ؟ قال : هؤلاء الأنصار ، عليهم سعد بن عبادة معه الراية ، فلما حاذاه سعد قال يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة : أى الحرب والقتال: اليوم أستحل الحرمة . وفى لفظ: الكعبة ، اليوم أذل الله قريشا ، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم ورأيته مع الزبير رضى الله تعالى عنه ، فلما مر بأبى سفيان وحاذاه أبو سفيان ناداه يا رسول الله أمرت بقتل قومك ، فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا ، فإنه قال : اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا، أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس بر وأرحمهم وأوصلهم، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما : يا رسول الله فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأبا سفيان كذب سعد، اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا. أى وفى رواية : اليوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم تكسى فيه الكعبة ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة : أى أرسل عليا كرم الله وجهه أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما . وقيل أعطاه للزبير ، وقيل لعلى كرم الله وجهه خشية أن يقع من ابنه قيس مالا يرضاه صلى الله عليه وسلم ، أى لأن قيسا رضى الله تعالى

---

(١) المنقول فى كتب التاريخ والسير أن زهير بن أبى سلمى مات قبل البعثة ولم يسلم إلا ولداه كعب وبجير ، فليحرر هذا الخبر، مصححه .

عنه كان من دهاة العرب وأهل الرأى والمكيدة فى الحرب مع النجدة والبسالة والشجاعة. من وقف على ما وقع بينه وبين معاوية لما ولاه سيدنا على كرم الله وجهه بعد قتل عثمان رضى الله تعالى عنه مصر لرأى العجب من وفور عقله ، ومع ذلك كان له من الكرم مالا مزيد عليه . وقفت له رضى الله تعالى عنه عجوز : وقالت له : أشكو إليك قلة الجرذان ببيتى . والجرذان بالذال المعجمة : نوع من الفيران، فقال : ماأحسن هذا السؤال! وقال لها لأكثرن الجرذان ببيتك ، فملأ بيتها طعاما وأدما . وقيل قالت له : مشت جرذان بيتى على العصى ، فقال لها : لأدعهن يثبن وثبة الأسود ، ثم ملأ بيتها طعاما ، ولا مانع من تعدد الواقعة .

ومن هذا الوادى ماكتب به بعضهم إلى عبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين أشكو إليك الشرف . فقال له : ما أحسن ما استمنحت ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : يسأل ما لا يقدر عليه ، ويعتذر فلا يعذر .

ولما أشرف أبوه سعد رضى الله تعالى عنهما على الموت قسم ماله فى أولاده ، وكان له حمل لم يشعر به ، فلما مات سعد وولدله ذلك الحمل كلمه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى أن ينقض ما صنع أبوه من تلك القسمة ، فقال : نصيبى للمولود ، ولا أغير ما صنع أبى ، ولم يكن فى وجه قيس رضى الله تعالى عنه شعر ، وكان مع ذلك جميلا ، وكانت الأنصار رضى الله تعالى عنهم تقول : وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا ، وكان له ديون على الناس كثيرة فلما مرض رضى الله تعالى عنه استبطأ عواده ، فقيل له إنهم مستحيون من أجل دينك ، فأمر مناديا ينادى : كل من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له ، فأتاه الناس حتى هدموا درجة كان يصعد عليها إليه .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما . قال : وروى أن سعداً أبى أن يسلم اللواء إلا بأمارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليه بعمامته . فدفع اللواء لابنه قيس رضى الله تعالى عنهما انتهى .

وفى صحيح البخارى أن كتيبة الأنصار جاءت مع سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه ومعه الراية ولم ير مثلها ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل. وفى رواية الحميدى وهى أجل الكتائب

بالجيم . قال فى الأصل : وهى أظهر من رواية أقل ، لأنها كانت خاصة المهاجرين ، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم والراية مع الزبير رضى الله تعالى عنه .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ، أى وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت. وقال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو رضى الله عنهم ، أى فإنهم أسلموا بعد ذلك [ ] قد جمعوا ناسا بالخندمة : وهو جبل بمكة ليقاتلوا ، وكان من جملتهم رجل كان يعدّ سلاحا ، ويصلح من شأنه ، فتقول له زوجته ، أى وقد كانت أسلمت سرا لماذا تعدّ ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه ، فتقول له : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شىء . قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم .

وفى تاريخ مكة للأزرقى قال رجل من قريش لامرأته وهى تبرى نبالا له ، وكانت أسلمت سرا ، فقالت له : لم تبرى هذا النبل ؟ قال : بلغنى أن محمدا يريد أن يفتح مكة ويغزوها ، فلئن كان لأخدمنك خادما من بعض من أستأسره ، فقالت له : والله لكأنى بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبئك فيه لو رأيت خيل محمد ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أقبل ذلك الرجل إليها ، فقال : ويحك هل من مخبأة، فقالت له : فأين الخادم ؟ فقال لها : دعى عنك ، وأنشد الأبيات الآتية ، هذا كلامه .

وسبب ذلك أن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما لقيهم بالمحل المذكور منعوه الدخول ورموه بالنبل ، وقالوا له : لا تدخلها عنوة، فصاح خالد فى أصحابه، فقتل من قتل وانهزم من لم يقتل ، وكان من جملة من انهزم ذلك الرجل .

وفى رواية أنه لما دخل بيته قال لامرأته : أغلقى علىّ بابى ، قالت : وأين ما كنت تقول؟ أين الخادم الذى كنت وعدتنى ، تسخر به ؟ فقال * إنك لو شهدت يوم الخندمة * عبارة الأزرقى :

وأنت لو أبصرتنا بالخندمه ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه

واستقبلتنا بالسيوف المسلمه ... يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضربا فلا تسمع إلا غمغمه ... لهم نهيت حولنا وهمهمه

لا تنطق فى اللوم أدنى كلمه

والغمغمة : الصوت الذى لايفهم . والنهيت بالمثناة تحت وفوق : الزحير . والهمهمة: صوت فى الصدر .

أى واستمر خالد رضى الله تعالى عنه يدفعهم إلى أن وصل الحزورة إلى باب المسجد أى وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون ، فرأى صلى الله عليه وسلم وهو على العقبة بارقة السيوف ، فقال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ فقيل له : لعل خالدا قوتل وبدئ بالقتال ، فلم يكن له بد من أن يقاتل من يقاتله ، وماكان يا رسول الله ليخالف أمرك ، فقتل من المشركين أربعة وعشرون من قريش ، وأربعة من هذيل .

وفى رواية جعل صلى الله عليه وسلم الزبير رضى الله تعالى عنه على إحدى المجنبتين : أى وهما الكتيبتان ، تأخذ إحداهما اليمين والأخرى اليسار والقلب بينهما ، وخالدا على الأخرى ، وأبا عبيدة على الرجالة .

وفى لفظ : على الحسر بضم الحاء المهملة وتشديد السين المهملة : أى الذين لا دروع لهم . قال فى شرح مسلم : فهم رجالة لا دروع عليهم ، وقد أخذوا بطن الوادى ، ولعل ذلك كان قبل الدخول إلى مكة ، فلا ينافى ما سيأتى أنه صلى الله عليه وسلم أعطى الزبير رضى الله تعالى عنه راية ، وأمره أن يغرزها بالحجون ، لا يبرح حتى يأتيه فى ذلك المحل وفى ذلك المحل بنى مسجد يقال له مسجد الراية .

وقد بوّشت قريش أبواشا : أى جمعوها من قبائل شتى ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا هريرة رضى الله تعالى عنه وقال لى : اهتف : أى صح لى بالأنصار ، فهتف بهم ، فجاءوا وطافوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم بيديه إحداهما على الأخرى : احصدوهم حصدا حتى توافونى بالصفا : أى ودخلوا من أعلى مكة . قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء وما أحد يوجه إلينا منهم شيئا . وفى لفظ : فما نشاء أن نقتل أحدا منهم إلا قتلناه : أى لا يقدر أن يدفع عن نفسه ، فجاء أبو سفيان رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش : أى لا جماعة لقريش بعد اليوم ، لأن الجماعة المجتمعة يعبر عنها بالسواد الأعظم ، فيقال السواد الأعظم ، ويعبر عنها بالخضرة كماهنا ، فالمراد جماعة قريش ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم «من أغلق بابه فهو آمن » .

قال : ووجه صلى الله عليه وسلم اللوم على خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . وقال له : لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟ قال : هم يا رسول الله بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنبل ، ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففت ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدا من أن أقاتلهم فظفرنا الله بهم فهربوا من كل وجه .

وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من الأنصار عنده : يافلان ، قال : لبيك يا رسول الله ، قال : ائت خالد بن الوليد وقل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقتل بمكة أحدا ، فجاء الأنصارى فقال : يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل من لقيت من الناس ، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلا بمكة . فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من قريش فقال : يا رسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم . قال : ولم ؟ قال : هذا خالد بن الوليد لا يلقى أحدا من الناس إلا قتله ، قال : ادع لى خالدا ، فدعاه له ، فقال : يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحدا ؟ قال : بل أرسلت أن اقتل من قدرت عليه . قال صلى الله عليه وسلم : ادع لى الأنصارى ، فدعاه له ، فقال : أما أمرتك أن تأمر خالدا أن لا يقتل أحدا ، قال : بلى ولكنك أردت أمرا وأراد الله غيره ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل للأنصارى شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كف عن الطلب ، قال : قد فعلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قضى الله أمرا ، ثم قال : كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر ، وهى الساعة التى أحلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أى وهذه المقاتلة التى وقعت لخالد رضى الله تعالى عنه لا تنافى كون مكة فتحت صلحا كما تقدم ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن » فهو من زيادة الاحتياط لهم فى الأمان .

وقوله احصدوهم حصدا محمول على من أظهر من الكفار القتال ولم يقع قتال ، ومن ثم قتل خالد رضى الله تعالى عنه من قاتل من الكفار ، وإرادة على كرم وجهه قتل الرجلين اللذين أمنتهما أخته أم هانىء كما سيأتى لعله تأول فيهما شيئا أوجرى منهما قتال له

وتأمين أم هانىء لها من تأكيد الأمان الذى وقع للعموم ، فلا حجة فى كل ما ذكر على أن مكة فتحت عنوة كما قاله الجمهور .

وقيل أعلاها فتح صلحا : أى الذى سلكه أبو هريرة والأنصار لعدم وجود المقاتلة فيه ، وأسفلها الذى سلكه خالد رضى الله عنه فتح عنوة لوجود المقاتلة فيه كما تقدم .

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة وهو راكب على ناقته القصواء : أى مردفا أسامة ابن زيد بكرة يوم الجمعة معتجرا بشقة برد حبرة حمراء ، واضعا رأسه الشريف على رحله تواضعا لله تعالى ، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى مكة وكثرة المسلمين ، ثم قال « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

وقيل دخل صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه المغفر ، وقيل وعليه عمامة سوداء حرقانية قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام ، ورايته سوداء ولواؤه أسود .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه « كان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة أبيض » وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « كان لواؤه يوم الفتح أبيض . ورايته سوداء تسمى العقاب » أى وهى التى كانت بخيبر ، وتقدم أنها كانت من برد عائشة .

وعنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح من كداء » بفتح الكاف والمد والتنوين « من أعلى مكة » وهذا هو المعروف خلافا لمن قال إنه دخل من أسفل مكة ، وهى ثنية كدى بضم الكاف والقصر والتنوين ، وسيأتى أنه عند الخروج خرج صلى الله عليه وسلم من هذه ، وبهذا استدل أئمتنا على أنه يستحب دخول مكة من الأولى ، والخروج منها من الثانية ، أى واغتسل صلى الله عليه وسلم لدخول مكة كما حكاه إمامنا الشافعى رضى الله عنه فى الأم ، وبه استدل على استحباب الغسل لداخل مكة ولو حلالا أى وسيأتى ذلك عن أم هانىء رضى الله تعالى عنها ، أى وكان شعار المهاجرين « يابنى عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يا بنى عبد الله » وشعار الأوس « يابنى عبيد الله » أى شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل ، وعند اختلاط الحرب لو وجد .

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس ، قال وذلك بالحجون : موضع ماغرز الزبير رضى الله تعالى عنه رايته صلى الله عليه وسلم عند شعب أبى طالب الذى حصرت فيه بنو هاشم ، أى وبنو المطلب قبل الهجرة ، بقبة من أدم نصبت له هناك

ومعه صلى الله عليه وسلم فيها أم سلمة وميمونة زوجتاه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهما.

فعن جابر رضى الله تعالى عنه « لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيوت مكة وقف ، فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته ، وقال : هذا منزلنا ياجابر حيث تقاسمت قريش علينا ، قال جابر رضى الله تعالى عنه: فذكرت حديثا كنت سمعته منه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بالمدينة : «منزلنا إذا فتح الله تعالى علينا مكة فى خيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر» : أى لأنّ قريشا وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى المطلب أن لايناكحوهم ، ولايبايعوهم ، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر ماتقدم فى قصة الصحيفة انتهى ، وفيه أنه سيأتى فى حجة الوداع أنهم تحالفوا بالمحصب .

فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم ، قال يوم النحر وهو بمنى « نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر » يعنى بالمحصب . وعن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما . قال « يارسول الله أين تنزل غدا ؟ أتنزل فى دارك ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل من دار ؟ » وتقدم ما يغنى عن إعادته هنا ، فكان صلى الله عليه وسلم يأتى المسجد من الحجون لكل صلاة ، وكان دخوله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الاثنين .

فقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إنه صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين ، ووضع الحجر يوم الاثنين ، وخرج من مكة : أى مهاجرا يوم الاثنين ، أى ودخل المدينة يوم الاثنين ، ونزلت عليه سورة المائدة يوم الاثنين .

ثم سار صلى الله عليه وسلم وإلى جانبه أبو بكر رضى الله تعالى عنه يحادثه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته ، أى ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه آخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن فى يده .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدّ إبليس أقدامها بالرصاص ، فجاء صلى الله عليه وسلم ومعه قضيب ، فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه » وفى لفظ «لقفاه » وفى لفظ فما أشار لصنم من ناحية وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع على وجهه من غير أن يمسه بما فى يده ، يقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) حتى مر عليها كلها » .

وفى رواية « فأقبل صلى الله عليه وسلم إلى الحجر فاستلمه ثم طاف بالبيت وفى يده قوس أخذ بسيته » والسية : ما انعطف من طرف القوس « فأتى صلى الله عليه وسلم فى طوافه على صنم إلى جنب البيت : أى من جهة بابه يعبدونه وهو هبل وكان أعظم الأصنام[ ] فجعل يطعن بها فى عينيه ، ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) أى فأمر به صلى الله عليه وسلم فكسر ، فقال الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه لأبى سفيان : قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت فى يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال أبو سفيان رضى الله تعالى عنه : دع هذا عنك ياابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد صلى الله عليه وسلم غيره لكان غير ما كان ، أى وانتهى صلى الله عليه وسلم إلى المقام وهو يؤمئذ لاصق بالكعبة» .

قال : وعن على كرم الله وجهه ، قال « انطلق بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا حتى أتى الكعبة ، فقال : اجلس ، فجلست إلى جنب الكعبة ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبى ، ثم قال : انهض فنهضت ، فلما رأى ضعفى تحته ، قال اجلس . فجلست ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ياعلى اصعد على منكبى ، ففعلت» أى وفى رواية : « أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه اصعد على منكبى واهدم الصنم ، فقال : يارسول الله ، بل اصعد أنت فإنى أكرمك أن أعلوك ، فقال : إنك لا تستطيع حمل ثقل النبوة فاصعد أنت ، فجلس النبى صلى الله عليه وسلم فصعد على كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به » قال على : فلما نهض بى ، فصعدت فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وخيل لى حين نهض بى أنى لو شئت لنلت أفق السماء أى وفى رواية : قيل لعلى كرم الله وجهه : كيف كان حالك ، وكيف وجدت نفسك حين كنت على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان من حالى أنى لوشئت أن أتناول الثريا لفعلت ، وعند صعوده كرم الله وجهه ، قال له صلى الله عليه وسلم : ألق صنمهم الأكبر وكان من نحاس ؛ أى وقيل من قوارير أى زجاج .

وفى رواية « لما ألقى الأصنام لم يبق إلا صنم خزاعة موتدا بأوتاد من الحديد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عالجه فعالجته وهو يقول : إيه إيه (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فقذفته فتكسر .

أقول : وهذا السياق يدل على أن هذا الصنم غير هبل وأن هبل ليس أكبر أصنامهم ، بل هذا أكبر منه ولم أقف على اسمه .

ومما يدل على أن الذى كسر هو هبل قول الزبير رضى الله تعالى عنه كما تقدم لأبى سفيان أن هبل الذى كنت تفتخر به يوم أحد قد كسر ، قال : دعنى ولا توبخ ، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك .

وفى الكشاف : ألقاها جميعها وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير صفر ، فقال صلى الله عليه وسلم : ياعلى ارم به ، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : مارأينا أسحر من محمد » .

وفى خصائص العشرة لصاحب الكشاف زيادة ، وهى : ونزلت من فوق الكعبة وانطلقت أنا والنبى صلى الله عليه وسلم نسعى ، وخشينا أن يرانا أحد من قريش .هذا كلامه ، وهذا يدل على أن ذلك لم يكن يوم فتح مكة فليتأمل .

وفى الكشاف أيضا : كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، لكل قوم صنم بحيالهم .
وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كانت لقبائل العرب أصنام يحجون إليها وينحرون لها ، فشكا البيت إلى ربه عز وجل ، فقال : يارب إلى متى تعبد هذه الأصنام حولى دونك؟ فأوحى الله تعالى إلى البيت : إنى سأحدث لك نوبة جديدة ، فلأملؤك خدودا سجدا يدفون إليك دفيف النسور ، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها ، لهم عجيج حولك بالبيت » هذا كلامه .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة ، أى بعد أن أرسل بلالا رضى الله تعالى عنه إلى عثمان بن أبى طلحة يأتى بمفتاح الكعبة إلى آخر ماسيأتى ، وبعد أن محيت منها الصور ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم أمر عمر رضى الله تعالى عنه وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد ترك صورة إبراهيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عمر ألم آمرك أن لا تترك فيها صورة ؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام (ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين) هذا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى ، قال الواقدى رحمه الله : أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما أن يقدما إلى البيت ، وقال لعمر : لاتدع صورة حتى تمحوها إلا صورة إبراهيم هذا كلامه ، فليتأمل.

وفى رواية ، عن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما ، قال « دخلت على صلى الله عليه وسلم فى الكعبة فرأى صورا ،فدعا بدلو من ماء فأتيته به، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمحوها » أى وتلك الصور هى صور الملائكة وصور إبراهيم وإسمعيل فى أيديهما الأزلام يستقسمان بها ، أى وإسحاق وبقية الأنبياء كما تقدم فى بنيان قريش الكعبة وصورة مريم، فقال « قاتل الله قوما يصورون مالا يخلقون ، قاتلهم الله ، لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام قط » أى ولا منافاة لأنه يجوز أن يكون عمر رضى الله تعالى عنه ترك مع صورة إبراهيم صورة إسمعيل ومريم وصورة الملائكة ، ووجد صورة حمامة من عيدان بفتح العين المهملة وكسرها بيده ثم طرحها ، ودعا بزعفران فلطخه بتلك التماثيل : أى بموضعها ، وصلى بها ركعتين بين اسطوانتين ، وفى لفظ : بين العمودين اليمانيين ، وفى لفظ : المقدمين ، وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع انتهى .

أى وفى الترمذى «دخل صلى الله عليه وسلم البيت وكبر فى نواحيه ولم يصل »وفى رواية لمسلم « دخل صلى الله عليه وسلم هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن أبى طلحة » زاد فى رواية « والفضل بن العباس » قال الحافظ ابن حجر : وفى رواية شاذة « فأغلقوا عليهم الباب » وفى لفظ آخر « فأغلقا » أى عثمان وبلال فأجاف : أى أغلق عليهم عثمان الباب » وجمع بأن عثمان هو المباشر لذلك، لأنه من وظيفته ، وبلال رضى الله تعالى عنه كان مساعدا له فى الغلق .

أى ولما دخلوا كان خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة.قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما : فلما فتحوا كنت أول من ولج ، فلقيت بلالا فسألته : هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، وذهب عنى أن أسأله كم صلى ؟وهذا يدل على أن قول بلال رضى الله تعالى عنه إنه صلى الله عليه وسلم صلى أتى بالصلاة المعهودة لا الدعاء كما ادعاه بعضهم .

وفى كلام السهيلى فى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه صلى فيها ركعتين . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال « أخبرنى أسامة بن زيد أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج ، فلما خرج ركع فى قبل البيت

ركعتين » أى بين الباب والحجر الذى هو الملتزم ، وقال : هذه القبلة ، فبلال رضى الله تعالى عنه مثبت للصلاة فى الكعبة ، وأسامة رضى الله تعالى عنه ناف ، والمثبت مقدم على النافى ، على أنه جاء أن أسامة رضى الله تعالى عنه أخبر أيضا بأنه صلى الله عليه وسلم صلى فى الكعبة .

وأجيب بأن أسامة حيث أثبت اعتمد قول بلال ، وحيث نفى اعتمد ماعنده ، أى وفى مجمع الزوائد للحافظ الهيثمى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فصلى بين الساريتين ركعتين ، ثم خرج فصلى بين الباب والحجر ركعتين ، ثم قال : هذه القبلة ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقام يدعو ولم يصلّ » فالنقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اختلف . وسبب الاختلاف تعدد دخوله صلى الله عليه وسلم ؛ ففى المرة الأولى دخل وصلى ، وفى المرة الثانية دخل ولم يصلّ ، وهذا السياق يدل على أن ذلك كان يوم الفتح .

وفى كلام بعضهم : رواية ابن عباس ورواية بلال رضى الله تعالى عنهم صحيحتان ، لأنه صلى الله عليه وسلم دخلها يوم النحر فلم يصلّ ، ودخلها من الغد فصلى ، وذلك فى حجة الوداع هذا كلامه فليتأمل . أى ثم إنه صلى الله عليه وسلم جاء إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أخره على ماتقدم ودعا صلى الله عليه وسلم بماء فشرب منه وتوضأ .

وفى لفظ «ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب» أى يغلبهم الناس على وظيفتهم وهى النزع من زمزم« لنزعت منها دلوا » أى فإن الناس يقتدون به صلى الله عليه وسلم فى ذلك مع أن النزع من وظيفته بنى عبدالمطلب ، وانتزع له العباس رضى الله تعالى عنه دلوا فشرب منه وتوضأ ، فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم .

وفى لفظ لا تسقط قطرة إلا فى يد إنسان إن كان قدر مايشربها شربها وإلا مسح بها جلده ، والمشركون يقولون : مارأينا ولا سمعنا ملكا قط بلغ هذا .

ولما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد أى والناس حوله خرج أبو بكر وجاء بأبيه رضى الله تعالى عنهما يقوده ، وقد كان كف بصره ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه ؟ وفى لفظ : لو أقررت الشيخ

فى بيته لأتيناه تكرمة لأبى بكر ، فقال أبو بكر : يارسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه ، فأجلسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : أسلم تسلم ، فأسلم رضى الله تعالى عنه ، وهنأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بإسلام أبيه رضى الله تعالى عنهما ، أى وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه ؛ يعنى أباه أبا قحافة ، وذلك أن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك كذا فى الشفاء ، وكان رأس أبى قحافة ولحيته بيضاء كالثغامة ، فقال : غيروهما ، وجنبوهما السواد . أى وفى رواية « واجتنبوا السواد » وجاء « غـــيروا الشيب ، ولا تشبهوا باليهود والنصارى » وفى رواية « اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » وجاء « إن أحسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم » وعن أنس رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خضب بالحناء والكتم » قال ابن عبد البر رحمه الله : والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم لم يخضب ، ولم يبلغ من الشيب مايخضب له . وقد اختضب أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالحناء والكتم . واختضب عمر رضى الله تعالى عنه بالحناء . وجاء « يامعشر الأنصار حمروا أو صفروا وخالفوا أهل الكتاب » وكان عثمان رضى الله تعالى عنه يصفر . وعن أنس رضى الله تعالى عنه « دخل رجل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو أبيض الرأس واللحية ، فقال ألست مؤمنا ؟ قال بلى ، قال : فاختضب » لكن قيل إنه حديث منكر . وجاء « من اختضب بالسواد سود الله وجهه يوم القيامة » قيل إنه حديث منكر . وجاء « يكون آخر الزمان رجال من أمتى يغيرون بالسواد لا ينظر الله إليهم يوم القيامة » قيل هو غريب جدا .

قال بعضهم : ولعل من خضب بالسواد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كسعد ابن أبى وقاص والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهم ، أى وعقبة بن عامر المدفون بمصر قال بعضهم : ليس بمصر قبر صحابى متفق عليه إلا قبر عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان يخضب بالسواد وهو القائل فى ذلك :

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها ... ولا خير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وكان واليا على مصر من جهة معاوية رضى الله تعالى عنه ، فعزله بمسلمة بن مخلد ، وأمره بالغزو فى البحر .

وكان عقبة رضى الله تعالى عنه يقول : ماأنصفنا معاوية ، عزلنا وغرّبنا لم يبلغهم النهى أو فهموا أن النهى للكراهة .

وقد جاء « أول من جزع من الشيب إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين رآه فى عارضه ، فقال عليه الصلاة والسلام : يارب ماهذه الشوهة التى شوهت بخليلك ؟ فأوحى الله إليه : هذا سربال الوقار ، ونور الإسلام ، وعزتى وجلالى ماألبسته أحدا من خلقى يشهد أن لاإله إلا أنا وحدى لاشريك لى إلا استحييت منه يوم القيامة ، أن أنصب له ميزانا ، وأنشر له ديوانا أو أعذبه بالنار ، فقال : يارب زدنى ، فأصبح رأسه مثل الثغامة البيضاء » وفى المشكاة قال صلى الله عليه وسلم « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السواد لايجدون رائحة الجنة» رواه أبو داود والنسائى ، أى وفى كلام ابن الجوزى رحمه الله : أول من تخضب بالسواد فرعون ، ومن أهل مكة أى من العرب عبد المطلب بن هاشم . وعن عمر رضى الله تعالى عنه « اخضبوا بالسواد ، فإنه أنكى للعدوّ وأحب للنساء » فليتأمل .

وكان لأبى بكر رضى الله تعالى عنه أخت صغيرة فى عنقها طوق من فضة اقتعله إنسان من عنقها ، فأخذ أبو بكر رضى الله تعالى عنه بيد أخته وقال : أنشدتكم بالله وبالإسلام طوق أختى ، فما أجابه أحد ، ثم قال الثانية والثالثة ، فما أجابه أحد ، فقال رضى الله تعالى عنه : ياأختاه احتسبى طوقك ، فوالله إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل . قال بعضهم : ولم يعش لأبى قحافة رضى الله تعالى عنه ولد ذكر إلا أبو بكر ، ولا يعرف له بنت إلا أم فروة التى أنكحها أبو بكر من الأشعث بن قيس ، وكانت قبله تحت تميم الدارى ، وهى هذه المذكورة هنا .

وقيل كانت له بنت أخرى تسمى عريبة . وعليه فيحتمل أن تكون هى المذكورة هنا وتقدم إسلام أبى أبى بكر رضى الله تعالى عنهما لما كان المسلمون فى دار الأرقم ، وأمه بنت عم أبيه . قال بعضهم : لم يكن أحد من الصحابة المهاجرين والأنصار أسلم هو ووالداه وجميع أبنائه وبناته غير أبى بكر . وبنوه ثلاثة : عبد الله وهو أكبرهم ، مات أول خلافة والده . وعبد الرحمن ومحمد رضى الله تعالى عنهم . ولد محمد فى حجة الوداع وهو المقتول بمصر ، وبناته ثلاثة أيضا : أسماء ، وهى أكبرهن ، وهى شقيقة عبد الله . وعائشة ، وهى شقيقة عبد الرحمن . وأم كلثوم رضى الله تعالى عنهم وعنهن .

مات أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهى ببطن أمها ، وقد أنزل الله تعالى فى حقه (رب

أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى) الآيات. قال بعضهم : لايعرف فى الصحابة أربعة أسلموا وصحبوا النبى صلى الله عليه وسلم وكل واحد أبو الذى بعده إلا فى بيت أبى بكر رضى الله تعالى عنه : أبو قحافة وابنه أبو بكر ، وابنه عبد الرحمن ، وابن عبد الرحمن محمد ، ويكنى بأبى عتيق ه

أي وقد قيل : إن قيل : هل تعرفون أربعة رأوا النبى صلى الله عليه وسلم فى نسق : أى من الذكور كلّ ابن الذى قبله ؟ أجيب بأنهم هؤلاء الأربعة : أبو قحافة، وابنه أبوبكر، وابنه عبد الرحمن ، وابن عبدالرحمن محمد ، وبقولنا من الذكور لايردّ ماأورد على ذلك أن هذا يصدق على أبى قحافة وابنه أبى بكر وبنته أسماء وابنها عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، نعم يرد على ذلك حارثة أبو زيد فإنه أسلم على ماذكره الحافظ المنذرى ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه وابنه زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد ، وجاء أسامة بولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ، أى ويحتاج إلى إثبات كونه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك المولود إلى أن يقال كان من شأنهم إذا ولد لأحدهم مولود جاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيحنكه ويسميه ، خصوصا وهذا المولود ابن حب الحب ، ولم أقف على اسم هذا المولود ، فليراجع فى أسماء الصحابة .

وحينئذ يقال لأجل عدم ورود من ذكر ليس لنا أربعة ذكور معروفة أسماؤهم ؛ وبعد الوقوف على اسم ذلك المولود يقال لأجل عدم الورود : ليس لنا أربعة ليسوا من الموالى إلا أبوقحافة وابنه أبوبكر وابن أبى بكر عبد الرحمن وابن عبدالرحمن محمد أبوعتيق فليتأمل.

لايقال : هذا موجود فى غير بيت الصديق ، فقد ذكروا فى الصحابة أربعة كذلك : أى ذكور ، كل واحد أبو الذى بعده ، عرفت أسماؤهم وليس فيهم مولى ، وهم إياس ابن سلمة بن عمرو بن لال .

لأنا نقول : المراد المتفق على صحبتهم ، وهؤلاء لم يقع الاتفاق على صحبتهم .

ومن الفوائد المستحسنة أنه ليس فى الصحابة ، قال بعضهم : بل ولا فى التابعين من اسمه عبد الرحيم ، وثلاثة ذكور أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم على نسق ، وهم السائب والد إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وأبوه عبيد ، وجده عبد يزيد .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه ، والأنصار تحته . قال بعضهم لبعض : أما

الرجل فأدركته رغبة فى قربته ورأفة بعشيرته ، فنزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم بما ذكر القوم ، فلما قضى الوحى رفع صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : يامعشر الأنصار قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قرابته ورأفة بعشيرته ، قالوا : قلنا ذلك يارسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم : فما اسمى إذن ، أى إن فعلت ذلك كيف اسمى ؟ وأوصف بأنى عبد الله ورسوله ، كلا لاأفعل ذلك إنى عبد الله ورسوله ، أى ومن كان هذا وصفه لايفعل ذلك ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم ، فأقبلوا إليه صلى الله عليه وسلم يبكون ويقولون : والله ماقلنا الذى قلنا إلا الضن : أى البخل بالله وبرسوله : أى لا نسمح أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير بلدتنا ، يعنون المدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم .

وفى رواية أن الأنصار رضى الله تعالى عنهم قالوا فيما بينهم : أترون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله أرضه وبلده يقيم بهما ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا لاشىء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال صلى الله عليه وسلم : معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

أى وتقدم له صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة نظير ذلك ، وهو أن الأنصار قالوا : يارسول الله هل عسيت إن نحن نصرناك وأظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم .

وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتل عبد الله بن أبى سرح ، لأنه كان أسلم قبل الفتح ، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما ، وإذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما ، وكان يفعل مثل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال : إن محمدا لا يعلم مايقول ، فلما ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتد وهرب إلى مكة . وقيل إنه لما كتب (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) قبل إملائه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب ذلك ، هكذا أنزلت ، فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلى ، فارتد ولحق بمكة ، فقال لقريش : إنى كنت أصرف محمدا كيف شئت كان يملى على عزيز حكيم . فأقول أو عليم حكيم ، فيقول نعم كل صواب ، وكل

ما أقوله يقول اكتب ، هكذا نزلت ، فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة ، فقال له : يا أخي استأمن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقي ، فغيبه عثمان رضي الله عنه حتى هدأ الناس واطمأنوا ، فاستأمن له ، ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فصار عثمان رضي الله عنه يقول : يا رسول الله أمنته والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ، ثم قال نعم ، فبسط يده فبايعه ، فلما خرج عثمان وعبد الله قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله : أعرضت عنه مرارا ؛ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ، وقال صلى الله عليه وسلم لعباد بن بشر وكان نذر إن رأى عبد الله قتله ، أي وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه أن يقتله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : انتظرتك أن تفي بنذرك ، قال : يارسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلىّ ، فقال « إنه ليس لنبي أن يومض » . وفي رواية «الإيماء خيانة ليس لنبي أن يومى» . وفي رواية « لاينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » أي وهذا يدل على أن خائنة الأعين الإيماء بالعيون : أي أن يومى بطرفه خلاف ما يظهره بكلامه وهو اللمز هذا .

وقيل إنه أسلم وبايع والنبي صلى الله عليه وسلم بمرّ الظهران ، وصار يستحي من مقابلته صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لعثمان : أما بايعته وأمنته ؟ قال بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحي منك ، قال « الإسلام يجبّ ما قبله » وأخبره عثمان رضي الله عنه بذلك ، ومع ذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي صلى الله عليه وسلم يجيء معهم ولا يجيء إليه منفردا .

وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خطل لأنه كان ممن أسلم : أي قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم ، وكان اسمه عبد العزى ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ الصدقة ؛ وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه . وفي لفظ : كان معه مولى يخدمه ، وكان مسلما فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا وهو نائم فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره ، وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يصنعه .

وقد قيل إنه ركب فرسه لابسا للحديد ، وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل الله دخله الرعب ، فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه

ودخل تحت أستارها فأخذ رجل سلاحه ، وركب فرسه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون ، وأخبره خبره ، فأمر بقتله .

وقيل لما طاف صلى الله عليه وسلم بالكعبة قيل هذا ابن خطل معلقا بأستار الكعبة ، فقال : « اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا ، ولاتمنع من إقامة حد واجب » أى فقتله سعد ابن حريث وأبو برزة .

وقيل قتله الزبير رضى الله عنه ، وقيل سعد بن ذؤيب ، وقيل سعد بن زيد . قال فى النور : والظاهر اشتراكهم فيه جميعا جمعا بين الأقوال .

وأمر صلى الله عليه وسلم بقتل قينتيه ، فقتلت إحداهما واستؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للأخرى فأمنها وأسلمت .

والحويرث بن نقيذ ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ويعظم القول فى أذيته ، وينشد الهجاء ، وكان العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنه حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الحامل لهما فرمى به الأرض ، قتله على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ذلك اليوم وقد خرج يريد أن يهرب .

ومقيس بن ضبابة إنما أمر بقتله ، لأنه كان قد أتى النبى صلى الله عليه وسلم مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابة رضى الله عنه ، قتله رجل من الأنصار فى غزوة ذى قرد خطأ يظنه من العدو ، ودفع له النبى صلى الله عليه وسلم دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أن أخذ دية أخيه ثم لحق بمكة مرتدا كما تقدم ، قتله ابن عمه نميلة بن عبد الله الليثى ، أى بعد أن أخبر نميلة بأن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله ، وذلك بردم بنى جمح ، وقيل قتل وهو معلق بأستار الكعبة .

وأما هبار بن الأسود رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة ، فأهوى إليها هبار ونخس بعيرها .

وفى رواية : ضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة ، أى وكانت حاملا فألقت ما فى بطنها وأهراقت الدماء ، ولم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت كما تقدم ، فقال

النبى صلى الله عليه وسلم «إن لقيتم هبارا فأحرقوه ، ثم قال : إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه فلم يوجد يوم الفتح ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه . ويذكر أنه لما أسلم وقدم المدينة مهاجرا جعلوا يسبونه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : سب من سبك فانتهوا عنه » وهذا السياق يدل على إنه أسلم قبل أن يذهب إلى المدينة .

وفى لفظ : ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاء هبار رافعا صوته وقال « يا محمد أنا جئت مقرا بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله » واعتذر إليه أى قال له صلى الله عليه وسلم بعد أن وقف عليه وقال : السلام عليك يا نبى الله لقد هربت منك فى البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك فى صفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا نبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلى وعما كان منى فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا هبار عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ما كان قبله .

وقوله مهاجرا ، فيه أنه لا هجرة بعد فتح مكة ، إلا أن يقال هى مجاز عن مجرد الانتقال عن محل إلى آخر أخذا مما يأتى إن شاء الله فى عكرمة .

وأما عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه فإنه صلى الله عليه وسلم إنما أمر بقتله لأنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس على المسلمين ، ولما بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم أهدر دمه فرّ إلى اليمن فاتبعته امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسلمت فوجدته فى ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، وقيل وجدته فى السفينة فردته ، أى بعد أن قالت له : يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس ، وأبرّ الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك ، فقد استأمنت لك ، فجاء معها فأسلم وحسن إسلامه أى بعد أن قال : يا محمد هذه يعنى زوجتى أخبرتنى أنك أمنتنى ، قال : صدقت إنك آمن ، فقال عكرمة : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وطأطأ رأسه من الحياء ، فقال له صلى الله عليه وسلم يا عكرمة ما تسألنى شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه قال : استغفر لى كل عداوة عاديتكها ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به ، أى ولما قدم عليه صلى الله عليه وسلم وثب صلى الله

عليه وسلم إليه قائما فرحا به ، أى ورمى صلى الله عليه وسلم رداءه وقال : مرحبا بمن جاء مؤمنا مهاجرا ، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة .

وفى [بهجة المجالس فى أنس الجالس] لابن عبد البر رحمه الله : أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل الجنة ، ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبى جهل فشق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم وقال : لايدخلها إلا نفس مؤمنة ، فلما جاءه عكرمة ابن أبى جهل مسلما فرح به ، وأول ذلك العذق لعكرمة . والعكرمة : الأنثى من الحمير واستدل بذلك على تأخر الرؤيا ، وأنها تكون لغير من ترى له . قال : وصار عكرمة قبل إسلامه يطلب امرأته أم حكيم يجامعها فتأبى وتقول : أنت كافر وأنا مسلمة ، والإسلام حائل بينى وبينك فقال : إن أمرا منعك عنى لأمر كبير ، أى ولما قتل عكرمة رضى الله عنه فى اليرموك فى قتال الروم وانقضت عدتها تزوجها خالد بن سعيد ، وأراد أن يدخل بها ، فجعلت تقول له : لو أخرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع يعنى الروم ، فقال خالد : إن نفسى تحدثنى أن أصاب فى جموعهم ، قالت : فدونك ، فدخل بها فى خيمته ، فما أصبح الصبح إلا والروم قد اصطفت ، فخرج خالد رضى الله عنه ، فقاتل حتى قتل ، فشدت أم حكيم عليها ثيابها ، وأخذت عمود الخيمة التى دخل بها خالد فيها ، فقتلت بها سبعة من الروم ، وقال صلى الله عليه وسلم قبل أن يقدم عليه عكرمة ابن أبى جهل رضى الله عنه « يأتيكم عكرمة مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يلحق الميت » انتهى . أى وفى رواية « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » وفى أخرى «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» وفى أخرى «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » .

وجاء أنه شكا إليه صلى الله عليه وسلم قولهم عكرمة بن أبى جهل ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات » وقد كان قبل إسلامه بارز رجلا من المسلمين فقتله ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض الأنصار : ما أضحكك يارسول الله وقد فجعنا بصاحبنا ؟ فقال : أضحكنى أنهما فى درجة واحدة فى الجنة ، ومن ثم قتل عكرمة شهيدا فى قتال الروم فى وقعة اليرموك كما مر .

وسارة رضى الله عنها ، فإنها أسلمت ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتلها ، لأنها كانت مغنية بمكة ، وكانت تغنى بهجائه صلى الله عليه وسلم ، وهى التى وجد معها كتاب

حاطب ، وقد استؤمن لها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فأمنها وأسلمت كما تقدم .

والحارث بن هشام وزهير بن أمية ، استجارا بأم هانئ بنت أبى طالب أخت على بن أبى طالب كرم الله وجهه شقيقته ولم تـكن أسلمت إذ ذاك فأراد علىّ قتلهما .

فعنها رضى الله عنها أنها قالت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إلىّ رجلان من أحمائى : أى من أقارب زوجها هبيرة بن أبى وهب مستجيران بى فأجرتهما. وذكر الأزرقى بدل زهير بن أمية عبد الله بن أبى ربيعة ، فدخل علىّ أخى على بن أبى طالب فقال والله لأقتلنهما ، أى وقال : تجيرى المشركين ، فحلت بينه وبينهما . فخرج فأغلقت عليهما بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مـكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب ، فسلمت عليه فقال : من هذه ؟ فقلت أم هانئ بنت أبى طالب ، فقال : مرحبا بأم هانئ ، وفى الرواية الأولى : فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم أقبل علىّ ، فقال : مرحبا وأهلا بأم هانئ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته الحديث ، فقال « أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت فلا نقتلهما » وفى البخارى أيضا «أنه صلى الله عليه وسلم اغتسل فى بيتها ثم صلى الضحى ثمان ركعات » أى ولما ذكر ذلك لابن عباس رضى الله عنهما قال : إنى كـنت أمر على هذه الآية (يسبحن بالعشى والإشراق) فأقول أىّ صلاة صلاة الاشراق ؟ فهذه صلاة الإشراق. وفى لفظ : ما عرفت صلاة الإشراقَ إلا الساعة ، وهذا يدل لما أفتى به والد شيخنا الرملى رحمهما الله تعالى أن صلاة الضحى صلاة الإشراق ، خلافا لما فى العباب من أنها غيرها . ويحتاج للجمع بين هذه الرواية والتى قبلها على ثبوت صحتهما ، وبهذه الواقعة قال المحاملى من أئمتنا فى كـتابه اللباب الذى هو أصل التنقيح الذى هو أصل التحرير ومن دخل مكة وأراد أن يصلى الضحى أول يوم اغتسل وصلاها كما فعله عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة . وبه ألغز فقيل: شخص يستحب له الاغتسال لصلاة الضحى فى مكان خاص .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنهما : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى سبحة الضحى قط ، وإنى لأسبحها : أى أصليها .

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى رحمه الله : ما أخبرنى أحد أنه رأى النبى صلى الله عليه

وسلم يصلى الضحى إلا أم هانئ، وهذا ينازع فيه ما يأتى أن صلاة الضحى مما اختص بوجوبها صلى الله عليه وسلم .

وأسلمت أم هانئ ذلك اليوم الذى هو يوم الفتح . أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لها « هل عندك من طعام نأكله ؟ قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحى أن أقدمها إليك ، فقال : هلمى بهن ، فكسرهن فى ماء ، وجاءت بملح فقال : هل من أدم ، فقالت ماعندى يارسول الله إلا شيء من خل ، فقال : هلميه ، فصبه على الكسر وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال : نعم الأدم الخل . يا أم هانئ لا يقفر بيت فيه خل» .

أى وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم سأل أهله الإدام فقالوا: ماعندنا إلا الخل فدعا به ، فجعل يأكل به ويقول « نعم الأدم الخل » وفى الحديث عن جابر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا « إن الله يوكل بآكل الخل ملكين يستغفران له حتى يفرغ » وجاء « نعم الأدم الخل ، اللهم بارك فى الخل ، فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يقفر بيت فيه خل »

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ذات يوم إلى بعض حجر نسائه فدخل ، ثم أذن لى فدخلت ، فقال: هل من غداء؟ فقالوا نعم ، فأتى بثلاثة أقرصة فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصا فوضعه بين يديه ، وأخذ قرصا فوضعه بين يدىّ ، ثم أخذ الثالث فكسره ، فجعل نصفه بين يديه ونصفه بين يدى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : هل من أدم ؟ فقالوا : لا إلا شيء من خل ، قال : هاتوه ، فنعم الأدم الخل » وفى رواية « فإن الخل نعم الإدام » قال جابر رضى الله تعالى عنه: فمازلت أحب الخل منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: مازلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر .

وصفوان بن أمية استأمن له عمير بن وهب ، أى قال له : يانبى الله إن صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود ، فقال صلى الله عليه وسلم : أدرك ابن عمك فهو آمن ، فقال: أعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطى صلى الله عليه وسلم لعمير عمامته التى دخل بها مكة . أى وفى لفظ : أعطاه برده ، أى بعد أن طلب منه العود ، فقال : لا أعود معك إلا أن تأتينى بعلامة أعرفها ، فقال : امكث مكانك حتى آتيك به . فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده : أى بعد أن قال له : اعزب عنى لا تكلمنى ، فقال : أى صفوان ، فداك أبى وأمى ، جئتك من عند أفضل

الناس ، وأبرّ الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : إنى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذلك ، وأكرم ، فرجع معه حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى ، قال : صدق فقال : يا رسول الله أمهلنى بالخيار شهرين ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت بالخيار أربعة أشهر ، أى ثم خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى حنين ، ولما فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمها : أى بالجعرانة رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمق شعبا ملآنا نعما وشاء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال هو لك وما فيه ، فقبض صفوان ما فى الشعب ، وقال : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبى ، فأسلم كما سيأتى .

وهند امرأة أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما فإنها أسلمت بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتلها لأنها مثلت بعمه حمزة رضى الله تعالى عنه يوم أحد ولا كت قلبه كما تقدم .

وكعب بن زهير رضى الله تعالى عنه فانه أسلم بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووحشى رضى الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ، وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه قتل عمه حمزة رضى الله تعالى عنه يوم أحد ، وكانت الصحابة أحرص شىء على قتله ، ففر إلى الطائف ، وقد قدمنا إسلامه استطرادا .

قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى يوم الفتح على الصفا يبايع الناس فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام ، أى على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

أى وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل فأخذته الرعدة فقال له صلى الله عليه وسلم « هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

أى وكان من جملة من بايعه النبى صلى الله عليه وسلم على الإسلام معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما . فعن معاوية رضى الله تعالى عنه لما كان عام الحديبية وقع الإسلام فى قلبى ، فذكرت ذلك لأمى ، فقالت : إياك أن تخالف إياك فيقطع عنك القوت ، فأسلمت وأخفيت إسلامى ، فقال لى يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامى أخوك خير منك ، هو على دينى ، فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى ، ولقيته صلى الله عليه وسلم

فرحب بي وكتبت له : أى بعدأن استشار فيه جبزيل عليه الصلاة والسلام، فقال، استكتبه فإنه أمين ، وأردفه النبي صلى الله عليه وسلم يوما خلفه، فقال : مايليني منك ؟ قلت بطني، قال : اللهم املأه حلما وعلما..

وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية « اللهم علمه الكتاب والحساب ، وقه العذاب » زاد فى رواية « ومكن له فى البلاد » .

وعن بعض الصحابة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لمعاوية يقول : اللهم اجعله هاديا مهديا واهده وأهد به ولا تعذبه .

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لمعاوية « يامعاوية أنت منى وأنا منك لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه الوسطى والتى تليها » ويذكر أنه كان عنده قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وإزاره ورداؤه وشيء من شعره ، فقال عند موته : كفنونى فى القميص ، وأدرجونى فى الرداء ، وأزرونى بالإزار ، واحشوا منخرى وشدقى من الشعر ، وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين .

وقد بشر بمعاوية رضي الله تعالى عنه بعض كهان اليمن . وسبب ذلك أن أمه هند كانت قبل أبيه أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذلك البيت يوما من الضيفان ، فاضطجع الفاكه وهند فيه فى وقت القائلة ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجته ، وأقبل رجل كان يغشاه فولج البيت ، فلما رأى المرأة التى هى هند ولى هاربا ، وأبصره الفاكه وهو خارج من البيت ، فأقبل إلى هند فضربها برجله . وقال لها : من هذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت رجلا ولا انتبهت حتى أيقظتنى ، فقال لها : الحقى بأبيك ، وتكلم فيها الناس ، فقال لها أبوها عتبة : يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئينى نبأك ، فإن كان الرجل عليك صادقا دسست إليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يك كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فحلفت له أنه لكاذب عليها ، فقال عتبة للفاكه : يا هذا إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها ، فلما شارفوا البلاد وقالوا : غدا نرد على الكاهن الفلانى ، تنكرت حالة هند وتغير وجهها ، فقال لها

أبوها : إنى قد أرى مابك من تنكر الحال ، وماذاك إلا لمكروه عندك، كان هذا قبل أن يشهد الناس مسيرنا ، قالت : لا والله ياأبتاه ماذاك لمكروه عندى ، ولـكنى أعرف أنـكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون على سبة فى العرب، قال : إنى سوف أختبره من قبل أن ينظر فى أمرك ؛ فصفر بفرس حتى أدلى ، ثم أخذ حبة من حنطة فأدخلها فى إحليله وأوكأ عليها بسير ، فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدّوا قال له عتبة : إنا قد جئناك فى أمر وإنى قد خبأت لك خباء أختبرك به، فانظر ماهو ؟ قال : ثمرة فى كمرة ، قال : أريد أبين من هـذا قال : حبة برّ فى إحليل مهر ، قال : صدقت انظر فى أمر هذه النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من هند فضرب كتفها . وقال: انهضى غير وسخاء ولازانية ، ولتلدنّ ملكا يقال له معاوية فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فنثرت يدها من يده وقالت : إليك عنى ، فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فتزوجها أبو سفيان ، فجاءت منه بمعاوية رضى الله تعالى عنهم ، وقد قال له صلى الله عليه وسلم « يامعاوية إذا ملكت فأحسن » وفى رواية « إذا ملكت من أمرأمتى شيئا فاتق الله واعدل » .

ويؤثر عنه رضى الله تعالى عنه أنه لما حضرته الوفاة قال : اللهم ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى . اللهم أقل عثرتى ، واغفر زلتى ،وعد بحلمك على من لايرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك ، ثم بكى رضى الله تعالى عنه حتى علا نحيبه .

كتب إلى عائشة رضى الله تعالى عنها : اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تـكثرى ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد،فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام » وكتبت إليه رضى الله تعالى عنها مرة أخرى : أما بعد فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا ، والسلام .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان رضى الله تعالى عنه، متنقبة متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهن : بايعننى على أن لاتشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن أى وذلك إسقاط الأجنة . زاد فى لفظ : ولا

تلحقن بأزواجكن غير أولادهم : أى ولا تقعدن مع الرجال فى خلاء : أى لاتجتمع امرأة مع رجل فى خلوة، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : البهتان أن تلحق بزوجها ولدا ليس منه أى ولا يغنى عنه الزنا ، كما أن ذلك لايغنى عن الزنا ، وقد تحبل ولا يلحقه بأحد ، ولا تعصين فى معروف . وجاء أن بعض النسوة قالت : ماهذا المعروف الذى لاينبغى لنا أن نعطيك فيه ؟ قال لاتصحن ، أى وفى لفظ : لاتنحن ، ولا تخمشن وجها ، ولا تنشرن شعرا . وفى لفظ : ولا تحلقن شعرا ، ولا تحرقن قرنا ، ولا تشققن جيبا ولا تدعين بالويل .

وجاء « هذه النوائح تجعلن يوم القيامة صفين : صفا عن اليمين ، وصفا عن اليسار ، ينبحن كما ينبح الكلب » وجاء « تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء ، عليها جلباب من لعنة ودرع من جرب ، واضعة يدها على رأسها تقول : ويلاه » وجاء « النائحة إذا لم تتب تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » . وجاء « لاتقبل الملائكة على نائحة » . وجاء « ليس للنساء فى اتباع الجنائز من أجر » .

وجاء « أن هندا قالت له صلى الله عليه وسلم : إنك لتأخذ علينا مالا تأخذه على الرجال » أى لأن الرجال كان صلى الله عليه وسلم يبايعهم على الإسلام وعلى الجهاد فقط « وإنها قالت لما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تسرقن ، والله إنى كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان حاضرا : أما ماأصبت فيما مضى فأنت منه فى حل عفا الله عنك ، أى فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف، عفا الله عنك يانبى الله ، وأنها قالت لما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تزنين أو تزنى الحرة يارسول الله ؟ ولما قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا » وفى لفظ «هل تركت لنا ولدا إلا قتلته يوم بدر » وفى لفظ « أنت قتلت آباءهم يوم بدر وتوصينا بأولادهم » وفى لفظ « ربيناهم صغارا ، وقتلتهم كبارا فضحك عمر رضى الله تعالى عنه حتى استلق ، وتبسم صلى الله عليه وسلم » وفى لفظ « فضحك صلى الله عليه وسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تأتين ببهتان تفترينه ؟ قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح » زاد فى لفظ « وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : ولا تعصينى فى معروف ، قالت : والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف » وفى

لفظ « أنها أتته منتقبة بالأبطح وقالت : إنى امرأة مؤمنة ، أشهد أن لاإله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرحبا بك » .

قال بعضهم : وفى إسلام أبى سفيان قبل هند وإسلامها قبل انقضاء عدتها ، أى لأنها أسلمت بعده بليلة واحدة ، وإقرارهما على نكاحهما حجة للشافعى رضى الله تعالى عنه . ثم أرسلت إليه صلى الله عليه وسلم بهدية وهى جديان مشويان مع مولاة لها فاستأذنت ، فأذن لها ، فدخلت عليه وهو صلى الله عليه وسلم بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب وقالت له : إن مولاتى تعتذر إليك وتقول : إن غنمها اليوم لقليل الوالدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها فكثر الله ذلك ، تقول تلك المولاة : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها مالم نكن نرى قبل . وجاءت إليه وقالت يارسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل على من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟ فقال لها : لاعليك أن تطعميهم بالمعروف » وفى لفظ « إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى مايكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لايعلم ، قال : خذى مايكفيك وولدك بالمعروف » أى وجاء « أن بعض النساء قالت : هلم نبايعك يارسول الله ، قال : لا أصافح النساء ، وإنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » وفى لفظ « قولى لألف امرأة كقولى لامرأة واحدة » وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : لم يصافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ، وإنما كان يبايعهن بالكلام .

وعن الشعبى « بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء وعلى يده ثوب ، وقيل إنه غمس يده فى إناء وأمرهن فغمسن أيديهن فيه ، فكانت هذه البيعة » قال ابن الجوزى : والقول الأول أثبت .

وقد ذكر المبايعات له صلى الله عليه وسلم لافى خصوص يوم الفتح على حروف المعجم فى كتاب التلقيح ، وتقدم عن أم عطية رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام ، فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن يبايعكن على أن لاتشركن بالله شيئا ، وقرأ إلى قوله تعالى : فى معروف فقلن

نعم ، فمدّ يده من خارج ومددن أيديهن من داخل البيت ، ثم قال : اللهم اشهد ، ولعل ذلك كان بحائل والفتنة مأمونة .

وقال صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أين ابنا أخيك ؟ يعنى أبا لهب عتبة ومعتب ؟ لاأراهما ، قال العباس رضى الله تعالى عنه : قد تنحيا فيمن تنحى من مشركى قريش ، قال ائتنى بهما ، فركبت إليهما فأتيت بهما ، فدعاهما للإسلام فأسلما ، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامهما ودعا لهما ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ، ثم انصرف والسرور يرى فى وجهه صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : سرك الله يا رسول الله ، إنى أرى السرور فى وجهك . قال : إنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى فوهبهما لى وشهدا معه حنينا والطائف . ولم يخرجا من مكة ، ولم يأتيا المدينة ، وقلعت عين معتب فى حنين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « هذا ماوعدنى ربى ، ثم قرأ (إذا جاء نصر الله والفتح) » انتهى وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية رضى الله تعالى عنه بقوله :

واستجابت له بنصر وفتح بعد ذلك الخضراء والغبراء
وتوالت للمصطفى الآية الكبـــرى عليهم والغارة الشعواء
فإذا ماتلا كتابا من الله تلتـــه كتيبة خضراء

أى أجاب دعوته صلى الله عليه وسلم الرفيع والوضيع ؛ وعن الأول كنى بالخضراء التى هى السماء . فقد جاء فى حديث سنده واه « السماء الدنيا زمردة خضراء ، وذكر أنها أشد بياضا من اللبن وخضرتها من صخرة خضراء تحت الأرض » وكنى عن الثانى بالغبراء التى هى الأرض ، وإنما كانت غبراء لأن جميع طبقاتها من طين ، مع حصول نصر له صلى الله عليه وسلم على أعاديه ، وفتح لبلادهم بعد ذلك الضعف الذى كان به صلى الله عليه وسلم وبأصحابه ، وقلتهم وكثرة عدوهم مع التصميم على أذيتهم . وتتابعت العلامات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وتوالت له عليهم الإغارة المحيطة بهم من سائر الجوانب .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه دعا عثمان بن طلحة رضى الله تعالى عنه ، فإنه كان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو ابن العاصى قبل الفتح وأسلموا كما تقدم ، واستمر فى المدينة إلى أن جاء معه صلى الله عليه وسلم

إلى فتح مكة ، وبه يردّ ماروى أنه صلى الله عليه وسلم بعث عليا كرم الله وجهه إلى عثمان بن طلحة لأخذ المفتاح فأبى أن يدفعه له وقال: لو علمت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أمنعه منه ، ولوى علىّ كرم الله وجهه يده وأخذ المفتاح منه قهرا وفتح الباب وأنه لما نزل قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) أمره صلى الله عليه وسلم أن يدفع له المفتاح متلطفا به ، فجاءه على كرم الله وجهه بالمفتاح متلطفا به ، فقال له : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال على كرم الله وجهه : لأن الله أمرنا برده عليك فأسلم .

ثم لما دعا صلى الله عليه وسلم عثمان وجاء إليه أخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، ثم وقف صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم خطبة بين فيها جملة من الأحكام . منها « أن لا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على المدعى واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر ولا بعض الصبح ، ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر ، ثم قال : يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) الآية . ثم قال : يا معشر قريش ما ترون؟ » وفى لفظ « ماذا تقولون ؟ ماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم . وابن أخ كريم ، وقد قدرت » أى وفى لفظ « لما خرج صلى الله عليه وسلم من الكعبة يوم الفتح وضع يده على عضادتى الباب ثم قال : ماذا تقولون؟ ماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، فقال سهيل بن عمرو : نقول خيرا ونظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال: أقول كما قال أخى يوسف (لا تثريب عليكم اليوم) » وفى لفظ « فإنى أقول كما قال أخى يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) اذهبوا فأنتم الطلقاء » أى الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا . والطليق فى الأصل ، الأسير إذا أطلق ؟ فخرجوا فكأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام .

قال: وذكر أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه أرسل بلالا رضى الله تعالى عنه

إلى عثمان بن طلحة يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأخبره ، فقال إنه عند أمى ، فرجع بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسولا ، فقالت : لا واللات والعزى لا أدفعه أبدا ، فقال عثمان : يارسول الله أرسلنى أخلصه لك منها ، فأرسله ، فجاء إليها فطلبه منها ، فقالت : لا واللات والعزى لا أوصله إليك أبدا ، فقال : يا أمه ادفعيه إلىّ فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى ويأخذه منك غيرى ، فأدخلته حجرتها وقالت : أى رجل يدخل يده ههنا ، أى وقالت له : أنشدك الله أن لا يكون ذهاب مأثرة قومك على يديك ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم ينتظر حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ؛ فبينما هو يكلمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى الدار ، وعمر رضى الله عنه رافعا صوته وهو يقول : ياعثمان اخرج ، فقالت : يابنى خذ المفتاح ، فإن تأخذه أحب إلىّ من أن تأخذه تيم وعدى : أى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فأخذه عثمان ، فخرج يمشى حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عثر عثمان فسقط منه المفتاح ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المفتاح فحنى عليه وتناوله ، أى وفى رواية : فاستقبلته ببشر ، واستقبلنى ببشر فأخذه منى وفتح الكعبة . وفى رواية أنه قال له : هاك المفتاح بأمانة الله . وفى لفظ : لما أبت أمه أن تعطيه المفتاح ، قال : والله لتعطينه أو لأخرجن هذا السيف من منكبى ، فلما رأت ذلك أعطته إياه ، فجاء به ففتح عثمان له الباب .

ويحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها ، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى بعض هذه القصة بقوله :

صرعت قومه حبائل بغى	مدها المكر منهم والدهاء
فأتتهم خيل إلى الحرب تختا	ل وللخيل فى الوغى خيلاء
قصدت منهم القنا فقوافى الطعـ	ـن منها ما شأنها الايطاء
وأثارت بأرض مكة نقعا	ظن أن الغدو منها عشاء
أحجمت عنده الحجون وأكدى	دون إعطائه القليل كداء
ودهت أوجها بها وبيوتا	ملّ منها الإقواء والإكفاء
فدعوا أحلم البرية والعفـ	ـو جواب الحليم والإغضاء
ناشدوه القربى التى من قريش	قطعتها الترات والشحناء

فعفا عفو قادر لم ينغصـــه عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصـــل لله تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما أتاه من سواه الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفـ ـس لدامت قطيعة وجفاء
قام لله فى الأمور فأرضى الله عنه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل ينـ ـضح إلا بما حواه الإناء

أى ألقت قومه الذين لم يؤمنوا به بين يديه حبائل بغيهم التى مدها المكر والدهاء حالة كون ذلك منهم ، فبسبب مكرهم أتتهم من قبله خيل تتبختر بها راكبوها إلى الحرب والخيل عليها الشجعان كبر وترفع فى الحرب ، قصدت فى أبدانهم الرماح ، فبسبب قصدها بهم كانت الطعنات المشبهة بالقوافى فى تتابعها حالة كون ذلك الطعن من تلك الرماح ، ماعابها الإيطاء : أى لم يعدم وجوده فيها . والإيطاء فى القافية : تكريرها متحدة اللفظ والمعنى وهو معيب على الشاعر ، لأنه يدل على قصوره . والطعنات المتوالية فى محل واحد تدل على قصر ساعد الشجاع . ورفعت تلك الخيل غبارا أظلم الجو حتى ظن أن وقت الغدو من تلك الغبرة وقت العشاء ، وذلك بأرض مكة عند فتحها ، أمسكت عند ذلك الغبار لكثرته الحجون، وهو كداء بالفتح والمد : أعلى مكة لكثرة ما أعطاه صلى الله عليه وسلم الناس ، وأعطى النبى صلى الله عليه وسلم القليل من الناس كداء بالضم والمد : وهو أسفل مكة ، وهذه لغة فيه قليلة ، وعند ذلك قلّ غباره ، وأهلكت تلك الخيول أوجها من الناس بمكة ممن أباح دمه ومن قاتل، وأهلكت بيوتا كان أهل مكة يرجعون إليها . ملّ من تلك البيوت : خلوّها عن أنس بها والرجوع إليها ، وعند ذلك طلبوا منه العفو عما مضى منهم ، وجواب الحليم لمن سأله العفو عنه العفو . وإرخاء الجفون من الحياء ، وحلفوه بالقربى التى وصلت إليه من بطون قريش ، وهم ولد النضر بن كنانة التى قطعتها المقاتلة والتباغض والتحاسد ، فبسبب ذلك عفا صلى الله عليه وسلم عفو قادر ، لم يكدر ذلك العفو عنهم إغراء سفهائهم به حالة كون ذلك الإغراء منهم فيما مضى ، وإذا كان القطع والوصل لله تساوى عند فاعل ذلك التقريب للأقارب والبعداء والإبعاد للأقارب والبعداء ، والذى تقريبه وإبعاده لله لا لغيره يستوى عنده سبه والمبالغة فى مدحه إذا أتاه ذلك من غيره ، ومن ثم لو كان انتقامه لهوى النفس الأمارة بالسوء لاستمرت قطيعة الرحم ودام إبعاده لها. كيف

وقد قام لله فى أموره كلها ، فبسبب ذلك أرضى الله تباين منه صلى الله عليه وسلم لأعدائه ووفاء لأوليائه ؛ فعله صلى الله عليه وسلم كله جميل . ولا بدع فى ذلك ، إذ مايسيل مما فى الإناء على ظاهره إلا ما كان فى تلك الإناء ، فمن امتلأ قلبه خيرا كانت أفعاله كلها خيرا ، ومن امتلأ قلبه شرا كانت أفعاله كلها شرا .

ثم جلس صلى الله عليه وسلم فى المسجد ومفتاح الكعبة فى يده فى كمه ، فقام إليه على كرم الله وجهه ، فقال : يارسول الله اجمع لنا . وفى لفظ : اجمع لى الحجابة مع السقاية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أعطيكم ماتبذلون فيه أموالكم للناس : أى وهو السقاية ، لاما تأخذون فيه من الناس أموالهم ، وهى الحجابة لشرفكم وعلو مقامكم .

وفى رواية : أن العباس رضى الله عنه تطاول يومئذ لأخذ المفتاح فى رجال من بنى هاشم أى منهم على كرم الله وجهه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء .

وقيل نزلت هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فى شأن عثمان ابن طلحة رضى الله عنه ، ودفع المفتاح له : أى لما أخذه علىّ كرم الله وجهه ، وقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلى : أكرهت وآذيت ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقد أنزل الله فى شأنك : أى أنزل الله عليه ذلك فى جوف الكعبة ، وقرأ عليه الآية ، ففعل علىّ كرم الله وجهه ذلك .

وسياق هذه الرواية يدل على أن عليا كرم الله وجهه أخذ المفتاح على أن لايرده لعثمان ، فلما نزلت الآية أمره صلى الله عليه وسلم أن يرد المفتاح لعثمان .

والسقاية كما تقدم كانت أحواضا من أدم يوضع فيها الماء العذب لسقاية الحاج ، ويطرح فيها التمر والزبيب فى بعض الأوقات .

وفى كلام الأزرقى : كان لزمزم حوضان : حوض بينها وبين الركن يشرب منه ، وحوض من ورائه للوضوء ، أى ولعل هذا كان بعد الفتح .

والسقاية قام بها العباس رضى الله عنه بعد موت أبيه عبد المطلب ، وقام بها بعده ولده عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . وقد تكلم فيها محمد بن الحنفية مع ابن عباس ، فقال له ابن عباس : مالك ولها ؟ نحن أولى بها فى الجاهلية والإسلام ، قام بها العباس بعد موت

أبيه عبد المطلب ، وأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس يوم الفتح ، واستمر المفتاح مع عثمان رضى الله عنه إلى أن أشرف على الموت ولم يعقب ، دفعه إلى أخيه شيبة ، ومن ثم عرفت ذريته بالشيبيين ، أى وفى رواية « دفع صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة إلى عثمان وإلى شيبة ابن عمه ، وقال : خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

أى وكون شيبة ابن عم عثمان هو الموافق لقول الحافظ ابن حجر : الشيبيون نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . فأبوطلحة له ولدان عثمان وطلحة ، أتى عثمان بشيبة ، وأتى طلحة بعثمان .

وفى كلام ابن الجوزى ما يوافقه ، وهو أن عثمان لما هاجر إلى المدينة وأسلم سنة ثمان لم يزل مقيما بالمدينة حتى خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة . أى وقد تقدم « ثم رجع إلى المدينة ، ولم يزل مقيما بها حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى مكة واستمر مقيما بها حتى مات بها فى أول خلافة معاوية رضى الله عنه ، فلم يزل عثمان رضى الله عنه يلى فتح البيت إلى أن أشرف على الموت دفع المفتاح إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عمه ، فبقيت الحجابة فى ولد شيبة ، وكان عثمان بن طلحة هذا خياطا وهى صناعة نبى الله إدريس عليه الصلاة والسلام .

وفى رواية «أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا عثمان بن طلحة ، وقال له: أرنى المفتاح ، فأتاه به ، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال : يا رسول الله اجعله لى مع السقاية فكف عثمان يده ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرنى المفتاح ، فبسط يده يعطيه ، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتنى المفتاح ، فقال : هاك بأمانة الله » ولعل هذا كان قبل دخوله صلى الله عليه وسلم الكعبة ، فيكون طلب العباس رضى الله عنه أن يكون المفتاح له تكرر قبل دخوله الكعبة وبعده . وفى رواية « أنه قال له ائتنى بالمفتاح ، قال : فأتيته به ، فأخذه ثم دفعه إلىّ وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

وفى لفظ غيره « إن الله رضى لكم بها فى الجاهلية والإسلام ، إنى لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم لا ينزعها منكم إلا ظالم » وفى رواية « لا يظلمكموها إلا كافر »

ولا مانع أن يكون ذلك بعد أن دفعه على كرم الله وجهه له بأمره صلى الله عليه وسلم، وكأنه صلى الله عليه وسلم أحب أن يؤدى الأمانة بيده الشريفة من غير واسطة . وقال له « ياعثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف ، فقال عثمان رضى الله عنه : فلما وليت نادانى ، فرجعت إليه ، فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟ قال رضى الله عنه : فذكرت قوله صلى الله عليه وسلم لى بمكة قبل الهجرة » .

وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يدخل الكعبة مع الناس وكنا نفتحها فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فلما أقبل ليدخلها أغلظت عليه ونلت منه وحلم علىّ . ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت ، فقلت : قد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال صلى الله عليه وسلم : بل عمرت وعزت يومئذ ، فوقعت كلمته صلى الله عليه وسلم منى موقعا وظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال صلى الله عليه وسلم . قال : فلما قال لى يوم الفتح ذلك ، قلت : بلى أشهد أنك رسول الله .

وفى رواية «أنه صلى الله عليه وسلم دخل يومئذ الكعبة ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن: أى للظهر على ظهر الكعبة وأبو سفيان وعتاب بن أسيد . وفى لفظ : خالد بن أسيد والحارث ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد أى أو خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون يسمع هذا العبد فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته . أى وفى رواية أنه قال ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا، ولا مانع من وجود الأمرين منه ، أى وتقدم فى عمرة القضاء وقوع مثل ذلك من جماعة لما أذن بلال رضى الله عنه على ظهر الكعبة أيضا ، أى وقال غير هؤلاء من كفار قريش لقد أكرم الله فلانا يعنى أباه إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة . وفى لفظ: والله ،الحدث العظيم أن يصبح عبد بنى جمح ينهق على بيته. فقال أبوسفيان : لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم . لقد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال أما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا؛ فقال أبو سفيان ؟ أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك .

وجاء « أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج على أبى سفيان وهو فى المسجد ، فلما نظر

إليه أبو سفيان قال فى نفسه ليت شعرى بأىّ شىء غلبنى ؟ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه حتى ضرب يده بين كتفيه، فقال : بالله غلبتك يا أبا سفيان : فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله، وصار بعض قريش يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظا، وكان من جملتهم أبو محذورة رضى الله عنه ، وكان من أحسنهم صوتا ، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئا سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصيته وصدره بيده الشريفة ، قال : فامتلأ قلبى والله إيمانا ويقينا ، فعلمت أنه رسول الله ، فألقى عليه صلى الله عليه وسلم الأذان وعلمه إياه ، وأمره أن يؤذن لأهل مكة ، وكان سنه ست عشرة سنة وعقبه بعده يتوارثون الأذان بمكة، وتقدم أن أذان أبى محذورة وتعليمه صلى الله عليه وسلم الأذان كان مرجعه من حنين ، وتقدم طلب تأمل الجمع بينهما .

وفى تاريخ الأزرقى : أن جويرية بنت أبى جهل قالت عند أذان بلال على ظهر الكعبة : والله لا نحب من قتل الأحبة ، ولقد جاء لأبى الذى جاء لمحمد من النبوة فردها ، ولم يرد خلاف قومه .

وعن الحارث ابن هشام قال : « لما أجارتنى أم هانىء ، وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم جوارها فصار لا أحد يتعرض لى ، وكنت أخشى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمر علىّ وأنا جالس ، فلم يتعرض لى ، وكنت أستحى أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذكر برؤيته إياى فى كل موطن مع المشركين ، فلقيته وهو داخل المسجد ، فلقينى بالبشر ، فوقف حتى جئته فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق ، فقال : الحمد لله الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام » .

وجاءه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح السائب بن عبد الله المخزومى ، أى وقيل عبد الله ابن السائب بن أبى السائب ، وقيل السائب بن عويمر ، وقيل قيس بن السائب بن عويمر . قال فى الاستيعاب : وهذا أصح ما قيل فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وكان شريكا له صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، فقال فأخذ عثمان وغيره يثنون علىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم لهم لا تعلمونى به ، كان صاحبى . وفى لفظ : لما أقبلت عليه قال : مرحبا بأخى وشريكى . كان لا يدارى ، ولا يمارى، قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تتقبل منك : أى لتوقف صحتها على الإسلام، وهى الأعمال المتوقفة على النية التى شرطها الإسلام وهى اليوم تتقبل منك ، أى لوجود الإسلام .

وأرسل سهيل بن عمرو رضى الله تعالى عنه ولده عبد الله ليأخذ له أمانا منه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله أبى تؤمّنه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم هو آمن بالله فليظهر ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : «من لقى سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر ، فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الإسلام » فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سهيل : كان والله برا صغيرا برا كبيرا ، فكان سهيل رضى الله تعالى عنه يقبل ويدبر ،وخرج إلى حنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة .

وذكر أن فضالة بن عمير بن الملوح حدّث نفسه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، قال : فلما دنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال يا فضالة ، قال فضالة : نعم يارسول الله، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال : لاشئ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أستغفر الله ، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة رضى الله تعالى عنه يقول : والله مارفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلىّ منه .

قال : ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بعد الظهر مسندا ظهره الشريف إلى الكعبة . وقيل كان على راحلته ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيها الناس إن الله تعالى قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجرة ، ولم تحل لأحد كان قبلى ، ولم تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة » أى من صبيحة يوم الفتح إلى العصر غضبا على أهلها « ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحلها لكم » .

وقد جاء فى صحيح مسلم « لا يحل أن يحمل السلاح بمكة ، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله، ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذى قتلته

خزاعة » وهو ابن الأقرع الهذلى من بنى بكر فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة فأحاطوا به ، فطعنه منهم خراش بمشقص فى بطنه حتى قتله ، فلامه صلى الله عليه سلم وقال «لو كنت قاتلا مسلما بكافر لقتلت خراشا » أى والمشقص ماطال من النصال وعرض. قال ابن هشام : وبلغنى أنه أول قتيل وداه النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه أنه تقدم فى خيبر أنه ودى قتيلا . وقال صلى الله عليه وسلم يوم الفتح « لا نغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » قال العلماء : أى على الكفر : أى لا يقاتلوا على أن يسلموا ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره » .

ولما أسلمت هند رضى الله تعالى عنها عمدت إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول : كنا منك فى غرور .

ثم بعث صلى الله عليه سلم السرايا إلى كسر الأصنام التى حول مكة ، أى لأنهم كانوا اتخذوا مع الكعبة أصناما جعلوا لها بيوتا يعظمونها كتعظيم الكعبة ، وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فكان فى كل حى صنم ؛ من ذلك كما تقدم : العزى ، وسواع ، ومناة ، وسيأتى الكلام على ذلك فى السرايا إن شاء الله تعالى .

أى وفى هذا العام الذى هو عام الفتح كانت غزوة أوطاس ، وأوطاس : هى هوازن . وحلل صلى الله عليه وسلم المتعة ثم بعد ثلاثة أيام حرمها . فى صحيح مسلم عن بعض الصحابة « لما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المتعة خرجت أنا ورجل إلى امرأة من بنى عامر كأنها بكرة غيطاء » وفى لفظ « مثل البكرة الغطنطية ، فعرضنا عليها أنفسنا . فقلنا لها : هل لك أن يستمتع منك أحدنا ؟ فقالت : ماتدفعان ؟ قلنا بردينا » وفى لفظ « رداءينا ، فجعلت تنظر فترانى أجمل من صاحبى وترى برد صاحبى أحسن من بردى ، فإذا نظرت إلىّ أعجبتها ، وإذا نظرت إلى برد صاحبى أعجبها ، فقالت : أنت وبردك تكفينى فكنت معها ثلاثا » .

والحاصل أن نكاح المتعة كان مباحا ، ثم نسخ يوم خيبر ، ثم أبيح يوم الفتح ، ثم نسخ فى أيام الفتح ، واستمر تحريمه إلى يوم القيامة . وكان فيه خلاف فى الصدر الأول ثم ارتفع ، وأجمعوا على تحريمه وعدم جوازه .

قال بعض الصحابة « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما بين الركن والباب وهو يقول : أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع ، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا» أى لكن فى مسلم عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال «استمتعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر» . وفى رواية عنه : حتى نهى عنه عمر رضى الله تعالى عنه: وقد تقدم فى غزاة خيبر عن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : لا أعلم شيئا حرم ثم أبيح ثم حرم إلا المتعة ، وهو يدل على أن إباحتها عام الفتح كانت بعد تحريمها بخيبر ثم حرمت به ، وهذا يعارض ماتقدم أن الصحيح أنها حرمت فى حجة الوداع . إلا أن يقال : يجوز أن تحريمها فى حجة الوداع تأكيدا لتحريمها عام الفتح ، فلا يلزم أن تكون أبيحت بعد تحريمها أكثر من مرة كما يدل عليه كلام إمامنا الشافعى ، لكن يخالفه ما فى مسلم عن بعض الصحابة « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس فى المتعة ثلاثا ثم نهى عنها » .

وقد يقال : مراد هذا القائل بعام أوطاس عام الفتح ، لأن غزاة أوطاس كانت فى عام الفتح كما تقدم ، وماتقدم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من جوازها رجع عنه . فقد قال بعضهم : والله ما فارق ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الدنيا حتى رجع إلى قول الصحابة فى تحريم المتعة: ونقل عنه رضى الله تعالى عنه أنه قام خطيبا يوم عرفة فقال : أيها الناس إن المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير .

والحاصل أن المتعة من الأمور الثلاثة التى نسخت مرتين . الثانى لحوم الحمر الأهلية : الثالث القبلة كذا فى [حياة الحيوان] .

قال : واستقرض صلى الله عليه وسلم من ثلاثة نفر من قريش : أخذ من صفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه خمسين ألف درهم . ومن عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم. ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فرقها صلى الله عليه وسلم فى أصحابه من أهل الضعف ثم وفاها مما غنمه من هوازن وقال « إنما جزاء السلف الحمد والأداء » اه .

أى « وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة أى بعد فتحها تسعة عشر ، وقيل ثمانية عشر يوما » واعتمده البخارى «يقصر الصلاة فى مدة إقامته» . وبهذا الثانى قال أئمتنا إن من أقام بمحل لحاجة يتوقعها كل وقت قصر ثمانية عشر يوما غير يومى الدخول والخروج ، ولعل

سبب إقامته المدة المذكورة أنه كان يترجى حصول المال الذى فرقه فى أهل الضعف من أصحابه ، فلما لم يتم له ذلك خرج من مكة إلى حنين لحرب هوازن .

وجاء إليه صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص ؛ وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد : يارسول الله هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص ، عهد إلىّ أنه ابنه : أى قال إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه منى فاقبضه إليك ، فقال عبد بن زمعة : يارسول الله هذا أخى ابن وليدة أبى زمعة ولدته على فراشه : أى مع كونها فراشا له ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبى وقاص ، فقال لعبد بن زمعة : هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقال لزوجته سودة بنت زمعة «احتجبى منه ياسودة» لما رأى عليه من شبه عتبة أى فخشى أن يكون ابن خاله فأمرها بالاحتجاب ندبا واحتياطا ، فلم يرها حتى لقى الله . وفى بعض الروايات « احتجبى منه يا سودة فليس لك بأخ » .

وسرقت امرأة فأراد صلى الله عليه وسلم قطعها ففزع قومها إلى أسامة بن زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنهم يستشفعون به ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه صلى الله عليه وسلم وقال : « أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لى يارسول الله ، ثم قام صلى الله عليه وسلم خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها » . وفى كلام بعضهم : كانت العرب فى الجاهلية يقطعون يد السارق اليمنى .

وولى صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضىَ الله تعالى عنه وعمره إحدى وعشرون سنة أمر مكة ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يصلى بالناس ، وهو أول أمير صلى بمكة بعد الفتح جماعة ، وترك صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه بمكة معه معلما للناس السنن والفقه .

فى الكشاف ، وعنه صلى الله عليه وسلم « أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، أى وقال ذلك ثلاثا » فكان رضى الله عنه شديدا

على المريب لينا على المؤمن ، وقال : والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يارسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيا جافيا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فأعز الله به الإسلام فنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم» هذا .

وفى تاريخ الأزرقى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لقد رأيت أسيدا فى الجنة وأنى أى كيف يدخل أسيد الجنة فعرض له عتاب بن أسيد ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا الذى رأيت ، ادعوه لى ، فدعى له . فاستعمله يومئذ على مكة ، ثم قال : يا عتاب أتدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيرا يقولها ثلاثا » .

فإن قيل : كيف يقول صلى الله عليه وسلم عن أسيد إنه رآه فى الجنة ثم يقول عن ولد أسيد إنه الذى رآه فى الجنة ، قلنا لعل عتابا كان شديد الشبه بأبيه ، فظن صلى الله عليه وسلم عتابا أباه ، فلما رآه عرف أنه عتاب لا أسيد .

وفى كلام سبط ابن الجوزى : عتاب بن أسيد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لما خرج إلى حنين وعمره ثمانى عشرة سنة . وفى كلام غيره ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم إنما استخلف عتاب بن أسيد وترك معه معاذ بن جبل بعد عوده من الطائف وعمرته من الجعرانة ، إلا أن يقال : لا مخالفة ، ومراده باستخلافه إبقاؤه على ذلك ، وينبغى أن يكون ماتقدم عن الكشاف من قول أهل مكة له صلى الله وسلم «لقد استخلفت على أهل الله عتاب بن أسيد» إلى آخره بعد إبقائه على استخلافه لما لا يخفى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أن أسيدا والد عتاب واليا على مكة مسلما فمات على الكفر ، فكانت الرؤيا لولده ، كما تقدم مثل ذلك فى أبى جهل وولده عكرمة رضى الله تعالى عنه .

ولما ولاه صلى الله عليه وسلم على مكة جعل له فى كل يوم درهما ، فكان رضى الله تعالى عنه يقول : لا أشبع الله بطنا جاع على درهم فى كل يوم .

ويروى أنه قام فخطب الناس ، فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم : أى له درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم درهما فى كل يوم ، فليست لى حاجة إلى أحد .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عتاب بن أسيد على مكة ، وفرض له عمالته أربعين أوقية من فضة» ولعل الدرهم كل يوم يحرز القدر المذكور : أى أربعين أوقية فى السنة فلا مخالفة .

وفى السنن الكبرى للبيهقى : وولد عتاب هذا عبد الرحمن الذى قطعت يده يوم الجمل واحتملها النسر وألقاها بمكة ، وقيل بالمدينة . كان يقال له يعسوب قريش .

غزوة حنين

اسم موضع قريب من الطائف . وفى كلام بعضهم : إلى جنب ذى المجاز ، وهو سوق الجاهلية ، وتقدم ذكره . وفى كلام بعض آخر : اسم لما بين مكة والطائف ، ويقال لها غزوة هوازن ، ويقال لها غزوة أوطاس باسم الموضع الذى كانت به الوقعة فى آخر الأمر.

أى وسببها أنه لما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة أطاعت له قبائل العرب إلا هوازن وثقيفا ، فإن أهلهما كانوا طغاة عتاة مردة .

قال قال أئمة المغازى : لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض ، فأشفقوا : أى خافوا أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد فرغ لنا ، فلاناهية : أى لا مانع له دوننا ، والرأى أن يغزونا ، فحشدوا وبغوا وقالوا : والله إن محمدا لاقى قوما لا يحسنون القتال ، فأجمعت هوازن أمرها اه أى جمعوا ، وكان جماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصيرى : أى بالصاد المهملة رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضعا فيهم وحضر معهم دريد بن الصمة ، وكان شجاعا مجرّبا لكنه كبر أى لأنه بلغ مائة وعشرين سنة ، وقيل مائة وخمسين ، وقيل مائة وسبعين : أى وقيل قارب المائتين قاله ابن الجوزى ، وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب : أى لأنه كان صاحب رأى وتدبير ومعرفة بالحروب ، وكان قائد ثقيف ورئيسهم كنانة بن عبد ياليل رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ، وقيل قارب بن الأسود وكان سن مالك بن عوف إذ ذاك ثلاثين سنة ، فأمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم وأبنائهم معهم ، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم

دريد بن الصمة ، فقال دريد للناس : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم محل الخيل . وفى لفظ : مجال الخيل بالجيم لا حزن ضرس . والحزن : بفتح الحاء المهملة وإسكان الزاى وبالنون : ماغلظ من الأرض. والضرس : بكسر الضاد المعجمة وإسكان الراء وبالسين المهملة : ما صلب من الأرض ،ولا سهل دهس . والسهل : ضدّ الحزن . والدهس بفتح الدال المهملة والهاء وبالسين المهملة : اللين كثير التراب ، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير بضم النون : أى صوتها ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء . واليعار بضم المثناة تحت وبالعين المهملة المخففة والراء : صوت الشاء : أى وخوار البقر أى صوتها ، قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال ابن مالك : أى وكان توافق معه على أن لا يخالفه ، فإنه قال له إنك تقاتل رجلا كريما قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ،وأجلى يهود الحجاز ، أى غالبهم ، إما قتلا ، وإماخروجا عن ذل وصغار ، فقال له : لا تخالفنك فى أمر تراه ، فقيل له : هذا مالك ، فقال : يا مالك أما إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ، وخوار البقر ؟ قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فأنقض به . قال أبو ذر : أى زجره كما تزجر الدابة ، وهو أن يلصق اللسان بالحنك الأعلى ويصوت به ، وهو معنى قول الأصل : أى صوّت بلسانه فى فيه ، ثم قال له : راعى . وفى لفظ : رويعى ضأن ، والله ماله وللحرب ، ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال : هل يردّ المنهزم شىء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد ، قال : غاب الحد والجد ، الأول بفتح الحاء المهملة والثانى بالمعجمة مكسورة ضد الهزل ، وبفتحها الحظ ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا ، ثم أشار عليه بأمور لم يقبلها مالك منه وقال : والله لا أطيعك ، إنك قد كبرت وضعف رأيك ، فقال دريد لهوازن : قد شرط يعنى مالكا أن لا يخالفنى فقد خالفنى ، فأنا أرجع إلى أهلى فمنعوه ، وقال مالك : والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا : أطعناك : أى ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفا ، ثم جعلوا الإبل صفوفا والبقر والغنم وراء ذلك لئلا يفروا . وفى لفظ :

صفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ، ثم صفت النساء على الإبل ، ثم صفت الغنم ، ثم صفت النعم ، ثم قال للناس : إذا رأيتموهم شدوا عليهم شدة رجل واحد ، وبعث عيونا له : أى وهم ثلاثة أنفار أرسلهم لينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا وقد تفرقت أوصالهم قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيول بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وإن أطعتنا رجعنا بقومك ، فقال : أف لكم ، بل أنتم أجبن العسكر ، فلم يرده ذلك ، ومضى على ما يريده .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم أرسل إليهم رجلا من أصحابه ، أى وهو عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه ، فدخل فيهم : أى ومكث فيهم يوما أو يومين وسمع ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر : أى وجاءه رجل فقال : يا رسول الله إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم ، اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله تعالى . فأجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر السير إلى هوازن ، وذكر له صلى الله عليه وسلم أن عند صفوان بن أمية — ولم يكن أسلم يومئذ بل كان مؤمنا — أدرعا وسلاحا ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليه فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل عارية ، وهى مضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس . وفى رواية الإمام أحمد قال صفوان : عارية مؤداة ، فقال صلى الله عليه وسلم : العارية مؤداة ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . قيل وسأله صلى الله عليه وسلم أن يكفيهم حملها ففعل . وذكر أن بعض تلك الأدراع ضاع ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له ، فقال : أنا اليوم يا رسول الله فى الإسلام أرغب .

قال : واستعار صلى الله عليه وسلم من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فقال له : كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين اه أى وتقدم أن نوفلا هذا فدى نفسه وكان فى أسرى بدر بألف رمح .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر ألفا : ألفان من أهل مكة ، والعشرة آلاف الذين فتح الله تعالى بهم مكة أى على ما تقدم .

قال بعضهم : وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين على غير وهن يرجون

الغنائم ولا يكرهون : أى من لم يصدق إيمانه أن الضيعة ، وفى لفظ أن الصدمة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أى فقد خرج معه صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، فلما قربوا من محل العدو صفهم ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار ، فلواء المهاجرين أعطاه عليا كرم الله وجهه ، وأعطى سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه راية ، وأعطى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه راية، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر رضى الله تعالى عنه ، ولواء الأوس أعطاه أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنه .

وفى سيرة الدمياطى : وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم ، وكذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها رجال منهم ، وركب صلى الله عليه وسلم بغلته ولبس درعين والمغفر والبيضة ، والدرعان هما ذات الفضول والسغدية بالسين المهملة والغين المعجمة : وهى درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت ومروا بشجر سدرة كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم : أى يعلقونها بها ، فقالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى عليه السلام : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) « لتركبن سنن من كان قبلكم » فلما كان بحنين وانحدروا الوادى ، أى وذلك عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه ، وذلك باشارة دريد بن الصمة ، فإنه قال لمالك : اجعل لك كمينا يكون لك عونا إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد ، فحملوا عليهم حملة رجل واحد ، أى وكانوا رماة فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر ، لا يكاد يسقط لهم سهم .

أى وعن البراء رضى الله تعالى عنه وسأله رجل ، فقال : فررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فقال : ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر .

وأما ما روى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزما ، فنهزما حال من سلمة لا من النبى صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينهزم قط فى موطن من المواطن كما تقدم .

وعن البراء رضى الله عنه : كانت هوازن ناسا رماة ، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا

فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، فأخذ المسلمون راجعين منهزمين لا يلوى أحد على أحد . أى ويقال إن الطلقاء وهم أهل مكة قال بعضهم لبعض : أى من كان إسلامه مدخولا منهم اخذلوه هذا وقتــه فانهزموا ، فهم أول من انهزم وتبعهم الناس . وعند ذلك قال أبو قتادة رضى الله عنه لعمر رضى الله عنه : ماشأن الناس ؟ قال أمر الله .

وهذا السياق يدل على أنهم انهزموا مرتين الأولى فى أول الأمر ، والثانية عند انـكباب المسلمين على أخذ الغنائم . والذى فى الأصل الاقتصار على الأولى .

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ومعه نفر قليل ، منهم أبو بكر وعمر وعلىّ والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان ابن أخيه الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب ابن عمه أبى لهب ، وفقئت عينه ، ولم أقف على أيهماً كانت ، أى ووردت فى عدّ من ثبت معه روايات مختلفة ، فقيل مائة ، وقيل ثمانون ، وقيل اثنا عشر ، وقيل عشرة ، وقيل كانوا ثلثمائة .

ولا مخالفة لإمكان الجمع ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله إنى عبد الله ورسوله .

وعن العباس رضى الله عنه : كنت آخذا بحكمة بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى وهى الشهباء التى أهداها له فروة بن عمرو الجزامى ، أى صاحب البلقاء وعامل ملك الروم على فلسطين يقال لها فضة . وقيل التى يقال لها دلدل التى أهداها له المقوقس . وفى البخارى التى أهداها له ملك أيلة . قال بعضهم : والأول أثبت .

ويدل للثانى ما أخرجه أبو نعيم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « انهزم المسلمون بحنين ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشهباء وكان يسميها دلدل ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : دلدل البدى ، فألزقت بطنها بالأرض » الحديث . وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركابه صلى الله عليه وسلم وهو يقول حين رأى مارأى من الناس « إلى أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شىء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم: ياعباس اصرخ: يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة » يعنى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان .

وفى لفظ « يا عباس اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آووا ونصروا » أى وإنما خص صلى الله عليه وسلم العباس بذلك،لأنه كان عظيم الصوت ،

كان صوته يسمع من ثمانية أميال ، كان يقف على سلع وينادى غلمانه آخر الليل وهم بالغابة فيسمعهم ، وبين سلع والغابة ثمانية أميال .

وغارت الخيل يوما على المدينة ، فنادى : واصباحاه فلم تسمعه حامل إلا وضعت من عظم صوته .

وفى لفظ آخر : نادى يا أصحاب السمرة يوم الحديبية ، يا أصحاب سورة البقرة ، أى وخص سورة البقرة بالذكر ، لأنها أول سورة نزلت فى المدينة، لأن فيها (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وفيها (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وفيها (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) . فى لفظ : نادى : يا أنصار الله وأنصار رسوله ، يا بنى الخزرج . خصهم بالذكر بعد التعميم لأنهم كانوا صبرا فى الحرب . أو غلب فأجابوا لبيك لبيك . وفى لفظ : يا لبيك يا لبيك » .

أى وفى البخارى « لما أدبروا عنه صلى الله عليه وسلم حتى بقى وحده ، فنادى يومئذ نداءين التفت عن يمينه ، فقال : يا معشر الأنصار ، قالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، قالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك» .

ويجوز أن يكون هذا بعد نداء العباس وقربهم منه صلى الله عليه وسلم ، وصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك ، أى لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عطفة الإبل. وفى لفظ : عطفة البقر على أولادها فلرماحهم أخوف عندى على رسول الله صلى الله عليه وسلم من رماح الكفار ، حتى إذا انتهى إليه من الناس مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القوم وهم يجتلدون ، أى وكان شعارهم كيوم فتح مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن حمى الوطيس ، وهو حجارة توقد العرب تحتها النار يشوون عليها اللحم . والوطيس فى الأصل : التنور ، وهذه من الكلمات التى لم تسمع إلا منه صلى الله عليه وسلم ، وهى مثل يضرب لشدة الحرب : أى وصار يقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن

عبد المطلب ، وهذا السياق يدل على أن المائة انتهت إليه صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وهو يؤيد القول بأن الذين ثبتوا معه صلى الله عليه وسلم لم يبلغوا المائة .

وفي رواية : لما انكشف الناس عنه يوم حنين قال لحارثة ، بالحاء المهملة ، ابن النعمان : يا حارثة كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟ فحزرتهم مائة ، فقلت : يا رسول الله مائة ، فلما كان يوم من الأيام مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناجي جبريل عليه السلام عند باب المسجد ، فقال جبريل عليه السلام : يا محمد من هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حارثة بن النعمان ، فقال جبريل عليه السلام : هو أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه السلام . قال : فلما أخبرني بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له : ما كنت أظنه إلا دحية الكلبي واقفا معك .

وفي رواية لما فر الناس يوم حنين عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أربعة : ثلاثة من بني هاشم ، ورجل من غيرهم : علي بن أبي طالب ، والعباس وهما بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود من جانبه الأيسر ، ولا يقبل أحد من المشركين جهته صلى الله عليه وسلم إلا قتل .

وذكر بعضهم أنه رأى أبا سفيان بن الحارث حينئذ آخذا بزمام بغلته صلى الله عليه وسلم ، ولا ينافي ما تقدم أن الآخذ بذلك العباس رضي الله عنه ، وأن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بركابه صلى الله عليه وسلم ، لجواز أن يكون أخذ بزمامها بعد أخذه بركابه صلى الله عليه وسلم .

وعن أبي سفيان بن الحارث قال : لما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف مصلتا والله يعلم أني أريد الموت دونه وهو ينظر إليّ ، فقال له العباس : يارسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه ، فقال : غفر الله له كل عداوة عادانيها ثم التفت إليّ وقال : يا أخي ، فقبلت رجله في الركاب وقال صلى الله عليه وسلم في حقه «أبو سفيان ابن الحارث من شبان أهل الجنة أو من سيد فتيان أهل الجنة » وليس قوله صلى الله عليه وسلم « أنا النبي لا كذب » إلى آخره من الشعر ، لأن شرطه كما تقدم في بناء المسجد أن يكون عن قصد وروية ، بناء على أن مشطور الرجز ومنهوكه شعر وهو الصحيح ، خلافا للأخفش حيث ردّ على الخليل في قوله إن الرجز شعر بأنه وقع منه صلى الله عليه وسلم في قوله المذكور ، وقد قال الله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) .

وردّ بأن ما يقع موزونا لا عن قصد لا يقال له شعر . ولا يقال لقائله إنه شاعر كما تقدم مع زيادة ، وإنما قال صلى الله عليه وسلم « أنا ابن عبد المطلب » ولم يقل أنا ابن عبد الله ، لأن العرب كانت تنسبه صلى الله عليه وسلم إلى جده عبد المطلب لشهرته ، ولموت عبد الله فى حياته كما تقدم ، فليس من الافتخار بالآباء الذى هو من عمل الجاهلية كما تقدم فى قوله صلى الله عليه وسلم « أنا ابن العواتك والفواطم » . وأخذ من هذا أنه لا بأس بالانتساب فى موطن الحرب .

وذكر الخطابى أنه صلى الله عليه وسلم إنما قال « أنا ابن عبد المطلب » على سبيل الافتخار ،ولكن ذكرهم صلى الله عليه وسلم بذلك رؤيا كان رآها عبدالمطلب أيام حياته ، وكانت القصة مشهورة عندهم فعرّفهم بها وذكرهم إياها ، وهى إحدى دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم عن بغلته . وقيل لم ينزل بل قال يا عباس ناولنى من الحصباء فانخفضت به بغلته حتى كادت بطنها تمس الأرض ، ثم قبض قبضة من تراب قال بعضهم : كأنّ الله أفقه : أى أفهم البغلة كلامه صلى الله عليه وسلم : أى علمت مراده .

وفى رواية كما تقدم أنه قال لها : يا دلدل البدى ، فلبدت : أى انخفضت . وفى رواية قال : اربضى دلدل فربضت . وقيل ناوله العباس ذلك . وقيل ناوله علىّ . وقيل ابن مسعود رضى الله عنهم . فعنه حادت به بغلته ، فمال السرج . فقلت : ارتفع رفعك الله ، فقال ناولنى كفا من تراب فناولته ، ثم استقبل بها وجوههم ، فقال : « شاهت الوجوه » أى وفى رواية قال « حمّ لا ينصرون » وفى رواية « جمع بينهما فما خلف الله منهم إنسانا إلا ملأت عينيه وفمه ترابا تلك القبضة وقال انهزموا ورب محمد فولوا مدبرين » [] أى وقال بعضهم : ما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا .

وحدث رجل كان من المشركين يوم حنين قال : « لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقوموا لنا حلبة شاة أن كشفناهم ، قال : فبينا نحن نسوقهم ونحن فى آثارهم ، إذ صاحب بغلة بيضاء ، وإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه وقالوا : شاهت الوجوه ارجعوا » فانهزمنا

من قولهم وركبوا أجسادنا فكانت إياها ، وإلى رميه صلى الله عليه وسلم بالحصى أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

ورمى بالحصى فأقصد جيشا ما العصا عنده وما الإلقاء

أى ورمى صلى الله عليه وسلم بالحصى فأهلك ذلك الجيش العظيم ، أىّ شيء عصا موسى عند ذلك الحصى ؟ وأى شيء إلقاء موسى عليه السلام لتلك العصا عند إلقاء ذلك الحصى ؟ شتان ما بينهما فلا يقاس هذا بذلك لأن هذا أعظم ، لأن انقلاب العصا حية كان مشابها لانقلاب حبالهم وعصيهم حيات ، لأن ابتلاعها لحبالهم وعصيهم لم يقهر العدو ولم يشتت شملهم ، بل زاد بعدها طغيانهم وعتوهم على موسى عليه السلام ، بخلاف هذا الحصى فإنه أهلك العدو وشتت شمله .

أى وذكر أنه عند القتال أنزل الله تعالى قوله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) إلى قوله (غفور رحيم) .

فقد جاء أن بعض أصحابه أى وهو أبو بكر رضى الله عنه كما فى سيرة الحافظ الدمياطى قال «يا رسول الله لن نغلب اليوم من قلة ، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءته تلك الكلمة» وقيل بل قائل ذلك هو صلى الله عليه وسلم لما رأى كثرة المسلمين ، وقيل قال ذلك فتى من الأنصار : أى وهو سلمة بن الأكوع ، أو سلامة بن وقش .

أى وجاء «أنه صلى الله عليه وسلم رفع يومئذ يديه ، وقال : اللهم أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا» .

أى وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن الضحاك ، قال « دعا موسى عليه الصلاة والسلام حين توجه إلى فرعون لعنه الله ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين : كنت وتكون ، وأنت حى لا تموت ، تنام العيون ، وتنكدر النجوم ، وأنت حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ياحى ياقيوم » .

وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينما هو كذلك إذ أهوى إليه على بن أبى طالب كرّم الله وجهه ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتى علىّ من خلفه وضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن

قدمه بنصف ساقه ، واجتلد الناس ؛ فوالله مارجعت راجعة المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما انهزم المسلمون تكلم رجال من أهل مكة بما فى نفوسهم من الضعف ، ومنهم أبو سفيان بن حرب رضى الله عنه . قيل وكان إسلامه بعد مدخولا ، وكانت الأزلام فى كنانته ، فقال : لاتنتهى هزيمتهم يعنى المسلمين دون البحر ، أى وقال والله غلبت هوازن ، فقال له صفوان : بفيك الكثيب : أى الحجارة والتراب . وقد وصلت الهزيمة إلى مكة ، وسر بذلك قوم من مكة ، وأظهروا الشماتة ، وقال قائل منهم ترجع العرب إلى دين آبائها ، أى وقال آخر : أى وهو أخو صفوان لأمه : ألا قد بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان وهو يومئذ مشرك : اسكت فض الله فاك : أى أسقط أسنانك ، والله لأن يربنى من الربوبية : أى يملكنى ويدبر أمرى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن .

وفى رواية مر رجل من قريش على صفوان بن أمية ، فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لايجبرونها أبدا ، فغضب صفوان رضى الله عنه وقال : أتبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لرب رجل من قريش أحب إلىّ من رجل من الأعراب . وقال عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه : وكونهم لايجبرونها أبدا هذا ليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شىء ، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غدا ، فقال له سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلافه لحديث ، فقال له : ياأبا يزيد إنا كنا على غير شىء وعقولنا ذاهبة نعبد حجرا لايضر ولا ينفع .

وعن شيبة الحجبى رضى الله عنه : أى حاجب البيت ويقال لبنيه بنو شيبة ، وهم حجبة البيت كما تقدم أنه كان يحدث عن سبب إسلامه ، قال : مارأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم مامضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وسار إلى حرب هوازن ، قلت : أسير من قريش إلى هوازن بحنين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله ، فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها : أى ولفظ « اليوم أدرك ثأرى من محمد » أى لأن أباه وعمه قتلا يوم أحد ، قتلهما حمزة رضى الله عنه كما تقدم .

وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا مااتبعته ، لايزداد ذلك الأمر

عندى إلا شدة ، فلما اختلط الناس ونزل صلى الله عليه وسلم عن بغلته أصلت السيف ودنوت منه أريد الذى أريد منه ، ورفعت السيف حتى كدت أوقع به الفعل رفع إلى شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدى على بصرى خوفا عليه .

وفى رواية : لما هممت به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد ، فنادانى صلى الله عليه وسلم : ياشيبة ادن منى ، فدنوت منه فالتفت إلى وتبسم وعرف الذى أريد منه ، فمسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان ، قال شيبة : فوالله لهو كان الساعة إذن أحب إلى من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ادن فقاتل ، فتقدمت أمامه أضرب بسيفى الله أعلم إنى أحب أن أقيه بنفسى كل شىء ولو كان أبى حيا ولقيته تلك الساعة لأوقعت به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه ، حتى تراجع المسلمون وكروا كرة واحدة ، وقربت إليه صلى الله عليه وسلم بغلته ، فاستوى عليها قائما ، وخرج فى أثرهم حتى تفرقوا فى كل وجه : أى لايلوى أحد منهم على أحد ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل من قدر عليه ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى قتلوا الذرية ، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » وفى رواية « من أقام بينة على قتيل قتله فله سلبه » .

وفى الأصل فى غزوة بدر أن المشهور أن قول النبى صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » إنما كان يوم حنين . وأما ماروى أنه قال ذلك يوم بدر ويوم أحد فأكثر مايوجد فى رواية من لايحتج به ، ومن ثم قال الإمام مالك رضى الله عنه : لم يبلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا يوم حنين .

وتعقب مافى الأصل بأنه وقع ذلك فى غزوة مؤتة كما فى مسلم وهى قبل الفتح .

وفى كلام بعضهم : كون السلب للقاتل أمر مقرر من أول الأمر ، وإنما تجدد يوم حنين للإعلام العام والمناداة لالمشروعيته .

وحدث أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة رضى الله عنه سلب وحده عشرين رجلا : أى قتلهم وأخذ أسلابهم .

وقال أبو قتادة رضى الله عنه : رأيت يوم حنين مسلما ومشركا يقتتلان وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك على المسلم فأتيته وضربت يده فقطعتها ، فاعتنقنى بيده

الأخرى فوالله ما أرسلنى حتى وجدت ريح الموت ، ولولا أن الدم نزفه لقتلنى ، فسقط وضربته فقتلته ، وأجهضنى القتال عن استلابه ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، قلت : يارسول الله ، لقد قتلت قتيلا ذا سلب ، وأجهضنى عنه القتال ، فما أدرى من استلبه ، فقال رجل من أهل مكة : صدق يارسول الله فأرضه عنى من سلبه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : والله لايرضيه ، تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله . وفى لفظ قال أبوبكر رضى الله عنه : أى للنبى صلى الله عليه وسلم : كلا ، تعطيه أضيبع من قريش وتدع أسدا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله . والأضيبع تصغير ضبع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق اردد عليه سلبه . قال أبو قتادة رضى الله عنه : فأخذته منه فاشتريت بثمنه : أى السلب الذى جمعته بستانا ، وأدرك ربيعة بن رفيع دريد ابن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة فإذا هو شيخ كبير أعمى ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريد ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا ، فقال له يسخر به : بئس ماسلحتك أمك ، خذ سيفى هذا من مؤخرة الرحل ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك ، فقتله ، فلما أخبر ربيعة أمه بقتله ، فقالت له : أما والله لقد أعتق اثنين بل ثلاثا ، وقالت له : ألا تكرمت عن قتله لما أخبرك بمنه علينا ، فقال : ماكنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله .

أى وقيل القاتل لدريد بن الصمة الزبير بن العوام رضى الله عنه ، وقيل عبد الله بن قبيع وكانت أم سليم رضى الله عنها معزوجها أبى طلحة رضى الله عنه وهى حازمة وسطها ببرد لها وفى حزامها خنجر ، وكانت حاملا بابنها عبد الله ، فقال لها زوجها أبو طلحة : ماهذا الخنجر معك ياأم سليم ؟ قالت : إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، فقال أبوطلحة : ألا تسمع يارسول الله ماتقول أم سليم الرميصاء ، فأعادت عليه القول ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، أى وكان يقال لها الغميصاء والرميصاء : وهى التى يخرج القذى من عينها ، ومن ثم قال بعضهم : قيل لها الرميصاء لرمص كان فى عينها .

وعن ولدها أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قد مات أبى مالك عنها مشركا ثم خطبها عمى أبو طلحة وهو مشرك فأبت ودعته إلى الإسلام فأسلم ، فقالت له : إنى أتزوجك ولا

آخذ منك صداقا غيره فتزوجها ، قال أنس رضى الله عنه . قال النبى صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فسمعت خشفة ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هذه العميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك » .

وعنه رضى الله عنه « كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يدخل على أحد من النساء إلا أزواجه وإلا أم سليم فانه كان يدخل عليها ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنى أرحمها ، قتل أخوها معى » ولعل المراد أنه كان يكثر الدخول عليها كأزواجه ، ولا ينافى أنه صلى الله عليه وسلم كان يدخل على غيرها من النساء الأنصار ، لأن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز الاختلاء بالأجنبية ، فكان يدخل على أخت أم سليم وهى أم حرام بالراء رضى الله عنها ، وتفلى له رأسه الشريف وينام عندها ويدخل على الربيع ، ثم رأيته فى الإمتاع أشار إلى ذلك .

وفى [مزيل الخفاء] أن أم سليم وأختها خالتا النبى صلى الله عليه وسلم من جهة الرضاع ، وعليه فلا دلالة فى دخوله صلى الله عليه وسلم عليهما والخلوة بهما على جواز الخلوة بالأجنبية .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : مات ابن لأبى طلحة من أم سليم ، أى وهو أبو عمير الذى كان صلى الله عليه وسلم يداعبه ويقول أبا عمير ما فعل النغير ، ذكره السيوطى فى كتابه [تبريد الأكباد] .

وفى كلام بعضهم ما يفيد أنه غيره ، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أباطلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقال : ما فعل ابنى ؟ قالت : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوا ؟ قال: لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، فغضب ثم انطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما فى غابر ليلتكما ، قال : فحملت بعبد الله المذكور ، قالت : ولما ولدته حملته وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هل معك تمر ؟ فقلت نعم ، فناولته تمرات فألقاهن صلى الله عليه وسلم فى فيه الشريف فلاكهن ، ثم فغر فاالصبى فمجه فيه فجعل الصبى يتلمظ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حب الأنصار التمر

وسماه عبد الله ، أى وجاء لعبد الله هذا الذى جاء من جماع تلك الليلة تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن .

«ولما أخبر أبو طلحة النبى صلى الله عليه وسلم بما تقدم عن أم سليم ، قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل صابرة بنى إسرائيل ، فقيل : يارسول الله ما كان من خبرها ؟ قال : كان فى بنى إسرائيل امرأة وكان لها زوج وكان له منها غلامان ، وكان زوجها أمرها بطعام تصنعه ليدعو عليه الناس ، ففعل واجتمع الناس فى داره ، فانطلق الغلامان يلعبان ، فوقعا فى بئر كانت فى الدار ، فكرهت أن تنغص على زوجها الضيافة ، فأدخلتهما البيت وسجتهما بثوب ، فلما فرغوا دخل زوجها ، فقال : أين ابناى ، قالت : هما فى البيت ، وإنها كانت تمسحت بشىء من الطيب وتعرضت للرجل حتى وقع عليها ثم قال : أين ابناى ؟ قالت : هما فى البيت ، فناداهما أبوهما فخرجا يسعيان ، فقالت المرأة : سبحان الله . والله لقد كانا ميتين ولكن الله أحياهما ثوابا لصبرى .

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى آثارهم أبا عامر الأشعرى رضى الله عنه ، وسيأتى فى السرايا . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معسكره ، قال شيبة : فدخل خباءه فدخلت عليه ، مادخل عليه غيرى حبا لرؤية وجهه وسرورا به ، فقال : ياشيبة الذى أراد الله خير مما أردت بنفسك ، ثم حدثنى بكل ما أضمرته فى نفسى مما لم أذكره لأحد قط . فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم قلت : استغفرلى ، فقال غفر الله لك ، أى وقالت له صلى الله عليه وسلم أم سليم رضى الله عنها : بأبى أنت وأمى يارسول الله . اقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد كفى وأحسن .

وعن عائذ بن عمرو قال : أصابتنى رمية يوم حنين فى جبهتى فسال الدم على وجهى وصدرى ، فسلت النبى صلى الله عليه وسلم الدم بيده عن وجهى وصدرى إلى ترقوتى ، ثم دعانى فصار أثر يده صلى الله عليه وسلم غرة سائلة كغرة الفرس .

وجرح خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فتفل النبى صلى الله عليه وسلم فى جرحه فلم يضره .

أى فعن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم بعد ماهزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم ، يمشى فى المسلمين ويقول : من يدلنى

على رحل خالد بن الوليد حتى دل عليه ، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فبرىء .

وعن جبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه قال : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون شيئا أسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى لم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى رحمه الله أن سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم : أى فعن جمع من هوازن قالوا : لقد رأينا يوم حنين رجالا بيضا على خيل بلق ، عليها عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض ، وكتائب لا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم . ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار مكة وغيرهم لما رأوا نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وعن شيبة الحجبى قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، والله ماخرجت إسلاما ولكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن على قريش ، فو الله إنى لواقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يارسول الله إنى لأرى خيلا بلقا ، قال : ياشيبة إنه لا يراها إلا كافر فضرب بيده صدرى ثم قال : اللهم اهد شيبة ، فعل ذلك ثلاثا ، فما رفع صلى الله عليه وسلم يده عن صدرى الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلىّ منه ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ماتقدم على تقدير صحتهما .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبى والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله وأحضره إلى الجعرانة أى بسكون العين وتخفيف الراء . وكثير من أهل الحديث يشددها وسمى المحل باسم امرأة كانت تلقب بذلك قيل وهى التى نقضت غزلها من بعد قوة ، فكان بها إلى أن انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أى من غزوة الطائف . وفى هذه الغزوة سمى طلحة بن عبيد الله طلحة الجواد لكثرة إنفاقه على العسكر .

غزوة الطائف

ولما علم صلى الله عليه وسلم أن مالك بن عوف وجمعا من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم . أى والطائف بلد كبير ، كثير الأعناب والنخيل والفاكهة ، قيل سمى بذلك لأن جبريل عليه السلام طاف بها حين نقلها من الشام إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام : أى أن الله يرزقهم أى أهل مكة من الثمرات .

أى وقيل إنهم بنوا حواليها حائطا وطافوا به تحصينا لهم ، وقيل هى جنة أصحاب الصريم كانوا نواحى صنعاء ، نقلها جبريل عليه السلام فسار بها إلى مكة وطاف بها حول البيت ، ثم أنزلها فى ذلك المكان ، أى ويقال له « وج » سمى ذلك باسم شخص من العماليق أول من نزل به ، وأن أولئك القوم تحصنوا فى حصن به وأدخلوا فيه مايصلحهم سنة ، خرج صلى الله عليه وسلم من حنين وتوجه إليهم وترك السبى بالجعرانة .

أى ، وفى الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالسبى والغنائم إلى الجعرانة مع بديل ابن ورقاء الخزاعى . وفى كلام السهيلى : وكان سبى حنين ستة آلاف رأس ، قد ولى صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب أمرهم وجعله أمينا عليهم هذا كلامه ، أى ولعل هذا بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، لأن أبا سفيان كان معه صلى الله عليه وسلم بالطائف كما سيأتى فلا معارضة .

أى ومر صلى الله عليه وسلم بحصن مالك بن عوف ، فأمر به فهدم ، ومر بحائط ، أى بستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه ، فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم : إما أن تخرج ، وإما أن نخرب عليك حائطك ، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحراقه ، ومر صلى الله عليه وسلم بقبر ، فقال : هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف ، أى وكان من ثمود قوم صالح أى وقد أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان ثم دفن فيه ، أى بعد أن كان بالحرم ولم تصبه تلك النقمة ، فلما خرج من الحرم إلى المكان المذكور أصابته النقمة .

فعن بعض الصحابة : حين خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فمررنا بقبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف ،

وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، الحديث .

وفى العرائس عن مجاهد قيل له : هل بقى من قوم لوط أحد؟ قال : لا ، إلا رجل بقى أربعين يوما وكان بالحرم فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم ، فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر : ارجع من حيث جئت ، فإن الرجل فى حرم الله تعالى ، فرجع فوقف خارجا من الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، وخرج من الحرم إلى هذا المحل أصابه الحجر فقتله فدفن فيه .

وأبو رغال هـذا هو الذى كان دليلا لأبرهة ليوصله إلى مكة لما مر أبرهة بالطائف ، وتلقاه أهله ، وأظهروا له الطاعة ، وقالوا له : نرسل معك من يدلك على الطريق ، فأرسلوا أبا رغال معه دليلا كما تقدم . وقال صلى الله عليه وسلم « آية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه » فابتدره الناس فنبشوه واستخرجوا منه الغصن . وقدّم صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه على مقدمته : أى وهى خيل بنى سليم مائة فرس قدمها من يوم خرج من مكة ، واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فلم يزل كذلك حتى وصل ، فلما وصل نزل قريبا من الحصن وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحات .

أى وممن أصيب أبو سفيان بن حرب ، أصيبت عينه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم وعينه فى يده ، فقال : يا رسول الله ، هذه عينى أصيبت فى سبيل الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن شئت دعوت فردت عينك ، وإن شئت فالجنة . وفى لفظ : فعين فى الجنة ، قال : فالجنة ، ورمى بها من يده » أى وقلعت عينه الثانية فى القتال يوم اليرموك عند مقاتلة الروم ، فإن أبا سفيان رضى الله تعالى عنه كان فى ذلك اليوم يحرض المسلمين على قتال الروم والثبات لهم ، ويقول لهم : الله الله عباد الله ، انصروا الله ينصركم ؛ اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، وذلك فى آخر خلافة الصديق ، فإن الصديق رضى الله عنه توفى وهم فى الاستعداد للقتال باليرموك ، وكان الأمير على العسكر خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولما ولى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه أرسل البريد بعزل خالد وولاية أبى عبيدة ابن الجراح على العسكر ، فجاء البريد وقد التحم القتال بين المسلمين والروم ، وأخذته

خيول المسلمين ، وسألوه عن الخبر ، فلم يخبرهم إلا بخير وسلامة ، وأخبرهم عن إمداد يجيء إليهم ، وأخفى موت أبى بكر رضى الله تعالى عنه وتأمير أبى عبيدة ، فأتوا به إلى خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فأسرّ إليه موت أبى بكر وولاية عمر رضى الله تعالى عنهما ، وأخبره بما أخبر به الجند ، فاستحسن ذلك منه ، وأخذ الكتاب فجعله فى كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك يتخاذل العسكر ، ثم لما هزم الله الروم ، وجمعوا الغنائم ،ودفنوا قتلى المسلمين وقد بلغوا ثلاثة آلاف ، دفع خالد رضى الله تعالى عنه الكتاب إلى أبى عبيدة رضى الله تعالى عنه ، فتولى أبو عبيدة ، ثم بعث أبو عبيدة أبا جندل رضى الله تعالى عنه بشيرا إلى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه بالفتح على المسلمين .

ولما عزل سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه خالد بن الوليد وولى أبا عبيدة خطب الناس وقال : إنى أعتذر إليكم من خالد بن الوليد ، إنى نزعته وأثبتّ أبا عبيدة بن الجراح ، فقام إليه عمرو بن حفص وهو ابن عم خالد بن الوليد وابن عم أم سيدنا عمر ، فقال : والله ما عدلت يا عمر ، لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغمدت سيفا سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد قطعت الرحم ، وجفوت ابن العم ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : إنك قريب القرابة ، حديث السن ، غضبت لابن عمك .

ومات ممن خرج بالطائف اثنا عشر رجلا ، فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الآن ، وكان معه صلى الله عليه وسلم من نسائه أم سلمة وزينب رضى الله تعالى عنهما ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين الصلاة مقصورة مدة حصار الطائف ، وكانت ثمانية عشر يوما : أى غير يومى الدخول والخروج ، وهذا هو المراد بقول فقهائنا لأنه صلى الله عليه وسلم أقامها بمكة عام الفتح لحرب هوازن يقصر الصلاة ، وقيل فى مدة حصاره غير ذلك .

ودخل صلى الله عليه وسلم خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله ومخنث ،وإذا المخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا ، فعليك بابنة غيلان ، فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فلما سمعه صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل هذا عليكن . وأراد المخنث بالأربع التى تقبل بهن عكنها الأربع التى فى بطنها ، ولكل عكنة طرفان فتكون ثمانية من خلفها ، فهى الثمانية التى تدبر بهن .

أى وفى الإمتاع : كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مولى لخالته فاختة بنت عمرو

ابن عائذ يقال له ماتع ، وكان يدخل بيوته صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى أنه لا يفطن لشيء من أمر النساء ولا إربة له ، فسمعه صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخالد بن الوليد ويقال لعبد الله أخى أم سلمة : إن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف غدا فعليك ببادية ، أى رضى الله تعالى عنها فإنها أسلمت ، وبادية بالياء تحت لا بالنون بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ؛ إذا قامت تثنت ، وإذا جلست تبنت ، وإذا تكلمت تغنت ، بين رجليها مثل الإناء المكفوء ، ثم نفر كأنه الأقحوان ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا أرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال له : قاتلك الله ، لقد أمعنت النظر ، ما كنت أظن هذا الخبيث يعرف شيئا من أمر النساء .

وفى الأغانى أن هيتا بكسر الهاء وقيل بفتحها وإسكان التحتية بعدها مثناة . والهيت : الأحمق المخنث ، قال لعبد الله بن أمية : إن فتح الله عليكم الطائف فاسأل النبى صلى الله عليه وسلم بادية بنت غيلان ، فإنها رداح شموع نجلاء إن تكلمت تغنت يعنى من الغنة ، وإذا قامت تثنت ، موردة الخدين ، منحطة المانتين ، لقحاء الفخذين ، مسرولة الساقين ، كأنها قضيب بان . وفى لفظ : كأنها خوط بانة قصفت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، وبين فخذيها شيء مخبوء كأنه الإناء المكفوء ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه قال : لقد غلغلت النظر يا عدو الله ، ثم نفاه من المدينة إلى الحمى وقال : لا يدخل على أحد من نسائكم ، فقيل له صلى الله عليه وسلم إنه يموت جوعا ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس .

وقيل نفى صلى الله عليه وسلم كلا من ماتع وهيت إلى الحمى ، فشكيا الحاجة ، فأذن لهما أن ينزلا كل جمعة يسألان الناس ثم يرجعان إلى مكانهما ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلا المدينة فأخرجهما أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فلما توفى دخلا المدينة فأخرجهما عمر رضى الله تعالى عنه ، فلما مات دخلا .

وغيلان أبو بادية هو الذى أسلم وعنده عشر نسوة ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يمسك أربعا ويفارق سائرهن .

واختلف الفقهاء فى ذلك ؟ فقال فقهاء الحجاز يختار أربعا ، وقال فقهاء العراق يمسك التى تزوج أولا ثم التى تليها إلى الرابعة . واحتج فقهاء الحجاز بترك الاستفصال .

وغيلان هذا لما وفد على كسرى قال له : أى ولدك أحب إليك ، فقال الغائب حتى يقدم والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .

وكان المخنثون فى زمانه صلى الله عليه وسلم ثلاثة : هيت ، وماتع وهدم ، وقيل لهم ذلك لأنه كان فى كلامهم لين ،وكانو يختضبون بالحناء كخضاب النساء لاأنهم يأتون الفاحشة الكبرى . ويحتمل أن يكون كل من ماتع وهيت كان معه صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة وقد سمع منهما ماتقدم عنهما ، ويدل لهذا الاحتمال أنه نفاهما . وفى البخارى أن القائل لعبد الله ماتقدم هو هيت . ويحتمل أن الذى كان معه صلى الله عليه وسلم أحدهما وتكرر منه ذكر ماتقدم ، وتسميته باسم الآخر خلط من بعض الرواة فليتأمل .

وقال : أقبل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ونادى من يبارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد ، وناداه عبد ياليل لاينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا ، فإن به من الطعام مايكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا اه، ونصب عليهم المنجنيق : أى ورمى به كما فى كلام غير واحد من أئمتنا ،وهو أول منجنيق رمى به فى الإسلام، أى أرشده إليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه قال : إنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون فنصيب من عدونا ، أى ويقال إن سلمان رضى الله تعالى عنه هو الذى عمله بيده ، وفيه أنه تقدم فى خيبر أنه لما فتح حصن الصعب وجدوا فيه آلة حرب ودبابات ومنجنيقات ، إلا أن يقال سلمان صنع هذا المنجنيق الذى بالطائف، لأنه يجوز أن يكون الذى وجدوه فى خيبر لم يكن معهم فى الطائف ، وتقدم فى خيبر أنه صلى الله عليه وسلم لما حاصر الوطيح وسلالم أربعة عشر يوما ولم يخرج أحد منهما همّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل عليهم المنجنيق ، وتقدم عن الإمتاع أنه صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على حصن البراء . وقد قدمنا أن ذلك لايخالف قول بعضهم لم ينصب المنجنيق إلا فى غزوة الطائف ، لأنه يجوز أن يكون مراد هذا البعض لم يرم به إلا فى غزوة الطائف ، أى كما أشرنا إليه .

وأول من صنع المنجنيق إبليس ، فإن نمروذا لعنهما الله لما أراد أن يلقى إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فى النار بنى إلى جنب الجبل جدارا طوله ستون ذراعا ، ولما ألقوا الحطب وجعلوا فيه النار ووصلت النار إلى رأس ذلك الجدار لم يدروا كيف يلقون إبراهيم، فتمثل

لهم إبليس لعنه الله فى صورة نجار فصنع لهم المنجنيق ونصبوه على رأس الجبل ووضعوه فيه وألقوه فى تلك النار .

وأوّل من رمى به فى الجاهلية جذيمة الأبرش ، وهو أوّل من أوقد الشمع ودخل نفر من الصحابة تحت دبابة وزحفوا بها إلى جدار الحصن ليحرقوه . وفى الإمتاع دخلوا تحت دبابتين وكانا من جلود البقر ، فأرسلت إليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل فقتل منهم رجال . أى والدبابة بفتح الدال المهملة ثم موحدة مشددة وبعد الألف موحدة ثم تاء التأنيث : وهى آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعنابهم ، أى ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعا ذريعا ، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أدعها لله وللرحم ، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر ، أى وقيل ثلاثة وعشرون رجلا ، ونزل منهم شخص فى بكرة ، فقيل له أبو بكرة ، أى وكان عبدا للحارث بن كلدة، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، قال : واستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن فى أن يأتى ثقيفا فى حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له فى ذلك ، فأتاهم فدخل فى حصنهم ، فقال لهم : تمسكوا فى حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ، أى زاد بعضهم : ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا : أى لا يشق عليكم قطع هذا الشجر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ماقلت لهم ياعيينة ؟ قال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار ودللتهم على الجنة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ، إنما قلت لهم كذا ، وقص عليه القصة ، فقال صدقت يارسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك اه .

ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى فتح الطائف ، أى فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ، قالت له : يارسول الله مايمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف ؟ قال لم يؤذن لنا الآن فيهم ، وماأظن أن نفتحها الآن ، وقال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ذلك ، فقال : لم يؤذن لنا فى قتالهم ، فقال رضى الله تعالى عنه : كيف نقبل فى قوم لم يأذن الله فيهم ، وفى لفظ : إن خولة قالت : يارسول الله أعطنى إن فتح الله عليك

الطائف حليّ بادية بنت غيلان أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف ياخولة ، فذكرت خولة ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ماحديث حدثتنيه خولة؟ زعمت أنك قلت لها ، قال : قلته ، قال أو ماأذن الله فيهم يارسول الله؟ قال لا ، قال : أو أذن بالرحيل ؟ قال بلى ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس أى وهو نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام ، فقال له : يارسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه فأذن فى الناس بالرحيل ، فقبح الناس ذلك وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاغدوا على القتال ، فغدوا ، فأصابت الناس جراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قافلون إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، أى تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، لأنهم رأوا أن رأيه صلى الله عليه وسلم أبرك وأنفع من رأيهم ، فرجعوا إليه وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا لاإله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلما ارتحلوا واستقبلوا ، قال قولوا : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ، وقيل : يارسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين ، ولعل صاحب الهمزية رحمه الله يشير إلى ذلك بقوله :

جهلت قومه عليه فأغضى   وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلما   فهو بحر لم تعيه الأعباء

أى آذاه صلى الله عليه وسلم قومه من قريش وغيرهم فأرخى جفنه حياء ، وصاحب عدم الانتقام شأنه إرخاء الجفن   وسع علمه علوم العالمين من الإنس والجن والملك ، ووسع حلمه كل من صدر منه نقص ، فهو بسبب ذلك بحر واسع لم تتعبه الأحمال الثقيلة .

ومن جملة من جرح سيدنا عبد الله بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما رماه بسهم أبو محجن ، وطاوله ذلك الجرح إلى أن مات به فى خلافة أبيه ، وورثته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يحبها حبا شديدا مرّ عليه أبوه يوم جمعة وهو يلاعبها وقد صلى الناس ، فقال عبد الله : أو جمع الناس؟ فسمعه أبوه ، فقال : أشغلتك عن

الصلاة ؟ لاجرم لاتبرحن حتى تطلقها فطلقها ، ثم تعب عبد الله بسبب طلاقها فاطلع عليه أبوه يوما فسمعه يقول أبياتا من جملتها :

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير جرم تطلق

فقال له : يا عبد الله راجع عاتكة ، فقال لأبيه : قف بمكانك ، وكان معه غلام مملوك له ، فقال للغلام : أنت حر لوجه الله ، اشهدا أنى قد راجعت عاتكة ، فلما مات رضى الله تعالى عنه رثته بقولها فى أبيات :

آليت لا تنفك عينى حزينة ... عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فلما أعرس بها ، قال له على كرم الله وجهه : أتأذن لى أن أكلم عاتكة ، فقال : لا غيرة عليك كلمها ، فقال لها على كرم الله وجهه : أنت القائلة البيت :

آليت لا تنفك عينى قريرة ... عليك ولا ينفك جلدى أصفرا

قالت : لم أقل هكذا ، وبكت وعادت إلى حزنها ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : يا أبا الحسن ما أردت إلا إفسادها علىّ ، فلما قتل عمر رضى الله تعالى عنه رثته بأبيات منها :

من لنفس عادها أحزانها ... ولعين شفها طول السهد
جسد لفف فى أكفانه ... رحمة الله على ذاك الجسد

ثم تزوجها الزبير رضى الله تعالى عنه ، فلما قتل رثته بأبيات منها تخاطب قاتله :

ثكلتك أمك أن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد

ثم خطبها سيدنا على كرم الله وجهه ، فقالت له : لم يبق للإسلام غيرك وأنا أنفس لك عن القتل ، ومن ثم قيل فى حقها : من أراد الشهادة فعليه بعاتكة .

وعند منصرفه صلى الله عليه وسلم من ذلك : أى وبينا هو يسير ليلا بواد بقرب الطائف إذ غشى سدرة فى سواد الليل وهو فى وسن النوم ، فانفرجت السدرة له نصفين ، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نصفيها وبقيت منفرجة على حالها ، أى وعند انحداره صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة لقيه سراقة ، وهو واضع الكتاب الذى كتبه له صلى الله عليه وسلم عند الهجرة بين أصبعيه وينادى : أنا سراقة ، وهذا كتابى ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا يوم وفاء ومودة ؛ أدنوه ، فأدنوه منه وساق إليه الصدقة ،

وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك من أجر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم فى كل ذات كبد حراء أجر » .

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة أحصى السبى فكان ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا وأربعة آلاف أوقية فضة .

فأعطى صلى الله عليه وسلم للمؤلفة ، أى من أسلم من أهل مكة ، فكان أولهم أبا سفيان بن حرب رضى الله عنه أعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : ابنى يزيد ويقال له يزيد الخير فأعطاه كذلك ، وقال ابنى معاوية فأعطاه كذلك ، فأخذ أبو سفيان رضى الله عنه ثلثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة . وقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم ، أى وفى لفظ : لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا .

وأعطى حكيم بن حزام رضى الله عنه مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها ؛ أى وفى الامتاع : وسأله حكيم بن حزام مائة من الإبل فأعطاه ، ثم سأله مائة فأعطاه ثم سأله مائة فأعطاه ، وقال له : « ياحكيم ، هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها ، أى وقال : يارسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا ؛ فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال عمر : يامعشر المسلمين إنى أعرض عليه حقه الذى قسم الله له من هذا الفىء فيأبى أن يأخذه .

وأعطى صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس مائة من الإبل . وأعطى عيينة مثله . وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال فى ذلك شعرا : أى يعاتبه صلى الله عليه وسلم به حيث فضل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن عليه وهو :

أتجعل نهبى ونهب العبيـ ـد (يعنى فرسه) بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهم ومن تضع اليوم لا يرفع

فأعطاه صلى الله عليه وسلم تمام المائة . أى وفى رواية أنه قال : اقطعوا عنى لسانه .

وفى الكشاف أنه صلى الله عليه وسلم قال : ياأبا بكر اقطع لسانه عنى وأعطه مائة من الإبل، هذا كلامه ، وحينئذ يتوقف فى قولهم فظن ناس أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يمثل به وفزع هو أيضا لذلك فأتى به إلى الغنائم ، وقيل له خذ منها ماشئت ، فقال : إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع لسانى بالعطاء فكره أن يأخذ منها شيئا ، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلة ، وفى رواية « فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة » وروى بدل : فما كان حصن ولا حابس : فما كان بدر ولا حابس وهو صحيح أيضا ، لأن بدرا جد حصن أبو أبيه فانتسب تارة إلى أبيه حصن وتارة إلى جد أبيه بدر ، فإن عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر . ويروى بدل مرداس : شيخى بالإفراد يعنى والده ، ويروى بالتثنية يعنى والده وجده .

وفى كلام بعضهم : كانت المؤلفة ثلاثة أصناف . صنف يتألفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا كصفوان بن أمية . وصنف ليثبت إسلامهم كأبى سفيان بن حرب . وصنف لدفع شرهم كعيينة بن حصن والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس .

لكن فى رواية «قيل يارسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة. وتركت جعيل بن سراقة ؟ فقال : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » وتقدم أن جعيلا هذا كان من فقراء المسلمين ، وكان رجلا صالحا دميا قبيحا ، وهو الذى تصوّر الشيطان بصورته يوم أحد ، وقال إن محمدا قد مات ، وجاء « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه خشية أن يكب فى النار على وجهه » وقال صلى الله عليه وسلم «إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حبان » وأعطى صفوان بن أمية ماتقدم ذكره وهو جميع ما فى الشعب من غنم وإبل وبقر ، وكان مملوءا وكان ذلك سببا لإسلامه كما تقدم .

أقول : فى كلام ابن الجوزى رحمه الله : اعلم أن من المؤلفة قلوبهم أقواما تؤلفوا فى بدء الاسلام ثم تمكن الإسلام فى قلوبهم ، فخرجوا بذلك عن حد المؤلفة ، وإنما ذكرهم العلماء فى المؤلفة اعتبارا ببداية أحوالهم ، وفيهم من لم يعلم منه حسن الإسلام ، والظاهر بقاؤه على حالة التأليف .

ولا يمكن أن يفرق بين من حسن إسلامه ، وبين من لم يحسن إسلامه لجواز أن يكون

من ظننا به شرا أنه على خلاف ذلك ، إذ الإنسان قد يتغير عن حاله ولا ينقل إلينا أمره فالواجب أن نظن بكل من نقل عنه الإسلام خيرا .

وقد جاء عن أنس رضى الله عنه ، قال «كان الرجل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فيسلم لشيء يعطاه من الدنيا ، فلا يمسى حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها » هذا كلام ابن الجوزى، والعباس بن مرداس أسلم قبل الفتح بيسير ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، والله أعلم . ولا زال صلى الله عليه وسلم يعطى الرجل مابين مائة وخمسين من الإبل ، أى وذلك من الخمس كما سيأتى .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت باحصاء الناس والغنائم : أى مابقى منها ، وهى الأربعة الأخماس الباقية بعد إعطاء من تقدم ماتقدم من الخمس وقسمتها عليهم ، أى بعد أن اجتمعوا إليه وصاروا يقولون يارسول الله اقسم علينا حتى ألجئوه صلى الله عليه وسلم إلى شجرة فاختطفت رداءه ، فقال ردوا ردائى أيها الناس ، فوالله إن كان لى فيه شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولاجبانا ولا كدودا ، ثم قام صلى الله عليه وسلم إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله مالى من فيئكم أى غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، فإن الغلول يكون على أهله عارا وشنارا ونارا يوم القيامة ، فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر ، وقال : يارسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لى دبر ، فقال : أما نصيبى منها فلك ، قال : أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لى بها وألقاها .

ويروى أن عقيلا كان دفع لامرأته إبرة أخذها من الغنيمة ، أى فإنها قالت له : إنى قد علمت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من الغنيمة ، فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك . فسمع منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شيئا فليرده حتى الخيط والمخيط ، فرجع وأخذها منها وألقاها فى الغنائم .

وفى كلام السهيلى أن أباجهم بن حذيفة العدوى كان على الأنفال يوم حنين ، فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فمانعه أبوجهم ، فلما تمانعا ضربه أبوجهم بالقوس فشجه منقلة ، فاستعدى عليه خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له خذ خمسين شاة ودعه فقال : أقدنى منه ، فقال : خذ مائة ودعه ، فقال : أقدنى منه ، فقال :

خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال عليك ، فقوّمت المائة والخمسون بخمس عشرة فريضة من الإبل ، فمن هنا جعلت دية المنقلة خمس عشرة فريضة ، ولما قسم مابقى خص كل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ ثنتى عشرة بعيرا وعشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم إلا لفرس واحد ، ومن ثم لم يعط الزبير رضى الله عنه إلا لفرس واحد ، وكان معه أفراس ، وبه أخذ إمامنا الشافعي رضى الله عنه فقال : لايعطى إلا لفرس واحد ، وقال بعض المنافقين ، قيل وهو معتب هذه القسمة ماعدل فيها ولا أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجهه الشريف ، أى حتى صار كالصرف بكسر الصاد المهملة : وهو شيء أحمر يدبغ به الجلد . وفى رواية : فغضب صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا واحمر وجهه وقال : «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخى موسى عليه السلام ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» انتهى .

ولعل من ذلك أن قارون ابن خالة موسى عليه السلام أو ابن عمه حمله البغى والشر على أن أحضر امرأة بغيا وجعل لها جعلا على أن ترمى موسى بنفسها ، وأحضر بنى إسرائيل وأعلمهم بذلك ودعا موسى عليه السلام وقال له : إن قومك اجتمعوا فاخرج إليهم لتأمرهم وتنهاهم ، فخرج عليه السلام إليهم وقال لهم : يابنى إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى محصنا رجمناه حتى يموت ، ومن زنى وهو لم ينكح جلدناه مائة جلدة ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بنى إسرائيل زعموا أنك فجرت بفلانة ، فقال : ادعها ، فإن قالت فهو كما قالت ، فأتت فقال موسى : يافلانة أنشدك بالذى أنزل التوراة أصدق قارون ؟ فقالت : أما إذا أنشدتنى فقد أشهد أنك برىء وأنك رسول الله ، وإن قارون جعل لى جعلا على أن أرميك بنفسى ، وجاءت بخريطتين فيهما دراهم عليهما ختمه ، وقالت للملأ : إن قارون أعطانى هاتين وهذا ختمه ، وأعوذ بالله أن أفترى على الله ، فنظر القوم إلى ختمه فعلموا صدقها فخر موسى ساجدا ، فأوحى الله إليه : أن ارفع رأسك فإنى أمرت الأرض أن تطيعك ، فخسف به فهو يتجلجل فى الأرض ، يخسف به فى كل يوم مقدار قامة إلى يوم القيامة .

ولعل من ذلك أيضا أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام : إن طائفة تزعم أن الله لايكلمك فخذ منا من يذهب معك ليسمعوا كلامه تعالى فيؤمنوا ، فأوحى الله لموسى عليه

السلام: أن اختر سبعين من خيارهم واصعد بهم الجبل أنت وهرون واستخلف يوشع ففعل، فلما سمعوا كلامه سبحانه سألوه أن يريهم الله جهرة .

ومن ذلك نسبته إلى أنه قتل أخاه هرون عليهما السلام كما تقدم ، أى وقيل إن قائل : هذه القسمة ماعدل فيها: ذو الخويصرة التميمى ، وهو غير ذى الخويصره اليمانى الذى بال فى المسجد . فقد جاء «أن ذا الخويصرة التميمى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يامحمد قد رأيت ماصنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل، فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر رضى الله عنه : ألا نقتله ؟ . قيل وقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : ألا أضرب عنقه » .

قال الإمام النووى رحمه الله : ولا تعارض ، لأن كل واحد منهما استأذن فيه ؟ أى ففى مسلم «فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : يارسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال : لا ، ثم أدبر ، فقام إليه خالد رضى الله عنه فقال : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال لا لعله أن يكون يصلى ، قال خالد رضى الله عنه : وكم مصلٍّ يقول بلسانه ماليس فى قلبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» .

وفى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بعث على كرم الله وجهه وهو باليمن بذهبة فى تربتها ، أى لم تخلص من ترابها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة ابن علاثة وزيد الخير ، فغضبت قريش فقالوا: يعطى صناديد نجد ويدعنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى إنما فعلت ذلك لأتألفهم ، فجاء رجل فقال : اتق الله يامحمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن يطع الله إن عصيته ! يأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى ؟ » وفى رواية « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ؟ يأتينى خبر السماء صباحا ومساء ، فجاء رجل فقال ماتقدم ، فقال له : ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله؟ » .

ولعل هذه القسمة غير قسمة غنائم حنين ، وإن الرجل الذى قال له ما ذكر يحتمل أن يكون واحدا منهما أو من شيعة ذلك الرجل الذى قال له فى أحدهما . .

وذكر بعضهم أن ذا الخويصرة أصل الخوارج ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال «دعوه

فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية » وفى رواية « قال عمر رضى الله عنه : يارسول الله دعنى فأقتل هذا المنافق ، فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى إن هذا وأصحابه » أى جماعة يخرجون من صلبه فهو أصل الخوارج «يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم » وفى لفظ « تراقيهم ، لاتفقهه قلوبهم ، ليس لهم حظ منه إلا تلاوة الفم ، وإنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود » أى قتلا متأصلا لعامتهم . وفى رواية « إذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » وبهذا استدل من يقول بجواز قتل الخوارج . وقد قاتلهم على كرم الله وجهه . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الخوارج ، أهم كفار ؟ فقال : « من الكفرفروا، فقيل : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا وهؤلاء يذكرون الله كثيرا فقيل : ماهم ؟ فقال : أصابتهم فتنة فعموا وصموا» فلم يجعلهم صلى الله عليه وسلم كفارا لأنهم تعلقوا بضرب من التأويل ؛

وحينئذ يكون المراد بالدين فى وصفهم بالمروق من الدين الطاعة لا الملة ، ويبعده رواية بدل الإيمان : الإسلام ، وكان مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذا الخويصرة خرج منـــه حرقوص المعروف بذى الثدية ، وهو أول من بويـع من الخوارج بالأمانة .

والخوارج قوم يكفرون مرتكب الكبيرة ، ويحكمون بحبوط عمل مرتكبها وتخليده فى النار ، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر ولا يصلون جماعة .

وسبب مقاتلة سيدنا على كرّم الله وجهه لهم أنهم نقموا عليه التحكيم الذى وقع بينه وبين معاوية فى صفين ، وقالوا لا حكم إلا الله ، وأنت كفرت حيث حكمت الحكمين ، فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكمين واستأنفت التوبة والإيمان نظرنا فيما مسألتنا من الرجوع إليك ، وإن تكن الأخرى فإنا ننابذك على سواء (إن الله لا يهدى كيد الخائنين) فلما أيس من رجوعهم إليه قاتلهم . وحرقوص هذا أول مارق من الدين ، وكان رجلا أسود ، إحدى عضديه مثل ثدى المرأة . فقدجاء عنه صلى الله عليه وسلم « إن فيهم رجلاله عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض » .

ولما قاتلهم على كرّم الله وجهه وقتل غالبهم التمس ذلك الرجل فأتى به ، فإذا هو له ثدى كثدى المرأة . وفى رواية التمسوه فى القتلى فلم يجدوه ، فقام علىّ كرم الله وجهه بنفسه فطاف فى القتلى فأخرجوه من بينهم ، فكبر علىّ كرم الله وجهه ، ثم قال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول « إن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض » فقام إليه عبيدة السلمانى ، فقال يا أمير المؤمنين والله الذى لا إله إلا هو ، أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إى والله الذى لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثا وهو يحلف له .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء وجدوا فى أنفسهم » أى غضبوا « حتى كثرت منهم القالة » أى وهى القول الردىء « أى حتى قال بعضهم إن هذا لهو العجب يعطى قريشا » وفى لفظ : «الألفاء والمهاجرين ، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » أى وفى لفظ « إن هذا لهو العجب ، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش ، وإن غنائمنا تردّ عليهم » وفى رواية « إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى الغنيمة غيرنا » وفى رواية « سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالمغنم ، فإن كان من أمر الله صبرنا ، وإن كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم استعتبناه ، فدخل عليه سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم » ، أى غضبوا « لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شىء ، قال : فأين أنت من ذلك ياسعد؟ فقال : يارسول الله ماأنا إلا من قومى ، قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة » أى وهى قبة من أدم . أى وفى كلام بعضهم أن الحظيرة الزريبة التى تجعل للإبل والغنم من الشجر لتقيها من البرد والريح ، ولعل هذا باعتبار الأصل فلا مخالفة ؛ فلما اجتمعوا له أتى سعد إليه صلى الله عليه وسلم فقال : اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى فقال لهم : أفيكم أحد من غيركم ؟ قالوا لا إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم » وفى رواية « قال : من كان ههنا من غير الأنصار فليرجع إلى رحله » ، وذكر بعضهم أن سبب إيراد ابن أخت القوم منهم أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه «اجمع لى من هنا من قريش ، فجمعهم

له ثم قال : تخرج إليهم أم يدخلون ؟ قال : أخرج ، فخرج صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر قريش هل فيكم من غيركم ، قالوا : لا إلا ابن أختنا فذكره » ثم قال : « يامعشر قريش إن أولى الناس بى المتقون ، فانظروا لايأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها فأصدّ عنكم بوجهى » انتهى .

« فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار مامقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ » والمقالة كما علمت : الكلام الردىء ، والجدة : الغضب ، والمعروف أنه الموجدة ، ومن ثم قال بعضهم : الجدة فى المال ، والموجدة فى الغضب « ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف بين قلوبكم » أى وفى لفظ « وكنتم متفارقين فجمعكم الله » وفى لفظ « يا معشر الأنصار ألم يمنّ الله عليكم بالإيمان ، وخصكم بالكرامة ، وسماكم بأحسن الأسماء ، أنصار الله ، وأنصار رسوله ؟ قالوا : بلى الله ورسوله أمنّ وأفضل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنة والفضل » أى وفى لفظ « قالوا : يا رسول الله وجدتنا فى ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور ، ووجدتنا على شفا جرف من النار فأنقذنا الله بك . ووجدتنا ضلالا فهدانا الله بك ؛ فرضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، فافعل ماشئت ، فأنت يا رسول الله فى حل ، قال : إذن والله لو شئتم لقلتم فصدقتم أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فأغنيناك ، أى وخائفا فأمناك » أوى أى إن كان متعديا كما هنا فالأفصح المد ، وإن كان قاصرا فالأفصح القصر ، قال تعالى (وآويناهما إلى ربوة) وقال تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف) « قال فقال الأنصار : المن لله ولرسوله ، والفضل علينا وعلى غيرنا ، فقال : ماحديث بلغنى عنكم؟ فسكتوا ، فقال : ماحديث بلغنى عنكم ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم ، قالوا : يغفر الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » ، أى وفى رواية « ما الذى بلغنى عنكم ؟ قالوا هو الذى بلغك ، لأنهم لايكذبون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعطى رجالا حديثو عهد بكفر أتألفهم » اه أى وفى رواية « إن قريشا حديثوعهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لغاعة » بضم اللام وغينين معجمتين : أى شىء قليل من الدنيا « ألفت بها

قوماليسلموا ، أى ليحسن إسلامهم ويسلم غيرهم تبعالهم ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لايزلزل ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت رجلا من الأنصار » . أى لا نتسبت إلى المدينة « ولو سلك الناس شعبا » أى بكسر الشين المعجمة : وهو ما انفرج بين جبلين « وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار » وفى لفظ « فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا » أى وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : « ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى» ليس من المن المذموم فى قوله صلى الله عليه وسلم« آفة السماحة المن » بل هو من التذكير بنعمة الله ، لكن يشكل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار «ألا تجيبونى الخ» فليتأمل ، أى وقد جاء فى مدح الأنصار « اللهم اغفر للأنصار ، وأبناء الأنصار ، ولأزواج الأنصار ، ولذرارى الأنصار » الأنصار كرشى وعيبتى ، وإن الناس يكثرون ويقلون ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» وفى لفظ آخر : «اللهم صل على الأنصار ، وعلى ذرية الأنصار وعلى ذرية ذرية الأنصار » وقال للأنصار «أنتم شعار والناس دثار » أى والشعار الثوب : الذى يلى الجسد ، والدثار : الثوب الذى يكون فوق ذلك الثوب ، فهم ألصق به وأقرب إليه صلى الله عليه وسلم من غيرهم وقال«الأنصار حبهم إيمان ، وبغضهم نفاق ، اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار ، ولنساء أبناء أبناء الأنصار» . وفى لفظ « اللهم اغفر للأنصار ، ولذرارى الأنصار . ولذرارى ذراريهم ، ولمواليهم . ولجيرانهم ؛ لايبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» وقال « لاتؤذوا الأنصار ، فمن آذاهم فقد آذانى ، ومن نصرهم فقد نصرنى ، ومن أحبهم فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى ، ومن بغى عليهم فقد بغى على ، ومن قضى لهم حاجة كنت فى حاجته يوم القيامة أسرع . إن الله اختار دارهم لإعزاز دينه ، واختارهم لنبيه أنصارا» وقال صلى الله عليه وسلم «حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق » وقال فى الأنصار «لايحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » وقال لهم«اللهم أنتم أحب الناس إلى" قالها ثلاثاً » قال : وقال حسان رضى الله عنه فى مدح الأنصار :

سماهم الله أنصارا بنصرهم دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا للنائبات وماخافوا وماضجروا

انتهى

أى وقد وقع له صلى الله عليه وسلم نظير ذلك ؛ فعن عمرو بن ثعلبة : «أنه صلى الله عليه وسلم سبى فأعطى قوما ومنع قوما، وقال : إنا لنعطى قوما نخشى هلعهم وجزعهم ، ونكل قوما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن ثعلبة » فكان عمرو رضى الله عنه يقول : ما يسرنى أن لى بها حمر النعم .

ولما أسرت أخته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة الشيماء بشين معجمة مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة وميم بمدة ، ويقال الشماء بغير ياء، واختلف فى اسمها صارت تقول : والله إنى أخت صاحبكم ولا يصدقوها، فأخذها طائفة من الأنصار حتى أتوابها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا محمد إنى أختك ، قال : وما علامة ذلك ؟ » الحديث « ثم قال لها ارجعى إلى الجعرانة تكونين مع قومك ، فإنى أمضى إلى الطائف ، فرجعت إلى الجعرانة ، فلما قدم صلى الله عليه وسلم الجعرانة جاءته ، فقالت : يا رسول الله إنى أختك ، أى وأنشدته أبياتا ، قال : وما علامة ذلك » بكسر الكاف لأنه خطاب لمؤنث « قالت عضة عضضتنيها فى ظهرى » وفى رواية « فى وجهى » وفى رواية « فى إبهامى وأنا متوركتك ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة . وفى رواية « قال لها إن تكونى صادقة فإن بك منى أثرا لن يبلى ، فكشفت عن عضدها ، ثم قالت : نعم يا رسول الله ، حملتك وأنت صغير فعضضتنى هذه العضة ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة » فليتأمل « وعند ذلك قام صلى الله عليه وسلم لها قائما وبسط لها رداءه وأجلسها عليه . أى ودمعت عيناه ، وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما ؛ أى وقال لها : سلى تعطى ، واشفعى تشفعى ، فاستوهبته السبى ؛ أى بعد أن قال لها قومها : إن هذا الرجل أخوك ؛ فلو أتيته فسألته قومك لرجونا أن يحابينا ، فأتته فقالت : أتعرفنى ؟ قال : ما أنكرك فمن أنت ؟ قالت : أنا أختك بنت أبى ذؤيب ، وآية ذلك أنى حملتك ذات يوم فعضضت كتفى عضة شديدة هذا أثرها فرحب بها ، ثم استوهبته السبى وهم ستة آلاف فوهبه لها ، فما عرفت مكرمة مثلها ، ولا امرأة هى أيمن على قومها منها ، وخيرها صلى الله عليه وسلم وقال : إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أمتعتك وترجعى إلى قومك ، قالت : بلى تمتعنى وتردنى إلى قومى ، فأعطاها غلاما يقال له مكحول وجارية ، وقيل بل أعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعما وشاء » وقيل إن القادمة عليه صلى الله عليه وسلم أمه من الرضاع التى هى حليمة ، وتقدم الكلام على ذلك .

قال بعضهم : وهذا العطاء الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤلفة من قريش إنما كان من خمس الخمس الذى هو سهمه صلى الله عليه وسلم ، لا من أربعة أخماس الغنيمة وإلا لاستأذن الغانمين فى ذلك ، لأنهم ملكوها بحوزهم لها .

ثم قدم صلى الله عليه وسلم وفد هوازن ، وهم أربعة عشر رجلا مسلمين ورأسهم زهير ابن صرد وفى لفظ يكنى بأبى صرد ، وأبو برقان بالموحدة ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، أى فقالوا : يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك . وفى رواية قالوا : يا رسول الله إن فيمن أصبتهم الأمهات والأخوات والعمات والخالات ، وهن مخازى الأقوام ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال زهير : يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك أى لأن مرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة كانت من هوازن ، أى وقال له أيضا : ولو ملحنا أى أرضعنا للحارث بن أبى شمر : أى ملك الشام ، أو للنعمان بن المنذر : أى ملك العراق ، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين وأنشده أبياتا يستعطفه صلى الله عليه وسلم بها منها :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

أى الدفعات الكثيرة من اللبن * إنا لنشكر للنعماء إن كفرت * أى جحدت . وفى لفظ :

إنا لنشكر آلاء وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفوا منك نلبسه ... هدى البرية أن تعفو وتنتصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر

فقال صلى الله عليه وسلم : «إن أحسن الحديث أصدقه ، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟» أى وفى لفظ البخارى « أحب الحديث إلىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبى ، وإما المال » وفى رواية « وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون » أى لأنه صلى الله عليه وسلم انتظرهم بعد أن قفل من الطائف بضع عشرة . وفى لفظ « أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : قد وقعت المقاسم مواقعها ، فأى الأمرين أحبّ إليكم ؟ أطلب لكم السبى أم الأموال ؟ » وإنما قال صلى الله عليه وسلم لهم : قد وقعت المقاسم ، أى لأنه لا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم ، وإنما يمن عليهم

قبله كما وقع له صلى الله عليه وسلم فى يهود خيبر ، ولا يخفى أن هذا فى الرجال دون الذرارى « فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا ، ولا نتكلم فى شاة ولا بعير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما مالى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، أى وقال لهم : فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أبنائنا ونسائنا ، أى بعد أن قال لهم صلى الله عليه وسلم : أظهروا إسلامكم وقولوا نحن إخوانكم فى الدين ، فسأسأل لكم الناس ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن أثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل » كذا فى البخارى .

وفى لفظ « أنه صلى الله عليه وسلم قال : وأما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى أسبيه » .

وفى رواية « فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره فليفعل ، ومن كره أن يعطى ويأخذ الفداء فعلىّ فداؤهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون والأنصار رضى الله تعالى عنهم : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال العباس بن مرداس : وهنتمونى : أى أضعفتمونى حيث صيرتمونى منفردا » .

وفى رواية « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء القوم جاءوا مسلمين وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده من النساء سبى فطابت نفسه أن يرده فليردّه ، ومن أبى فليرد عليهم ذلك قرضا علينا بكل إنسان ست فرائض من أوّل ما يفىء الله علينا ، قالوا : رضينا وسلمنا ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، ولما فرق صلى الله عليه وسلم النساء نادى مناديه : ألا لاتوطأ الحبالى حتى يضعن ، ولا غير الحبالى حتى يستبرئن بحيضة » .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ، قال « أصبنا سبايا يوم حنين ، فكنا نلتمس فداءهن ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل ، فقال : اصنعوا مابدا لكم ، فما قضى الله فهو كائن ، وليس من كل الماء يكون الولد » قال أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه : وكانت اليهود تزعم أن العزل الموءودة الصغرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت اليهود ، ولو أراد الله أن يخلقه لم يستطع أحد أن يصرفه » وجاء « لو أن الماء الذى يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولدا » وقد جاء فى الحديث ماقالت اليهود . ففى مسلم وابن ماجه « العزل الوأد الخفى » أى لأن التحرز عن الولد بالعزل كدفنه حيا فليتأمل ، وقد مر الكلام على ذلك مبسوطا .

والفريضة : البعير الذى يؤخذ فى الزكاة لأنه فرض وواجب على رب المال ، وإلى عفوه صلى الله عليه وسلم عن هوازن ، أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

منّ فضلا على هوازن إذ	كان له قبل ذاك فيهم رباء
وأتى السبى فيه أخت رضاع	وضع الكفر قدرها والسباء
فحباها برا توهمت النا	س به أنما السباء هداء
بسط المصطفى لها من رداء	أىّ فضل حواه ذاك الرداء
فغدت فيه وهى سيدة النسـ	ـوة والسيدات فيه إماء

أى أعتق صلى الله عليه وسلم هوازن قبيلة أمه من الرضاعة التى هى حليمة السعدية ، وكانوا ستة آلاف آدمى وإنما أعتقهم لأجل أنه صلى الله عليه وسلم كان له وهو طفل فيهم رباء بفتح الراء والمد : أى تربيته فيهم ، ولأجل أن أخته من الرضاعة أتت فى ذلك السبى ، وتلك الأخت صغر كفرها وسباؤها قدرها الرفيع بأخوته صلى الله عليه وسلم فأعطاها برا وفعل معها معروفا حتى وقع فى وهم الحاضرين بسبب ذلك أن سباءها هداء لها بكسر الهاء كالعروس التى تهدى لزوجها ، ومن بره صلى الله عليه وسلم لها أنه بسط لها رداءه لتجلس عليه ، أى شرف لذلك الرداء شرف عظيم ، لاغاية له بسبب مماسته لجسده الشريف فصارت فى ذلك السبى سيدة من فيه من النساء ، وصار السيدات التى فيه بالنسبة إليها إماء؛

ل الجمع بين كون أخته المذكورة هى الشافعة فى السبى وقبلت شفاعتها ، وبين كون السائل فيهم هوازن ، والأصل اقتصر على سؤال الوفد ، وردّ جميع السبى ، ولم يتخلف منه أحد إلا عجوز من عجائزهم ، كانت عند عيينة بن حصن أبى أن يردها ، وقال حين

أخذها: أرى عجوزا إنى لأحسب أن لها فى الحى نسبا وعسى أن يعظم فداؤها ، ثم ردها بعد ذلك بعشر من الإبل ؛ وقيل بست أخذ ذلك من ولدها بعد أن ساومه فيها مائة من الإبل، وقال له ولدها: والله ماثديها بناهد، ولا بطنها بوالد ، ولا فوها ببارد، ولا صاحبها بواجد : أى بحزين لفراقها، ولا درها بناكد بالنون : أى غزير وهو من الأضداد . وقيل قائل ذلك له زهير .

وقد يقال : لامخالفة لجواز أن زهيرا هو ولدها ، فقال عيينة: خذها لا بارك الله لك فيها ، قال وذلك ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم ، دعا على من أبى أن يرد من السبى شيئا أن يبخس ، أى يكسد ، فإن ولدها دفع له فيها مائة من الإبل فأبى ، ثم غاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه فقال : خذها بالمائة ، فقال لا أدفع إلا خمسين فأبى ، فغاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه فقال : خذها بخمسين فقال لا أدفع إلا خمسة وعشرين فأبى . فغاب عنه ثم مر عليه معرضا عنه ، فقال خذها بالخمسة والعشرين فقال : لا آخذها إلا بعشرة. وفى رواية إلا بستة فقال له ما تقدم ، ولما أخذها ولدها قال لعيينة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسا السبى قبطية قبطية ، فقال : لا والله ما ذاك لها عندى ، فما فارقها حتى أخذ لها منه ثوبا ، والقبطية بضم القاف: وهو ثوب أبيض من ثياب مصر منسوب للقبط وهم أهل مصر وضم القاف من التغيير فى النسب .

أى وفى كلام بعضهم وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا أن يقدم مكة فيشترى للسبى ثياب المتعة فلا يخرج الحر منهم إلا كاسيا ، قال : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبس أهل مالك بن عوف النضرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية ، وكلمه الوفد فى ذلك ، فقالوا : يا رسول الله أولئك سادتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أريد بهم الخير ، ولم يجز أن تجرى السهمان فى مال مالك بن عوف ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد هوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا : يارسول الله هرب ، فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبروه أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل ، فلما بلغ مالكا ماصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه وأن ماله وأهله موفور ، وما وعده به نزل من الحصن مستخفيا خوفا أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال ، وركب فرسه وركضه ، حتى أتى الدهناء، محلا معروفا ، ركب راحلته ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدركه

بالجعرانة ، وأسلم وردّ عليه أهله وماله ، واستعمله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من هوازن ، فكان لا يقدر على سرح لثقيف إلا أخذه ولا رحل إلا ميله ، وكان رضى الله تعالى عنه يرسل بالخمس مما يغنم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

أى وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المحل الذى هو الجعرانة ، وهو المراد بقول بعضهم وهو بحنين ، لأن المراد منصرفه من غزوة حنين ، وعلى ذلك الأعرابى جبة وهو متضمخ بخلوق أى مصفر لحيته ورأسه ، وقد أحرم بعمرة فقال : أفتنى يا رسول الله . وفى رواية قال له : كيف ترى فى رجل أحرم فى جبة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فسكت ساعة ثم نزل عليه الوحى ، فلما سرى عنه قال : أين السائل عن العمرة اخلع عنك الجبة ، واغسل عنك أثر الخلوق . وفى رواية قال له صلى الله عليه وسلم ماكنت تصنع فى حجك ؟ قال : كنت أنزع هذه الجبة ، وأغسل هذا الخلوق ، فقال صلى الله عليه وسلم : اصنع فى عمرتك ماكنت صانعا فى حجك . واستند لذلك من يقول بحرمة التطيب قبل الإحرام بما يبقى عند الإحرام . والراجح عند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه استحباب ذلك .

وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل فوقف على رأسه الشريف صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لى عندك موعدا ، فقال صلى الله عليه وسلم له : صدقت فاحتكم ، فقال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : هى لك ، ولقد احتكمت يسيرا ، ولصاحبة موسى عليه الصلاة والسلام التى دلته على عظام يوسف عليه الصلاة والسلام كانت احزم وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه الصلاة والسلام ، فقالت حكمى أن تردنى شابة ، وأدخل معك الجنة ، كذا ذكره الغزالى رحمه الله . قال السخاوى : وهذا أخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده ، وفيه نظر كما قال العراقى ، وهذا أصل فى عدم إخلاف الوعد بالخير .

ونقل الإمام النووى رحمه الله أن جماعة ذهبوا إلى وجوب الوفاء بذلك ؛ ووجهه السبكى رحمه الله بأن إخلاف الوعد كذب ، والكذب حرام وترك الحرام واجب .

وذكر الغزالى رحمه الله أن إخلاف الوعد لا يكون كذبا إلا إذا عزم حين الوعد على عدم الوفاء .

أى ويدل لذلك ماجاء عن عبدالله بن ربيعة قال «جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : ياعبد الله تعال أعطك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، قال : لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة» .

وأحرم صلى الله عليه وسلم من الجعرانة ودخل مكة ليلا ، واستمر يلبي حتى استلم الحجر ، ثم رجع من ليلته ، وأصبح بها كبائت . وفي لفظ : أصبح بمكة كبائت وفيه نظر ، ولم يسق هديا في هذه العمرة وحلق رأسه وكان الحالق لرأسه الشريف أبا هند الحجام وقيل أبو خراش بن أمية الذي حلق رأسه صلى الله عليه وسلم في الحديبية ، وأتى بأعمال العمرة بعد أن أقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ، وقال : اعتمر منها سبعون نبيا .

غزوة تبوك

بعدم الصرف للعلمية والتأنيث : ووقع في البخاري صرفها نظرا للموضع ، أي ويقال لها غزوة العسيرة ، ويقال لها الفاضحة ، لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين .

ففي شهر رجب سنة تسع أي بلا خلاف ، ووقع في البخاري أنها كانت بعد حجة الوداع ، قيل وهو غلط من النساخ ؛ بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء المحل المعروف .

أي وذكر بعضهم أن سبب ذلك أن متنصرة العرب كتبت إلى هرقل : إن هذا الرجل الذي قد خرج يدعي النبوّة هلك وأصابت أصحابه سنون أهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفا ، أي ولم يكن لذلك حقيقة ، أي وإنما ذلك شيء قيل لمن يبلغ ذلك للمسلمين ليرجف به وكان ذلك في عسرة في الناس وجدب في البلاد ، أي وشدة من نحو الحر ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم [ ] أي وكونه عند طيب الثمار يؤيد قول عروة بن الزبير : إن خروجه صلى الله عليه وسلم لتبوك كان في زمن الخريف ، ولا ينافي ذلك وجود الحر في ذلك الزمن ، لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وورّى بغيرها ، إلا ما كان من غزوة تبوك لبعد المشقة وشدة الزمن ، أي وكثرة العدو ، وليأخذ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز ، أي وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ،

أى أكد عليهم فى طلب ذلك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وأنفق عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، قال : فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ، وهى تسعمائة بعير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ماتربط به الأسقية .

أى وفى كلام بعضهم أنه أعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرسا ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارض عن عثمان ، فإنى عنه راض » .

أى وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان يقول : اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه » وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « سألت ربى أن لايدخل النار من صاهرته أو صاهرنى » .

وجاء رضى الله تعالى عنه بألف دينار فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه ويقول : «ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم يرددها مرارا» اه .

وفى رواية « جاء بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبت بين يديه ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول بيديه ويقلبها ظهرا لبطن ، ويقول : غفر الله لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما كان منك ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالى ما عمل بعدها » أى ولعل هذه العشرة الآلاف هى التى جهز بها العشرة آلاف إنسان وإنها أى العشرة غير الألف التى صبها فى حجره صلى الله عليه وسلم .

وأنفق غير عثمان أيضا من أهل الغنى قال : وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئا . قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئا قال : النصف الثانى . وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه بمائة أوقية ، أى ومن ثم قيل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما كانا خزنتين من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله تعالى . وجاء العباس رضى الله تعالى عنه بمال كثير ، وكذا طلحة رضى الله تعالى عنه ، وبعثت النساء رضى الله تعالى عنهن بكل

ما يقدرن عليه من خليهن . وتصدق عاصم بن عدى رضى الله تعالى عنه بسبعين وسقا من تمر اه. وجاءه صلى الله عليه وسلم جمع ، أى سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يتحملونه : أى يسألونه أن يحملهم . فقال صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ، وعند ذلك (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لايجدوا ماينفقون) أى مايحملهم ، ومن ثم قيل لهم البكاءون ، ومنهم العرباض بن سارية رضى الله تعالى عنه ؛ ولم يذكره القاضى البيضاوى فى السبعة . وحمل العباس رضى الله تعالى عنه منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان رضى الله تعالى عنه بعد الجيش الذى جهزه ثلاثة ، أى وحمل يا ميز بن عمرو النضرى اثنين دفع لهما ناضحا له وزود كل واحد منهما صاعين من تمر . وعدهم مغلطاى ثمانية عشر .

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم ، فقلت : يانبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم ، فقال والله لا أحملكم على شى . وفى رواية : والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه ، فرجعت حزينا إلى أصحابى من منع النبى صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى نفسه حيث حلف على أن لا يحملهم . قال : فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادى أين عبد الله ابن قيس ؟ فأجبته قال: أجب، رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ، فلما أتيته قال : خذ هذه الستة أبعرة فانطلق بها إلى أصحابك . زاد بعضهم : فعند ذلك قال بعضهم لبعض أغلقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أى حملناه على يمين الغلق وقد حلف أن لايحملنا ثم حملنا فوالله لابارك لنا فى ذلك ، فأتوه فذكروه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أنا ماحملتكم، الله حملكم، ثم قال: «إنى لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير » أى فهو صلى الله عليه وسلم إنما حلف أن لا يتكلف لهؤلاء حملا بقرض ونحوه مادام لايجد لهم حملا فلاحنث. وفيه أن هذا لايناسب قوله: إنى لا أحلف إلى آخره .

وأجيب بأن هذا استثبات قاعدة لاتدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم حنث فى يمينه بل خرج الكلام على تقدير . كأنه قال لو حنثت فى يمينى حيث كان الحنث خيرا وكفرت عنها لكان ذلك شرعا واسعا بل ندبا راجحا ، ويؤيده أنه لم ينقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفرعن هذه اليمين ، وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله .

وقد يقال: إن حمل العباس رضى الله تعالى عنه اثنين منهم إلى آخره كان قبل وجود هذه الأبعرة الستة ، أو يدعى أن هؤلاء غير من تقدم .

فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بالناس وهم ثلاثون ألفا ، أى وقيل أربعون ألفا ، وقيل سبعون ألفا وكانت الخيل عشرة آلاف فرس ، وقيل بزيادة ألفين .

وخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله تعالى عنه على ما هو المشهور ، وقال الحافظ الدمياطى رحمه الله : وهو أثبت عندنا ، وقيل سباع بن عرفطة ، أى وقيل ابن أم مكتوم ، وقيل على بن أبى طالب، قال ابن عبدالبر : وهو الأثبت ، هذا كلامه .

وفى كلام ابن إسحاق: وخلف عليا كرّم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، وتخلف عنه عبد الله بن أبىّ ابن سلول ومن كان من المنافقين بعد أن خرج بهم ، وعسكر عبد الله بن أبىّ على ثنية الوداع ، أى أسفل منها، لأن معسكره صلى الله عليه وسلم كان على ثنية الوداع ،وكان عسكر عبد الله بن أبىّ أسفل منه. قال ابن إسحاق رحمه الله : وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين ، أى والتعبير عن ذلك بالزعم واضح لأنه يبعد أن يكون عسكر عبد الله مساويا لعسكره صلى الله عليه وسلم فضلا عن كونه أكثر منه فليتأمل ، وقال عند تخلفه : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحرّ والبلد البعيد : أى مالا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال ، يقول ذلك إرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه أى وقيل للروم بنو الأصفر ، لأنهم ولد روم بن العيص بن إسحاق نبى الله عليه السلام ، وكان يسمى الأصفر لصفرة به .

فقد ذكر العلماء بأخبار القدماء أن العيص تزوّج بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم وكان به صفرة ، فقيل له الأصفر ، وقيل الصفرة كانت بأبيه العيص [ ] .

ولما ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورايته صلى الله عليه وسلم العظمى للزبير رضى الله عنه ، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير رضى الله عنه ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر رضى الله عنه ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء وراية ، أى لبعضهم راية ولبعضهم لواء ، وكان قد اجتمع جمع من المنافقين أى فى بيت سويلم اليهودى ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر .

أى وهم الروم كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنهم يعنى الصحابة غدا مقرنون فى الحبال ، يقولون ذلك إرجافا وترهيبا للمؤمنين ، والجلاد : الضرب بالسيوف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك لعمار بن ياسر رضى الله عنه « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه وقالوا (إنما كنا نخوض ونلعب) فأنزل الله تعالى (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) وقال صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس : يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ، قال : يارسول الله أو تأذن لى أى فى التخلف ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك ، فأنزل الله تعالى (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) الآية . وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اغزوا تبوك تغنموا بنات بنى الأصفر نساء الروم ، فقال قوم من المنافقين : ائذن لنا ولا تفتنا فأنزل الله تعالى الآية (ألا فى الفتنة سقطوا) » أى التى هى التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة عنه .

وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال للجد بن قيس : « يا أبا قيس هل لك أن تخرج معنا لعلك تحقب : أى تردف خلفك من بنات بنى الأصفر ، فقال ما تقدم » وعند ذلك لامه ولده عبد الله رضى الله عنه وقال له : والله ما يمنعك إلا النفاق ، وسينزل الله فيك قرآنا فأخذ نعله وضرب به وجه ولده ، فلما نزلت الآية قال له : ألم أقل لك ؟ فقال له : اسكت يا لكع ، فوالله لأنت أشد علىّ من محمد . وفى رواية أن الجد بن قيس لما امتنع واعتذر بما تقدّم قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ولكن أعينك بمالى ، فأنزل الله تعالى (قل أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم) وتقدّم أنه لم يبايع بيعة الرضوان ، وتقدم أنه تاب من النفاق وحسنت توبته ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال لبنى ساعدة : « من سيدكم ؟ فقالوا : الجد بن قيس على بخل فيه ، فقال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ قالوا : يا رسول الله من سيدنا ؟ فقال : بشر بن البراء بن معرور » . وفى رواية « سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » وذكر ابن عبد البر أن النفس أميل إلى الأوّل ومات الجد بن قيس فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقال بعض المنافقين لبعض : لاتنفروا فى الحرّ فأنزل الله تعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى يعلمون (وجاء المعذرون) أى وهم الضعفاء والمقلون (من

الأعراب ليؤذن لهم) فى التخلف فأذن لهم ، وكانوا اثنين وثمانين رجلا وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جراءة على الله ورسوله ، وقد عناهم الله تعالى بقوله (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) .

قال السهيلى : وأهل التفسير يقولون إن آخر براءة نزل قبل أولها ، وإن أوّل ما نزل منها (انفروا خفافا وثقالا) قيل معناه شبابا وشيوخا ، وقيل أغنياء وفقراء ، وقيل أصحاب شغل وغير ذى شغل وقيل ركبانا ورجالة ، ثم نزل أولها فى نبذ كل ذى عهد إلى صاحبه كما تقدّم .

وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير عذر ، وكانوا ممن لايتهم فى إسلامه .

ولما خلف صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه أرجف به المنافقون ، وقالوا ماخلفه إلا استثقالا له ، وحين قيل فيه ذلك أخذ على كرّم الله وجهه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال : يا نبى الله زعم المنافقون أنك ماخلفتنى إلا استثقلتنى وتخففت منى ، فقال : « كذبوا ، ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى ياعلىّ أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » أى فإن موسى عليه السلام حين توجه إلى ميقات ربه استخلف هرون عليه السلام فى قومه ، فرجع علىّ إلى المدينة .

وعن على كرّم الله وجهه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة وخلف جعفرا فى أهله ، فقال جعفر : والله لا أتخلف عنك ، فخلفنى ، فقلت : يا رسول الله أتخلفنى إلى شىء تقول قريش ، أليس يقولوان ما أسرع ماخذل ابن عمه وجلس عنه ، وأخرى أبتغى الفضل من الله ، لأنى سمعت الله يقول (ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار) الآية ، فقال : أما قولك أن تقول قريش ما أسرع ماخذل ابن عمه وجلس عنه ، فقد قالوا إنى ساحر وإنى كاهن وإنى كذاب ، وأما قولك تبتغى الفضل من الله ، فلك أبى أسوة أى حيث تخلفت عن بعض مواطن القتال ، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى عليهما السلام » أى ولم يتخلف عنه على كرّم الله وجهه فى مشهد من المشاهد إلا فى هذه الغزوة .

وادعت الرافضة والشيعة أن هذا من النص التفصيلى على خلافة علىّ كرم الله وجهه ،

قالوا لأن جميع المنازل الثابتة لهرون من موسى سوى النبوّة ثابتة لعلى كرم الله وجهه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلا لما صح الاستثناء : أى استثناء النبوّة بقوله « إلا أنه لا نبى بعدى » ومما ثبت لهرون من موسى عليه السلام استحقاقه للخلافة عنه لو عاش بعده : أى دون النبوّة .

وردّ بأن هذا الحديث غير صحيح كما قاله الآمدى . وعلى تسليم صحته ، بل صحته هى الثابتة لأنه فى الصحيحين — فهو من قبيل الآحاد ، وكل من الرافضة والشيعة لا يراه حجة فى الإمامة . وعلى تسليم أنه حجة فلا عموم له ، بل المراد ما دل عليه ظاهر الحديث أن عليا كرم الله وجهه خليفة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أهله خاصة مدة غيبته بتبوك ، كما أن هرون كان خليفة عن موسى فى قومه مدة غيبته عنهم للمناجاة . فعلى تسليم أنه عام لكنه مخصوص والعام المخصوص غير حجة فى الباقى أو حجة ضعيفة. وقد استخلف صلى الله عليه وسلم فى مرار أخرى غير علىّ فيلزم أن يكون مستحقا للخلافة ، وصار بعد مسيره صلى الله عليه وسلم يتخلف عنه الرجل ، فيقال تخلف فلان ، فيقول دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

وكان ممن تخلف عن مسيره معه صلى الله عليه وسلم أبو خيثمة . ولما أن سار صلى الله عليه وسلم أياما دخل أبو خيثمة على أهله فى يوم حارّ فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى حائط قد رشت كل منهما عريشتها ، وبرّدتا فيها ماء ، وهيأتا طعاما ، وكان يوما شديد الحر ، فلما دخل نظر إلى امرأتيه وماصنعتا فقال رضى الله عنه : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحرّ ، وأبو خيثمة فى ظلّ بارد وماء مهيأ ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئا لى زادا ففعلتا . ثم قدّم ناضحه فارتحل وأخذ سيفه ورمحه كما فى الكشاف ، أى ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل بتبوك ، وقد كان أبو خيثمة أدرك عمير بن وهب فى الطريق يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا حتى دنوا من تبوك. فقال أبو خيثمة لعمير : إن لى ذنبا فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ، فلما دنا أبو خيثمة قال الناس : هذا ركب مقبل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا خيثمة . فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أولى لك يا أبا خيثمة ؛ ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير : أى وأولى لك كلمة تهديد وتوعد .

ولما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر ديار ثمود سجى ثوبه على رأسه واستحث راحلته ، وقال « لاتدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم » ، أى لأن البكاء يتبعه التفكر والاعتبار ، فكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالتفكر فى أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر ، مع تمكينه لهم فى الأرض ، وإمهالهم مدة طويلة ، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه ، وهو سبحانه يقلب القلوب ، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك « ونهى صلى الله عليه وسلم الناس أن يشربوا من مائها شيئا ، وأن لايتوضئوا به للصلاة ، وأن لايعجن به عجين وأن لايحاس به حيس ، ولا يطبخ به طعام ، وأن العجين الذى عجن به أو الحيس الذى فعل به يعلفونه الإبل ، وأن الطبيخ الذى طبخ به يلقى ولا يأكلوا منه شيئا » .

ثم ارتحل بالناس : أى لا زال سائرا حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة ، أى وقال : من كان له بعير فليشد عقاله ، ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه صاحبه ؛ فخرج شخص وحده لحاجته فخنق ، وخرج آخر كذلك فى طلب بعير له ندّ فاحتمله الريح حتى ألقته بجبل طيء ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؛ ثم دعا للذى خنق فشفى ، والذى ألقته الريح بجبل طيء ، فأرسلته طيء له صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضى الله عنه يصلى بالناس . واستعمل على حرس العسكر عباد ابن بشر ، فكان يطوف فى أصحابه على العسكر . ثم أصبح الناس ولا ماء معهم : أى وحصل لهم من العطش ماكاد يقطع رقابهم ، حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها .

فعن عمر رضى الله عنه : خرجنا فى حرّ شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده . وفى لفظ : على صدره ، فشكوا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى قال له أبو بكر : يا رسول الله قد

عوّدك الله من الدعاء خيرا فادع الله لنا ، قال أتحب ذلك ؟ قال نعم ، فدعا ، أى ورفع يديه فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون إليه ، قال : وذكر بعضهم أن تلك السحابة لم تتجاوز العسكر ، وأن رجلا من الأنصار قال لآخر متهم بالنفاق : ويحك قد ترى ، فقال : إنما مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى (وتجعلون رزقكم) أى بدل شكر رزقكم (أنكم تكذبون) أى حيث تنسوبه للأنواء . وقيل إنه قال له : ويحك ، هل بعد هذا شىء ؛ قال : سحابة مارّة انتهى .

وفى لفظ أنهم لما شكوا إليه صلى الله عليه وسلم شدة العطش . قال صلى الله عليه وسلم لعلىّ : لو استسقيت لكم فسقيتم قلتم هذا بنوء كذا وكذا . فقالوا : يا نبىّ الله ماهذا بحين أنواء فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ ثم قام فصلى ، فدعا الله تعالى ، فهاجت ريح وثار سحاب فمطروا حتى سال كل واد ، فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يغرف بقدحه ، ويقول : هذا نوء فلان فنزلت الآية .

وضلت ناقته صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل من المنافقين الذين خرجوا معه صلى الله عليه وسلم ليس غرضهم إلا الغنيمة : إن محمدا يزعم أنه نبى ، وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن رجلا يقول كذا وكذا ، وإنى والله لا أعلم إلا ماعلمنى الله ، وقد دلنى الله عليها أنها فى شعب كذا وكذا ، وقد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها ، فذهبوا فوجدوها كذلك ، فجاءوا بها ، أى وتقدم له صلى الله عليه وسلم نظير هذا فى غزوة بنى المصطلق التى هى المريسيع ، ولابعد فى تعدد الواقعة ، ويحتمل أن يكون من خلط بعض الرواة .

ولما سمع بذلك بعض الصحابة جاء إلى رحله ، فقال لمن به : والله لعجب فى شىء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقالة قائل أخبره الله عنه وذكر المقالة . فقال له بعض من فى رحله : هذه المقالة قالها فلان يعنى شخصا فى رحله أيضا قالها قبل أن تأتى بيسير ، فقال : ياعباد الله فى رحلى داهية وما أشعر : أى عدوّ الله اخرج من رحلى ولا تصحبنى فيقال : إنه تاب ، ويقال إنه لم يزل منها بشرّ حتى هلك .

وتباطأ جمل أبى ذرّ رضى الله عنه لما به من الإعياء والتعب ، فتخلف عن الجيش فأخذ متاعه وحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فأدركه نازلا فى بعض المنازل ، أى وقبل مجيئه قالوا له : يا رسول الله تخلف أبو ذرّ وأبطأ به بعيره .

فقال صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ولما أشرف على ذلك المنزل ونظره شخص يمشى ، فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم ، قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » وكان كما قال صلى الله عليه وسلم إنه يموت وحده . فقد مات رضى الله عنه وحده بالربذة لما أخرجه عثمان رضى الله عنه إليها .

أى فإنه بعد موت أبى بكر رضى الله عنه خرج من المدينة إلى الشام . فلما ولى عثمان رضى الله عنه شكاه معاوية رضى الله عنه إليه ، فإنه كان يغلظ على معاوية فى بعض أمور تقع منه ، فاستدعاه عثمان رضى الله عنه من الشام ثم أسكنه الربذة ، ولم يكن معه إلا امرأته وغلامه ، فوصاهما عند موته أن غسلانى وكفنانى ثم اجعلانى على قارعة الطريق ، فأول من يمر بكم قولا له هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، فلما مات رضى الله عنه فعلا به ذلك . وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق فوجدوا الجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها فقام إليهم الغلام وقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، فاستهل عبد الله ابن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله، تمشى وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود خبره .

أى وفى الحدائق عن أم ذر قالت : لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت ، فقال : مايبكيك؟ قلت : ومالى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ولابد لنا من معين على دفنك ، وليس معنا ثوب يسعك كفنا . فقال : لاتبكى وأبشرى ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات فى قرية، وإنى أنا الذى أموت بالفلاة، والله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبت. وفى رواية : ما كذبت ولا كذبت فانظرى الطريق . فقالت : قد ذهب الحاج وتقطعت السبل . فقال : انظرى ؛ فقالت : كنت أشتد إلى الكثيب فأقوم عليه ثم أرجع إليه فأمرضه ، فبينما أنا كذلك إذا أنا برجال على

رواحلهم كأنهم الرخم فألحت بثوبى، فأسرعوا إلىّ ووضعوا السياط فى نحورها يستقبلون إلىّ ، فقالوا مالك يا أمة الله ؟ فقلت : امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه ، قالوا : ومن هو؟ قلت أبو ذر . قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت نعم، فأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا عليه فرحب بهم. وقال: أبشروا فإنكم عصابة من المؤمنين وحدثهم الحديث ، وقال : والله لو كان لى أو لها مايسعنى كفنا ما كفنت إلا فيه ، وإنى أنشدكم الله والإسلام لايكفننى منكم رجل كان أميرا ولا عريفا ولا بريدا أو نقيبا ، ولم يكن منهم أحد سلم من ذلك إلا فتى من الأنصار ، فقال : والله لم أصب مما ذكرت شيئا أن أكفنك فى ردائى هذا وثوبين معى من غزل أمى ، فمات فكفنه الفتى الأنصارى ودفنه فى النفر الذين معه .

أقول : يحتاج إلى الجمع بين هذا وما تقدم . وقد يقال : لاينافى ذلك ماتقدم عن ابن مسعود رضى الله عنه ، لجواز أن يكون قدومه بعد أن كفن بكفن الأنصارى، ولا ينافى ذلك ماتقدم من قول الراوى : فلما مات فعلا : أى زوجته وغلامه ذلك : أى غسله وتكفينه ، ولا ينافى ذلك قول الغلام لابن مسعود ومن معه : أعينونا على دفنه . ولا ينافى ذلك قول الراوى هنا : ودفنه : أى الفتى الأنصارى فى النفر الذين معه ، لأن ذلك يقال إذا اشتركوا مع غيرهم فى ذلك .

وأبو ذر رضى الله عنه اسمه جندب ، وقيل اسمه سلمة بن جنادة . وكان من أوعية العلم المبرزين فى الزهد والورع والقول بالحق . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حقه « ماأظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر » وكان رضى الله عنه من الأقدمين فى الإسلام . قال ابن عبد البر : كان خامس رجل أسلم فليتأمل . وقال صلى الله عليه وسلم « أبو ذر فى أمتى شبيه عيسى ابن مريم فى زهده » وبعضهم يرويه « من ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبى ذر » وإلى وجود ما أخبر صلى الله عليه وسلم عن أبى ذر من أنه يموت وحده أشار الإمام السبكى رحمه الله تعالى فى تائيته بقوله :

وعاش أبو ذر كما قلت وحده ... ومات وحيدا فى بلاد بعيدة

قال : وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أنه قال: لما كنا فيما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته بعد الفجر وتبعته بماء فأسفر الناس بصلاتهم التى هى صلاة الفجر فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فصلى بهم ، فانتهى صلى الله عليه

وسلم بعد أن توضأ ومسح خفيه لعبد الرحمن بن عوف وقد صلى ركعة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن ركعة وقام ليأتى بالركعة الثانية ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم بعد فراغه : أحسنتم أو أصبتم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » اه أى ولعل هذا لاينافى ماتقدم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضى الله عنه يصلى بالناس ، وقوله « لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل خاف الصديق فى هذه الغزوة حيث يصلى بالعسكر فليتأمل .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « عبد الرحمن سيد من سادات المسلمين » ولا يخالف هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما « لم يصل النبى صلى الله عليه وسلم خلف أحد من أمته إلا خلف أبى بكر » أى فى مرض موته ، لأن المراد صلاة كاملة أو تكرر الصلاة هذا .

وفى الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم فيما حكى القاضى عياض رحمه الله أنه لايجوز لأحد أن يؤمه صلى الله عليه وسلم لأنه لايصح التقدم بين يديه فى الصلاة ولا غيرها لالعذر ولا لغيره .

وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك ، ولا يكون أحد شافعا له وقد قال « أئمتكم شفعاؤكم » ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه « ما كان لابن أبى قحافة أن يتقدم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » فليتأمل .

ولما نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء ، فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت .

قال : وعن حذيفة رضى الله عنه « بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى الماء قلة أى ماء عين تبوك ، أى وقد قال لهم صلى الله عليه وسلم : إنكم لتأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تنالوها حتى يضحا النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى ، وأمر صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى بذلك فجئناها فإذا العين مثل الشراك تبض من مائها ، وقد سبق إليها رجلان : أى من المنافقين ومسا من مائها فسبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك » وفى رواية « سبق إليها أربعة من المنافقين ، ثم إنهم غرفوا من تلك العين قليلا قليلا حتى اجتمع شئ فى شن فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير » وفى رواية فجعلوا فيها سهاما

دفعها صلى الله عليه وسلم لهم ، فجاشت بالماء » وإلى ذلك أشار الإمام السبكى رحمه الله تعالى في تائيته بقوله :

فيوما بوقع النبل جئت بشربهم ويوما بوقع الوبل جدت بسقية

وحينئذ أى وحين إذ ثبت أنه صلى الله عليه وسلم جعل السهام فى عين تبوك يسقط الاعتراض بأن وقع النبل لم يكن بتبوك وإنما كان بالحديبية على أن الذى بالحديبية إنما هو غرز سهم واحد لاسهام فليتأمل .

ثم قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ « يامعاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماهنا ملىء جنانا » أى بستانين ، وذكر ابن عبد البر رحمه الله عن بعضهم . قال : أنا رأيت ذلك الموضع كله حوالى تلك العين جنانا خضرة نضرة .

وقبل قدومهم تبوك بليلة نام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يستيقظ حتى كادت الشمس قيد رمح ، أى وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لبلال : اكلأ لنا الفجر فاسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه قال : ألم أقل لك يابلال اكلأ لنا الفجر ؟ وفى رواية أن بلالا رضى الله عنه قال لهم ناموا وأنا أوقظكم : فاضطجعوا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يابلال أين ماقلت ؟ قال : يارسول الله ذهب بى مثل الذى ذهب بك ، أى وفى لفظ : أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك ،وقال صلى الله عليه وسلم للصديق : إن الشيطان صار يهدئ بلالا للنوم كما يهدئ الصبى حتى ينام ؛ ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا وسأله عن سبب نومه ؛ فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما أخبر به النبى الصديق ، فقال الصديق للنبى صلى الله عليه وسلم : أشهد أنك رسول الله ، فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله غير بعيد . ثم صلى وتقدم فى خيبر : أى فى غزوة وادى القرى ، فإنها كانت عند منصرفه من خيبر ، الخلاف فى أى غزوة كان وسار صلى الله عليه وسلم مسرعا بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك .

وفى منصرفه من تبوك قال أبو قتادة رضى الله عنه : «بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قافل من تبوك وأنا معه ، إذ خفق خفقة وهو على راحلته فمال على شقه ، فدنوت منه فدعمته ، فانتبه فقال : من هذا؟ فقلت أبو قتادة يارسول الله،خفت أن تسقط فدعمتك ، فقال : حفظك الله كما حفظت رسوله ثم سار غير كثير ثم فعل مثلها

فدعمته ، فانتبه ، فقال : ياأبا قتادة هل لك فى التعريس ؟ فقلت : ماشئت يارسول الله ، فقال انظر من خلفك ، فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال : ادعهم ، فقلت أجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءوا فعرسنا » .

وفى رواية قال أبو قتادة رضى الله عنه « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير حتى ابهارّ الليل وأنا إلى جنبه فنعس فمال عن راحلته ، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته ، فدعمته حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هى أشد من الميلتين الأولتين حتى كاد يسقط ، فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال : من هذا ؟ قلت : أبو قتادة ، قال : متى كان هذا مسيرك منى ؟ قلت : مازال هذا مسيرى منذ الليلة ، قال : حفظك الله كما حفظت نبيه » وهذا تقدم فى منصرفه من خيبر ، ولا مانع من التعدد . ويحتمل أن هذا خلط وقع من بعض الرواة فليتأمل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : هل ترى من أحد : يعنى من الجيش ؟ قلت : هذا راكب ، ثم قلت هذا راكب آخر حتى اجتمعنا وكنا سبعة . وفى رواية خمسة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطريق ، ثم قال : احفظوا علينا صلاتنا ، وكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس فى ظهره ، فقمنا فزعين . ثم قال : اركبوا ، فركبنا ، فسرنا حتى ارتفعت الشمس : ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء ، فتوضأ منها وبقى فيها شىء ، وفى رواية : جرعة من ماء ، ثم قال : لى احفظ علينا ميضأتك ، وفى رواية : ازدهر بها يا أبا قتادة فسيكون لها نبأ » الحديث .

وفى رواية : « ما أيقظنا إلا حر الشمس ، فقلنا : إنا لله فاتنا الصبح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنغيظن الشيطان كما غاظنا ، فتوضأ من الإداوة التى هى الميضأة ، ففضل فضل ، فقال ياأباقتادة احتفظ بما فى الإداوة ، واحتفظ بالركوة فإن لهما شأنا فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بعد طلوع الشمس . وفى لفظ إن عمر رضى الله عنه هو الذى أيقظ النبى صلى الله عليه وسلم بالتكبير .

أقول : ظاهر هذه الرواية أنهم صلوا بمحلهم ولم ينتقلوا . وفى رواية قال لهم صلى الله عليه وسلم : تحولوا عن مكانكم الذى أصابتكم فيه الغفلة . وفى لفظ : ارتحلوا ، فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان .

وفى البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال «كنا فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم، وإنا أسرينا حتى كنا فى آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافرمنها، فما أيقظنا إلا حر الشمس، وكان صلى الله عليه وسلم إذا نام لم نوقظه حتى يكون هو يستيقظ، لأنا لا ندرى مايحدث له صلى الله عليه وسلم فى نومه : أى من الوحى ، فكانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحى » كما تقدم فى غزوة بنى المصطلق « فلما استيقظ عمر رضى الله عنه ورأى ما أصاب الناس : أى من فوات صلاة الصبح كبر ورفع صوته بالتكبير ، فمازال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ النبى صلى الله عليه وسلم» .

وفى رواية «إن الصديق رضى الله عنه استيقظ أولا ثم لازال يسبح ويكبر حتى استيقظ عمر ، ولا زال يكبر حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استيقظ شكوا إليه الذى أصابهم : أى من فوات صلاة الصبح ، قال : لاضير ، ارتحلوا ، فارتحلوا ، فسار غير بعيد ثم نزل ، فدعا بالوضوء فتوضأ ونودى بالصلاة فصلى بالناس » وهذا كما نرى فيه التصريح بأن هاتين اليقظتين وقعتا فى غزوة تبوك ، الأولى عند ذهابهم لها ، والثانية عند منصرفهم منها .

وفى دلائل النبوة للبيهقى عن بعض الصحابة : « وبعد أن صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس إلى بعض : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى تهمسون دونى ؟ فقلنا : يارسول الله بتفريطنا فى صلاتنا ، قال أما لكم فى أسوة حسنة ؟ ثم قال : ليس فى النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجىء وقت الأخرى » .

وفى فتح البارى : اختلف فى تعيين هذا السفر . ففى مسلم أنه كان فى رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة . وفى أبى داود « أقبل النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية ليلا ، فنزل فقال : من يكلؤنا؟ فقال بلال أنا » الحديث . وفى مصنف عبد الرزاق أن ذلك كان بطريق تبوك .

وقد اختلف العلماء هل كان ذلك : أى نومهم عن صلاة الصبح مرة أو أكثر ؟ فجزم الأصيلى رحمه الله بأن القصة واحدة .

وتعقبه القاضى عياض رحمه الله بأن قصة أبى قتادة مغايرة لقصة عمران بن حصين . ومما يدل على تعدد القصة اختلاف مواطنها .

وفى الطبرانى قصة شبيهه بقصة عمران وأن الذى كلأ لهم الفجر ذو مخبر . قال ذو مخبر : فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فجئت أدنى القوم فأيقظته وأيقظ الناس بعضهم بعضا حتى استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فليتأمل ، وتقدم عن الإمتاع قال عطاء بن يسار : إن ذلك كان بتبوك . وهذا لا يصح ، وإلا فالآثار الصحاح على خلاف قوله مسندة ثابتة ، والله أعلم .

واستشكل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد قالت له « أتنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ولا ينام قلبى » .

وأجيب عنه بأجوبة حسنها أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ولا يدرك مايتعلق بالعين كرؤية الشمس وطلوع الفجر .

ومن الأجوبة أنه صلى الله عليه وسلم كان له نومان : نوم تنام فيه عينه وقلبه ، ونوم تنام فيه عينه فقط . وينبغى أن يكون هذا الثانى أغلب أحواله وإن كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله فى ذلك ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ، ولا تنام قلوبنا » أى غالبا . ويكون هذا حاله دائما وأبدا إذا كان متوضئا ، لقولهم : إنه لا ينقض وضوؤه صلى الله عليه وسلم بالنوم ، وفى جعله العين محلا للنوم نظر ، لأن العين إنما هى محل السنة ، ومحل النعاس الرأس ، ومحل النوم القلب .

قال الحافظ السيوطى : وكون القلب محلا للنوم دون العين لا يشكل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « تنام عيناى ولا ينام قلبى ، لأنه من باب المشاكلة ، وفيه بحث هذا كلامه .

واستشكل قوله صلى الله عليه وسلم « ارتحلوا فان هذا منزل حضرنا فيه الشيطان » وفى لفظ « ارتحلوا ، فإن هذا واد به شيطان » بأنه يقتضى تسلط الشيطان على النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الظاهر أن وجود الشيطان هو السبب فى النوم عن الصلاة .

وأجيب بأنه على تسليم ذلك ، فإن تسليطه إنما كان على من كان يحفظ الفجر بلال أو غيره . ففى بعض الروايات كما تقدم « إن الشيطان أتى بلالا فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبى حتى نام » .

ثم لحق صلى الله عليه وسلم بالجيش ، وقبل لحوقه صلى الله عليه وسلم بهم قال لأصحابه ما ترون الناس : يعنى الجيش فعلوا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا ، وذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما أرادا أن ينزلا

بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما فنزلا على الماء فأبوا ذلك عليهما ، فنزلا على غير ماء بفلاة من الأرض لاماء بها عند زوال الشمس وقد كادت أعناق الخيل والركاب تقطع عطشا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أين صاحب الميضأة؟ قيل هو ذا يارسول الله . قال : جئنى بميضأتك فجاءه بها وفيها شىء من ماء ، وفى رواية : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالركوة فأفرغ ما فى الإدواة فيها ووضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا ، وفاض الماء حتى رووا ورووا خيلهم وركابهم ، وكان فى العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس أى على ماتقدم ، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألفا ، وقيل سبعون ألفا . وواضح أن هذه العطشة غير المتقدمة التى دعا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل المطر .

وفى كلام بعضهم أنه لما حصل للقوم العطش أرسل صلى الله عليه وسلم نفرا ؛ ويقال عليا والزبير يستعرضون الطريق ، وأعلمهم أن عجوزا تمر بهم فى محل كذا على ناقة معها سقاء ماء ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : اشتروا منها بما عزّ وهان ، وائتوا بها مع الماء ، فلما بلغوا المكان إذا بالمرأة ومعها السقاء . وفى رواية : إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين ، فسألوها فى الماء ، فقالت : أنا وأهلى أحوج إليه منكم ؛ فسألوها أن تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الماء ؛ فأبت وقالت : من هو رسول الله ؟ لعله الساحر . وفى رواية الذى يقال له الصابئ وخير الأشياء أنى لا آتيه ؛ فشدوها وثاقا وأتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم : خلوا عنها . وفى رواية : قلنا لها أين الماء ؟ قالت : أهاه أهاه لاماء لكم ، بينكم وبين الماء مسيرة يوم وليلة ، ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتأذنين لنا فى الماء ، ولتصيبنّ ماءك كما جئت به ؟ فقالت : شأنكم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى قتادة : هات الميضأة ، فقرّبت إليه ، فحل السقاء وتفل فيه وصب فى الميضأة ماء قليلا ، ثم وضع يده الشريفة فيه ثم قال : ادنوا فخذوا ، فجعل الماء يفور ويزيد والناس يأخذون حتى ما تركوا معهم إناء إلا ملأوه ، ورووا إبلهم وخيلهم ، وبقى فى الميضأة ثلثاها . والميضأة هى الإداوة لأنه يتوضأ منها . وفى الدلائل للبيهقى : فجعل فى إناء من مزادتيها ، ثم قال فيه ما شاء الله أن يقول . زاد فى رواية : ثم مضمض ، ثم رد الماء فى المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى ، ثم أمر الناس أن يملئوا آنيتهم وأسقيتهم ، ثم قال لها تعلمى والله ما رزأنا من مائك شيئا ، ولكن الله عز وجل هو الذى سقانا .

والعزالى : جمع عزلاء ، والعزلاء : هى التى تجعل فى فم القربة لينزل فيها الماء من الراوية وهى المرادة بالمزادة ، وهذا السياق يدل على أن هذه عطشة ثالثة ، لأن الثانية وضع صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة التى صب فيها من الميضأة ؛ وهذه وضع يده فى الميضأة بعد أن لم يجدوا فى الميضأة شيئا .

وفى رواية أن تلك المرأة أخبرته أنها مؤتمة : أى لها صبيان أيتام ، فقال : هاتوا ماعندكم فجمعنا لها من كسر وتمر وصرتها صرة ، ثم قال لها : اذهبى فأطعمى هذا عيالك .

وفى رواية أيتامك ، وصارت تعجب مما رأت . ولما قدمت على أهلها قالوا لها : لقد احتبست علينا ، قالت : حبسنى أنى رأيت عجبا من العجب ، أرأيتم مزادتىّ هاتين ؟ فوالله لقد شرب منهما قريب من سبعين بعيرا ، وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصى ، ثم هما الآن أوفر منهما يومئذ ، فلبثت شهرا عند أهلها ثم أقبلت فى ثلاثين راكبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت وأسلموا .

وفى مسلم « لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها ؛ فقالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنا ؛ فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله إن فعلت قلّ الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها فى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ؛ فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم ؛ فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ؛ ويجىء الآخر بكف من تمر ؛ ويجىء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ ثم قال لهم : خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، وأكلوا حتّى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بها عبد غير شاكّ فيحجب عن الجنة » وفى رواية « إلا وقاه الله النار » وتقدم نظير ذلك فى الرجوع من غزوة الحديبية ، أى ولا مانع من التعدد أو هو من خلط بعض الرواة ؛ ولعل هذا كان بعد أن ذبح لهم طلحة بن عبيد الله جزورا فأطعمهم وأسقاهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنت طلحة الفياض » وسماه يوم أحد « طلحة الخير » ويوم حنين « طلحة الجود » لكثرة إنفاقه على العسكر رضى الله عنهم .

وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم ، قال « كنت فى غزوة تبوك على نحى السمن ،

فنظرت إلى النحى وقد قلّ مافيه ، وهيأت للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما ووضعت النحى فى الشمس ونمت ، فانتبهت بخرير النحى ، فقمت فأخذت رأسه بيدى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى : لو تركته لسال الوادى سمنا » .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه ، قال « كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، فقال ليلة لبلال : هل من عشاء ؟ فقال : والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا ، فقال : انظر عسى أن تجد شيئا ، فأخذ الجرب ينفضها جرابا جرابا ، فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت فى يده صلى الله عليه وسلم سبع تمرات ، ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها ثم وضع يده الشريفة على التمرات ، وقال : كلوا بسم الله ، فأكلنا ثلاثة أنفس ، وأحصيت أربعا وخمسين تمرة أعدّها عدّا ونواها فى يدى الأخرى وصاحباى يصنعان كذلك ، فشبعنا ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هى ، فقال : يا بلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعا ، فلما كان من الغد دعا صلى الله عليه وسلم بلالا بالتمرات ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة عليهنّ ، ثم قال : كلوا بسم الله ، فأكلنا حتى شبعنا وإنا لعشرة ثم رفعنا أيدينا وإذا التمرات كما هى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن أستحيى من ربى لأكلنا من هذه التمرات حتى نردّ إلى المدينة من آخرنا ، فأعطاهنّ غلاما فولى وهو يلوكهن » .

وأتاه صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك يحنة بضم المثناة تحت وفتح الحاء المهملة ثم نون مشددة مفتوحة ثم تاء التأنيث ابن رؤبة بالموحدة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء تأنيث أجرب يمد ويقصر : قرية بالشام ، وأهل أذرح بالذال المعجمة والراء المهملة المضمومة والحاء المهملة ، مدينة تلقاء السراة ، وأهل ميناء ، وأهدى يحنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء ، فكساه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردا ، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطاء الجزية ، أى بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم .

وكتب له صلى الله عليه وسلم ولأهل أيلة كتابا صورته « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحوز ماله دون نفسه ، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس ، وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكتب صلى الله عليه وسلم لأهل أذرح وجرباء ما صورته « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ، وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » وصالح صلى الله عليه وسلم أهل ميناء على ربع ثمارهم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال «رأيت ونحن بتبوك شعلة من نار فى ناحية العسكر» أى ضوء شمعة كما صرح به الجلال السيوطى رحمه الله حيث أجاب من سأله هل الشمع كان موجودا قبل البعثة وهل وقد عنده صلى الله عليه وسلم بأنه كان موجودا قبل البعثة ؟ فقد ذكر العسكرى رحمه الله فى الأوائل أن أول من أوقده جزيمة الأبرش ؛ أى وقد تقدم وهو قبل البعثة بدهر ، وورد فى حديث « أنه أوقد للنبي صلى الله عليه وسلم عند دفنه عبد الله ذا البجادين » قال : وقد ألفت فى المسألة تأليفا سميته [مسامرة السموع فى ضوء الشموع]قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه ؛ وهو يقول : أدليا إلى أخاكما ، فأدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه قال : اللهم قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه » يقول ابن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب الحفرة : أى والبجاد بموحدة ككتاب : الكساء المخطط الغليظ ، لأنه لم يكن لعبد الله المذكور إلا بجاد واحد ، فشقه نصفين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر وقدم المدينة وأسلم ، وقرأ قرآنا كثيرا ؛ وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

« ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك خرج معه وقال : يا رسول الله ادع الله لى بالشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم ائتنى بلحاء شجرة » أى بقشرها « فأتاه بذلك فربطه صلى الله عليه وسلم على عضده وقال : اللهم حرم دمه على الكفار ؛ قال : يا رسول الله ليس هذا ما أردت ؛ قال إنك إذا أخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، فأخذته الحمى بعد الإقامة بتبوك أياما ومات بها » أى وهذا هو المشهور .

وروى عن الأدرع الأسلمى وكان فى حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، جئت ليلة أحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا رجل ميت ، فقيل : هذا عبد الله ذو البجادين ، توفى بالمدينة ، وفرغوا من جهازه وحملوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

«ارفقوا به رفق الله بكم ، فإنه كان يحب الله ورسوله ، قال ابن الأثير : وهذا حديث غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه وتقدم .

وعن الحافظ السيوطى رحمه الله : لما ذكر أنه أوقد للنبى صلى الله عليه وسلم الشمع عند دفنه عبد الله ذا البجادين قال : وقد دل ذلك على إباحة استعماله أى الشمع ولا يعد استعماله إسرافا مع قيام غيره من الأدهان مقامه .

وأقام صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ؛ وفى سيرة الحافظ الدمياطى عشرين ليلة يصلى ركعتين ولم يجاوز تبوك ، ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن ذلك على تقدير صحته .

قال : وقد استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى مجاوزتها ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه ، فقال يارسول إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا ، وهذا تصريح بأن تبوك لم يقع بها مقاتلة ولا حصل فيها غنيمة ؛ وبه يرد ماذكره الزمخشرى فى فضائل العشرة أنه صلى الله عليه وسلم جلس فى المسجد يقسم غنائم تبوك ، فدفع لكل واحد سهما ، ودفع لعلى كرم الله وجهه سهمين ، فقام زائدة بن الأكوع وقال : يارسول الله أوحى نزل من السماء أم أمر من نفسك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أنشدكم الله هل رأيتم فى ميمنتكم صاحب الفرس الأغر المحجل والعمامة الخضراء بها ذؤابتان مرخاتين على كتفيه بيده حربة قد حمل بها على الميمنة فأزالها ؟ قالوا نعم ، قال : هو جبريل عليه الصلاة والسلام وإنه أمرنى أن أدفع سهمه لعلىّ ، فقال زائدة : حبذا سهم منسهم ، وخطب صلى الله عليه وسلم خطبة فيها « أما بعد ، فإن أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ؛ ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، والسعيد من وعظ بغيره ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، أستغفر الله لى ولكم » .

وأهدى له صلى الله عليه وسلم بعض أهل الكتاب جبنة فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل ؛ ثم انصرف صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل قليل جدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه ، فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا مافيه ؛ فلما أتاه رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقف عليه ، فلم يجد فيه شيئا ، فقال : من سبقنا إلى هذا الماء ؟ فقيل له فلان وفلان وفلان ، فقال أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه ، ثم لعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم فوضع يده تحت الوشل فصار يصب فى يده ماشاء الله أن يصب ثم نضحه ومسح بيده ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شاء أن يدعو به فانخرق من الماء وكان له حس كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن بقيتم أو بقى منكم أحد لتسمعن بهذا الوادى وقد أخصب مابين يديه وما خلفه . أى وهذا خلاف عين تبوك الذى تقدم له صلى الله عليه وسلم فيها مايشبه هذا ، وقوله لمعاذ « يامعاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ههنا ملئ جنانا » إلى آخره ، لأن تلك العين كانت بتبوك ، وهذا عند منصرفه من تبوك .

قال : واجتمع رأى من كان معه صلى الله عليه وسلم من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا وقيل أربعة عشر ، وقيل خمسة عشر رجلا على أن ينكثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة التى بين تبوك والمدينة ، فقالوا : إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادى ، وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وسلكوا العقبة ، وأمر صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنهما أن يسوق من خلفه .

وفى الدلائل عن حذيفة قال « كنت ليلة العقبة آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به وعمار بن ياسر يسوقه أو أنا أسوقه وعمار يقوده » أى يتناوبان ذلك « فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر حذيفة أن يردهم ، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه محجن ، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال : إليكم إليكم ياأعداء الله فإذا هو بقوم ملثمين » وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم صرخ بهم فولوا مدبرين ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع على مكرهم به ، فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن

الوادى واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟ قال : لا ، كان القوم ملثمين والليلة مظلمة » .

وعن حمزة بن عمرو الأسلمي رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول « لما سقط متاع النبي صلى الله عليه وسلم وأردت جمعه نوّر لى فى أصابعى الخمس فأضاءت حتى جمعت ماسقط حتى مابقى من المتاع شيء » وفى لفظ « أن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : عرفت راحلة فلان وراحلة فلان ،قال : هل علمت ماكان من شأنهم ، وماأرادوه ؟ قال لا : قال : إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها ، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم وسأخبركما بهم واكتماهم ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إليه أسيد بن حضير؟ فقال يارسول الله ،مامنعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل من سلوك العقبة ؟ فقال : أتدرى ماأراد المنافقون وذكر له القصة ، فقال : يارسول الله قد نزل الناس واجتمعوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت بين بأسمائهم ، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم ، فقال : يارسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس يظهرون الشهادة ، ثم جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما قالوه وماأجمعوا عليه ، فحلفوا بالله ماقالوا ولا أرادوا الذى ذكر ، فأنزل الله تعالى (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر الآية) ، وأنزل الله تعالى (وهموا بما لم ينالوا) ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارمهم بالدبيلة » وهى سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم انتهى . أى وفى لفظ « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلكه » .

وفى الإمتاع أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك صلى إلى نخلة فجاء شخص فمر بينه وبين تلك النخلة بنفسه ، وفى رواية وهو على حمار ، فدعا عليه صلى الله عليه وسلم فقال : قطع صلاتنا قطع الله أثره فصار مقعدا ، وكان يقال لحذيفة رضى الله تعالى عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال حذيفة : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته ، فأوحى إليه وراحلته باركة فقامت تجر زمامها ، فلقيتها فأخذت بزمامها

وجئت إلى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنختها ، ثم جلست عندها حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بها ، فقال : من هذا ؟ قلت ، حذيفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني مسر إليك سرا فلا تذكرنه ، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، وعد جماعة من المنافقين ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة رضى الله تعالى عنه فقاده إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر رضى الله تعالى عنه وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم للمسلمين عند انصرافه: إن بالمدينة لأقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : يارسول الله وهم بالمدينة ؟ قال نعم حبسهم العذر ، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذى أوان محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، أى وقال البكرى : أظن أن الراء سقطت من بين الهمزة والواو : أى أروان ، منسوب إلى البئر المشهورة .

وحين نزل صلى الله عليه وسلم أتاه خبر مسجد الضرار ، فأنزل الله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا) الآية: أى لإضرار أهل قباء ، أى فإن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نصلى فى مربط حمار ، لا ، لعمر الله أى لأنه كان لا مرأة كانت تربط فيه حمارها ، ولكننا نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، فيثبت لنا الفضل والزيادة على إخواننا وكان المسلمون فى تلك الناحية كلهم يصلى فى مسجد قباء جماعة ، فلما بنى هذا المسجد فصرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق للمؤمنين ، فكانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبى صلى الله عليه وسلم ويستهزئون به ، أى ويقال إن أبا عامر الراهب الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم فاسقاهو الآمر لهم ببنائه، فقال لهم: ابنوا لى مسجدا واستمدوا مااستطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم، فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة، وإنهم لما فرغوا من بنائهم أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم ويصلى فيه كما صلى فى مسجد قباء ، فهم أن يأتيهم ، فأنزل الله تعالى الآية .

وفى رواية أتوه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله قد

بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ؛ وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، قال : إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما قفل من السفر وسألوه إتيان المسجد جاءه صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء فأمر جماعة منهم وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهم وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاحرقوه واهدموه على أصحابه ، ففعل به ذلك ، قال : وكان ذلك بين المغرب والعشاء ، ووصل الهدم إلى الأرض ، وأعطاه صلى الله عليه وسلم لثابت بن أرقم رضى الله تعالى عنه يجعله بيتا ، فلم يولد فى ذلك البيت مولود قط ، وحفر فيه بقعة فخرج منها الدخان ، ولعل هذا أى جعله بيتا كان بعد أن أمر صلى الله عليه وسلم أن يتخذه محلا لإلقاء الكناسة والجيفة .

وفى الكشاف أن مجمع بن حارثة كان إمامهم فى مسجد الضرار ، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى خلافته أن يأذن لمجمع بن حارثة أن يؤمهم فى مسجدهم ، فقال : لا ولا نعمة ، أليس بامام مسجد الضرار ؟ فقال : ياأمير المؤمنين لاتعجل علىّ فوالله لقد صليت بهم والله يعلم إنى لا أعلم ما أضمروا فيه ولو علمت ماصليت معهم فيه ، وكنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا لايقرءون من القرآن شيئا فعذره وصدقه ، وأمره بالصلاة بهم .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة قال : هذه طابة أسكننيها ربى ، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولما رأى صلى الله عليه وسلم جبل أحد قال « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه » وتقدم ما فى ذلك فى غزوة أحد ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تلقاه النساء والصبيان يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع »

قال البيهقى رحمه الله : وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة من مكة لا أنه عند مقدمه المدينة من تبوك ، هذا كلامه ، ولا مانع من تعدد ذلك .

ولما دنا صلى الله عليه وسلم من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلموا رجلا منهم ، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم ، فأعرض

عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه انتهى .

أى وعن فضالة بن عبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما غزا غزوة تبوك جهد الظهر جهدا شديدا حتى صاروا يسوقونه ، فشكوا إليه صلى الله عليه وسلم ذلك ورآهم يسوقونه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فى مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فى الظهر ، وقال : اللهم احمل عليها فى سبيلك فانك تحمل على القوى والضعيف والرطب واليابس فى البر والبحر ، فزال مابها من الإعياء ، ومادخلنا إلا وهى تنازعنا أزمتها .

وجاء «أن حية عارضتهم فى الطريق عظيمة الخلقة ، فانحاز الناس عنها ، فأقبلت حتى وقفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته طويلا والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتزلت الطريق فقامت قائمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلىّ يستمعون القرآن أى بنخلة عند منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وتقدم الكلام عليه فرأى عليه من الحق حين ألمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببلده أن يسلم عليه ، وها هو يقرؤكم السلام » فقال الناس : وعليه السلام ورحمة الله .

وقد كان تخلف عنه صلى الله عليه وسلم ، رهط من المنافقين وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، وتخلف عنه أيضا كعب بن مالك وكان من الخزرج ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا من الأوس ؛ فأما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، واستغفر لهم ؛ وأما الثلاثة ، فعن كعب بن مالك الخزرجى رضى الله تعالى عنه أنه قال « لما جئته صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه تبسم تبسم المغضب وقال لى تعال ، فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال : ماخلفك ؟ فصدقته ، وقلت : والله ماكان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » وفى رواية « قلت : يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط علىّ فيه ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ، وقال الرجلان

الآخران وهما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا ممن شهد بدرا وهما من الأوس مثل قول كعب ، فقال لهما صلى الله عليه وسلم مثل ماقال لكعب ، ونهى صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس ، فأما الرجلان فكثا فى بيوتهما يبكيان ، وأما كعب فكان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد منهم ، قال : ولما طال ذلك علىّ من جفوة الناس تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه ، والله مارد علىّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت إليه فنشدته ، فسكت فعدت إليه فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال : وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك ، فطفق : أى جعل الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلىّ كتابا من ملك غسان أى وهو الحارث بن أبى شمر أوجبلة بن الأيهم ، وكان الكتاب ملفوفا فى قطعة من الحرير ، فإذا فيه : أما بعد فانه بلغنى أن صاحبك تدجفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأته : وهذا أيضا من البلاء ، فيممت أى قصدت به التنور فسجرته بها : أى ألقيته فيها : أى والأنباط قوم يسكنون البطائح بين العراقين : قال حتى إذا مضت أربعون ليلة نجاءنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لابل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى صاحبىّ : أى وهما هلال بن أمية ومرارة بن الربيع بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا ولكن لا يقربك ، قالت : والله إنه مابه حركة إلى شئ ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال كعب : فقال لى بعض أهلى . قال فى النور : الظاهر أن القائل له امرأة لأن النساء لم يدخلن فى النهى لأن فى الحديث « ونهى المسلمين » وهذا الخطاب لايدخل فيه النساء فدل على أن المراد الرجال ، قالت : لواستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدرينى مايقول لى رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، ثم مضى بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سمعت صوتا فوق جبل سلع يقول بأعلى صوته : ياكعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا . وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آذن ، أى أعلم بتوبة الله علينا ، فلما جاءنى الرجل الذى سمعت صوته يبشرنى أى وهو حمزة بن عمرو الأوسى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله لاأملك غيرهما يومئذ : واستعرت أى من أبى قتادة رضى الله عنه ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجا فوجا : أى جماعة جماعة يهنئونى بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان آخى بينهما حين قدم المدينة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر ، فلما جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم قال : أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم عند الله عز وجل ؟ قال : لابل من عند الله ، فقلت : يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، أى وكان المبشر لهلال بن أمية أسعد بن أسد ، وكان المبشر لمرارة بن الربيع سلطان بن سلامه أو سلامة بن وقش .

أى وفى البخارى عن [illegible] رضى الله عنه « فأنزل الله توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقى الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة رضى الله عنها محسنة فى شأنى معينة فى أمرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأم سلمة تيب على كعب ، قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ، قال : إذن يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليل ، حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أعلم بتوبة الله علينا وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) إلى قوله (وكونوا مع الصادقين) وقال فى حق من اعتذر له صلى الله عليه وسلم (سيحلفون بالله لكم) إلى قوله (فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين) .

واستشكل نزول الوحي بالقرآن فى بيت أم سلمة بقوله صلى الله عليه وسلم فى حق عائشة رضى الله عنها « ما نزل علىّ الوحى فى فراش امرأة غيرها » وأجاب بعضهم بأنه يجوز أن يكون ما تقدم فى حق عائشة كان قبل هذه القصة ، أو أن الذى خصت به عائشة رضى الله تعالى عنها نزول الوحى فى خصوص الفراش لا فى البيت .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) الآية ، قال : كانوا عشرة أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فلما رجع صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد منهم أبو لبابة ، فلما مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هؤلاء ؟ قالوا : أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم وتعذرهم ، قال صلى الله عليه وسلم : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لانطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فأنزل الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) الآية ، فعند ذلك أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم ، فجاءوا بأموالهم وقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أمرت أن آخذ أموالكم ، فأنزل الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) إلى قوله (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) وهم الذين لم يربطوا أنفسهم بالسوارى ، وتقدم أن أبا لبابة رضى الله عنه ربط نفسه ببعض سوارى المسجد فى قصة بنى قريظة ، وعلى هذا فقد تكرر منه ربط نفسه ، وقد ذكره ابن إسحاق فليتأمل ذلك .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم من تبوك وجد عويمرا العجلانى رضى الله عنه امرأته حبلى ، أى وهى خولة بنت عمه قيس ، فلاعن بينهما صلى الله عليه وسلم أى فى المسجد بعد العصر وكان قد قذفها بشريك بن سحماء ابن عمه وقال : وجدته على بطنها ، وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمرا وقال له اتق الله فى زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان ، فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر ، ودعا صلى الله عليه وسلم بالمرأة التى هى خولة وقال لها : اتقى الله ولا تخبرينى إلا بما صنعت ، فقالت : يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور ، وإنه يأتى وشريكا يطيل السهر ويتحدث ، حملته الغيرة ، على أن قال ما قال ، فدعا شريكا

وقال له : ما تقول ؟ فقال مثل قول المرأة فأنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينادى بالصلاة جامعة ، فلما صلى العصر أى وقد نودى بذلك واجتمع الناس ، قال صلى الله عليه وسلم لعويمر : قم ، فقام وقال : أشهد بالله إن خولة لزانية ، وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الثانية : أشهد بالله إنى رأيت شريكا على بطنها ، وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الثالثة : أشهد بالله إنها حبلى من غيرى وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الرابعة : أشهد بالله إنى ماقربتها منذ أربعة أشهر وإنى لمن الصادقين ، ثم قال فى الخامسة : لعنة الله على عويمر يعنى نفسه إن كان من الكاذبين ، ثم أمره صلى الله عليه وسلم بالقعود ، وقال لخولة : قومى ، فقامت فقالت : أشهد بالله ما أنا زانية ، وإن عويمرا لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الثالثة أشهد بالله إنى لحبلى منه وإنه لمن الكاذبين ، ثم قالت فى الرابعة : أشهد بالله إنه مارآنى قط على فاحشة ، وإنه لمن الكاذبين ثم قالت فى الخامسة : إن غضب الله على خولة تعنى نفسها إن كان من الصادقين ، ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما أى قال له لا سبيل لك عليها وهو دليل لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه القائل إن الفرقة بين الزوجين تحصل بنفس التلاعن .

وما جاء فى بعض الروايات أنه طلقها ثلاثا قبل أن يأمره صلى الله عليه وسلم : أى بعدم الاجتماع بها فهو محمول على أنه ظن أن التلاعن لا يحرّمها عليه ، فأراد تحريمها بالطلاق ، فقال : هى طالق ثلاثا ، ومن ثم قال له صلى الله عليه وسلم عقب ذلك لاسبيل لك عليها ، أى لا ملك لك عليها فلا يقع طلاقك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : إن جاء الولد على صفة كذا فعويمر صادق ، وإن جاء على صفة كذا فعويمر كاذب ، فجاء على الصفة التى تصدق عويمرا ، فكان الولد ينسب إلى أمه .

وفى البخارى « أن عويمرا أتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا : أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى عاصم النبى صلى الله عليه وسلم فسأله ، فكره النبى صلى الله عليه وسلم تلك المسألة وعابها ، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عويمر ، فقال له عاصم : لم تأتنى بخير ، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره المسألة التى لا يحتاج

إليها : أى التى لم تكن وقعت لاسيما إن كان فيها هتك ستر مسلم أو مسلمة . قال : فعويمر رضى الله عنه لم يكن وقع له مثل ذلك حينئذ ثم اتفق له وقوع ذلك بعد ، فقال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم جلدتموه ، وإن قتله قتلتموه ، أو سكت سكت على غيظ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم افتح ، وجعل يدعو ، فنزلت آية اللعان ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لعويمر قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا فاذهب فائت بها » أى وذلك بعد أن ذكر له عويمر قصته .

وفى رواية «قد قضى فيك وفى امرأتك فتلاعنا» وفيه «أن هلال بن أمية أحد المتخلفين عن تبوك قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء، أى وكانت حاملا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البينة » زاد فى رواية : « أوحد فى ظهرك : فقال ، يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا يتكلف يلتمس البينة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول وإلا فحد فى ظهرك ؛ فقال هلال والذى بعثك بالحق إنى لصادق فلينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام : أى بعد أن قال صلى الله عليه وسلم : اللهم افتح ، أى بين لنا الحكم ، فأنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى المرأة فجاءت وتلاعنا ، وعند الخامسة تلكأت ونكصت حتى ظن أنها ترجع ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : إنها أى اللعنة موجبة : أى للعذاب فى الآخرة ، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومى سائر الأيام وقالتها : أى الخامسة ، أى وقال صلى الله عليه وسلم : إن جاءت به كذا فهو لهلال ، وإن جاءت به كذا فهو لشريك ، فجاءت به على الوصف الذى ذكر أنه يكون لشريك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لولا ما سبق من كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن » .

وجمهور العلماء على أن سبب نزول آية اللعان قصة هلال بن أمية ، وأنه أول لعان وقع فى الإسلام .

وذهب جمع إلى أن سبب نزولها قصة عويمر العجلانى ، لقوله صلى الله عليه وسلم « قد

أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا » وأجيب بأن معناه لما نزل فى قصة هلال ، لأن ذلك عام فى جميع الناس .

قال الإمام النووى رحمه الله : ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعا ، فلعلهما سألا فى وقتين متقاربين : أى وقال صلى الله عليه وسلم فى كل : اللهم افتح ، فنزلت هذه الآية فيهما ، وسبق هلال باللعان ، فكان أول من لاعن .

وفى مسلم « أن سعد بن عبادة قال : يا رسول الله أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلا أيقتله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، قال ، سعد : بلى والذى أكرمك بالحق » . وفى رواية « كلا والذى بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف » وفى لفظ « لضربته بالسيف من غير صفح » أى بل أضربه بحده ، « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم » وليس ذلك من سعد رضى الله تعالى عنه ردا عليه صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو إخبار عن حاله ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم « إنه لغيور ، وأنا أغير منه ، والله أغير منى » فأخبر صلى الله عليه وسلم عن سعد بأنه غيور ، وأنه صلى الله عليه وسلم أغير منه ، وأن الله أغير منه صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم جاء فى الحديث ، « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة ليكثر سؤال العباد إياها والثناء منهم عليه » .

وفى تفسير الفخر الرازى رحمه الله « لا شخص أغير من الله » وبه استدل على جواز إطلاق الشخص على الله تعالى .

وفى الحلية لأبى نعيم رحمه الله عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر أرأيت لو وجدت مع أم رومان رجلا ما كنت صانعا ؟ قال : كنت فاعلا به شرا ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عمر أرأيت لو وجدت رجلا ، أى مع زوجتك ما كنت صانعا ؟ قال : كنت والله قاتله ، فقرأ صلى الله عليه وسلم (والذين يرمون أزواجهم) الآية » .

وفى الأم لإمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه عن سعيد بن المسيب رضى الله تعالى عنه « أن رجلا من أهل الشام وجد مع امرأته رجلا فقتله ، فرفع الأمر إلى معاوية رضى الله تعالى عنه فأشكل على معاوية القضاء فيها فكتب . معاوية إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله

تعالى عنه أن يسأل عن ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فاستخبر على أبا موسى عن القصة ، فأخبره أبو موسى أن معاوية كتب إليه فى ذلك ، فقال على كرم الله وجهه : أنا أبو الحسن إن لم يأت بأربعة شهداء قتلناه ، فليتأمل .

وفى الخصائص الكبرى أن فى غزوة تبوك اجتمع صلى الله عليه وسلم بإلياس . فعن أنس رضى الله تعالى عنه : سمعنا صوتا يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة المغفور لها المستجاب لها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أنس انظر ماهذا الصوت ؟ قال أنس رضى الله تعالى عنه : فدخلت الجبل ، فإذا رجل عليه ثياب بيض أبيض الرأس واللحية ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما رآنى قال : أنت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم ، قال : ارجع إليه واقرأه السلام ، وقل له : أخوك إلياس يريد أن يلقاك ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فجاء صلى الله عليه وسلم يمشى وأنا معه ، حتى إذا كنت منه قريبا تقدم النبى صلى الله عليه وسلم وتأخرت أنا فتحدثا طويلا فنزل عليهما من السماء شىء شبه السفرة ودعانى فأكلت معهما قليلا فإذا فيها كمأة ورمان وحوت وتمر وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ثم جاءت سحابة فاحتملته وأنا أنظر إلى بياض ثوبه فيها. قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه ، وأطال فى بيان ذلك : والعجب من الحاكم كيف يستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على الحاكم .

وفى النور : لم يجىء فى حديث صحيح اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالياس . وفى الجامع الصغير إلياس أخو الخضر . وفى تفسير البغوى : أربعة من الأنبياء أحياء إلى يوم البعث اثنان فى الأرض وهما الخضر وإلياس ، أى وإلياس فى البر والخضر فى البحر ، يجتمعان كل ليلة على ردم ذى القرنين يحرسانه . وأكلهما الكرفس والكمأة ، واثنان فى السماء إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام .

وعن ابن إسحق الخضر من ولد فارس وإلياس من بنى إسرائيل ، أى وقد يقال : لاينافى ذلك ماتقدم أنهما أخوان ، لجواز أن يكونا أخوين لأم .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن إليه النفس أن الخضر عليه الصلاة والسلام اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم من الأيام ، ولو

كان حيا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله اجتماعه به صلى الله عليه وسلم .

وفى الخصائص الكبرى عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال « خرجت ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم أحمل الطهور ، فسمع قائلا يقول : اللهم أعنى على ماينجينى مما خوفتنى منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأنس ضع الطهور وأت هذافقل له: ادع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعينه الله على مابعثه به،وادع لأمته أن يأخذوا ماأتاهم به من الحق ،فأتيته فقلت له : فقال مرحبا برسول الله صلى الله عليه وسلم،أنا كنت أحق أن آتيه ، اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام ، وقل له أخوك الخضر يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الله فضلك على النبيين كما فضل شهر رمضان على الشهور ،وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام،فلما وليت سمعته يقول: اللهم اجعلنى من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها قال بعضهم : وهذا حديث واه منكر الإسناد سقيم المتن ، ولم يراسل الخضر عليه الصلاة والسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يلقه .

قال السيوطى فى اللآلىء قلت : قد أخرج هذا الحديث الطبرانى فى الأوسط . وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى الإصابة : قد جاء من وجهين . وفى الخصائص الصغرى : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه جمعت له الشريعة والحقيقة، ولم يكن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أحدهما بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، والمراد بالشريعة الحكم بالظاهر ، وبالحقيقة الحكم بالباطن .

وقد نص العلماء على أن غالب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا ليحكموا بالظاهر دون ما اطلعوا عليه من بواطن الأمور وحقائقها ،ومن ثم أنكر موسى عليه الصلاة والسلام على الخضر صلى الله عليه وسلم فى قتله الغلام بقوله (لقد جئت شيئا نكرا)فقال له الخضر عليه الصلاة والسلام (وما فعلته عن أمرى) ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام : إنى على علم من عند الله لاينبغى لك أن تعلمه ، أى تعمل به لأنك لست مأمورا بالعمل به ، وأنت على علم من عند الله لاينبغى لى أن أعلمه : أى لاينبغى لى أن أعمل به ، لأنى لست مأمورا بالعمل به .

وفى تفسير أبى حيان : والجمهور على أن الخضر نبى وكان علمه معرفة بواطن أمور

أوحيت إليه ، أى ليعمل بها ، وعلم موسى عليه الصلاة والسلام الحكم بالظاهر ، أى دون الحكم بالباطن .

ونبينا صلى الله عليه وسلم حكم بالظاهر فى أغلب أحواله ، وحكم بالباطن : أى فى بعضها ، بدليل قتله صلى الله عليه وسلم للسارق وللمصلى لما اطلع على باطن أمرهما وعلم منهما مايوجب القتل .

وقد ذكر بعض السلف رحمه الله أن الخضر إلى الآن ينفذ الحكم بالحقيقة ، وأن الذين يموتون فجأة هو الذى يقتلهم ، فإن صح ذلك فهو فى هذه الأمة بطريق النيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام صار من أتباعه صلى الله عليه وسلم ، كما أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما ينزل يحكم بشريعته نيابة عنه لأنه من أتباعه .

وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع به صلى الله عليه وسلم اجتماعا متعارفا ببيت المقدس فهو صحابى. وجاء فى حديث مطعون فيه : أى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام يجتمعان فى كل عام : أى فى الموسم ، ويحلق كل منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هذه الكلمات « بسم الله ، ماشاء الله لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، ماشاء الله مايكون من نعمة فمن الله ، ماشاء الله لاحول ولا قوة إلا بالله » . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : من قالها حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات عوفى من السرق والحرق والغرق ومن السلطان ، ومن الشيطان ، ومن الحية والعقرب .

وعن على كرم الله وجهه : مسكن الخضر بيت المقدس فيما بين باب الرحمة إلى باب الأسباط ، والله اعلم .

باب سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه

لايخفى أن ما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له غزوة، وما خلا عنه صلى الله عليه وسلم يقال له سرية إن كان طائفة اثنين فأكثر ، فإن كان واحدا قيل له بعث ، وربما سموا بعض السرايا غزوة كما فى مؤتة ، حيث قالوا غزوة مؤتة ، وكما فى سرية الرجيع حيث عبر عنها السيوطى فى الخصائص بغزوة الرجيع ، وعن سرية ذات السلاسل بغزوة ذات السلاسل ، وعن سرية سيف البحر بغزوة سيف البحر ، وربما سموا الواحد سرية وهو فى الأصل كثير ، وربما سموا الاثنين فأكثر بعثا ، ومنه قول الأصل كالبخارى بعث الرجيع ، وظاهر كلامهم أنه لافرق فى ذلك بين أن يكون إرسال ذلك لقتال ، أو لغير قتال كتجسس الأخبار ، أولتعليمهم الشرائع كما فى بئر معونة والرجيع ، أو للتجارة كما فى سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما حيث ذهب مع جمع بالتجارة للشام فلقيه بنو فزارة فضربوه، وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم كما سيأتى .

والسرية فى الأصل الطائفة من الجيش تخرج منه، ثم تعود إليه خرجت ليلا أو نهارا ، وقيل السرية هى التى تخرج ليلا . والسارية هى التى تخرج نهارا ، وهى من مائة إلى خمسمائة ، وقيل إلى أربعمائة : أى وفى القاموس : السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة ، وعليه فما دون ذلك لايقال له سرية ، فما زاد على الثلثمائة أو أربعمائة إلى ثمانمائة يقال له منسر بالنون ، فإن زاد على ذلك إلى أربعة آلاف قيل له جيش ؛ أى وقيل الجيش من ألف إلى أربعة آلاف ، فإن زاد على ذلك قيل له جحفل وجيش جرار أى إلى اثنى عشر ألفا .

والبعث فى الأصل : الطائفة تخرج من السرية ، ثم تعود إليها ؛ وهو من عشرة إلى أربعين يقال له حفيرة ، ومن أربعين إلى ثلثمائة يقال له معتقب ، وما زاد على ذلك يسمى حمزة : قال بعضهم : والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، وما هزم قوم بلغوا اثنى عشر ألفا من قلة إذا صدقوا وصبروا » أى فلا يرد انهزام القدر المذكور يوم حنين . قال فى الأصل : وكانت سراياه صلى الله

عليه وسلم التى بعث بها سبعا وأربعين سرية ، وهو فى ذلك موافق لما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب . قال الشمس الشامى : والذى وقفت عليه من السرايا والبعوث لغير الزكاة يزيد على السبعين اهـ .

أى وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا بسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، والوليد الصبى ، أى مالم يقاتل كالنساء وإلا قتلوا . وفى رواية « لاتقتلوا شيخا فانيا ، ولاطفلا صغيرا ، ولا امرأة » ، وهذا عند العمد ، فلاينافى أنه يجوز الإغارة على المشركين ليلا وإن لزم على ذلك قتل الصبيان والنساء والشيوخ . فقد روى الشيخان « سئل صلى الله عليه وسلم عن المشركين يبيتون ، أى يغار عليهم ليلا فيصيبون من نسائهم وذراريهم ؟ فقال : هم منهم » وكان صلى الله عليه وسلم يقول « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ولاسمع ولا طاعة فى معصية الله » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن تخلفه عن تلك السرايا ويقول : « والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لاتطيب نفوسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ماتخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده ، لوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » .

ومن جملة وصيته صلى الله عليه وسلم لمن يوليه على سرية « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » .

ومن جملة قوله صلى الله عليه وسلم للسرايا « بشروا ولاتنفروا ، ويسروا ولاتعسروا » ولما بعث صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى رضى الله تعالى عنهما إلى اليمن قال لهما « يسرا ولاتعسرا ، وبشرا ولاتنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » .

سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ، قيل ومن الأنصار ، وفيه نظر لأنه صلى الله عليه وسلم لم يبعث من الأنصار إلا بعد أن غزا بهم بدرا ، أى وذلك فى شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة ، وعقد له صلى الله

عليه وسلم لواء أبيض . وهو أول لواء عقد فى الإسلام ، حمله أبو مرثد بفتح الميم وإسكان الراء ثم مثلثة مفتوحة : حليف حمزة رضى الله تعالى عنه ، ليعترض عيرا لقريش جاءت من الشام تريد مكة ، وفيها أبو جهل لعنه الله فى ثلثمائة رجل ، وقيل فى مائة وثلاثين ، فصار رضى الله تعالى عنه إلى أن وصل سيف البحر ، أى بكسر السين المهملة و إسكان المثناة تحت ثم فاء: ساحله من ناحية العيص ، أرض من جهينة فصادف العير هناك ؛ فلما تصافوا للقتال حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان حليفا للفريقين ، فأطاعوه وانصرفوا ، ولم يقع بينهم قتال . ولما عاد حمزة رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، أى بأن مجديا حجز بينهم وأنهم رأوا منه نصفة ، قال صلى الله عليه وسلم فى مجدى: إنه ميمون النقيبة: أى مبارك النفس ، مبارك الأمر. وقال سعيد أورشيد الأمر: أى أموره ناجحة ،ولم يقع اه إسلام . أى وفى الإمتاع : وقدم رهط مجدى على النبى صلى الله عليه وسلم فكساهم .

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس ثمانية أشهر من الهجرة عبيدة بن الحارث رضى الله تعالى عنه فى ستين أو ثمانين راكبا من المهاجرين ، منهم سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه ، وعقد له لواء أبيض ، وحمله مسطح بن أثاثة رضى الله تعالى عنه ليعترض عيرا لقريش ، وكان رئيسهم أبا سفيان . وقيل عكرمة بن أبى جهل . وقيل مكرز بن حفص فى مائتى رجل ، فوافوا العير ببطن رابغ : أى ويقال له ودان ، فلم يكن بينهم إلا المناوشة برمى السهام ، أى فلم يسلوا السيف ، ولم يصطفوا للقتال . وكان أول من رمى من المسلمين سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه ، فكان سهمه أول سهم رمى به فى الإسلام ، أى كما أن سيف الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه أول سيف سل فى الإسلام. ففى كلام ابن الجوزى : أول من سل سيفا فى سبيل الله الزبير بن العوام .

وقد ذكر أن سعدا رضى الله تعالى عنه تقدم أصحابه ونثر كنانته ، وكان فيها عشرون سهما ما منها سهم إلا ويجرح إنسانا أو دابة ، أى لو رمى به لصدق رميه وشدة ساعده رضى الله تعالى عنه ، ثم انصرف الفريقان ، فإن المشركين ظنوا أن للمسلمين مددا فخافوا وانهزموا ، ولم يتبعهم المسلمون ، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو ، أى الذى

يقال له ابن الأسود ، وعيينة بن غزوان ، فإنهما كانا مسلمين ولكنهما خرجا مع المشركين ليتوصلا بهم إلى المسلمين ، فعلم أن سرية عبيدة بن الحارث رضى الله تعالى عنه بعد سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه وقيل بل هى قبلها ، وكلام الأصل يشعر به ، ويؤيده قول ابن إسحاق كانت راية عبيدة بن الحارث فيما بلغنا أول راية عقدت فى الإسلام. قال بعضهم : ومنشأ هذا الاختلاف أن بعث حمزة وبعث عبيدة رضى الله تعالى عنهما كانا معا ، أى فى يوم واحد فى محل واحد ، أى وشيعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا كما فى ذخائر العقبي فاشتبه الأمر ، فمن قائل يقول : إن راية حمزة رضى الله تعالى عنه أول راية عقدت فى الإسلام ، وأن بعثه أول البعوث ، ومن قائل يقول : إن راية عبيدة رضى الله تعالى عنه أول راية عقدت فى الإسلام ، وأن بعثه أول البعوث ، لكن يشكل على ذلك أن خروج حمزة كان على رأس سبعة أشهر من الهجرة كما تقدم ، وخروج عبيدة كان على رأس ثمانية أشهر كما تقدم ، وبما ذكر أن بعثهما معا إلى آخره يرد ما أجاب به بعضهم عن هذا الإشكال ، بأنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم عقد رايتهما معا ، وتأخر خروج عبيدة إلى رأس الثمانية أشهر لأمر اقتضى ذلك هذا كلامه ، إلا أن يقال يجوز أن يكون المراد ببعثهما معا أمرهما بالخروج ، وأن المراد بتشييعهما جميعا أن كلا منهما وقع له التشييع منه صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا يقتضى أن يكون ذلك فى وقت واحد تأمل .

وفى هذا إطلاق الراية على اللواء ، وهو الموافق لما صرح به جماعة من أهل اللغة أنهما مترادفان ، وتقدم أنه لم يحدث له اسم الراية إلا فى خيبر ، أى وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية ، وما هنا يرده .

وفى كلام بعضهم كانت رايته صلى الله عليه وسلم سوداء ولواؤه أبيض كما فى حديث ابن عباس وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما . زاد أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : مكتوب فيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه
إلى الخرار

بفتح الخاء المعجمة وراءين مهملتين. وفي النور بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء الأولى

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس تسعة أشهر من الهجرة سعد بن أبي وقاص في عشرين من المهاجرين ، أي وقيل ثمانية وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن عمرو قال: والخرار واد يتوصل منه إلى الجحفة ، وقد عهد صلى الله عليه وسلم إليه أن لايجاوزه ليعترض عيرا لقريش تمر بهم فخرجوا يمشون على أقدامهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى صبحوا المكان المذكور في صبح خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس، فانصرفوا راجعين إلى المدينة اه .

وقد ذكر ابن عبد البر وابن حزم هذه السرية بعد بدر الأولى . وفي السيرة الشامية « الباب السادس في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه إلى الخرار » وساق ماتقدم وقال بعده « الباب السابع في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه » .

روى الإمام أحمد عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءت جهينة فقالوا له : إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلموا، وبعثنا صلى الله عليه وسلم ولا نكون مائة ، وكان ذلك في رجب أي من السنة الثانية ، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغير على حي من كنانة ، فأغرنا عليهم ، فكانوا كثيرا فلجأنا إلى جهينة فمنعونا ، وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام ؟ فقال بعضنا لبعض: ماترون ؟ فقال بعضنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره ، وقال بعض آخر لانقيم ههنا ، وقلت أنا في أناس معي : بل نأتي عير قريش فنقتطعها ، فانطلقنا إلى العير وانطلق بعض أصحابنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان محمرا وجهه ، فقال : جئتم متفرقين وإنما أهلك من قبلكم الفرقة ، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش ، فبعث علينا عبد الله بن جحش أميرا فأمره علينا لنذهب إلى جهة نخلة بين مكة والطائف » .

سرية عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه
إلى بطن نخلة

قال : لما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء الأخيرة ، قال لعبد الله بن جحش واف مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجها ، فوافاه الصبح ومعه قوسه وجعبته ودرقته ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح وجده واقفا عند بابه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيّ بن كعب ، فدخل عليه ، فأمره فكتب كتابا ثم دعا عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه ، فدفع إليه الكتاب ، وقال له : قد استعملتك على هؤلاء النفر اه . أى وكان قبل ذلك بعث عليهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، فلما ذهب لينطلق بكى صبيانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث عليهم عبد الله وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين ، أى فهو أول من تسمى فى الإسلام بأمير المؤمنين ثم بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ولا ينافى ذلك قول بعضهم : أول من تسمى فى الإسلام بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، لأن المراد أول من تسمى بذلك من الخلفاء أو أن هذا أمير جميع المؤمنين وذاك أمير من معه من المؤمنين خاصة .

فقد جاء أن عمر رضى الله تعالى عنه كان يكتب أولا : من خليفة أبى بكر ، فاتفق أن عمر رضى الله تعالى عنه أرسل إلى عامل العراق أن يبعث إليه برجلين جلدين يسألهما عن أهل العراق ، فبعث إليه بعبد بن ربيعة وعدى بن حاتم الطائى ، فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاصى رضى الله تعالى عنه ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتما والله أصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : مابدالك فى هذا الاسم ؟ فأخبره الخبر وقال : أنت الأمير ونحن المؤمنون ، فأول من سماه بذلك عبد بن ربيعة وعدى بن حاتم . وقيل أول من سماه بذلك المغيرة بن شعبة ، وحينئذ صار يكتب : من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، فقد كتب رضى الله تعالى عنه بذلك إلى نيل مصر ؛ فإن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه لما فتح مصر ودخل شهر بؤنة من شهور العجم دخل إليه أهل مصر وقالوا له : أيها الأمير إذا كان أحد عشر ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلى مايكون ، ثم

ألقيناها فى هذا النيل، أى ليجرى ، فقال لهم عمرو رضي الله تعالى عنه : إن هذا لايكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله ، فأقاموا مدة والنيل لايجرى لا قليلا ولا كثيرا حتى هم أهل مصر بالجلاء منها ، فكتب عمرو بذلك إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه كتابا وكتب بطاقة فى داخل الكتاب ، وقال فى الكتاب : قد بعثت إليك بطاقة فى داخل الكتاب فألقها فى نيل مصر ، فلما قدم الكتاب أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله هو الذى يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة ، فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم .

وكان أولئك النفر ثمانية : أى وقيل اثنى عشر من المهاجرين . يعتقب كل اثنين منهم بعيرا منهم سعد بن أبى وقاص وعيينة بن غزوان ، وكانا يعتقبان بعيرا ؛ ومنهم واقد ابن عبد الله ، ومنهم عكاشة بن محصن ، وأمر صلى الله عليه وسلم عبد الله أن لاينظر فى ذلك الكتاب حتى يسير يومين ، أى قبل مكة ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه أى على السير معه . أى وقد عقد له صلى الله عليه وسلم راية .

قال ابن الجوزى : أول راية عقدت فى الإسلام راية عبد الله بن جحش ، أى بناء على أن الراية غير اللواء ، وحينئذ تعارض القول بترادفهما والقول بأن اسم الراية إنما وجد فى خيبر .

قال ابن الجوزى رحمه الله: وهو أول أمير أمر فى الإسلام. وفيه أنه مخالف لما سبق . إلا أن يريد أول من سمى أمير المؤمنين ، فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب ، فإذا فيه إذا نظرت فى كتابى هذا فأت حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، ولا تكره أحدا من أصحابك على السير معك ، أى ولفظ الكتاب : سر بسم الله وبركاته ولا تكرهن أحدا من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى حتى تأتى بطن نخلة فترصد عير قريش ، وتعلم لنا أخبارهم ، فلما قرأ الكتاب على أصحابه قالوا : نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك ، فسر على بركة الله تعالى ، أى وجعل البخارى دفعه صلى الله عليه وسلم الكتاب لعبد الله ليقرأه ويعمل بما فيه دليلا على صحة الرواية بالمناولة ، وهى أن الشيخ يدفع لتلميذه كتابا ، ويأذن له أن يحدث عنه بما فيه .

وممن قال بصحة المناولة سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه . روى إسماعيل بن صالح عنه أنه أخرج لهم كتبا مشدودة وقال لهم : هذه كتبي صححتها ورويتها فارووها عنى ، فقال له إسماعيل بن صالح : نقول : حدثنا مالك؟ قال نعم .

وفى لفظ أن عبد الله رضي الله عنه لما قرأ الكتاب قال سمعا وطاعة ، أى بعد أن استرجع ثم أعلم أصحابه ، وقال لهم من كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضوا لم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا ببحران بفتح الموحدة وبضمها وسكون الحاء المهملة : موضع أضل سعد بن أبي وقاص وعيينة بن غزوان بعيرهما فتخلفا فى طلبه ومضى عبد الله ومن عداهما معه حتى نزل بنخلة فمرت عير لقريش : أى تحمل زبيبا وأدما : أى جلودا من الطائف وأمتعة للتجارة ، فى تلك العير عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن المغيرة ، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان ؛ ونزلوا قريبا من عبد الله وأصحابه وتخوفوا منهم ، فأشرف عليهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه : أى وتراءى لهم ليظنوا أنهم عمارا فيطمئنوا ، أى وذلك بإرشاد عبد الله بن جحش رضى الله عنه ، فإنه قال لهم : إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم ، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم ، فلما رأوا رأسه محلوقا قالوا عمار ، أى هؤلاء قوم معتمرون لا بأس عليكم منهم ، وكان ذلك آخر يوم من شهر رجب ، أى وقيل أول يوم منه .

ويدل للأول ما جاء أن عبد الله تشاور مع أصحابه فيهم ، فقال بعضهم لبعض : إن تركتموهم فى هذه الليلة دخلوا الحرم فقد تمنعوا منكم به ، وإن قتلتموهم فى هذا اليوم تقتلوهم فى الشهر الحرام ، أى وكان ذلك قبل أن يحل القتال فى الشهر الحرام ، فإن تحريم القتال فى الأشهر الحرم كان معمولا به من عهد إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام ، جعل الله ذلك مصلحة لأهل مكة ، فإن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما دعا لذريته بمكة أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوى إليهم لمصلحتهم ومعاشهم ، جعل الأشهر الحرم أربعة : ثلاثة سردا وواحدا فردا وهو رجب ، أما الثلاثة فليأمن الحجاج فيها واردين لمكة وصادرين عنها ، شهرا قبل شهر الحج ، وشهرا آخر بعده قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ثم يرجع ، وأما رجب فكان للعمار يأمنون فيه مقبلين ومدبرين وراجعين

نصف الشهر للإقبال ونصفه الآخر للإياب ، لأن العمرة لاتكون من أقاصى بلاد العرب كالحج ، وأقصى منازل بلاد المعتمرين خمسة عشر يوما ، ذكره السهيلى .

ولم يزل تحريم القتال فى تلك الأشهر الحرم إلى صدر الإسلام ، وذلك قبل نزول براءة ؛ فإن براءة كان فيها نبذ العهد العام ، وهو أن لا يصدّ أحد عن البيت جاءه ، ولا يخاف أحد فى الأشهر الحرم ، وأن لايحج مشرك ، وإباحة القتال فى الأشهر الحرم ، أى مع بقاء حرمتها ، فإنها لم تنسخ ، قال تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فتعظيم حرمتها باقية لم تنسخ ، وإنما نسخ حرمة القتال فيها ، خلافا لما نقل عن عطاء من أن حرمة القتال فيها باقية لم تنسخ .

ويدل للثانى ما فى الكشاف وكان ذلك اليوم أول يوم من رجب وهم يظنون أنه من جمادى الآخرة ، فتردد القوم وهابوا الإقدام ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، ثم أجمع رأيهم على قتل من لم يقدروا على أسره ، أى وأخذ ما معهم فقتلوا عمرو بن الحضرمى ، رماه واقد بن عبد الله بسهم فهو أول قتيل قتله المسلمون ، وأسروا عثمان والحكم فهما أول أسير أسره المسلمون ، وأفلت بفتح الهمزة باقى القوم ، أى وجاء الخبر لأهل مكة فلم يمكنهم الطلب لدخول شهر رجب ، أى بناء على ما تقدم ، واستاق عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم العير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أول غنيمة غنمها المسلمون. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، وأبى أن يستلم العير والأسيرين ، فسقط بالبناء للمجهول فى أيديهم : أى ندموا وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ؟ سفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، أى وصارت قريش تعير بذلك من بمكة من المسلمين ، يقولون لهم : يا معشر الصباة قد استحللتم الشهر الحرام ، وقاتلتم فيه ، وزادوا فى التشنيع والتعيير وصارت اليهود تتفاءل بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون القتيل عمرو الحضرمى والقاتل واقد ، فيه عمرت بفتح العين المهملة وكسر الميم الحرب : أى حضرت الحرب ووقدت الحرب ، فكان ذلك الفأل عليهم لعنهم الله وضاق الأمر على عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم ، فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) أى عظيم الوزر (وصد عن سبيل الله) أى ومنع للناس عن دين الله (وكفر به) أى بالله (والمسجد الحرام) أى ومنع للناس عن مكة (وإخراج أهله منه) وهم

النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين منه من (أكبر عند الله) أعظم وزرا (والفتنة) الشرك : أى الذى أنتم عليه ، أو حملكم من أسلم على الكفر بالتعذيب له (أكبر من القتل) لكم فيه : أى صدهم لكم عن المسجد الحرام ، وكفرهم بالله وإخراجكم من مكة وأنتم أهلها ، وفتنة من أسلم بحيث يرتد عن الإسلام ويرجع إلى الكفر أكبر من قتل من قتلتم منهم ، ففرج عن عبد الله وأصحابه رضى الله عنهم ، أى وهذا كما ترى يدل على أنهم قتلوا مع علمهم بأن ذلك اليوم من رجب ، ويضعف ما تقدم عن الكشاف الموافق لما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أصحاب محمد كانوا يظنون أن ذلك اليوم آخر جمادى، وكان أول رجب ولم يشعروا ، أى لأن جمادى يجوز أن يكون ناقصا. وفيه أنه لو كان الأمر كذلك لاعتذر عبد الله وأصحابه رضي الله تعالى عنهم بذلك .

وجاء أن المسلمين اختلفوا فى ذلك اليوم ، فمن قائل منهم هذه غرة من عدوكم وغنم رزقتموه ، ولا ندرى أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا ؟ وقال قائل منهم : لا نعلم اليوم إلا من الشهر الحرام ، ولا نرى أن تستحلوه لطمع اشتملتم عليه ؛ ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم عقل ابن الحضرمى أى أعطى ديته ؛ ويضعفه ماتقدم فى غزوة بدر من أن أخاه طلب ثأره وكان ذلك سببا لإثارة الحرب وأن عتبة بن ربيعة أراد أن يتحمل ديته ويتحمل جميع ما أخذ من العير وأن تكف قريش عن القتال ، وحينئذ تسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين ؛ وطمع عبد الله وأصحابه فى حصول الأجر ؛ وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) أى فقد أثبت لهم الجهاد فى سبيل الله .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم ذلك العير وخمسه . أى جعل خمسه لله وأربعة أخماسه للجيش .

وقيل تركه حتى رجع من بدر وخمسه مع غنائم بدر ، وقيل إن عبد الله هو الذى خمسها ، أى فإنه رضى الله عنه ، قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس فأخرج خمس ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى عزلها له ، وقسم سائرها بين أصحابه رضى الله عنهم . وحينئذ يكون ما تقدم من قوله وأبى أن يتسلم العير ، الظاهر فى أن العير لم تقسم ، المراد خمس تلك العير ، وهو أول غنيمة خمست فى الإسلام : أى قبل فرضه ، ثم فرض على ما صنع عبد الله رضى الله عنه ، ويوافق ذلك قول ابن عبد البر

فى الاستيعاب .. وعبد الله بن جحش أول من سن الخمس من الغنيمة للنبى صلى الله عليه وسلم من قبل أن يفرض الله الخمس ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك آية الخمس (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) الآية ، وإنما كان قبل ذلك المرباع ، هذا كلامه ، والمرباع : ربع الغنيمة ، وتقدم أن الفىء والغنيمة يطلق أحدهما على الآخر .

وفى كلام فقهائنا أن الغنيمة كانت فى صدر الإسلام له صلى الله عليه وسلم خاصة ، ثم نسخ ذلك بالتخميس .

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء عثمان والحكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعنى سعد بن أبى وقاص وعيينة ابن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم ، فإن سعدا وعيينة رضى الله عنهما لم يحضرا الوقعة بسبب التماسهما بعيرهما وقد مكثا فى طلبه أياما ثم قدما ، فأفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسيرين : أى كل واحد بأربعين أوقية ، فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا .

أى وعن المقداد : أراد أميرنا يعنى عبد الله بن جحش أن يقتل الحكم ، فقلت : دعه فقدم به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافرا بعث وفى الأصل تبعا لشيخه الحافظ الدمياطى .

سرية عمير بن عدى الخطمى الضرير

إلى عصماء

أى بالمد : بنت مروان اليهودية ، وكانت متزوجة فى بنى خطمة ، وكان زوجها مرثد ابن زيد بن حصين الأنصارى أسلم بعد ذلك رضى الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمير بن عدى الخطمى ، وهو أول من أسلم من بنى خطمة إلى قتل عصماء بنت مروان ، لأنها كانت تسب الإسلام وتؤذى النبى صلى الله عليه وسلم فى شعر لها ، وتحرض عليه ، فجاءها عمير فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وعلى صدرها صبى ترضعه فسها بيده ونحى الصبى عن صدرها ، ووضع سيفه على صدرها وتحامل عليه حتى أنفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبى

صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقتلت ابنة مروان؟ فقال : نعم ، فهل عليّ فى ذلك من شىء ؟ فقال : لا ينتطح فيها عنزان : أى الأمر فى قتلها هين لا يعارض فيه معارض ، وهذه الكلمة من جملة الكلمات التى لم تسمع إلا من النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع غالبها فى النور فى هذا المحل ، قال : وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عميرا هذا بالبصير ، لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : انظروا إلى هذا الأعمى الذى يسرى فى طاعة الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقل الأعمى ، ولكن البصير .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما قال : ألا رجل يكفينا هذه ؟ يعنى عصماء بنت مروان ، فقال عمير بن عدى : أنا لها ، فأتاها وكانت تمارة : أى تبيع التمر ، فقال لها : أعندك أجود من هذا التمر ، لتمر بين يديها ؟ قالت نعم ، فدخلت إلى البيت وانكبت لتأخذ شيئا من التمر ، فالتفت يمينا وشمالا فلم يشعر بأحد ، فضرب رأسها حتى قتلها ، فليتأمل هذا مع ما قبله .

ثم إن عميرا أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف صلى الله عليه وسلم من صلاته نظر إليه ، فقال له : أقتلت ابنة مروان ؟ قال نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله فانظروا إلى عمير ، فلما رجع عمير إلى منزل بنى خطمة وجد بنيها فى جماعة يدفنونها ، فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال : نعم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون : والذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لأضربنكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم ، فيومئذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة ؛ وكان يخفى إسلامه من أسلم منهم ، لكن جاء فى رواية أنها كانت تلقى خرق الحيض فى مسجد بنى خطمة فليتأمل .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما أهدر دم عصماء نذر عمير إن رد الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بدر إلى المدينة سالما ليقتلنها ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر إلى المدينة عدا عليها عمير رضى الله تعالى عنه فقتلها . وفى كلام السهيلى رحمه الله أن الذى قتل عصماء بعلها .

وقد يقال : لا مخالفة لأن عميرا رضى الله عنه جاز أن يكون كان بعلها قبل مرثد بن زيد .

وذكر فى الاستيعاب فى ترجمة عمير رضى الله عنه أنه قتل أخته لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمها .

أقول : الظاهر أنها غير عصماء ؛ لأن نسب عصماء غير نسب عدى ، إلا أن يقال إنها أخته لأمه ويبعده ما تقدم من أنه كان زوجا لها ، والله أعلم * وبعث * وفى الأصل تبعا لشيخه الحافظ الدمياطى .

سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك

أى والعفك بفتح العين المهملة وبالفاء وبالكاف : أى الحمق أى أبى الحمق اليهودى ، قال صلى الله عليه وسلم يوما « من لى بهذا الخبيث ، يعنى أبا عفك» أى من ينتدب إلى قتله وكان شيخا كبيرا قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وكان يحرض الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبه فى شعر له ، فقال سالم بن عمير رضى الله عنه ، أى وهو أحد البكائين ، وقد شهد بدرا علىّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه فطلب له غرة : أى غفلة ، فلما كانت ليلة صائفة أى شديدة الحر نام أبو عفك بفناء بيته ، أى خارجه ، فعلم بذلك سالم رضى الله عنه فأقبل نحوه فوضع السيف على كبده ثم تحامل حتى خش السيف فى الفراش وصاح عدو الله ، فتركه سالم رضى الله عنه وذهب ، فقام إلى أبى عفك ناس من أصحابه فاحتملوه وأدخلوه داخل بيته فمات عدو الله ، وابن إسحاق قدم هذا البعث على بعث عمير :

سرية عبد الله بن مسلمة رضى الله عنه
إلى كعب بن الأشرف الأوسى

أى فإن أباه أصاب دما فى الجاهلية فأتى المدينة فحالف بنى النضير فشرف منهم ، وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعبا وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة ، وكان شاعرا مجيدا ، وقد كان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ، وكان يعطى أحبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة جاءه أحبار يهود من بنى قينقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم ، فقال لهم : ماعندكم من أمر هذا الرجل: يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : هو الذى كنا ننتظر ، ما أنكرنا من نعوته شيئا ، فقال لهم قد حرمتم كثيرا من

الحبر ، فارجعوا إلى أهليكم ، فإن الحقوق فى مالى كثيرة ، فرجعوا عنه خائبين ، ثم رجعوا إليه وقالوا له إنا أعجلناك فيما أخبرناك به ، ولما استثبتنا علمنا أنا غلطنا وليس هو المنتظر ، فرضى عنهم ووصلهم ، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من ماله . وهذا نزل فيه قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما) استودعه شخص دينارا فجحده كذا فى تكملة الجلال السيوطى . وفى الكشاف وفروعه أنها نزلت فى فنحاص بن عازوراء . وقد يقال : لا مانع من تعدد الواقعة .

ولما انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنهما مبشرين لأهل المدينة بذلك وصارا يقولان قتل فلان وفلان وأسر فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب فى ذلك ويقول هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؛ والله إن كان محمد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها ، أى كما تقدم ، فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة وكان شاعرا فجعل يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه ، وينشد الأشعار ويبكى من قتل ببدر من أشراف قريش ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ، ثم رجع إلى المدينة : أى بعد أن لم يجد من يأوى رحله بمكة ، أى لأنه لما قدم مكة وضع رحله عند المطلب بن وداعة وأكرمته زوجة المطلب وهى عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان وأخبره بذلك ، فهجا المطلب وزوجته ، فلما بلغهما هجاء حسان ألقت رحله ، وقالت : مالنا ولهذا اليهودى ؟ وأسلم المطلب وزوجته بعد ذلك رضى الله عنهما ، وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، أى يقال إنه خرج فى سبعين راكبا من اليهود إلى مكة ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلوا على أبى سفيان فقال لهم أبو سفيان إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ، ففعلوا ، فأنزل الله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) أى وحالفهم عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، فخرج من مكة للمدينة ، فلما وصل إلى المدينة وصار يشبب بنساء المسلمين : أى يتغزل فيهن ويذكرهن بالسوء حتى آذاهن .

أى وقيل إن كعب بن الأشرف صنع طعاما وواطأ جماعة من اليهود أن يدعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام ، فإذا حضر يفتكون به ، ثم دعاه فجاء ومعه بعض أصحابه ، فأعلمه جبريل عليه السلام بما أضمروه بعد أن جالسه ، فقام صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام يستره بجناحه حتى خرج ، فلما فقدوه تفرّقوا ، ولامانع من تعدد الأسباب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ وفى لفظ : من لنا بابن الأشرف ، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا ، أى وفى رواية : إنه يؤذى الله ورسوله ، وفى أخرى فإنه قد آذانا بشعره وقوى المشركين علينا ، أى فإن أبا سفيان قال لكعب : فانك تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى طريقا وأقرب إلى الحق ، أنحن أم محمد ؟ فقال كعب : اعرضوا علىّ دينكم ، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقرى الضيف، ونفك العانى، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ونحن أهل الحرم ؛ ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وفارق الحرم، وديننا قديم ودين محمد الحديث، فقال كعب لعنه الله : أنتم والله أهدى سبيلا مما هو عليه ،فقال صلى الله عليه وسلم: من لى بقتل ابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة الأوسى: أنا لك به يا رسول الله ، هو خالى — لأن محمد بن مسلمة ابن أخته — أنا أقتله ، وأجمع : أى عزم على ذلك هو وأربعة: أى من الأوس عباد بن بشر وأبو نائلة، وكان رضى الله عنه أخا لكعب بن الأشرف من الرضاعة والحارث بن عيسى والحارث بن أوس . ومكث محمد بن مسلمة رضى الله عنه بعد قوله لرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا ماتقوم به نفسه خوفا من عدم وفائه بما ذكر ، ثم قال : يا رسول الله لا بد لنا أن نقول : أى نذكر ما نتوصل به إليه من الحيلة ، وحينئذ كان المناسب أن يقول لابد لنا أن نتقول : أى نخترع ما نحتال به عليه ، فقال : قولوا ما بدا لكم ؛ فأنتم فى حل من ذلك، فأباح صلى الله عليه وسلم لهم الكذب لأنه من خدع الحرب كما تقدم .

وقيل إنه صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه ، والجمع ممكن ، فتقدمهم إلى كعب أبو نائلة رضى الله عنه ، وكان يقول الشعر فتحدث معه ساعة وتناشد شعرا ؛ ثم قال : ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، فقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس ، أى

وسألنا الصدقة ونحن لا نجد مانأكل ، وسائر ماعندنا أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه ، فقال كعب : لقد كنت أخبرتك يا ابن مسلمة أن الأمر سيصير إلى ما تقول ، أى ثم قال له كعب : أصدقنى ما الذى تريدون فى أمره ؟ قال : خذلانه والتنحى عنه ، قال شر تبين ، بان لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل ، فقال أبو نائلة ، وقيل محمد بن مسلمة كما فى رواية صحيحة .

قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أن كلا منهما قال له : إنى أريد أن تبيعنى وأصحابى طعاما ونرهنك ونوثق لك ، فقال : أترهنونى أبناءكم . وفى رواية نساءكم ؛ قال : أردت أن تفضحنا ، نرهنك من الحلقة : أى السلاح كما تقدم — وقيل الدرع خاصة — مافيه وفاء ، وقد أردت أن آتيك بأصحابى ، أراد أبونائلة رضى الله عنه أن لاينكر كعب السلاح إذا جاء به هو وأصحابه ، فقال إن فى الحلقة لوفاء : أى وفى البخارى ، قال : ارهنونى نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نسانا وأنت أجمل العرب . زاد فى رواية : ولا نأمنك عليهن ، وأى امرأة تمتنع منك لجمالك فانك تعجب النساء ، قال : فارهنونى أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم ، فيقال رهن بوسق ؛ قالوا : هذا عار علينا ولكنا نرهنك اللامة : أى السلاح ، فرجع أبو نائلة رضى الله عنه إلى أصحابه فأخبرهم الخبر ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجوا من عنده متوجهين إلى كعب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته : أى وأمر عليهم محمد بن مسلمة ، وكانت تلك الليلة مقمرة ، فأقبلوا رضى الله عنهم حتى انتهوا إلى حصن كعب فهتف به أبو نائلة رضى الله عنه ، وكان كعب قريب عهد بعرس ، فوثب فى ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها أى طرفها ، وقالت : إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى مثل هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، اوو جدنى قائما لايوقظنى ، فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر ، أى وفى البخارى : فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فإنى أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . وفى مسلم كأنه صوت دم : أى صوت طالب دم ، قال : إنما هو ابن أختى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم او دعى إلى طعنة بليل لأجاب كذا فى البخارى . وفى مسلم : إنما هو محمد ورضيعته ، قيل وصوابه إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة .

فقد ذكر أهل العلم أن أبا نائلة رضى الله عنه كان رضيعا لمحمد فنزل أى وهو ينفح منه ريح طيب ، فتحدث معه هو وأصحابه ساعة ثم تماشوا ، ثم إن أبا نائلة رضى الله عنه وضع يده على رأس كعب ثم شم يده ، وقال : ما رأيت طيبا أعطر من هذا الطيب . أى فقال : وكيف وعندى أعطر نساء العرب وأكمل العرب ؟ وفى لفظ : وأجمل بدل أكمل ، وهى أشبه ، فقال له : يا أبا سعيد أدن منى رأسك أشمه وأمسح به عينى ووجهى ، ثم مشوا ساعة ، ثم عاد أبو نائلة لوضع يده على رأسه ، واستمسك به وقال اضربوا عدوّ الله ، فضربوه ، فاختلفت عليه أسيافهم ، فلم تغن شيئا : أى وقع بعضها على بعض ولصق عدوّ الله بأبى نائلة وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار ، قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : فوضعت سيفى فى ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغ عانته فوقع ؛ أى ولما صاح اللعين صاحت امرأته : يا آل قريظة والنضير مرتين ، فخرجت اليهود فأخذوا على غير طريق الصحابة ففاتوهم .

قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : وأصيب الحارث بن أوس من بعض أسيافنا فى رجله ورأسه ونزف به الدم ، فتخلف عنا : أى وناداهم : اقرءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام ، فعطفوا عليه واحتملوه . وفى رواية تخلف عن أصحابه فافتقدوه ورجعوا إليه فاحتملوه . قال محمد بن مسلمة رضى الله عنه : فجئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا وأخبرناه بقتل عدوّنا ، وتفل على جرح صاحبنا فلم يؤلمه .

قال : وفى رواية أنهم حزوا رأس كعب وحملوا ذلك الرأس ثم خرجوا يشتدّون ، فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تلك الليلة ، فلما سمع تكبيرهم بالبقيع كبر وعرف أنهم قد قتلوا عدوّ الله ، وخرج إلى باب المسجد فجاءوا فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على باب المسجد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلحت الوجوه ، قالوا : أفلح وجهك يا رسول الله ، ورموا برأسه بين يديه ، فحمد الله على قتله ، أى وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قتل سيدنا غيلة ، فذكر لهم النبى صلى الله عليه وسلم صنيعه من التحريض عليه وأذيته المسلمين فازدادوا خوفا .

سرية عبدالله بن عتيك رضى الله عنه

لقتل أبى رافع

سلام بالتخفيف ابن أبى الحقيق على وزن نصير بالتصغير وبالحاء المهملة الخزرجى : أى وفى البخارى : أبى رافع عبد الله بن أبى الحقيق ، ويقال له سلام بن أبى الحقيق ، كان بخيبر ، وكان تاجر أهل الحجاز .

لما قتلت الأوس: أى عبد الله بن مسلمة وأبو نائلة ومن تقدم معهما كعب بن الأشرف تذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف فى العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الخزرج ، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق ، أى لأنه كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أى وعن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركى العرب بالمال الكثير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى حزب الأحزاب يوم الخندق ، لأن الأوس والخزرج كانا يتنافسان فيم يقرب إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لاتفعل الأوس شيئا من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره وبالعكس ، ويقولون : والله لايذهبون بهذا فتيلا علينا فى الإسلام ، فانتدب لقتله خمسة من الخزرج منهم عبد الله بن عتيك ، وعبد الله ابن أنيس ، وأبو قتادة ، واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : أى فى أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة ، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك وأمرهم أن لايقتلوا وليدا ولا امرأة فخرجوا حتى أتوا خيبر فتسوروا دار أبى رافع ليلا ، فلم يدعوا بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله ، وكان أبو رافع فى علية لها درجة ، أى سلم من الخشب من محل يصعد عليه إلى تلك العلية ، فطلعوا فى تلك الدرجة حتى قاموا على باب تلك العلية ، فاستأذنوا فخرجت إليهم امرأته ، فقالت : من أنتم ؟ قالوا : ناس من العرب نلتمس الميرة .

وفى لفظ : لما صعدوا قدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان يهود ، فاستفتح وقال : جئت أبا رافع بهدية ، ففتحت له امرأته وقالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه ، فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجرة ووجدوه وهو على فراشه ، مادلهم عليه فى الظلمة إلا بياضه كأنه قبطية بيضاء فابتدروه بأسيافهم ، ووضع عبد الله بن أنيس رضى الله

عنه سيفه فى بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول قطنى قطنى : أى يكفينى يكفينى » وعند ذلك صاحت المرأة . قال بعضهم : ولما صاحت المرأة جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده . قال : وفى رواية أن المرأة لما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بعضنا بالسيف فسكتت ، فابتدرناه بأسيافنا وخرجنا من عنده ، وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيء البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، أى جرحت جرحا شديدا . وفى لفظ : قد انكسرت ساقه . وفى آخر فانخلعت رجله فعصبها بعمامته ، والجمع بين كسر ساقه وخلع رجله واضح ، لأن الانخلاع يكون من المفصل ، فقد انكسرت ساقه وانخلعت من مفصلها ، ومع الكسر والانخلاع حصلت فيها جراحة أيضا .

وأما قول ابن إسحاق رحمه الله فوثبت يده فقيل وهم والصواب رجله كما تقدم . وفى السيرة الهشامية : فوثبت يده ، وقيل رجله .

وقد يقال : لامانع من حصولهما ، قال : فحملناه حتى أتينا محلا استخفينا فيه : أى وذلك المحل من أفنيتهم التى يلقون فيها كناستهم . وفى لفظ : أنهم كمنوا فى نهر من عيونهم حتى سكن الطلب .

وقد يقال : لامخالفة ، لأنهم أوقدوا النيران ، وتفرقوا من كل وجه يطلبونهم أى وفى لفظ : فخرج الحارث فى ثلاثة آلاف فى آثارهم يطلبونهم بالنيران حتى إذا أيسوا رجعوا إلى عدو الله ، فاكتنفوه وهو بينهم يجود بنفسه ، فقال بعضنا لبعض : كيف نعلم أن عدو الله مات ؟ فقال رجل منهم : أنا أذهب فأنظر لكم ؛ فانطلق حتى دخل فى الناس قال : فوجدت امرأته تنظر فى وجهه وفى يدها المصباح ، ورجال يهود حوله وهى تحدثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى .

أى وعلى الرواية الآتية أنه أكذبها ، ثم أقبلت تنظر فى وجهه ، ثم قالت فاضت وإله يهود : أى خرجت روحــه ، فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسى منها ، ثم جئت وأخبرت أصحابى ، واحتملنا عبد الله بن عتيك ، وقدمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية : أن ابن عتيك لما عصب رجله انطلق حتى جلس على الباب . وقال : لاأخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته أولا ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ، فقال

أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلق يحجل إلى أصحابه وقال قد قتل الله أبا رافع » فأسرعوا ، وليتأمل هذا مع ماقبله ، وقوله أنعى هو بفتح العين ، وقيل الصواب انعوا ، والنعي: خبر الموت والاسم الناعي. ويقال له الناعية ، وكانت العرب إذا مات فيهم الكبير ركب راكب فرسا وصار يذكر أوصافه ومآثره ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك. ولا منافاة بين كونه انطلق يحجل إلى أصحابه وكونهم حملوه ،لأنه يجوز أن يكون عند وقوعه وحصول ماتقدم له لم يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام وقدر على المشي يحجل ، ومن ثم جاء فى بعض الروايات : فقمت أمشي مابي قلبة : أي علة مهلكة . فلما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشي أحس بالألم ، فحمله أصحابه ، وهذا السياق يدل على أن الذى قتله عبدالله ابن عتيك وحده ، وهو مافى البخارى ، وفى رواية أن الذى كسرت رجله أبو قتادة لأنهم لما قتلوه وخرجوا نسي أبو قتادة قوسه فرجع إليها وأخذها فأصيبت رجله فشدها بعمامته ولحق بأصحابه،وكانوا يتناوبون حمله حتى قدموا المدينة على النبى صلى الله عليه وسلم فمسحها فبرئت، أى وقال لما رآنا: أفلحت الوجوه ، قلنا أفلح وجهك يارسول الله وأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده صلى الله عليه وسلم فى قتله كل منا ادعاه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتوا أسيافكم فجئناه بها فنظر إليها ، فقال لسيف عبد الله بن أنيس : هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام . قال : والثابت فى الصحيح كما علمت أن عبد الله بن عتيك هو الذى انفرد بقتله وأن عدو الله كان يحصن بأرض الحجاز ، ولا منافاة لأن خيبر من الحجاز ، أى من قراه وريفه .

فلما دنوا من خيبر وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس فهتف بهالبواب : ياعبد الله،ناداه بذلك كما ينادى الشخص شخصا لايعرفه وهويظن أنه من أهل الحصن، إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب فدخل وكمن . فلما أغلق الباب علق المفاتيح . قال ثم أخذتها وفتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده . فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقته على من داخله حتى انتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لاأدرى أين هو من البيت . قلت: أبا رافع ،قال من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته بالسيف فما أغنت شيئا وصاح ، فخرجت من البيت ، أى وعند ذلك قالت له

امرأته : ياأبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك . قال : ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك ؟ قال ابن عتيك : ثم عدت وقلت : ماهذا الصوت ياأبا رافع ؟ قال لأمك الويل ، إن رجلا فى البيت ضربنى بالسيف فعمدت إليه فضربته أخرى فلم تغن شيئا فتواريت ثم جئته كهيئة المغيث وغيرت صوتى ، وإذا هو مستلق على ظهره فوضعت السيف فى بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم ، ثم جئت إلى الدرجة فوقعت ، فانكسرت رجلى فعصبتها بعمامتى فانطلقت إلى أصحابى ، وقلت النجاة قد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته . فقال : ابسط رجلك فمسحها فكأنى لم أشتكها قط ، وعادت كأحسن ما كانت انتهى ، أى وهذا ما فى البخارى .

وفيه فى رواية أخرى أن ابن عتيك قال : لما وضعت السيف فى بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم خرجت ، دهشا حتى أتيت السلم : أى الذى صعدت فيه أريد أن أنزل فأسقطت منه فانخلعت رجلى ، فعصبتها ، فأتيت أصحابى أحجل . فقلت : انطلقوا فبشروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى لاأبرح حتى أسمع الناعية ، فلما كان فى وجه الصبح صعد الناعية ، فقال أنعى أبا رافع ، فقمت أمشى مابى قلبة ، فأدركت أصحابى قبل أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشرته .

وفى سيرة الحافظ الدمياطى أنهم مكثوا فى ذلك المحل الذى استخفوا فيه يومين حتى سكن عنهم الطلب . وينبغى النظر إلى وجه الجمع بين ماذكر .

سرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى القردة

بفتح القاف والراء ، وقيل بالفاء مفتوحة ، وقيل بكسرها وسكون الراء ، وقدمه فى الأصل على الأول : اسم ماء .

وسببها أن قريشا لما كانت وقعة بدر خافوا الطريق التى كانوا يسلكونها إلى الشام من على بدر ، فسلكوا طريقا أخرى من جهة العراق . فخرج عيرهم فيه أموال كثيرة جدا من تلك الطريق يريدون الشام ، واستأجروا رجلا يدلهم على الطريق ، وكان ذلك الرجل ممن هرب من أسارى بدر . وفى ذلك العير من أشراف قريش : أبو سفيان ، وصفوان بن أمية ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد بن حارثة فى مائة راكب ، وهى أول سرية لزيد بن حارثة خرج فيها أميرا ، فصادف تلك العير على ذلك الماء فأصاب العير ، وأفلت القوم وأسروا دليلهم .

وقدم زيد رضى الله عنه بتلك العير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخسمها ، فبلغ الخمس ما قيمته عشرون ألف درهم ، وأتى بذلك الأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له إن تسلم تترك : أى من القتل ، فأسلم فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه بعد ذلك .

سرية أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد

وهو ابن عمته صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة كما تقدم — إلى قطن — أى وهو جبل ، وقيل ماء من مياه بنى أسد .

وسببها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابنى خويلد قد صار فى قومهما ومن أطاعهما إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أخبره بذلك رجل من طيىء قدم المدينة لزيارة بنت أخيه بها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسلمة المذكور ، وعقدله لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وخرج الرجل المخبر له صلى الله عليه وسلم دليلا لهم ، وقال له صلى الله عليه وسلم سر حتى تنزل أرض بنى أسد فأغر عليهم قبل أن يتلاقى عليك جموعهم ، فأغذ السير ، أى بفتح الهمزة والغين المشددة والذال المعجمتين : أى أسرع ، ونكب ، أى بفتح الكاف المخففة : عدل عن سيف الطريق ، وسار بهم ليلا ونهارا ليستبق الأخبار ، فانتهى إلى ماء من مياههم ، فأغار على سرح لهم ، وأسروا ثلاثة من الرعاة وأفلت سائرهم ، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق : فرقة بقيت معه ، وفرقتان أغارتا فى طلب النعم والشاء والرجال ، فأصابوا إبلا وشاء ولم يلقوا أحدا ، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة .

قال : وقيل إنه أخرج صفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك عبدا ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان يباح له أخذ الصفى ، وهو ما يختاره أو يختاره له أمير السرية قبل القسمة من الفىء أو الغنيمة من جارية أو غيرها كما تقدم . وأخرج الخمس ، ثم قسم مابقى بين أصحابه ، فأصاب كل إنسان سبعة أبعرة ، أى وطليحة هذا كان يعد بألف فارس ؛ قدم عليه صلى الله عليه وسلم فى بعض الوفود وأسلم . ثم ارتد وادعى النبوة ، وتوفى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقويت شوكته ، ثم أسلم بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه ، وحسن إسلامه ، وحج فى زمن عمر رضى الله عنه ، ولم يعرف لأخيه سلمة إسلام . بعث عبد الله ابن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى بكسر اللام وفتحها .

وسبب ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن سفيان المذكور قد جمع الجموع لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث عبد الله بن أنيس رضى الله عنه ليقتله ، فقال : صفه لى يارسول الله ، فقال إذا رأيته هبته وفرقت : أى خفت منه وذكرت الشيطان ، فقال عبد الله : يارسول الله مافرقت من شيء قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى إنك تجدله قشعريرة إذا رأيته ، فقال عبدالله : فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول : أى ما أتوصل به إليه من الحيلة فأذن لى : أى قال لى : قل مابدا لك : أى وقال انتسب إلى خزاعة . قال عبدالله بن أنيس فسرت حتى إذا كنت ببطن عرنة : وهو وادبقرب عرفة لقيته يمشى : أى متوكئا على عصا يهدّ الأرض ووراءه الأحابيش : أى أخلاط الناس ممن انضم إليه ، فعرفته بنعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنى هبته وكنت لا أهاب الرجال ، فقلت : صدق الله ورسوله ، أى وكان وقت العصر ، فخشيت أن يكون بينى وبينه محاولة يشغلنى عن الصلاة فصليت وأنا أمشى نحوه أومىء برأسى . فلما انتهيت إليه ، قال لى : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، قال : أجل ، إنى لأجمع له ، فمشيت معه ساعة وحدثته فاستحلى حديثى . أى وكان فيما حدثته به أن قلت له : عجبت لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث . فارق الآباء ، وسفه أحلامهم . فقال لى : إنه لم يلق أحدا يشبهنى ولا يحسن قتاله .

فلما انتهى إلى خبائه وتفرق عنه صحابه قال لى : ياأخا خزاعة هلم ، فدنوت منه . فقال اجلس فجلست معه ، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته وأخذت رأسه ثم دخلت غارا فى الجبل وصيرت العنكبوت أى نسجت علىّ ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئا . فانصرفوا راجعين ، ثم خرجت . فكنت أسير الليل وأتوارى النهار حتى قدمت المدينة ، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فلما رآنى قال : قد أفلح الوجه . قلت : أفلح وجهك يارسول الله . فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبرى ، فدفع لى عصا وقال : تخصر بهذه فى الجنة : أى توكأ عليها فإن المتخصرين فى الجنة قليل ، فكانت تلك العصا عنده . فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدخلوها فى كفنه ويجعلوها بين جلده

وكفنه ففعلوا . أى وفى القاموس ذو المخصرة : أى كمكنسة بكسر الميم عبد الله بن أنيس

وهذه القصة وقصة كعب بن الأشرف ترد على الزهرى قوله لم يحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس إلى المدينة قط . وحمل إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه رأس فكره ذلك . وأول من حملت إليه الرءوس عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

وفيه أنه لما قتل الحسين وجماعة من أهل بيته بعث ابن زياد قبحه الله برءوسهم إلى يزيد بن معاوية . وابن الزبير رضى الله عنهما لم يبايع بالخلافة إلا بعد موت يزيد . ومضى مدة خلافة ابنه معاوية رضى الله عنه الذى خلع نفسه وهى أربعون يوما . ولعل إرسال رأس الحسين ومن معه كان قبل رأس عبد الله بن أبى الحمق ؛ فلا ينافى قول ابن الجوزى أول رأس حمل فى الإسلام — أى من المسلمين — رأس عبد الله بن أبى الحمق . وذلك أنه لدغ فمات ، فخشيت الرسل أن تتهم فقطعوا رأسه فحملوه .

ثم رأيت ابن الجوزى قال : قال ابن حبيب نصب معاوية رضى الله عنه رأس عمرو بن أبى الحمق . ونصب يزيد بن معاوية رأس الحسين رضى الله عنه . وقول الزهرى إلى المدينة لا يخالف ما فى النور ماتقدم فى غزوة بدر : كم من رأس حمل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن تلك الرءوس لم تحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ على أن فيه أنه لم يحمل إليه ذلك اليوم إلا رأس أبى جهل على ماتقدم .

سرية الرجيع

وفى الأصل : بعث الرجيع بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة ، وقيل ستة عيونا إلى مكة يتجسسون أخبار قريش ليأتوه بها ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه ، ويقال له ابن أبى الأفلح بالفاء ، وقيل أمر عليهم مرثد الغنوى رضى الله عنه حليف عمه صلى الله عليه وسلم حمزة رضى الله عنه ، ومرثد بفتح الميم وإسكان الراء وبالمثلثة . والغنوى بغين معجمة : أى وكان مرثد هذا يحمل الأسرى ليلا من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، فوعد رجلا من الأسرى بمكة أن يحمله ، قال : فجئت به حتى انتهيت به إلى حائط من حيطان مكة فى ليلة مقمرة ، فجاءت عناق وكانت من جملة البغايا بمكة ، فرأت ظلى فى جانب الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى قالت : مرثد ؟ قلت مرثد ، قالت : مرحبا وأهلا هلم تبت عندنا الليلة ، فقلت : يا عناق إن الله حرم الزنا ، فدلت

عليّ ، فخرج فى أثرى ثمانية رجال ، فتواريت فى كهف الخندمة فجاءوا حتى وقفوا على رأسى ، فأعماهم الله عنى ، فلما رجعوا رجعت لصاحبى ، فحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت إلى محل فككت عنه قيده ، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة ، ثم استشرته صلى الله عليه وسلم أن أنكح عناق ، فأمسك عنى حتى نزلت الآية (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فدعانى صلى الله عليه وسلم فتلاها عليّ ، ثم قال لى : لا تتزوجها .

وفى قطعة التفسير للجلال المحلى أن الآية نزلت فى بغايا المشركين لما همّ فقراء المهاجرين أن يتزوجوهن وهن موسرات لينفقن عليهم ، فقيل التحريم خاص بهم ، وقيل عام ، ونسخ بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية .

وفيه أن عند فقهائنا يحرم على المسلم نكاح من تعبد الأوثان وإن لم تكن بغيا .

ومن جملة العشرة عبد الله بن طارق وخبيب بن عدى وخبيب تصغير خب : وهو الماكر من الرجال الخدّاع ، وزيد بن الدثنة بفتح الدال المهملة وكسر الثاء المثلثة وقد تسكن ثم نون مفتوحة ثم تاء تأنيث مقلوب من الندثة . والندث : استرخاء اللحم ، فخرجوا رضى الله عنهم : أى يسيرون الليل ويكمنون النهار ، حتى إذا كانوا بالرجيع : وهو ماء لهذيل لقيهم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن أنيس وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقومه — وهم بنو لحيان — فإنهم ذكروا لهم فنفروا إليهم فيما يقرب من مائة رام ، أى ولا يخالف ما فى الصحيح قريبا من مائة رجل ، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه فى منزل نزلوه ، أى فإن منهم امرأة كانت ترعى غنما فرأت النوى فقالت : هذا تمر يثرب ، فصاحت فى قومها : أتيتم ، فتبعوهم إلى أن وجدوهم فى المحل المذكور ، فلما أحسوا بهم لجئوا إلى موضع من جبل هناك : أى صعدوا إليه ، فأحاطوا بهم ، وقالوا لهم : انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم رضى الله تعالى عنه : أما أنا فلا أنزل على ذمة : أى أمان وعهد كافر ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ، أى وستة منهم ، وصار عاصم يرميهم بالنبل وينشد أبياتا منها :

الموت حق والحياة باطل وكل ما قضى الإله نازل

بالمرء والمرء إليه آيل

ولا زال يرميهم حتى فنيت نبله ، ثم طاعنهم حتى انكسرت رمحه ، ثم سل سيفه ،

وقال : اللهم إنى حميت دينك صدر النهار فاحم لحمى آخره ، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم : خبيب ، وزيد ، وعبد الله بن طارق رضى الله تعالى عنهم ، فلما أمسكوهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله ، وقال: هذا أول الغدر : أى ترك الوفاء بعهد الله ، والله لا أصحبكم ، إن لى بهؤلاء يعنى القتلى أسوة ، فعالجوه ، فأبى أن يصحبهم، أى فقتلوه كما فى الصحيح ، وقيل صحبهم إلى أن كانوا بمر الظهران يريدون مكة ، انتزع عبد الله يده منهم ، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد ، أى ودخلوا بهما مكة فى شهر القعدة، فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، أى وقيل بيع كل بخمسين من الإبل ، أى وقيل بيع خبيب بأمة سوداء، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيبا ، قيل لأنه قتل الحارث يوم بدر كما فى البخارى .

وتعقب بأن المعروف عندهم أن قاتل الحارث يوم بدر إنما هو خبيب بن إساف الخزرجى ، أى وقيل القاتل له على كرم الله وجهه ، وخبيب بن عدى هذا أوسى لم يشهد بدرا عند أحد من أرباب المغازى ، أى وقيل فى هذا تضعيف الحديث الصحيح .

ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله ذكر أنه لزم من هذا رد الحديث الصحيح ، ولو لم يقتل خبيب بن عدى الحارث بن عامر ماكان لاعتناء آل الحارث بشرائه وقتله به معنى ؛ إلا أن يقال لكونه من قبيلة قاتله وهم الأنصار . وابتاع زيدا صفوان بن أمية رضى الله تعالى عنه ، فإنه أسلم بعد ذلك ليقتله بأبيه ، فحبسوهما إلى أن تنقضى الأشهر الحرم ؛ واستعار خبيب رضى الله تعالى عنه وهو محبوس موسى من بنت الحارث . وفى الصحيح من بعض بنات الحارث ليستحد بها : أى يحلق بها عانته ، فدرج لها ابن صغير وهى غافلة عنه حتى أتى إلى خبيب رضى الله تعالى عنه ، فأجلسه خبيب رضى الله تعالى عنه على فخذه والموسى بيده ، فلما رأت ابنها على تلك الحالة فزعت فزعة عرفها خبيب رضى الله تعالى عنه ، فقال : أتخشين أن أقتله : ماكنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، وذلك بكسر الكاف لأنه خطاب للمؤنث .

وروى أنه رضى الله عنه أخذ بيد الغلام ؛وقال : هل أمكن الله منكم ؛ فقالت المرأة: ماكان هذا ظنى بك ؛ فرمى لها بالموسى ؛ وقال : إنما كنت مازحا ، ماكنت لأغدر .

وفى السيرة الشامية أن تلك المرأة قالت : قال لى : تعنى خبيبا رضى الله تعالى عنه حين حضره القتل : ابعثى إلى بحديدة أتطهر بها للقتل : أى وقد كان رضى الله تعالى عنه قال

لها : إذا أرادوا قتلى فآذنيني ؛ فلما أرادوا قتله آذنته ؛ فطلب منها تلك الحديدة ؛ قالت : فأعطيت غلاما من الحى الموسى ، فقلت له : ادخل بها على هذا الرجل البيت ، قالت : فوالله لما دخل عليه الغلام قلت والله أصاب الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ويكون رجل برجل ، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ، ثم قال : لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ ؟ ثم خلى سبيله . ويقال إن الغلام ابنها : أى ويرشد إليه قول خبيب رضى الله تعالى عنه : ما خافت أمك .

وكانت بنت الحارث تقول : والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب ، قالت : والله لقد وجدته يوما أى وقد اطلعت عليه من شق الباب يأكل قطفا من عنب فى يده : أى مثل رأس الرجل ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة ثمرة . وفى رواية : ولا أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل .

أى واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته ، ولعل ذلك كان بلغ النبى صلى الله عليه وسلم وأقره ، فلما انقضت الأشهر الحرم بانقضاء المحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه فى الحل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعونى أصل ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى من جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا : أى متفرقين واحدا بعد واحد ، ولا تبق منهم أحدا : أى الكفار ، وقد قتلوا فى الخندق متفرقين .

قال : ذكر أنهم لما خرجوا به ليقتلوه خرج النساء والصبيان والعبيد ، فلما انتهوا به إلى التنعيم أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها ، فلما انتهوا بخبيب إليها وبعد صلاته للركعتين صلبوه على تلك الخشبة ، أى ليراه الوارد والصادر ، فيذهب بخبره إلى الأطراف ، ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نخلّ سبيلك ، وإن لم ترجع لنقتلنك قال : إن قتلى فى سبيل الله لقليل ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام ، فبلغه أنت عنى السلام وبلغه ما يصنع بنا .

وعن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى فسمعناه يقول : وعليه السلام

ورحمة الله وبركاته ، فلما سرى عنه صلى الله عليه وسلم قال : هذا جبريل عليه السلام يقرئني من خبيب السلام ، خبيب قتلته قريش » .

وقد جاء : أن المشركين دعوا أربعين ولدا ممن قتل آباؤهم يوم بدر فأعطوا كل واحد رمحا ، وقالوا هذا الذى قتل آباءكم ، فطعنوه بتلك الرماح حتى قتلوه ، ووكلوا بتلك الخشبة أربعين رجلا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد والزبير بن العوام رضى الله تعالى عنهما فى إنزال خبيب عن خشبته . وفى لفظ قال صلى الله عليه وسلم « أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة ؟ فقال له الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه : أنا يارسول الله وصاحبى المقداد بن الأسود ، فجاءا فوجدا عندها أربعين رجلا لكنهم سكارى نيام فأنزلاه » وذلك بعد أربعين يوما من صلبه وموته .

وحمله الزبير رضى الله تعالى عنه على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شىء فشعر بهما المشركون ، أى وكانوا سبعين رجلا فتبعوهما ، فلما لحقوا بهما قذفه الزبير رضى الله تعالى عنه ، فابتلعته الأرض اهـ . ومن ثم قيل له بليع الأرض ، أى وكشف الزبير رضى الله تعالى عنه العمامة عن رأسه وقال لهم : أنا الزبير بن العوام وصاحبى المقداد بن الأسود أسدان رابضان يذبان عن شبلهما ، فإن شئتم ناضلتكم ، وإن شئتم نازلتكم ، وإن شئتم انصرفتم ، فانصرفوا عنهما .

وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان عنده صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ، فقال له جبريل : يامحمد إن الملائكة تباهى بهذين الرجلين من أصحابك ، فنزل فيهما (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) الآية ، وتقدم أنه قيل إنها نزلت فى على كرم الله وجهه لما نام على فراشه صلى الله عليه وسلم ليلة ذهابه إلى الغار .

وقيل إنها نزلت فى حق صهيب لما أراد الهجرة ومنعه منها قريش ، فجعل لهم ثلث ماله أو كله كما تقدم .

ورأيت بعضهم هنا قال : إنها نزلت فى صهيب رضى الله تعالى عنه لما أخذه المشركون ليعذبوه ، فقال لهم : إنى شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أو من غيركم ، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتدعونى ودينى ففعلوا .

وفى كلام ابن الجوزى رحمه الله أن عمرو بن أمية هو الذى أنزل خبيبا ، فعنه رضى الله تعالى عنه قال : جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها فحللته فوقع إلى الأرض ، ثم التفت فلم

أر خبيبا ابتلعته الأرض ، وهذا هو الموافق لما فى السيرة الهشامية ، وأن ذلك كان حين أرسله صلى الله عليه وسلم والأنصار لقتل أبى سفيان بن حرب كما سيأتى إن شاء الله تعالى : أى كان خبيب رضى الله تعالى عنه تحرك على الخشبة فانقلب وجهه عن القبلة : أى الكعبة فقال : اللهم إن كان لى عندك خير فحول وجهى نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها ، فقال : الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ولنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ، ودعا عليهم خبيب رضى الله تعالى عنه ، فقال : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، قال معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما : فألقى أبو سفيان بنفسه إلى الأرض على جنبه خوفا من دعوة خبيب رضى الله تعالى عنه ؛ لأنهم كانوا يقولون إن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زال عنه : أى لم تصبه تلك الدعوة.

وقد ولى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه سعد بن عامر رضى الله تعالى عنه على بعض أجناد الشام ، فقيل له إنه مصاب يلحقه غشى ، فاستدعاه ، فلما قدم عليه وجدمعه مزودا وعكازا وقدحا ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : ليس معك إلا ماأرى ، فقال له : وما أكثر من هذا ياأمير المؤمنين ؟ مزودى أضع فيه زادى ، وعكازى أحمل به ذلك ، وقدحى آكل فيه ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : أبك لمم ؟ فقال : لا ؛ فقال : فما غشية بلغنى أنها تصيبك؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين مابى من بأس ، ولكنى كنت فيمن حضر خبيب بن عدى حين قتل ، وسمعت دعوته ؛ فوالله ماخطرت على قلبى وأنا فى مجلس قط إلا غشى على فزاده ذلك عند عمر رضى الله تعالى عنهما خيرا ، ووعظ عمر ؛ فقال له : من يقدر على ذلك ؟ فقال : أنت ياأمير المؤمنين ، إنما هو أن يقال فتطاع ؛ فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : إرجع إلى عملك ؛ فأبى ، وناشده الإعفاء ، فأعفاه .

وكان خبيب رضى الله تعالى عنه هو الذى سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة ؛ أى لأنه صلى الله عليه وسلم بلغه ذلك عنه فاستحسنه فكان سنة ؛ وهذا يدل على أن واقعة زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنهما متأخرة عن قصة خبيب رضى الله تعالى عنه ، لكن فى النور : والمعروف أن زيد بن حارثة صلاهما قبل خبيب بزمن طويل .

وفى الينبوع أن قصة زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما كانت قبل الهجرة ؛ أى وكان ابن سيرين رحمه الله إذا سئل عن الركعتين قبل القتل ، قال : صلاهما خبيب رضى الله تعالى عنه وحجروهما فاضلان ، ويعنى بحـ : حجر بن عدى رضى الله تعالى عنه ، فإن

زيادا والى العراق من قبل معاوية رضى الله تعالى عنه وشى به إلى معاوية ، فأمر معاوية بإحضاره ، فلما قدم على معاوية ، قال له : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال معاوية رضى الله تعالى عنه : أو أمير المؤمنين أنا اضربوا عنقه ؛ فلما قدم للقتل قال : ادعونى أصلى ركعتين ، فصلاهما خفيفتين ؛ ثم قال رضى الله تعالى عنه : لولا أن تظنوا بى غير الذى بى لأطلتهما ، ثم قتل هو وخمسة من أصحابه .

ولما حج معاوية رضى الله تعالى عنه وجاء المدينة زائرا استأذن على عائشة رضى الله تعالى عنها فأذنت له ، فلما قعد ، قالت له : أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه ؟ قال : إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقصة زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما رواها الليث بن سعد . قال : بلغنى أن زيد ابن حارثة اكترى بغلا من رجل بالطائف ، فمال به ذلك الرجل إلى خربة وقال له : إنزل فنزل زيد رضى الله تعالى عنه ، فإذا فى الخربة المذكورة قتلى كثيرة ، فلما أراد أن يقتله ، قال له : دعنى أصلى ركعتين ، أى لأنه رأى أن الصلاة خير ماختم به عمل العبد، قال صلّ فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئا ، وهـــذا يدل على أن القتلى كلهم كانوا مسلمين ، قال : فلما صليت أتانى ليقتلنى ، فقلت : يا أرحم الراحمين ، قال : فسمع صوتا يقول : لا تقتله ، فهاب ذلك ، فخرج يطلبه ، فلم ير شيئا فرجع إلىّ ، فناديته ياأرحم الراحمين ، فعل ذلك ثلاثا ، فإذا بفارس على فرس فى يده حربة حديد فى رأسها شعلة نار فطعنه بها فأنفذها من ظهره فوقع ميتا. ثم قال لى لما دعوت الأولى «ياأرحم الراحمين» كنت فى السماء السابعة ، فلما دعوت الثانية « يا أرحم الراحمين » كنت فى سماء الدنيا ، فلما دعوت الثالثة أتيتك .

أقول : وقد وقع مثل ذلك لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان يتجر بمال له ولغيره يسافر به فى الآفاق ، وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فى بعض أسفاره ، فلقيه لص مقنع فى السلاح ، فقال له : ضع مامعك فإنى قاتلك ، فقال : ماتريد من دمى ؟ فشأنك والمال ؛ فقال : أما المال فلى ؛ ولست أريد إلا دمك فقال : ذرنى أصلى أربع ركعات ؛ فقال صل ماشئت ؛ فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ؛ ثم دعا فى آخر سجدة ؛ فقال : ياودود ، ياذا العرش المجيد ؛ يافعال لما تريد ؛ أسألك بعزك الذى لا يرام ؛ وملكك الذى لايضام ؛ وبنورك الذى ملأ أركان عرشك

أن تكفيني شر هـذا اللص ، يامغيث أغثني ، وكرر ذلك ثلاث مرات ، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة وضعها من أذنى فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه ، فطعنه الفارس فقتله ، ثم أقبل إلى أبي معلق ، فقال : قم ، فقال : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فلقد أغاثني الله بك اليوم ؟ قال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث ، فقيل لي دعاء مكروب ، فسألت الله تعالى أن يوليني قتله ، قال أنس رضي الله تعالى عنه : من فعل ذلك استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب »

أي وقد وقعَ نظير هذه المسألة ، أي من حيث إقراره صلى الله عليه وسلم على فعل غيره ، وهو أنهم كانوا يأتون الصلاة قد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها ، فكان الرجل يشير إلى الرجل كم صلى؟ فيقول واحدة أو اثنتين فيصليهما وحده ، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم ، فجاء معاذ رضي الله تعالى عنه ، فقال : لا أجده صلى الله عليه وسلم على حال أبدا إلا كنت عليها ، ثم قضيت ماسبقني ، فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فثبت معه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قام فقضى ماعليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد سن لكم معاذ ، فكذا فاصنعوا ؛ أي وكان هذا قبل قوله صلى الله عليه وسلم « ماأدركتم فصلوا ، ومافاتكم فأتموا » .

وأخرج صفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه زيدا رضي الله تعالى عنه إلى الحل مع مولى له ليقتله به ، واجتمع عند قتله رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فلما قدم للقتل ، قال له أبو سفيان رضي الله تعالى عنه : أنشدك بالله يازيد أتحب محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ، فقال والله ماأحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني لجالس في أهلي ، فقال أبو سفيان رضي الله تعالى عنه : مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، ونقل مثل ذلك عن خبيب رضي الله تعالى عنه ، أي فإنهم لما وضعوا السلاح في خبيب رضي الله تعالى عنه وهو مصلوب نادوه وناشدوه : أتحب أن محمدا مكانك ؟ قال : لا والله ما أحب أن يؤذى بشوكة في قدمه ، ثم قتله ذلك المولى · أي طعنه برمح في صدره حتى أنفذه من ظهره ، وقيل رمى بالنبل ، وأرادوا فتنته عن دينه ، فلم يزدد إلا إيمانا .

ولما قتل عاصم رضي الله تعالى عنه الذي أمير هذه السرية على ما تقدم ، أرادت

هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار وكلام بعضهم يقتضي أنها أسلمت بعد ، فإن عاصما هذا كما تقدم قتل يوم أحد ولديها كلاهما أشعره سهما ، وكل يأتي إليها بعد إصابته بالسهم ويضع رأسه في حجرها ، فتقول : يابني من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلا يقول حين رماني : خذها وأنا ابن أبي الأفلح فنذرت إن قدرت على رأسه لتشربن في قحفة الخمر ، وجعلت لمن يجيء برأسه مائة ناقة كما تقدم ، فحالت الدبر بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة : وهي الزنابير بينهم وبين عاصم رضي الله تعالى عنه ، كلما قدموا على قحفة طارت في وجوههم ولدغتهم فقالوا : دعوه حتى يمسي فنأخذه ، فبعث الله الوادي : أي سال ، فاحتمل السيل عاصما فذهب به حيث أراد الله فسمي حمي الدبر وبعث ناس من قريش لما بلغهم قتل عاصم في طلب جسده أو شيء منه يعرفونه : أي ليمثلوا به لأنه قتل عظيما من عظمائهم ، قال الحافظ ابن حجر لعله عقبة بن أبي معيط فإن عاصما قتله صبرا باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انصرفوا من بدر أي كما تقدم ، قال : وكأن قريشا لم تشعر بما جرى لهذيل من منع الزنانير لهم عن عاصم ، أو شعروا بذلك ورجوا أن الزنابير تركته : أي ولم يشعروا بأن السيل أخذه اه أي وقد كان عاصم رضي الله تعالى عنه دعا الله أن لا يمس مشركا ، ولا يمسه مشرك في حياته ، وتقدم هنا أنه دعا الله أن يحمي لحمه فاستجاب الله له ، فلم يحصل له ذلك لا في حياته ولا بعد موته .

أي وفي كلام بعضهم : لما نذر عاصم أن لا يمس مشركا ووفى بنذره عصمه الله عن مساس سائر المشركين إياه ، فصار عاصم معصوما هذا .

وقيل إن هؤلاء العشرة لم يخرجوا ليأتوا بخبر قريش ، وإنما خرجوا مع رهط من عضل والقارة ، وهما بطنان من بني الهون قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الاسلام ، فبعث صلى الله عليه وسلم معهم أولئك النفر ، فساروا حتى إذا كانوا على الرجيع استصرخوا عليهم هذيلا ، فلم يشعروا إلا والرجال بأيديهم السيوف فدعوهم فأخذوا أسيافهم ليقتلوا القوم ، فقالوا لهم : والله لانريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم ، فأبوا الحديث ، والحافظ الدمياطي رحمه الله اقتصر على هذا الثاني ، وأن أميرهم كان مرثدا الغنوي رضي الله

تعالى عنه ، فقال : سرية مرثد الغنوى إلى الرجيع ، قال قدم رهط من عضل والقارة فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما الحديث ، لـكنه فى سياق القصة قال وأمر عليهم عاصما وقيل مرثدا رضى الله تعالى عنهما ، وأخر هذه السرية عن السرية بعدها التى هى سرية القراء إلى بئر معونة .

سرية القراء رضى الله تعالى عنهم
إلى بئر معونة

لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة : أى ويقال له ملاعب الرماح وهو رأس بنى عامر . أى ويقال له أيضا أبو براء بالمدلاغير ، وهو عم عامر بن الطفيل عدو الله ، أى وأهدى إليه صلى الله عليه وسلم ترسين وراحلتين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا أقبل هدية من مشرك». وفى رواية « نهيت عن عطايا المشركين » .

أقول : وفى كلام السهيلى أنه أهدى إليه فرسا ، وأرسل إليه إنى قد أصابنى وجع فابعث إلى بشىء أتداوى به فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم بعكة عسل ، وأمره أن يستشفى به ، وقال « نهيت عن زبد المشركين » قال السهيلى : والزبد مشتق من الزبد ، لأنه نهى عن مداهنتهم واللين لهم : كما أن المداهنة مشتقة من الدهن ، فرجع المعنى إلى اللين ، كذا قال ، ولعل هذا كان بعد ماتقدم . ويحتمل أن يكون قبله وهو الأقرب والله أعلم .

فلما قدم عليه أبو عامر عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، أى وقال إنى أرى أمرك هذا أمرا حسنا شريفا ، أى ولم يسلم بعد ذلك على الصحيح ، خلافا لمن عده فى الصحابة، ثم قال : يامحمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد : أى وهم بنو عامر وبنو سليم ، فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أخشى أهل نجد عليهم ، قال أبو براء : أنالهم جار وهم فى جوارى وعهدى ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك ، وخرج أبو براء إلى ناحية نجد وأخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو رضى الله تعالى عنه فى أربعين ، وقيل فى سبعين ، وعليه اقتصر

الحافظ الدمياطى : أى لأنه الذى فى صحيح البخارى ، وقيل فى ثلاثين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين .

أى وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا القيل وهم ، وأنه يمكن الجمع بين كونهم سبعين وكونهم أربعين بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة كانوا أتباعا ، ويقال لهؤلاء القراء: أى لملازمتهم قراءة القرآن ، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا فى ناحية المدينة يصلون ويتدارسون القرآن ، فيظن أهلوهم أنهم فى المسجد ، ويظن أهل المسجد أنهم فى أهاليهم ، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا وجاءوا بذلك إلى حجر النبى صلى الله عليه وسلم

وفى كلام بعضهم أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ، ويتدارسون القرآن بالليل ، وكانوا يبيعون الحطب ويشترون به طعاما لأصحاب الصفة .

وقد يقال : لا منافاة ، لجواز أنهم كانوا يفعلون هذا مرة وهذا أخرى ، أو بعضهم يفعل أحد الأمرين وبعضهم يفعل الآخر ، وكان منهم عامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنه .

وكتب صلى الله عليه وسلم لهم كتابا فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ، والحرة : أرض فيها حجارة سود ، فلما نزلوها بعثوا حرام ، بالحاء المهملة والراء ، ابن ملحان وهو خال أنس بن مالك بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل لعنه الله . أى وهو رأس بنى سليم . وفى لفظ سيد بنى عامر وابن أخى أبى براء عامر بن مالك كما تقدم ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا عليه فقتله ، أى بعد أن قال : يا أهل بئر معونة إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، فآمنوا بالله ورسوله ، فجاء إليه رجل من خلفه قطعنه بالرمح فى جنبه حتى نفذ من جنبه الآخر ، فقال : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة ، وقال : بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه ، ثم استصرخ عليهم : أى استغاث بنى عامر . فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : إنا لن نخفر بأبى برا أى لانزيل خفارته وننقض عهده ، وقد عقد لهم عقدا وجوارا ، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم . قال الحافظ الدمياطى : عصية ورعلا وذكوان زاد بعضهم : وبنى لحيان ، قال بعضهم : وليس فى محله .

أقول : كان قائله سرى إليه ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم جمع بنى لحيان فى الدعاء عليهم مع من ذكر قبله . وسيأتى أنه إنما جمعهم معهم لأن خبر أصحاب الرجيع وأصحاب

بئر معونة جاءه صلى الله عليه وسلم فى يوم واحد وبنولحيان أصحاب الرجيع ، فدعا عليهم دعاء واحدا ، والله أعلم ، فلما دعا تلك القبائل الثلاثة التى هى عصية ورعل وذكوان أجابوه إلى ذلك ، ثم خرجوا حتى أحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم إلا كعب بن زيد رضى الله تعالى عنه ، فإنه بقى به رمق ، وحمل من المعركة ، فعاش بعد ذلك حتى قتل يوم الخندق شهيدا ، وإلا عمرو بن أمية الضمرى رضى الله تعالى عنه ورجلا آخر كانا فى سرح القوم ، ولما أحاطوا بهم قالوا : اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك عنا السلام غيرك ، فاقرأه منا السلام ، فأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بذلك ، فقال : وعليهم السلام .

أى وفى لفظ أنهم قالوا : اللهم بلغ عنا نبينا صلى الله عليه وسلم أناقد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا فلما جاءه الخبر من السماء قام صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : إن إخوانكم قد لقوا المشركين ، وقتلوهم ، وإنهم قالوا : ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا ورضينا عنه ورضى عنا ربنا . وفى لفظ : فرضى عنا وأرضانا ، فأنا رسولهم إليكم إنهم قد رضوا عنه ورضى عنهم .

وذكر أنس رضى الله عنه أن ذلك : أى قولهم المذكور كان قرآنا يتلى ، ثم نسخت تلاوته ، أى فصار ليس له حكم القرآن من التعبد بتلاوته وأنه لا يمسه إلا الطاهر ولا يتلى فى صلاة إلى غير ذلك من أحكام القرآن .

ولما رأى عمرو بن أمية والرجل الذى معه الطير تحوم على محل أصحابهما ، أى وكانا فى رعاية إبل القوم كما تقدم ، قالا والله إن لهذا الطير لشأنا ، فأقبلا ينظران ، فإذا القوم فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقال الرجل الذى مع عمرو : ماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر ، فقال له لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، فأقبلا فلقيا القوم ، فقتل ذلك الرجل وأسر عمرو ، فأخبرهم أنه من مضر . فأخذه عامر بن الطفيل وجز ناصيته . وأعتقه عن رقبة كانت على أمه . فخرج عمرو حتى جاء إلى ظل فجلس فيه . فأقبل رجلان حتى نزلا به معه ؛ فسألهما فأخبراه أنهما من بنى عامر ، وفى لفظ من بنى سليم وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو . فأمهلهما حتى ناما فعدا عليهما فقتلهما وهو يرى أى يظن أنه قد أصاب بهما ثأرا من بنى عامر ، فلما قدم عمرو

على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر وأخبره بقتل الرجلين؛ فقال له: لقدقتلت قتيلين لأدينهما : أى لأدفعن ديتهما . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عمل أبى براء . قد كنت لهذا كارها متخوفا . ولما بلغ أبا براء أن عامر بن الطفيل ولد أخيه أزال خفارته شق عليه ذلك وشق عليه ما أصاب أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم بسببه فعند ذلك حمل ربيعة بن أبى براء على عامر بن الطفيل ، أى الذى هو ابن عمه فطعنه بالرمح فوقع فى فخذه ووقع عن فرسه ، وقال : إن أنا مت فدمى لعمى يعنى أبا براء ، وإن أعش فسأرى رأيى ، أى وفى لفظ : نظرت فى أمرى .

وفى الإصابة أن ربيعة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أيغسل عن أبى هذه العذرة أن أضرب عامر بن الطفيل ضربة أو طعنة ، قال نعم فرجع ربيعة فضرب عامرا ضربة أشواه منها فوثب عليه قومه ، فقالوا لعامر بن الطفيل اقتص ، فقال قد عفوت . أى وعقب ذلك مات أبو براء أسفا على ما صنع به ابن أخيه عامر بن الطفيل من إزالته خفارته ، وعاش عامر بن الطفيل ولم يمت من هذه الطعنة ، بل مات بالطاعون بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى فى الوفود فى وفد بنى عامر [] .

أى وقال بعضهم : قد أخطأ المستغفرى فى عده صحابيا ، ولما قتل عامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنه رفع إلى السماء ، فلما رأى قاتله ذلك أسلم ، أى وهو جبار بن سلمى ، أى لا عامر بن الطفيل كما وقع فى بعض الروايات ، كما علمت .

وقال صلى الله عليه وسلم أى لما بلغه قتل عامر بن فهيرة «إن الملائكة وارت جثة عامر بن فهيرة» أى فى الأرض : أى بناء على أنه لما رفع إلى السماء وضع كما فى البخارى ؛ فقد جاء أن عامر بن الطفيل ، قال لعمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه وأشار إلى قتيل من هذا ، فقال له عمرو هذا عامر بن فهيرة ، فقال لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء وبين الأرض ثم وضع .

وفى بعض الروايات أن عامر بن فهيرة التمس فى القتلى يومئذ ، أى فلم يوجد فيرون أن الملائكة رفعته ، وظاهرها أن الملائكة لم تضعه فى الأرض بل رفعته ، أى ويؤيده أن عامر بن الطفيل لعنه الله دخل بعمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه فى القتلى ، وصار يقول له ما اسم هذا ، ما اسم هذا ، مااسم هذا؟ ثم قال له هل من أصحابك من ليس فيهم؟ قال نعم ، ما رأيت فيهم عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما ، قال له عامر :

أى رجل هو فيكم ؟ قال : من أفضلنا وأولى ، أى ومن أولى المسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عامر : لما قتل رأيته رفع إلى السماء .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على أحد ماوجد على أصحاب بئر معونة ، ومكث يدعو عليهم ثلاثين صباحا .

أقول : وفى رواية الشيخين قنت شهرا أى متابعا يدعو على قاتلى أصحاب بئر معونة ، أى بعد الاعتدال فى الصلوات الخمس من الركعة الأخيرة وحينئذ يكون المراد بالصباح اليوم وليلته .

وذكر بعض أصحابنا أنه صلى الله عليه وسلم «كان يرفع يديه فى الدعاء المذكور وقاس عليه رفعهما فى قنوت الصبح » وروى الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى قنوت الصبح .

واستدل أصحابنا على استحباب القنوت للنازلة فى سائر المكتوبات بقنوته ودعائه على قاتلى أصحاب بئر معونة .

وفى بعض السير : فدعا النبى صلى الله عليه وسلم شهرا عليهم فى صلاة الغداة . وفى لفظ يدعو فى الصبح ، وذلك بدء القنوت ، وما كان يقنت رواه الشيخان .

وقد سئل الجلال السيوطى هل دعاؤه صلى الله عليه وسلم على من قتل أصحابه كان عقب فراغه من القنوت المشهور أو كان الدعاء هو قنوته؟ فأجاب رحمه الله بأنه لم يقف على شىء من الأحاديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم جمع بين القنوت والدعاء ، قال : بل ظاهر الأحاديث أنه اقتصر على الدعاء ، أى فيكون قنوته هو الدعاء ، وهو الموافق لقول أصحابنا . ويستحب القنوت فى اعتدال آخرة صبح مطلقا وآخر سائر المكتوبات أى باقيها للنازلة وهو : اللهم اهدنا الخ فى أن أل فى القنوت للعهد والله أعلم .

وفى رواية أنه يدعو على الذين أصابوا أصحابه فى الموضعين ، أى بئر معونة والرجيع دعاء واحدا ، لأنه صلى الله عليه وسلم جاءه خبرهما فى وقت واحد كما تقدم ، وأدمج البخارى رحمه الله بئر معونة مع بعث الرجيع لقربهما فى الزمن ، أى ففيه مكث صلى الله عليه وسلم يدعو على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبنى لحيان ، أى وهو يقتضى أنهما شىء واحد وليس كذلك ؛ وقد علمت أن بنى لحيان قتلوا أصحاب الرجيع ومن قبلهم قتلوا أصحاب بئر معونة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء

بالقاف مفتوحة وبالطاء المهملة ، وهم بنو بكر بن كلاب .

بعث صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى القرطاء فى ثلاثين راكبا أى وأمره أن يسير إلى الليل ويكمن النهار ، وأمره أن يشن عليهم الغارة فسار الليل وكمن النهار ، قال : وصادف فى طريقه ركبانا نازلين ، فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم رجع إليه ، فقال : قوم من محارب ، فنزل قريبا منهم ، ثم أمهلهم حتى عطنوا : أى بركوا الإبل حول الماء ، أغار عليهم ، فقتل نفرا منهم أى عشرة وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ، ولم يتعرض للظعن أى النساء انتهى ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بنى بكر بعث عابد بن بشير إليهم وخرج محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه فى أصحابه ، فشن عليهم الغارة ، فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، ثم انحدر رضى الله تعالى عنه إلى المدينة فخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء به وعدل الجزور بعشرة من الغنم ، وكان النعم مائة وخمسين بعيرا ، والغنم ثلاثة آلاف شاة ، وأخذت تلك السرية ثمامة بن أثال الحنفى من بنى حنيفة أى سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه ، وجى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : أتدرون من أخذتم : هذا ثمامة بن أثال الحنفى : فأحسنوا إساره أى قيده [ ] فربط بسارية من سوارى المسجد .

قال : وقيل إن هذه السرية لم تأخذه بل دخل المدينة وهو يريد مكة للعمرة فتحير فى المدينة ، وقد كان جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا من عند مسيلمة وأراد اغتياله صلى الله عليه وسلم ، فدعا ربه أن يمكنه منه ، فأخذ وجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربط بسارية من سوارى المسجد ، فدخل صلى الله عليه وسلم على أهله فقال اجمعوا ماكان عندكم من طعام فابعثوا به إليه ، وأمر له صلى الله عليه وسلم بناقة يأتيه لبنها مساء وصباحا ، وكان ذلك لا يقع عند ثمامة موقعا من كفايته : أى وجاء إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالك يا ثمام : هل أمكن الله منك ؟ فقال : قد كان ذلك يا محمد . وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه فيقول : ماعندك يا ثمامة ، فيقول : يا محمد عندى خير ، إن تقتل تقتل ذا كرم . وفى لفظ : ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ،

وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ففعل ذلك معه ، ثلاثة أيام ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : فجعلنا أيها المساكين أى أصحاب الصفة نقول نبينا صلى الله عليه وسلم ما يصنع بدم ثمامة ، والله لأكلة جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

وفى الاستيعاب أنه صلى الله عليه وسلم انصرف عن ثمامة وهو يقول : اللهم أكلة لحم من جزور أحب إلىّ من دم ثمامة ، ثم أمر به فأطلق ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثالث قال : أطلقوا ثمامة فقد عفوت عنك ياثمامة ، فأطلق ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أى وهذا يخالف ما ذكره فقهاؤنا من الاستدلال بقصة ثمامة على أنه يستحب لمن أسلم أن يغتسل لإسلامه ، ثم رأيت بعض متأخرى أصحابنا أجاب بأنه أسلم أولا ، ثم لما اغتسل أظهر إسلامه .

وفى الاستيعاب : فأسلم ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يغتسل كما فى رواية أخرى أنه قال : يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلىّ ، والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلىّ ، ثم شهد شهادة الحق ، فلما أمسى جىء له بما كان يأتيه من الطعام ، فلم ينل منه إلا قليلا . ولم يصب من حلاب اللقحة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون . قال وقال : يارسول الله إنى خرجت معتمرا ، وفى لفظ فى الصحيح : فإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فأمره أن يعتمر . فلما قدم بطن مكة لبى ، فكان أول من دخل مكة ملبيا ، فأخذته قريش ، فقالوا لقد اجترأت علينا ، أنت صبوت يا ثمامة . قال : أسلمت وتبعت خير دين محمد ، والله لايصل إليكم حبة من حنطة : أى من اليمامة من أرض اليمن ، وكانت ريفا لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدموه ليضربوا عنقه ، فقال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة فخلوا سبيله ، فخرج ثمامة إلى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئا حتى أضرّ بهم الجوع ، وأكلت قريش العلهز وهو الدم يخلط بأوبار الإبل فيشوى على النار كما تقدم ، فكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا . فكتب

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضى الله تعالى عنه أن يخلى بينهم وبين الحمل . وفى لفظ : خلّ بين قومى وبين ميرتهم ، ففعل ، فأنزل الله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) الآية هذا .

والذى فى الاستيعاب أن ثمامة لما دخل مكة وقد سمع المشركون خبره ، فقالوا : ياثمامة صبوت وتركت دين أبائك ، قال : لا أدرى ماتقولون ، إلا أنى أقسمت برب هذه البنية يعنى الكعبة لايصل إليكم من اليمامة شىء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمدا من آخركم ، وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج رضى الله تعالى عنه فمنع عنهم ماكان يأتى منها. فلما أضرّ بهم ذلك كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحث عليها وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا ؛ فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلى بيننا وبين ميرتنا فافعل ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن خل بين قومى وبين ميرتهم .

ولما عجب المسلمون من أكله بعد إسلامه رضى الله تعالى عنه ، لكونه دون أكله قبل إسلامه قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار فى معى كافر وأكل آخر النهار فى معى مسلم ، إن الكافر ليأكل فى سبعة أمعاء ، وإن المسلم يأكل فى معى واحد انتهى .

أى وقد وقع له صلى الله عليه وسلم ذلك مع جهجاه الغفارى رضى الله تعالى عنه فإنه أكل مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو كافر فأكثر ، ثم أكل معه وقد أسلم فأقل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » ولعل المراد بالأكل ما يشمل الشرب ، ثم رأيت فى الجامع الصغير « إن الكافر ليشرب فى سبعة أمعاء والمسلم يشرب فى معى واحد » والمراد أنه يأكل ويشرب مثل الذى يأكل ويشرب فى سبعة أمعاء .

وكان رضى الله تعالى عنه مقيما باليمامة ، ولما ارتد أهل اليمامة ثبت ثمامة فى قومه على الإسلام ، وكان ينهاهم عن اتباع مسيلمة لعنه الله ، ويقول لهم : إياكم وأمرا مظلما لانور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه منكم .

سرية عكاشة بن محصن رضى الله تعالى عنه إلى الغمر

بفتح الغين المعجمة وسكون الميم والراء : ماء لبنى أسد : أي جمع من بنى أسد :

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن الأسدى رضى الله تعالى عنه فى أربعين رجلا منهم ثابت بن أرقم رضى الله تعالى عنه ، وقيل إن ثابتا رضى الله تعالى عنه هو الذى كان الأمير على هذه السرية ، فخرج يسرع فى السير إلى أن وصل إلى الماء المذكور ، فوجد القوم علموا بهم فهربوا ولم يجدوا فى دارهم أحدا ، فبعث شجاع بن وهب طليعة يطلب خبرا ويرى أثرا فأخبر أنه رأى أثر نعم قريبا ، فخرجوا فوجدوا رجلا نائما ، فسألوه عن خبر الناس : فقال : وأين الناس ، لقد لحقوا بعليات بلادهم ، قالوا: فالنعم؟ قال : معهم ، فضرب به أحدهم بسوط فى يده ، فقال : تؤمنونى على دمى وأطلعكم على نعم لبنى عم له لم يعلموا بمسيركم إليهم ، قالوا نعم ، فأمنوه فانطلقوا معه ، فأمعن : أى بالغ فى الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم .فقالوا :والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك ، فقال : تطلعون عليهم من هذا المحل ، فلما طلعوا منه وجدوا نعما رواتع ، فأغاروا عليها ، فاستاقوها ، فاذا هى مائة بعير وشردت الأعراب فى كل وجه ولم يطلبوهم ، وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل ، وأطلقوا الرجل الذى أمنوه ، والله أعلم .

سرية محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه لذى القصة

بفتح القاف والصاد المهملة المشددة ، وهو موضع قريب من المدينة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة فى عشرة نفر لبنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة بذى القصة ، فورد عليهم ليلا ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه ، وأمهلوهم حتى ناموا وأحدقوا بهم : أى فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح فى أصحابه : السلاح ، فوثبوا وتراموا ساعة ، ثم حمل القوم عليهم بالرماح فقتلوهم ، ووقع محمد بن مسلمة جريحا ، فضربوا كعبه فلم يتحرك فظنوا موته ، فجردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فاسترجع ، فلما سمعه محمد رضى الله تعالى عنه يسترجع تحرك له ، فأخذه وحمله

إلى المدينة . فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارعهم فلم يجدوا أحدا . ووجدوا نعما وشاء ، فانحدروا بها إلى المدينة .

سرية أبى عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه

إلى ذى القصة أيضا

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه فى أربعين رجلا إلى من بذى القصة : فانه بلغه صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى يومئذ بمحل بينه وبين المدينة سبعة أميال فصلوا المغرب ، ومشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح ، فأغاروا عليهم : فأعجزوهم هربا فى الجبال : وأسروا رجلا واحدا ، وأخذوا نعما من نعمهم ، ورثة : أى ثيابا خلقة من متاعهم ، وقدموا بذلك إلى المدينة ، فخمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم الرجل ، فتركه صلى الله عليه وسلم .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه

إلى بنى سليم بالجموح

بفتح الجيم ، وهو اسم لناحية من بطن نخل .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بنى سليم ، بالجموح ، فسار حتى ورد ذلك المحل . فأصابوا امرأة من مزينة فدلتهم على محلة من محال القوم ، فأصابوا فى تلك المحلة إبلا وشاء ، وأسروا منها جماعة من جملتهم زوج تلك المرأة ، وانحدروا بذلك إلى المدينة ، فوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلك المرأة نفسها وزوجها .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى العيص

وهو محل بينه وبين المدينة أربع ليال .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب ليعترضها ، أى وكان فيها أبو العاص بن الربيع ، وقدم به

وبتلك العير المدينة ، فاستجار أبو العاص بزوجته زينب رضى الله تعالى عنها ، فأجارته ونادت فى الناس حين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر : أى دخل فى الصلاة هو وأصحابه ، فقالت : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى لما سلم وأقبل على الناس وقال : هل سمعتم ماسمعت ؟ قالوا نعم ، قال : أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء من هذا ، أى ثم انصرف صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته وقال : قد أجرنا من أجرت . قال : وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم » أى وفى الصحيحين « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلما » أى أزال خفارته : أى نقض جواره وعهده « فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ثم دخلت عليه صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله تعالى عنها فسألته أن يرد على أبى العاص ما أخذ منه ، فأجابها إلى ذلك ، وقال لها صلى الله عليه وسلم أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له : أى لتحريم نكاح المؤمنات على المشركين أى كما تقدم فى الحديبية .

وبعث صلى الله عليه وسلم للسرية فقال لهم : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى فاء عليكم ، فأنتم أحق به ، فقالوا : يا رسول الله بل نرد عليه ، فرد عليه ما أخذ منه .

وهذا السياق يدل على أن ذلك كان قبل صلح الحديبية ووقوع الهدنة ، لأن بعد ذلك لم تتعرض سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش ، وهو يخالف قوله صلى الله عليه وسلم لها : لا يخلص إليك ، لأن تحريم نكاح المؤمنات على المشركين إنما كان فى الحديبية .

وقد ذكر بعضهم أن ذلك كان قبيل الفتح سنة ثمان ، ومن ثم ذكر الزهرى وتبعه ابن عقبة رحمهما الله تعالى أن الذين أخذوا هذا العير وأسروا من فيها أبو بصير وأبو جندل وأصحابهما رضى الله تعالى عنهم ، لأنهم كانوا فى مدة صلح الحديبية ، ومن شأنهم أن كل عير مرت بهم لقريش أخذوها بغير معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فلما أخذوا هذه العير خلوا سبيل أبى العاص لكونه صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل أعجزهم هربا ، وجاء تحت الليل فدخل على زوجته زينب رضى الله تعالى عنها فاستجار بها فأجارته ، ثم كلمها فى أصحابه الذين أسروا ، فكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى ذلك ، فخطب الناس وقال : إنا صاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه ، وإنه قد أقبل من الشام فى أصحاب له من قريش ، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير وأسروهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتنى أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه ؟ فقال الناس : نعم ، فلما بلغ أبا جندل وأبا بصير وأصحابهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا الأسرى ، وردوا عليهم كل شيء حتى العقال .

وصوّب فى الهدى هذا الذى ذكره الزهرى ، أى لما علمت أن مما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لبنته زينب : ولا يخاص إليك فإنك لا تحلين له ، لأن تحريم نكاح المؤمنات على المشركين إنما كان بعد الحديبية .

وذكر أن المسلمين قالوا لأبى العاص : يا أبا العاص إنك فى شرف من قريش وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لأنه يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف ، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة ، فقال : بئسما أمرتمونى أفتتح دينى بغدرة : أى بالغدر وعدم الوفاء ، ثم ذهب أبو العاص إلى أهل مكة فأدى كل ذى حق حقه ، ثم قام فقال : يا أهل مكة هل بقى لأحد منكم مال لم يأخذه ، هل وفيت ذمتى؟ فقالوا اللهم نعم ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ، فقال : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى عن الإسلام عنده إلا خشية أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم .

ثم خرج حتى قدم المدينة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فرد له رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضى الله تعالى عنها على النكاح الأول ولم يحدث نكاحا ، وذلك بعد ست سنين وقيل بعد سنة واحدة انتهى .

أقول : وفى رواية بعد سنتين . والمتبادر أن السنة أو السنتين من إسلامها دونه ، وهو مخالف لما عليه أهل العلم من أنه لابد أن يجتمع الزوجان فى الإسلام والعدة ، ومن ثم قالت طائفة منهم الترمذى : هذا حديث ليس بإسناده بأس ، ولكن لا يعرف وجهه .

وفى كلام بعض الحفاظ : يمكن أن يقال قوله بعد ست سنين ولم يقل من إسلامها دونه صيره مجهول تاريخ الابتداء فلا يصح الاستدلال به .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ بنته

زينب على أبى العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . قال بعضهم : وهذا فى إسناده مقال ، وقال غيره : هذا حديث ضعيف ، وقال آخر : لا يثبت ، والحديث الصحيح إنما هو أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرهما على النكاح الأول .

وقال ابن عبد البر : حديث أنه صلى الله عليه وسلم أقرهما على النكاح الأول متروك لا يعمل به عند الجميع . وحديث ردها بنكاح جديد عندنا صحيح يعضده الأصول ، وإن صح الأول أريد به على الصداق الأول وهو حمل حسن ، هذا كلامه .

قال بعضهم : تصحيح ابن عبد البر لحديث إنه ردها بنكاح جديد مخالف لكلام أئمة الحديث كالبخارى وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان والدارقطنى والبيهقى وغيرهم ، هذا كلامه .

وفى كون زينب رضى الله تعالى عنها كانت مشركة وأسلمت قبل زوجها المشعر به قول بعضهم ولم يقل من إسلامها — نظر ، لأنها اتبعت ما بعث به أبوها صلى الله عليه وسلم من غير تقدم شرك منها .

لا يقال : فحيث كانت مسلمة فكيف زوّجها من أبى العاص وهو كافر . لأنا نقول على فرض أنه صلى الله عليه وسلم زوّجها له بعد البعث فقد زوجها له قبل نزول قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) لأن تلك الآية نزلت بعد صلح الحديبية كما علمت. على أن ابن سعد ذكر أنه صلى الله عليه وسلم زوّجها له فى الجاهلية أى قبل البعثة ، والله أعلم .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما
إلى بنى ثعلبة

أى بالطرف ككتف : اسم ماء .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلا : أى بالطرف ، فأصاب عشرين بعيرا وشاء ، واقتصر الحافظ الدمياطى على النعم ، ولم يذكر الشاء ولم يجد أحدا ، لأنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إليهم ، فصبح زيد رضى الله تعالى عنه بالنعم والشاء المدينة ، أى وقد خرجوا فى طلبه فأعجزهم [ ] وكان شعارهم الذى يتعارفون به فى ظلمة الليل « أمت أمت » .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى جـذام

محل يقال له حسمى بكسر الحاء المهملة وسكون السين على وزن فعلى . وهو موضع وراء وادى القرى ، يقال إن الطوفان أقام بذلك المحل بعد نضوبه : أى ذهابه ثمانين سنة .

وسببها أن دحية الكلبى رضى الله تعالى عنه أقبل من عند قيصر ملك الروم ، أى وكان صلى الله عليه وسلم وجهه إليه [ ] كذا قيل ، ولعله من تصرف بعض الرواة ، أو أنه أرسله إليه بغير كتاب ، وإلا فإرساله إليه بالكتاب كان بعد هذه السرية ، لأنه كان بعد الحديبية .

ولما وصل رضى الله تعالى عنه إليه أجازه بمال وكساء فأقبل بذلك إلى أن وصل ذلك المحل ، فلقيه الهنيد وابنه فى ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وسلبوه مامعه ، ولم يتركوا عليه إلا ثوبا خلقا ، فسمع بذلك نفر من جذام من بنى الضبيب : أى ممن أسلم منهم فنفروا إليهم ، واستنقذوا لدحية رضى الله تعالى عنه ما أخذ منه ، وقدم دحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل وردّ معه دحية ، وكان زيد رضى الله تعالى عنه يسير بالليل ويكمن بالنهار ومعه دليل من بنى عذرة فأقبل حتى هجم على القوم : أى على الهنيد وابنه ومن كان معهم مع الصبح ، فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم ، وأخذوا من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، ومن السبى مائة من النساء والصبيان . قال : ولما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد رضى الله تعالى عنه ركبوا وجاءوا إلى زيد وقال له رجل منهم : إنا قوم مسلمون ، فقال له زيد اقرأ أمّ الكتاب فقرأها ، ثم قدم منهم جماعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر وقال بعضهم : يارسول الله لا تحرم علينا حلالا ، ولا تحل لنا حراما ، فقال كيف أصنع بالقتلى ؟ فقال : أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمى هاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقالوا : ابعث معنا رجلا لزيد رضى الله تعالى عنه ، فبعث صلى الله عليه وسلم معهم عليا كرم الله وجهه يأمر زيدا أن يخلى بينهم وبين حرمهم وأموالهم ، أى فقال علىّ : يارسول الله إن زيدا لا يطيعنى ، فقال : خذ سيفى هذا ، فأخذه وتوجه ، فلقى على كرم الله وجهه رجلا أرسله زيد رضى الله تعالى عنه مبشرا على ناقة من إبل القوم ، فردها على كرم الله وجهه على القوم ، وأردفه خلفه ، ولقى

زيدا فأبلغه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وعند ذلك قال له زيد ، ما علامة ذلك ؟ فقال : هذا سيفه صلى الله عليه سلم فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا ، فقال : من كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد الناس كافة كل ماأخذوه انتهى .

أقول : وهذا السياق يدل على أن جميع ما أخذه من النعم والشاء والسبي كان لمن أسلم من جذام من بني الضبيب ، وإن بعض من قتل مع الهنيد وابنه كان مسلما ، وفي ذلك من البعد مالا يخفى ، والله أعلم .

سرية أمير المؤمنين أبي بكر الصديق

رضي الله عنه لبني فزارة كما في صحيح مسلم بوادي القرى

عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله تعالى عنه إلى فزارة وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشنينا الغارة فوردنا الماء . فقتل أبو بكر : أي جيشه من قتل ، ورأيت طائفة منهم الذراري ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل ، فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة : أي وهي أم قرفة عليها قشع من أدم : أي فروة خلقة معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ، فنفلني أبو بكر رضي الله عنه ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، فقدمنا المدينة ، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ياسلمة هب لي المرأة لله أبوك : أي أبوك لله خالصا حيث أنجب بك وأتى بمثلك ، يقال ذلك في مقام المدح والتعجب : أي وقد كان وصف له صلى الله عليه وسلم جمالها ، فقلت : هي لك يارسول الله ، فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين .

وفي لفظ : فدى بها أسيرا كان في قريش من المسلمين ، كذا ذكر الأصل أن أمير هذه السرية : أي التي أصابت أم قرفة أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأنه الذي في مسلم .

وذكر في الأصل قبل ذلك عن ابن إسحاق وابن سعد أن أمير هذه السرية ، أي التي أصابت أم قرفة زيد بن حارثة رضي الله عنهما ، وأنه لقي بني فزارة وأصيب بها ناس من

أصحابه ، وانفلت زيد من بين القتلى : أى احتمل جريحا وبه رمق ، فلما قدم زيد رضى الله تعالى عنه نذر أن لا يمس رأسه غسل من الجنابة حتى يغزو بنى فزارة ، فلما عوفى أرسله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فكمنوا النهار وساروا الليل حتى أحاطوا بهم ، وكبروا وأخذوا أم قرفة وكانت أم قرفة فى شرف من قومها ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا كلهم لهـا محرم ، وكان لها اثنا عشر ولدا . ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل فى العزة ، فتقول : لو كنت أعز من أم قرفة ، فأمر زيد بن حارثة أن تقتل أم قرفة ، أى لأنها كانت تسب النبى صلى الله عليه وسلم .

وجاء أنها جهزت ثلاثين راكبا من ولدها وولد ولدها وقالت لهم : اغزوا المدينة واقتلوا محمدا ، لكن قال بعضهم : إنه خبر منكر [ ] فربط برجليها حبلين ثم ربطا إلى بعيرين وزجرهما ، أى وقيل إلى فرسين ، فركضا فشقاها نصفين ، وقرفة ولدها هذا الذى تكنى به قتله النبى صلى الله عليه وسلم وبقية أولادها قتلوا مع أهل الردة فى خلافة الصديق فلا خير فيها ولا فى بنيها ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنة أم قرفة ، وذكر له صلى الله عليه وسلم جمالها ، فقال صلى الله عليه وسلم لابن الأكوع : ياسلمة ما جارية أصبتها ، قال : يارسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا فى بنى فزارة : فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام مرتين أو ثلاثا ، فعرف سلمة أنه صلى الله عليه وسلم يريدها ، فوهبها له ، فوهبها النبى صلى الله عليه وسلم لخاله حزن بن أبى وهب ابن عمرو بن عائذ بمكة ، وكان أحد الأشراف ، فولدت له عبد الرحمن بن حزن ، وإنما قيل لحزن خاله لأن فاطمة أم أبى النبى صلى الله عليه وسلم هى بنت عائذ كما تقدم ، وعائذ جد حزن لأبيه ، وفى لفظ بنت عمرو بن عائذ .

وفى كلام السهيلى أن رواية الفداء لمن كان أسيرا بمكة أصح من رواية أنه صلى الله عليه وسلم وهبها لخاله حزن .

وجمع الشمس الشامى بين الروايتين حيث قال : يحتمل أنهما سريتان اتفق لسلمة بن الأكوع فيهما ذلك ، أى إحداهما لأبى بكر ، والأخرى لزيد بن حارثة ، ويؤيد ذلك أن فى سرية أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ببنت أم قرفة إلى مكة ففدى بها أسرى كانوا فى أيدى المشركين . أى وفى سرية زيد وهبها لخاله حزن بمكة . قال : ولم أر من تعرض لتحرير ذلك انتهى .

أقول : فى هذا الجمع نظر ، لأنه يقتضى أن أم قرفة تعددت ، وأن كل واحدة كانت لها بنت جميلة ، وأن سلمة بن الأكوع أسرهما ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخذهما منه ، وفى ذلك بعد ، إلا أن يقال : لا تعدد لأم قرفة وتسمية المرأة فى سرية أبى بكر أم قرفة وهم من بعض الرواة . ويدل عليه أن بعضهم أوردها ولم يسم المرأة أم قرفة ، بل قال فيهم امرأة من بنى فزارة معها ابنة لها من أحسن العرب ، فنفلنى أبو بكر بنتها فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا ، فلقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق مرتين فى يومين ، فقال : ياسلمة هبنى المرأة ، فقلت : هى لك ، فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناسا كانوا أسرى بمكة .

ثم لا يخفى أن ماذكره الأصل عن ابن إسحاق وابن سعد من أنه صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة إلى وادى القرى ، أى غازيا لبنى فزارة ، وأنه لقيهم وأصيب بها ناس من أصحابه ، وأفلت زيد من بين القتلى جريحا الخ يخالفه ما ذكره عن ابن سعد مما يقتضى أن زيد بن حارثة فى هذه لم يكن غازيا ، بل كان تاجرا ، وأنه لم يرسل لبنى فزارة وإنما اجتاز بهم فقاتلوه .

والمذكور عن ابن سعد مانصه : قالوا : خرج زيد بن حارثة فى تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان دون وادى القرى لقيه ناس من فزارة فضربوه وضربوا أصحابه ، أى فظنوا أنهم قد قتلوا وأخذوا ما كان معهم ، فقدموا المدينة ، ونذر زيد أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بنى فزارة ، فلما خلص من جراحته بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية لهم ، وقال لهم : اكمنوا النهار وسيروا الليل ، فخرج بهم دليل من بنى فزارة وقد نذر بهم القوم ، فكانوا يجعلون له ناظورا حين يصبحون فينظر على جبل يشرف على وجه الطريق الذى يرون أن المسلمين يأتون منه ، فينظر قدر مسيرة يوم ، فيقول اسرحوا فلا بأس عليكم ، فإذا أمسوا أشرف ذلك الناظر على ذلك الجبل فينظر مسيرة ليلة ، فيقول ناموا فلا بأس عليكم فى هذه الليلة ، فلما كان زيد ابن حارثة وأصحابه على نحو مسيرة ليلة أخطأ بهم الدليل الفزارى طريقهم ، فأخذ بهم طريقا أخرى حتى أمسوا وهم على خطأ ، فعاينوا الحاضر من بنى فزارة ، فحمدوا خطأهم فكمن لهم فى الليل حتى أصبحوا فأحاطوا بهم ثم كبر زيد وكبر أصحابه إلى آخر ماتقدم .

ولما قدم زيد بن حارثة المدينة جاء إليه صلى الله عليه وسلم وقرع عليه الباب ، فخرج

إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه واعتنقه وقبله ، وسأله فأخبره بما ظفره الله تعالى به .

وحينئذ يشكل قوله فى الأصل : ثبت عن ابن سعد أن لزيد بن حارثة سريتين بوادى القرى . إحداهما فى رجب والأخرى فى رمضان ، فإنه بظاهره يقتضى أنه أرسل غازيا المرتين لبنى فزارة بوادى القرى .

وقد علمت أن كلام ابن سعد يدل على أن زيد بن حارثة فى السرية الأولى إنما كان تاجرا اجتاز ببنى فزارة بوادى القرى فقاتلوه هو وأصحابه وأخذوا ما معهم .

ثم رأيت الأصل تبع فى ذلك شيخه الحافظ الدمياطى حيث قال سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى فى رجب : قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا رضى الله تعالى عنه أميرا. ثم قال : سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بناحية وادى القرى فى رمضان . وفيه ما علمت .

ثم لايخفى أن فى هذا إطلاق السرية على الطائفة التى خرجت للتجارة ولا يختص ذلك بمن خرج للقتال أو لتجسس الأخبار ، وقد تقدم .

سرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه
إلى دومة الجندل

بضم الدال المهملة وبفتحها . وأنكره ابن دريد لبنى كلب .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، فأقعده بين يديه وعممه بيده . قال أى بعد أن قال له : تجهز فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا أومن الغد إن شاء الله تعالى . ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل فى سبعمائة وعسكروا خارج المدينة .

فلما كانت وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أحببت يارسول الله أن يكون آخر عهدى بك ، وكان عليه عمامة من كرابيس : أى غليظة قد لفها على رأسه ، فنقضها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثم عممه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحوا من ذلك . ثم قال : هكذا يا ابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام صلى الله عليه وسلم فحمد الله ، ثم صلى على نفسه ، ثم قال : خذه يا ابن عوف انتهى ، وقال : اغز بسم الله وفى سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، ولا تغلّ ، أى لاتخن فى المغنم ولا تغدر ، أى لا تترك الوفاء ، ولا تقتل وليدا وفى رواية : لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ولا تملوا ، ولا تقتلوا وليدا : أى صبياً ، فهذا عهد الله وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم فيكم ثم قال صلى الله عليه وسلم له : إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم ، فسار عبد الرحمن ابن عوف حتى قدم دومة الجندل ، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وهم يأبون ويقولون : لا نعطى إلا السيف . وفى اليوم الثالث أسلم رأسهم وملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا : قال فى النور : لم أجد أحدا ترجمه ، والظاهر أنه ما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فهو تابعى ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطاء الجزية : أى وأرسل رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه بذلك وأنه يريد أن يتزوج فيهم . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تزوج بينت الأصبغ ، أى فتزوجها رضى الله تعالى عنه ، وبنى بها عندهم ، وقدم بها المدينة ، وهى أم ولده سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى أول كلبية نكحها قرشى ، ولم تلد غير سلمة وطلقها عبد الرحمن فى مرض موته ثلاثا ومتعها جارية سوداء ، ومات وهى فى العدة ، وقيل بعد انقضاء العدة فورثها عثمان رضى الله تعالى عنه .

قال : وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما أنه قال « سرت لأسمع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، فإذا فتى من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس ، فقال : يارسول الله أىّ المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقا ، ثم قال : وأى المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم له استعداداً قبل أن ينزل بهم ، أولئك الأكياس . ثم سكت الفتى وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يامعشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، إنه لن تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا . وما نقص المكيال والميزان فى قوم إلا أخذهم الله بالسنين ، ونقص من الثمرات ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان لعلهم يذكرون . وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهائم لم يسقوا

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوّا من غيرهم ، فأخذ ما كان فى أيديهم . وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم » وفى رواية « إلا ألبسهم الله شيعا وأذاق بعضهم بأس بعض » .

وفى الأصل ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه لدومة الجندل فى سرية . زاد فى السيرة الشامية على ذلك قوله : كما سيأتى .

سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى مدين

قرية سيدنا شعيب صلوات الله وسلامه عليه ، وهى تجاه تبوك فأصاب سبيا ، وفرقوا فى بيعهم بين الأمهات والأولاد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقال : مالهم ؟ فقيل : يارسول الله فرق بينهم : أى بين الأمهات والأولاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتبيعوهم إلا جميعا .

قال فى الأصل : وكان مع زيد رضى الله تعالى عنه فى هذه السرية ضميرة مولى على ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وكذا أخوه رضى الله تعالى عنه ؛ وأخ له وهو تابع فى ذلك لابن هشام . وردّ بأن مولى علىّ هـذا الذى هو ضميرة لم يذكر فى كتب الصحابة وكذا أخوه .

سرية أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه

إلى بنى سعد بن بكر بفدك

وهى قرية بينها وبين المدينة ست ليال ، أى وفى لفظ : ثلاث مراحل ، وهى خراب الآن . وفى الصحاح : فدك قرية بخيبر .

وسببها أنه صلى الله عليه وسلم بلغه أن لبنى سعد جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، وأن يجعلوا لهم تمر خيبر : أى مايوجد من غلتها ، فبعث إليهم عليا كرّم الله وجهه فى مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار إلى أن نزلوا محلا بين خيبر وفدك ؛ فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم ؟ أى فقال : لاعلم لى ، فشدوا عليه ، فأقر أنه عين : أى جاسوس لهم ، وقال :

أخبركم على أن تؤمنونى ؟فأمّنوه : فدلهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، فعزل على كرّم الله وجهه صفىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوحا : أى حلوبا [.] قريبة عهد بنتاج تدعى الحفدة بفتح الحاء وكسر الفاء وفتح الدال المهملة لسرعة سيرها ، ومنه فى الدعاء : إليك نسعى ونحفد ثم عزل الخمس وقسم الباقى على أصحابه .

أقول : قوله يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، يقتضى بظاهره أن ذلك كان عند محاصرة خيبر أو عند إرادة ذلك ، وفيه مالا يخفى لما تقدم ، والله أعلم .

سرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير

بضم الهمزة وفتح السين ، ويقال أسير بن رزام اليهودى بخيبر .

لما قتل الله أبا رافع بن سلام بن أبى الحقيق عظيم يهود خيبر كما تقدم ، أمروا عليهم أسير بن رزام ، قال : ولما أمروه عليهم ، قال لهم : إنى صانع بمحمد مالم يصنعه أصحابى ، فقالوا له : وما عسيت أن تصنع ؟ قال : أسير فى غطفان فأجمعهم لحربه ، قالوا : نعم مارأيتَ ، وكان ذلك قبل فتح خيبر انتهى .

فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجه إليه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر سرا يسأل عن خبر أسير وغرته ، فأخبر بذلك ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس لذلك ، فانتدب له ثلاثون رجلا ، وأمر عليهم عبد الله ابن رواحة رضى الله تعالى عنه ، وقيل عبد الله بن عتيك ، فقدموا على أسير ، فقالوا : نحن آمنون حتى نعرض عليك ماجئنا له . قال : نعم ولى منكم مثل ذلك ، فقالوا : نعم ، فقلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك فطمع فى ذلك : أى واستشار يهود فى ذلك فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا : ماكان محمد ليستعمل رجلا من بنى إسرائيل ، قال : بلى قد ملّ الحرب .

قال فى النور : هذا الكلام لايناسب أن يقال قبل فتح خيبر ، فالذى يظهر أنها بعد فتح خيبر .

وأقول : يجوز أن يكون المراد باستماله على خيبر المصالحة وترك القتال، ومن ثم أجاب بقوله إنه صلى الله عليه وسلم قد ملّ الحرب، والله أعلم .

فخرج ، وخرج معه ثلاثون رجلا من يهود مع كل رجل منهم رديف من المسلمين ، قال عبد الله بن أنيس ، كنت رديفا لأسير ، فكأنّ أسيراً ندم على خروجه معنا ، فأهوى بيده إلى سيفى ، ففطنت بفتح الطاء له ، وقلت أغدر عدوّ الله أغدر عدوّ الله أغدر عدوّ الله ثلاثا ؟ فضربته بالسيف فأطحت عامة فخذه فسقط ، وكان بيده مخدش من شوحط فضربنى به على رأسى فشجنى مأمومة ، وملنا على أصحابه فقتلناهم إلا رجلا واحداً أعجزنا جريا . ثم أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثناه الحديث ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد نجاكم الله من القوم الظالمين وبصق فى شجتى فلم تقح علىّ ولم تؤذنى .

قال : وفى رواية زيادة على ذلك ، وهى وقطع لى قطعة من عصاه ، فقال : أمسك هذه معك علامة بينى وبينك يوم القيامة أعرفك بها ، فإنك تأتى يوم القيامة متخصرا ، فلما دفن عبد الله بن أنيس جعلت معه على جلده دون ثيابه انتهى .

أقول : تقدم نظير ذلك لعبد الله بن أنيس هذا لما أرسله صلى الله عليه وسلم لقتل سفيان ابن خالد الهذلى وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحتمل أن هذا وهم من بعض الرواة ، ويحتمل تعدد الواقعة : أى أعطاه صلى الله عليه وسلم عصاه أولا فى تلك ، وأعطاه أخرى ثانيا فى هذه ، وجعل العصا بين جلده وكفنه ، ولا مانع منه ، لكن ربما تتشوف النفس للسؤال عن حكمة تكرير ذلك لعبد الله بن أنيس وتخصيصه بهذه المنقبة دون بقية الصحابة ، والله أعلم .

سرية عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم بن حريس رضى الله عنهما

بالحاء المهملة وكسر الراء وسين مهملة ، وكل ما فى الأنصار حريس بالسين المهملة إلا الحريش فإنه بالشين المعجمة ، وقيل بدله جبار بن صخر إلى أبى سفيان بن حرب بمكة ليغتالاه .

وسببها أن أبا سفيان رضى الله عنه قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتال لنا محمدا فإنه يمشى فى الأسواق وحده ، فأتاه رجل من الأعراب ، وقال يعنى نفسه : قد وجدت أجمع الرجال قلبا ، وأشدهم بطشا ، وأسرعهم عدوا ، فإذا أنت فديتنى خرجت إليه حتى أغتاله

فإن معى خنجرا بفتح الخاء المعجمة كجناح النسر ، وإنى عارف بالطريق، فقال له : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيرا ونفقة ، وقال له : اطو أمرك ، وخرج ليلا إلى أن قدم المدينة ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدل عليه ، وكان صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى عبد الأشهل ، فعقل راحلته وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم ، قال : إن هذا يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين مايريد ، فجاء ليجنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجذبه أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنه بداخلة إزاره : أى بحاشيته من داخل ، فإذا بالخنجر فأخذ أسيد يخنقه خنقا شديدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدقنى ، قال : وأنا آمن ؟ قال: نعم، فأخبره بأمره فخلى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، أى وقال : يارسول الله ماكنت أخاف الرجال ، فلما رأيتك ذهب عقلى وضعفت نفسى ، ثم اطلعت على ماهممت به ، فعلمت أنك على الحق ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم .

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى ومن تقدم معه إلى أبى سفيان بمكة . أى وذلك بعد قتل خبيب بن عدى رضى الله تعالى عنه وصلبه على الخشبة .

ومضى عمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه يطوف بالبيت ليلا ، فرآه معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما فعرفه ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه لأنه كان فاتكا فى الجاهلية وقالوا : لم يأت عمرو بخير ، واشتدوا فى طلبه .

قال : وفى رواية لما قدما مكة حبسا جمليهما ببعض الشعاب ، ثم دخلا ليلا ، فقال له صاحبه : ياعمرو لو طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ثم طلبنا أبا سفيان ، فقال له عمرو : إنى أعرف بمكة من الفرس الأبلق ، أى وإن القوم إذا تعشوا جلسوا على أفنيتهم ، فقال : كلا إن شاء الله ، قال عمرو : فطفنا بالبيت وصلينا ، ثم خرجنا لطلب أبى سفيان ، فلقينى رجل من قريش فعرفنى ، وقال: عمرو بن أمية فأخبر قريشا بى ، فهربت أنا وصاحبى انتهى أى وصعدنا الجبل ، وخرجوا فى طلبنا ، فدخلنا كهفا فى الجبل ، ولقى عمرو رجلا من قريش فقتله : أى قتل ذلك الرجل عمرو ، فلما أصبحنا ، غدا رجل من قريش يقود فرسا ونحن فى الغار ، فقلت لصاحبى : إن رآنا صاح بنا ، فخرجت إليه ومعى خنجر أعددته لأبى سفيان فضربته على يده فصاح صيحة أسمع أهل مكة ، فجاء الناس يشتدون فوجدوه بآخر رمق

فقالوا له : من ضربك ؟ قال عمرو بن أمية ، وغلبه الموت فاحتملوه ، فقلت لصاحبي ، لما أمسينا : النجاة ، فخرجنا ليلا من مكة نريد المدينة ، فمررنا بالحرس الذين يحرسون خشبة حبيب بن عدى رضى الله تعالى عنه ، فقال أحدهم : لولا أن عمرو بن أمية بالمدينة لقلت إنه هذا الماشي ، فلما حاذيت الخشبة شددت عليها ، فحملتها واشتديت أنا وصاحبي فخرجوا وراءنا ، فألقيت الخشبة فغيبه الله عنهم ، كذا فى السيرة الهشامية .

وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم أرسل الزبير والمقداد لإنزاله وأن الزبير أنزله فابتلعته الأرض . وتقدم عن ابن الجوزى مثل ما هنا من أن الذى أنزله عمرو بن أمية رضى الله تعالى عنه ، فيحتاج إلى الجمع على تقدير صحة الروايتين . ويقال إن عمرا قتل رجلا آخر سمعه يقول :

ولست بمسلم مادمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

ولقى رجلين بعثتهما قريش إلى المدينة يتجسسان لهم الخبر ، فقتل أحدهما وأسر الآخر ثم قدم رضى الله تعالى عنه المدينة ، وجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك .

سرية سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه

وقيل كرز بن جابر رضى الله تعالى عنه وعليه الأكثرون . ومن ثم اقتصر عليه الحافظ الدمياطى ، أى وقيل جرير بن عبد الله البجلى . ورد بأن إسلام جرير بن عبد الله المذكور كان بعد هذه السرية بنحو أربع سنين [ ] إلى العرنيين .

وسببها أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر : أى ثمانية من عرينة ، وقيل أربعة من عرينة وثلاثة من عكل ، والثامن من غيرهما مسلمين ، نطقوا بالشهادتين ، كانوا مجهودين قد كادوا يهلكون أى لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم وعظم بطونهم ، وقالوا : يا رسول الله آونا وأطعمنا ، فأنزلهم صلى الله عليه وسلم عنده أى بالصفة ثم قال لهم : أى بعد أن ذكروا له صلى الله عليه وسلم أن المدينة وبئة وخمة ، وأنهم أهل ضرع ولم يكونوا أهل ريف : لو خرجتم إلى ذود لنا : أى لقاح وكانت خمسة عشر فشربتم من ألبانها وأبوالها ، أى لأن فى لبن اللقاح جلاء وتليينا وإدرارا وتفتيحا للسلد ، فإن الاستسقاء

وعظم البطن إنما ينشأ عن السدد وآفة فى الكبد . ومن أعظم منافع الكبد(١) لبن اللقاح ، لاسيما إن استعمل بحرارته التى يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل مع حرارته التى يخرج بها ففعلوا ثم لما صحت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعيها وهو يسار مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومثلوا به : أى قطعوا يديه ورجليه ، وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات واستاقوا اللقاح .

وفى لفظ أنهم ركبوا بعضها واستاقوها ، فأدركهم يسار ومعه نفر ، فقاتلهم فقطعوا يده ورجله ، الحديث .

وبلغه صلى الله عليه وسلم الخبر ، فبعث صلى الله عليه وسلم فى آثارهم عشرين فارسا ، واستعمل عليهم من تقدم ،وأرسل معهم من يقص آثارهم ، فأدركوهم فأحاطوا بهم فأسروهم ودخلوا بهم المدينة فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم : أى غورت بمسامير محماة بالنار ، وألقوا بالحرة : أى وهى أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، يستسقون فلا يسقون . قال أنس رضى الله تعالى عنه : ولقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ليجد بردها لما يجده من شدة العطش حتى ماتوا على حالهم [] وأنزل الله فيهم (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية،ولم يقع بعد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم سمل عينا. وفى لفظ أنهم لما أسروا ربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، فخرجوا بهم نحوه ، فلقوه بمجمع السيول ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، وصلبوا هنالك ، وأنه صلى الله عليه وسلم فقد من اللقاح لقحة تدعى الحفياء ، فسأل عنها ، فقيل نحروها ، كذا فى سيرة الحافظ الدمياطى ، وقدم فيها هذه السرية على سرية عمرو بن أمية الضمرى رضى الله تعالى عنه .

---

(١) أى ماينفع الكبد المرض اه مصححه .

سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

إلى طائفة من هوازن

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ثلاثين رجلا إلى عجز بفتح العين المهملة وبضم الجيم وبالزاى : محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء، يقال له تربة بضم المثناة فوق وفتح الراء ثم موحدة مفتوحة ثم تاء . وأرسل صلى الله عليه وسلم دليلا من بنى هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر لهوازن فهربوا ، فجاء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه محالهم ، فلم يجد منهم أحدا ، فانصرف راجعا إلى المدينة ، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل : هل لك جمع آخر من خثعم ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : لم يأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، إنما أمرنى بقتال هوازن .

سرية أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

إلى بنى كلاب

عن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر وأمره علينا ، فسبى ناسا من المشركين ، فقتلناهم ، فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات من المشركين ، وما زاده الأصل على هذا من قوله إن سلمة بن الأكوع قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضى الله تعالى عنه إلى فزارة الخ نسب فيه للوهم ، لأن ذلك كان فى سريته لبنى فزارة بوادى القرى ، وقد تقدمت ، فهما قضيتان مختلفتان جمع بينهما ، أى وهذا الذى فى الأصل تبع فيه شيخه الحافظ الدمياطى ، وفيه ما علمت .

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله تعالى عنه

إلى بنى مرة بفدك

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد فى ثلاثين رجلا إلى بنى مرة بفدك وتقدم أنها قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، فخرج فلقى رعاء الشاء، فسأل عن الناس؟ فقيل فى بواديهم ، فاستاق النعم والشاء ، وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ إليهم فأدركه منهم العدد الكثير عند الليل فباتوا يترامون بالنبل حتى فنى نبل أصحاب بشير ، أى فلما أصبحوا حملوا على بشير وأصحابه ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وولى من ولى منهم ، وقاتل بشير قتالا شديدا حتى ارتث : أى جرح وصار مابه رمق، وضربت كعبه اختبارا لحياته فلم يتحرك، فقيل مات ، فرجعوا بنعمهم وشياههم ، وجاء إليه صلى الله عليه وسلم خبرهم ثم جاء بشير رضى الله تعالى عنه إلى المدينة بعد ذلك : أى فإنه استمر بين القتلى إلى الليل ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام بفدك عند يهودى أياما حتى قوى على المشى ، وجاء إلى المدينة .

أقول وهذا يدل على أن بنى مرة الذين توجه إليهم بشير لم يكونوا بفدك ، بل بالقرب منها ، فيكون قوله أولا لبنى مرة بفدك فيه تسمح ، وأن بشيرا حصلت له هذه الحالة مرتين ، فليتأمل .

سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة ، اسم محل وراء بطن نخل

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه فى مائة وثلاثين رجلا لبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة : ودليلهم يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهجموا عليهم جميعا ووقعوا فى وسط محالهم ، فقتلوا جمعا من أشرافهم واستاقوا نعما وشاء، ولم يأسروا أحدا وفى هذه السرية قتل أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما الرجل الذى قال : لا إله إلا الله ، وهو مرداس بن نهيك. وفى سيرة الحافظ الدمياطى نهيك ابن مرداس ، والأول هو الذى فى الكشاف، وقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هلا شققت

عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟ » فعن أسامة رضى الله تعالى عنه « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما أعييناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصارى ، وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قلت : إنما قالها متعوّذا ، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» أى تمنيت أن أكون أسلمت اليوم فيكفر عنى ما صنعت ، قال : كذا وقع فى الأصل أن قتل أسامة للرجل الذى قال لا إله إلا الله كان فى هذه السرية ، وقد تبع فى ذلك ابن سعد .

وإنما كان ذلك فى سرية أسامة بن زيد للحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء وبالقاف ثم تاء تأنيث بطن من جهينة ، وسيأتى عن أسامة « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة ، فصبحناها ، فكان رجل يدعى مرداس بن نهيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا ، وإذا أدبروا كان من حاميتهم فهزمناهم ، فتبعته أنا ورجل من الأنصار ، فرفعت عليه السيف ، فقال لا إله إلا الله » وزاد فى رواية « محمد رسول الله ، فكف الأنصارى ، فطعنته برمحى حتى قتلته ، ثم وجدت فى نفسى من ذلك موجدة شديدة حتى ما أقدر على أكل الطعام ، حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلنى واعتنقنى » قال بعضهم « وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ، ويحب أن يثنى عليه خيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه ، فجعل القوم يحدثون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ولقيه رجل ، فقال الرجل لا إله إلا الله ، فشد عليه أسامة فقتله وهو صلى الله عليه وسلم يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه صلى الله عليه وسلم رفع رأسه الشريف لأسامة فقال : يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ فقال أسامة رضى الله تعالى عنه : إنما قالها خوفا من السلاح » وفى رواية «إنما كان متعوّذا من القتل ، قال أسامة رضى الله تعالى عنه : ولا زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر علىّ حتى تمنيت أنى لم أسلم إلا يومئذ » انتهى .

والذى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) أصله أن مرداس بن نهيك رجل من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليها غالب بن فضالة الليثى رضى الله تعالى عنه ، فهربوا وبقى

مرداس لثقته بإسلامه . فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» السلام عليكم، فقتله أسامة ابن زيد واستاق غنمه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فوجد وجدا شديدا وقال : قتلتموه إرادة ما معه ، ثم قرأ الآية على أسامة ، فقال : يا رسول الله استغفر لى ، قال : فكيف بلا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لى وقال: أعتق رقبة، وسيأتى نحو ذلك فى سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى مصاب بشير بن سعد .

ويبعد تعدد هذه الواقعة سيما فى مواطن ثلاثة أو أربعة ، وكون يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دليلا فى هذه السرية يقتضى أنها متقدمة على سرية العرنيين ، فقد تقدم أنهم قتلوه ثم رأيته فى النور قال : ولعل هذا غير ذاك، لكن لم أر له ذكرا فى الموالى إلا أن يكون أحد موالى أقاربه عليه الصلاة والسلام فنسب إليه ، ومن ثم لم يشهد أسامة رضى الله تعالى عنه مع على كرم الله وجهه قتالا ، وقال له : لو أدخلت يدك فى فم تنين لأدخلت يدى معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذى شهد أن لا إله إلا الله وقلت له : أعطى الله عهدا أن لا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله ، والله أعلم .

سرية بشير بن سعد الأنصارى رضى الله تعالى عنه

إلى يمن

بفتح الياء آخر الحروف وقيل بضمها ، أو يقال أمن بالهمزة مفتوحة وسكون الميم ، وجبار بفتح الجيم : واد قريب من خيبر .

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن : أى قبل أن يسلم رضى الله تعالى عنه ، ليكون معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد ، فعقد له لواء ، وبعث معه ثلثمائة رجل ، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا المحل المذكور ، فأصابوا نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء بكسر الراء والمد ، وذهبوا إلى القوم ، وأخبروهم فتفرقوا ولحقوا بعليا بلادهم ، وعليا

بضم العين وسكون اللام مقصورا : نقيض السفلى، فلم يظفر بأحد منهم إلا برجلين أسروهما فرجع بالنعم والرجلين إلى المدينة ، فأسلم الرجلان ، فأرسلهما صلى الله عليه وسلم ، قال : والرجلان من جمع عيينة ، فإن المسلمين لما لقوا جمع عيينة انهزموا أمامهم وتبعوهم أخذوا منهم ذينك الرجلين انتهى، أي وعيينة بن حصن كان يقال له الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة ، وقيل له عيينة ، قال فى الأصل : لأن عينه جحفلت : أى عظمت وكبرت ، فلقب بذلك رضى الله تعالى عنه .

سرية ابن أبى العوجاء السلمى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى سليم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى العوجاء رضى الله تعالى عنه السلمى فى خمسين رجلا إلى بنى سليم ، فكان لهم جاسوس مع القوم ، فخرج إليهم وسبق القوم وحذرهم، فجمعوا لهم جمعا كثيرا ، فجاءوا لهم وهم معدّون لهم فدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : أىّ حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟ فتراموا بالنبل ساعة ، وجعلت الأمداد تأتيهم ، وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، فقاتل المسلمون قتالا شديدا حتى قتل عامتهم ، وأصيب ابن أبى العوجاء جريحا مع القتلى، ثم تحامل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى الملوح

بضم الميم وفتح اللام وتشديد الواو مكسورة ثم حاء مهملة بالكديد، بفتح الكاف وكسر الدال المهملة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثى فى بضعة عشر رجلا قال : وما نقل عن الواقدى أنهم كانوا مائة وثلاثين رجلا فذلك فى سرية لغالب غير هذه انتهى .

أقول : وهى المتقدمة التى توجهت لبنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة ، والله أعلم . وأمر صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله وأصحابه أن يشنوا الغارة على القوم ، فخرجوا

حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثى فأسروه ، فقال إنما خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الإسلام ، فقالوا له : إن كنت مسلما لم يضرك ربطنا لك يوما وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك ، فشدوه وثاقا ،وخلفوا عنده سويد بن صخر . أى وفى لفظ : خلفوا عليه رجلا أسود منهم ، وقالوا له : إن نازعك فاحتز رأسه ، وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس ، فكمنوا فى ناحية الوادى. قال جندب الجهنى : وأرسلنى القوم جاسوسا لهم ، فخرجت حتى أتيت تلا مشرفا على الحاضر أى القوم المقيمين بمحلهم ، فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر ، إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته: إنى لأنظر على هذا الجبل سوادا ما رأيته قبل ، انظرى إلى أوعيتك لاتكون الكلاب جرت منها شيئا . فنظرت فقالت: والله مافقدت من أوعيتى شيئا ، فقال: ناولينى قوسى ونبلى ، فناولته قوسه وسهمين ، فأرسل سهما ، فوالله ما أخطأ بين عينى ، فانتزعته وثبت مكانى ، فأرسل آخر فوضعه فى منكبى ، فانتزعته وثبت مكانى ، فقال لامرأته : والله لو كان جاسوسا لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أبالك : أى بكسر الكاف : أى لا كافل لك غير نفسك وهو بهذا المعنى يذكر فى معرض المدح ، وربما يذكر فى معرض الذم وفى معرض التعجب لا بهذا المعنى ، فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب ثم دخل ، فلما اطمأنوا وناموا شنينا عليهم الغارة ، واستقنا النعم والشاء بعد أن قتلنا المقاتلة وسبينا الذرية ، أى ومروا على الحارث الليثى ، فاحتملوه واحتملوا صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صريخ القوم فى قومهم ، فجاء مالا قبل لنا به ، فصار بيننا وبينهم الوادى ، فأرسل الله سحابا فأمطر الوادى ما رأينا مثله ، فسال الوادى بحيث لا يستطيع أحد أن يجوز به ، فصاروا وقوفا ينظرون إلينا ونحن متوجهون إلى أن قدمنا المدينة .

أى وفى لفظ آخر : فقلنا القوم ينظرون إلينا ، إذ جاء الله بالوادى من حيث شاء يملأ جنبيه ماء ، والله ما رأينا يومئذ سحابا ولا مطرا ، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه فوقفوا ينظرون إلينا ، وقد وقع نظير ذلك : أى سيل الوادى لقطبة بن عامر حين توجه إلى بنى خثعم بناحية تبال كما سيأتى .

سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى مصاب
أصحاب بشير بن سعد رضى الله تعالى عنه
أى فى بنى مرة بفدك

لما قدم غالب من الكديد مؤيدا منصورا بعثه صلى الله عليه وسلم فى مائتى رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد ، وذلك فى بنى مرة بفدك ، وكان قبل قدوم غالب هيأ صلى الله عليه وسلم الزبير لذلك وعقد له لواء ، فلما قدم غالب رضى الله تعالى عنه قال صلى الله عليه وسلم للزبير اجلس ، فصار غالب رضى الله تعالى عنه إلى أن أصبح القوم فأغاروا عليهم ، وكان غالب رضى الله تعالى عنه قد أوصاهم بعدم مخالفتهم له ، وآخى بين القوم ، فساقوا نعما وقتلوا منهم .

قال : لما دنا غالب منهم ليلا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لاشريك له وأن تطيعونى ولاتخالفوا لى أمرا فإنه لا رأى لمن لا يطاع . وفى رواية : لا تعصونى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من يطع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى » وإنكم متى ما تعصونى فإنكم تعصون نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم ألف رضى الله تعالى عنه بين القوم ، فقال : يافلان أنت وفلان ، ويافلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك ؟ فيقول لا أدرى ، فإذا كبرت فكبروا ، فلما أحاطوا بالقوم كبر غالب رضى الله تعالى عنه وكبروا معه وجردوا السيوف ، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، وكان شعار المسلمين « أمت أمت » وكان فى القوم أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما ، وتفقده غالب رضى الله عنه فلم يره ، وبعد ساعة : أى من الليل أقبل ، فلامه غالب وقال : ألم تر إلى ما عهدت إليك ، فقال : خرجت فى أثر رجل منهم جعل يتهكم بى حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيف قال « لا إله إلا الله » فقال له الأمير : بئسما فعلت وماجئت به ، تقتل امرأ يقول « لا إله إلا الله » فندم أسامة وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة ، وعدل البعير بعشرة من الغنم انتهى ، وتقدمت الحوالة على هذه ، وتقدم ما فيها .

وقوله هنا حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيف قال « لا إله إلا الله » يقتضى أنه إنما قال « لا إله إلا الله » بعد ضربه بالسيف ؛ إلا أن يحمل على الإرادة ، وتقدم أنه طعنه برمحه ، فليتأمل .

سرية شجاع بن وهب الأسدى رضى الله تعالى عنه

إلى بنى عامر

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب رضى الله تعالى عنه فى أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن : أى يقال لهم بنو عامر ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يغير عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى صبحهم وهم غافلون ؛ أى وقد نهى أصحابه أن يمعنوا فى الطلب ، فأصابوا نعما وشاء ، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة ، فكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيرا ؛ وعدل البعير بعشرة من الغنم .

سرية كعب بن عمير الغفارى رضى الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء وادى القرى فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيرا ؛ أى لأنه لما دنا كعب ابن عمير رضى الله تعالى عنه من القوم ذهب عين لهم فأخبروهم بقلة المسلمين [ ] فدعوهم إلى الإسلام ، فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبل . فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن عمير فإنه ظن قتله ، فلما أمسى تحامل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك عليه ، فهم بالبعث إليهم ، فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر ، فتركهم.

أقول : لم أقف على السبب الذى اقتضى البعث إلى ذلك المحل ؛ والله أعلم .

سرية عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه

إلى ذات السلاسل

أرض بها ماء يقال له السلاسل ، بضم السين الأولى وكسر الثانية . أى وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى . المشهور أنها بفتح الأولى ، قيل سمى المكان بذلك ، لأنه كان به رمل بعضه على بعض كالسلسلة يقال ماء سلسل وسلسال : إذا كان سهل الدخول

فى الحلق لعذوبته وصفائه ، وتلك الأرض وراء وادى القرى ، وقيل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يغزوا .

أقول : ولخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى زمن الصديق غزاة مع أهل فارس يقال لها ذات السلاسل ، لكثرة من تسلسل فيها من الشجعان خوف الفرار ، فقتلوا عن آخرهم لأن السلاسل منعتهم الهزيمة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاسل إلى الصديق رضى الله تعالى عنه ، والله أعلم .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، أى وذلك بعد إسلامه بسنة ، وعقد له لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى ثلثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا . وأمره صلى الله عليه وسلم أن يستعين بمن يمر عليهم ، فسار الليل وكمن النهار حتى قرب من القوم ، فبلغه أن لهم جمعا كثيرا ، فبعث رافع بن كعب الجهنى رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين من سراة المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وعقد له لواء ، وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلحق بعمرو أبو عبيدة ، وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت علىّ مددا وأنا الأمير ، قال : وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبى عبيدة لعمرو : أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو : أنتم مدد لنا ، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف ، قال : لتعلم ياعمرو أن آخر شىء عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك ، قال : فإنى الأمير عليك ، قال : فدونك اهـ [ ] أى لأن أباعبيدة رضى الله تعالى عنه كان حسن الخلق لين العريكة فكان عمرو يصلى بالناس .

أى وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، قال : بعث إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرنى أن آخذ ثيابى وسلاحى . فقال : ياعمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك ؟ فقلت : إنى لم أسلم رغبة فى المال ، قال « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ورأوا جمعا كثيرا ، فحمل عليهم المسلمون فتفرقوا . قال : وأراد المسلمون أن يتبعوهم ، فمنعهم عمرو رضى الله تعالى عنه ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من

البرد فنعهم عمرو ؛ أى وقال : كل من أوقد نارا لأقذفنه فيها ، فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين فى ذلك فغالظه عمرو فى القول ، وقال له: قد أمرت أن تسمع لى وتطيع ؟ قال نعم ، قال : فافعل . ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه غضب وهم أن يأتيه ، فمنعه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فسكت ، واحتلم عمرو رضى الله تعالى عنه وكانت تلك الليلة شديدة البرد جدا ، فقال لأصحابه ما ترون ؟ قد والله احتلمت ، فإن اغتسلت مت ، فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس اه ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشرا للنبى صلى الله عليه وسلم بقدومهم وسلامتهم . قال : قال عوف بن مالك رضى الله تعالى عنه : جئته صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته ، فقلت : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : عوف بن مالك ؟ فقلت : نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله ، قال : أخبرنى ، فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وبين عمرو ، ومطاوعة أبى عبيدة لعمرو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح ، وأخبرته بمنع عمرو رضى الله تعالى عنه للمسلمين من اتباع العدو ، ومن إيقاد النار ، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب ، فلما قدم عليه عمرو كلمه صلى الله عليه وسلم فى ذلك قال : كرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم ، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره . قال عمرو : وسألنى عن صلاتى فقال : ياعمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقلت : والذى بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله ، وقد قال الله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فضحك صلى الله عليه وسلم اه .

أى ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن صلاة الصحابة خلفه ، فإنى لم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالقضاء .

سرية الخبط

وهو ورق السمر

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح فى ثلثمائة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى حى من جهينة فى ساحل البحر ، وقيل ليرصدوا عيرا لقريش ، أى وعليه فتكون هذه السرية قبل الهدنة الواقعة فى الحديبية ، لما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم بعد الهدنة لم يكن يرصد عيرا لقريش إلى الفتح ؛ وتعدد سرية الخبط بعيد ، فلا يقال يجوز أن تكون سرية الخبط مرتين : مرة قبل الهدنة ، ومرة بعدها ، ومن ثم حكم على هذا القول بأنه وهم . فأقاموا بالساحل نصف شهر ، فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط : أى كانوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم . فإن أباعبيدة رضى الله تعالى عنه كان يعطى الواحد منهم فى اليوم والليلة تمرة واحدة يمصها ثم يصرها فى ثوبه .

أى وعن الزبير رضى الله تعالى عنه أنه قيل له : كيف كنتم تصنعون بالتمرة ؟ قال نمصها كما يمص الصبى ثدى أمه ، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل ، لأنه صلى الله عليه وسلم زودهم جرابا من تمر ، فجعل أبوعبيدة رضى الله تعالى عنه يقوتهم إياه ، حتى صار يعده لهم عدا ، حتى كان يعطى الواحد تمرة كل يوم ثم بعد التمر أكلوا الخبط .

ولما رأى قيس بن سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنهما ما بالمسلمين من جهد الجوع أى مشقته ، أى وقال قائلهم : والله لو لقينا عدو ما كان منا حركة إليه لما بالناس من الجهد ، قال : من يشترى منى تمرا أوفيه له فى المدينة بجزر يوفيها إلى ههنا ؟ فقال له رجل من أهل الساحل : أنا أفعل ، لكن والله ما أعرفك ، فمن أنت ؟ قال : أنا قيس ابن سعد بن عبادة ، فقال الرجل : ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سعد خلة سيد أهل يثرب ، فاشترى خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر . والوسق : بفتح الواو وكسرها ستون صاعا ، وجمع الأول أوسق ، والثانى أوساق ، فقال له الرجل : أشهد لى ، فقال

أشهد من تحب ، فأشهد نفرا من المهاجرين والأنصار من جملتهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

وقيل إن عمر رضى الله تعالى عنه امتنع من أن يشهد ، وقال : هذا يدّان ولا مال له إنما المال لأبيه . فقال الرجل : والله ما كان سعد ليخنى بابنه ، أى لايوفى عن ابنه ماالتزمه ، فكان بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس رضى الله تعالى عنه الجزر فنحر لهم منها ثلاثة فى ثلاثة أيام ، وأراد أن ينحر لهم فى اليوم الرابع ، فنهاه أبو عبيدة وقال له : عزمت عليك أن لاتنحر ، أتريد أن تخفر ذمتك ؛ أى لايوفى لك بما التزمت ولا مال لك . فقال له قيس رضى الله تعالى عنه : أترى أباثابت ، يعنى والده سعدا يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟

وفى البخارى أن قيسا رضى الله تعالى عنه نحر لهم تسع جزائر كل يوم ثلاثا ، ثم نهاه أبو عبيدة .

أى ومما يؤيد ما ذكر من أن الجزر كانت خمسة ، وأنه نحر لهم ثلاثة أيام كل يوم جزورا ما جاء فى بعض الروايات أنه بقى معه جزوران قدم بهما المدينة يتعاقبون عليهما فلينظر الجمع .

ثم إنّ البحر ألقى لهم دابة هائلة يقال لها العنبر بحيث إن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه نصب لهم ضلعا من أضلاعها . وفى لفظ : من أضلاعه ومرّ تحته أطول رجل فى القوم : أى وهو قيس بن سعد بن عبادة راكبا على أطول بعير لم يطأطئ رأسه .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه ؛ أنه قال : دخلت أنا وفلان وفلان وعدّ خمسة نفر عينها ما رآنا أحد . أى وفى لفظ . ولقد أخذ منا أبوعبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينها ، فأكلوا منها أياما : أى نحو شهر وكانوا ثلثمائة .

وعن بعضهم : لما تقرّحت أشداقنا من الخبط انطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر ، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه : ميتة ، ثم قال : اضطررتم فكلوا ، فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلثمائة حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه الدهن بالقلال .

وفى رواية : فأخرجنا من عينه كذا وكذا قلة ودك ، وصحبوا من لحمها إلى المدينة ، أى وقيل لها العنبر لأنها تبتلع العنبر .

فعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت من يقول : رأيت العنبر نابتا فى البحر ملتويا مثل عنق الشاة ، وفى البحر دابة تأكله ، وهو سم لها فيقتلها فيقذفها البحر فيخرج العنبر من جوفها .

وقيل العنبر اسم لسمكة مخصوصة فى البحر هائلة الخلقة طولا وعرضا ، وقد أخبرنى بعض السفار أن جملا مات على شاطئ البحر ، فألقى فى البحر ، فابتلعته سمكة ، فوقفت أخفاف يديه فى حلقها ، فجاءت سمكة فابتلعت تلك السمكة .

وفى زمن الحاكم بأمر الله وجدت سمكة بدمياط طولها مائتا ذراع وعرضها مائة وستون ذراعا ، وكان يقف فى حلقها خمس رجال بالمجاريف يجرفون الشحم ، وأقام أهل دمياط يأكلون من لحمها خمسة أشهر .

ولما بلغ سعد بن عبادة ما حصل للمسلمين من المجاعة قبل قدومهم قال : إن يكن قيس ؛ يعنى ولده كما أعهد فلينحر للقوم . فلما قدم قيس قال له سعد : ما صنعت فى مجاعة القوم ؟ قال : نحرت ، قال أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال : أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : نحرت ، قال أصبت ، ثم قال ماذا ؟ قال : ثم نهيت ، قال : ومن نهاك ؟ قال أميرى أبو عبيدة ، قال : ولم ؟ قال : زعم أنه لا مال لى ، إنما المال لأبيك ، فقلت له : أبى يقضى عن الأباعد ويحمل الكل ويطعم فى المجاعة ولا يصنع هذا لى ؟ فلان لموافقتى ، فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع ، فقال سعد لولده قيس ذاك أربع حوائط ، أى بساتين ، أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقا . ثم إن قيسا رضى الله تعالى عنه وفى الرجل صاحب الجزر ، وحمله : أى أعطاه ما يركبه ، وكساه ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما فعل قيس ، قال : إنه فى بيت جود . إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت .

أى ومن ثم قال بعضهم : لم يكن فى الأوس والخزرج مطعمون يتوالدون فى بيت واحد إلا قيس وأبوه سعد وأبوه عبادة وأبوه دليم ، كان فى كل يوم يقف شخص على أطم ينادى : من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبى دليم .

أى وكان أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين والرجل بالجماعة ، وأما سعد فينطلق بالثمانين .

وعن سعد بن عبادة « زارنا النبى صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، ثم قال : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » .

قال : ويذكر أن سعدا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : من عذيرى من ابن الخطاب يبخل علىّ ابنى ، اهـ .

ويذكر عن سعد بن عبادة أنه كان شديد الغيرة ، لم يتزوج إلا بكرا ، وماطلق امرأة وقدر أحد أن يتزوجها .

وعن جابر رضى الله تعالى عنه فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر العنبر ، فقال : رزق أخرجه الله تعالى لكم ، لعل معكم من لحمه شىء فتطعمونا ، فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله أى ولم يكن أروح ، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم قال : لو نعلم أنا ندركه لم يروّح لأحببنا لو كان عندنا منه ، قال ذلك ازديادا منه .

سرية أبى قتادة رضى الله تعالى عنه إلى غطفان

أرض محارب

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة فى خمسة عشر رجلا إلى غطفان ، وأمره أن يشن الغارة عليهم ، فصار يسير الليل ويكمن النهار ، حتى هجم عليهم ، وأحاط بهم ، وقتلوا من أشراف لهم ، واستاقوا الإبل والغنم ، فكانت الإبل مائة بعير ، والغنم ألفى شاة ، وسبوا سبايا كثيرة ، فأصاب كل رجل بعد إخراج الخمس اثنى عشر بعيرا ، وعدل البعير بعشرين من الغنم . ووقع فى سهم أبى قتادة رضى الله تعالى عنه جارية حسناء وضيئة ، فاستوهبها منه صلى الله عليه وسلم ، فوهبها له ، ثم وهبها صلى الله عليه وسلم لشخص ، أى كان وعده بجارية من أول فىء يفىء الله به ، فجاء ذلك الشخص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت وعدتنى جارية من أول فىء يفىء الله به عليك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى قتادة ، قال : هب لى الجارية ، فوهبها له الحديث .

سرية عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله تعالى عنه
إلى الغـــابة

وهي الشجر الملتف .

قال عبد الله المذكور : تزوجت امرأة من قومي ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه على ذلك ، فقال : كم أصدقت ؟ قلت : مائتي درهم . فقال : سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واديكم هذا . وفي لفظ : لو كنتم تغرفونها من ناحية بطحان ما زدتم . والله ما عندي ما أعينك ، فلبثت أياما ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا يقال له رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة في جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلين من المسلمين ، فقال : اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوني منه بخبر ، ودفع لنا شارفا عجفاء : أي ناقة مسنة ، وقال : تبلغوا عليها ، واعتقبوها ، فركبها أحدنا ، فوالله ماقامت به ضعفا حتى ضربت ، فخرجنا ومعنا سلاحنا النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريبا من القوم عند غروب الشمس ، فكنت في ناحية وصاحبي في ناحية أخرى ، فقلت لهما إذا سمعتماني قد كبرت فكبرا ، فوالله إنا كذلك ننتظر غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة المجمع للقوم خرج في طلب راع لهم أبطأ عليهم وتخوفوا عليه ؛ فقال له نفر من قومه : نحن نكفيك ولا تذهب أنت ، فقال : والله لا يذهب إلا أنا ، فقالوا فنحن معك ، فقال : والله لا يتبعني أحد منكم ، وخرج حتى مر بي ، فلما أمكنني نفحته : أي رميته بسهم فوضعته في فؤاده ، فوالله ما تكلم ، ووثبت عليه فاحتززت رأسه ، وشددت في ناحية العسكر وكبرت ، وشد صاحباي وكبرا ، فهرب القوم واستقنا إبلا وغنما كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجئت برأسه أحمله معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعانني رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرا في صداقي .

قال : وبعضهم جعل هذه السرية وسرية أبي قتادة إلى غطفان بأرض محارب التي قبل هذه واحدة ، أي ومن ثم ذكرتها عقبها خلاف ما صنع في الأصل .

قال : ويدل لكونهما واحدة ما نقل عن عبد الله بن أبى حدود ، قال : لما طلبته منه صلى الله عليه وسلم الإعانة فى مهر زوجتى ، قال لى : ماوافقت عندنا شيئا أعينك به ، ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلا فى سرية ، فهل لك أن تخرج فيها فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك ، فقلت : نعم،فخرجنا حتى جئنا الحاضر : أى وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه ، أى كما تقدم ؛ فلما ذهبت فحمه العشاء : أى إقباله وأول سواده ، خطبنا أبو قتادة ، وأوصانا بتقوى الله تعالى ، وألف بين كل رجلين ، وقال : لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل: أى يرجع ، ولا يجىء إلىّ الرجل فأساله عن صاحبه ، فيقول لا علم لى به ، وإذا كبرت فكبروا ، وإذا حملت فاحملوا ، ولا تمعنوا فى الطلب ، فأحطنا بالحاضر ، فجرد أبوقتادة سيفه وكبر وجردنا سيوفنا وكبرنا معه ، وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل ، فأقبل علىّ قال : يا مسلم هلم إلى الجنة يتهكم بى ، فلت إليه فذهب أمامى : أى وصار يقبل علىّ بوجهه مرة ويدبر عنى بوجهه مرة أخرى ، فتبعته ، فقال لى صاحبى لاتتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمعن فى الطلب ، ولا زال كذلك ، وقال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، فأدركته فرميته بسهم فقتلته ، وأخذت سيفه وجئت صاحبى فأخبرنى أنهم جمعوا الغنائم ، وأن أباقتادة تغيظ علىّ وعليك ، فجئت أبا قتادة فلامنى فأخبرته الخبر،ثم سقنا النعم، وحملنا النساء ، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، ثم لما أصبحنا رأيت فى السبى امرأة كأنها ظبى تكثر الالتفات خلفها وتبكى ، فقلت لها : أى شىء تنظرين ؟ قالت : والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليستنقذنا منكم ، فوقع فى نفسى أنه الذى قتلته ، فقلت لها : والله قد قتلته ، وهذا والله سيفه معلق بالقتب ، فقالت : فألق إلىّ غمده ، فقلت : هذا غمد سيفه ، فلما رأته بكت ولبثت انتهى ، ولا يخفى أن السياق فى كل يبعد كونهما واحدة .

سرية أبى قتادة رضى الله تعالى عنه
إلى بطن أضم

اسم موضع أو جبل .

لما همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة رضى الله تعالى عنه فى ثمانية نفر من جملتهم محكم بن جثامة الليثى إلى بطن أضم ، ليظن ظان أن رسول الله

صلى الله عايه وسلم توجه إلى تلك الناحية وتنشر بذلك الأخبار ، فمرّ عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله ، أى لشيء كان بينه وبينه ، وسلبه متاعه وبعيره ، وعند وصولهم إلى المحل رجعوا ، فبلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إلى مكة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحكم : أقتلته بعد ماقال آمنت بالله ؟ وفى رواية : بعد ماقال إنى مسلم؟ أى أتى بما لم يأت به إلا مؤمن آمن بالله وكان مسلما ،قال : يارسول الله إنما قالها : أى تحية الإسلام متعوذا ، قال : أفلا شققت عن قلبه؟ قال: لم يا رسول الله ؟ قال لتعلم أصادق هو أم كاذب . أى وفى رواية فقال : يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم مافى قلبه ؟ فقال له : فلا أنت قبلت ما تكلم به ، ولا أنت تعلم ما فى قلبه ، فقال : استغفر لى يارسول الله ، فقال : لاغفر الله لك ،فقام يتلقى دمعه ببرده اه ، وأنزل الله تعالى فيه (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) إلى آخر الآية .

وذكر ابن إسحاق فى خبر محكم : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بحنين ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها ، فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان فى عامر ابن الأضبط ؛ عيينة بن حصن يطلب دمه ؛ أى ويقول والله يا رسول الله إنى لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نسائى ، والأقرع يدافع عن محكم ، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعيينة ومن معه : بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا ، وهو يأبى عليه ؛ فلم يزل به حتى اتفقا على الدية ، ثم قالوا : إن محكما يستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام محكم وهو رجل آدم طويل : أى عليه حلة قد كان تهيأ للقتل فيها حتى جلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه تدمعان ، فقال له : ما اسمك ؟ قال أنا محكم ، قد فعلت الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله تعالى ، واستغفر لى يارسول الله ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال اللهم لا تغفر لمحكم ، قالها ثلاثا بصوت عال ، فقام يتلقى دمعه بفضل ردائه ، فما مكث إلا سبعا حتى مات فلفظته الأرض مرات حتى ضموا عليه الحجارة وواروه .

أى ولما أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لهم : إن الأرض تقبل من هو

شر من صاحبكم، ولـكن الله يعظكم: أى وفى رواية : إن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله : أى حرمة من يأتى بها .

ولفظ الأرض له يردّ ما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر له بعد دعائه عليه ، إلا أن يكون المراد استغفر له بعد موته ، ويوافقه ما فى بعض الروايات : أراد الله أن يجعله موعظة لـكم لـكيلا يقدم رجل منكم على قتل من يشهد أن لا إله إلا الله ، أويقول إنى مسلم ، اذهبوا به إلى شعب بنى فلان فادفنوه فإن الأرض ستقبله ، فدفنوه فى ذلك الشعب ، فيجوز أن يكون استغفر له حينئذ ، وقيل إن الذى لفظته الأرض غير محكم ، لأن محـكما مات بحمص أيام ابن الزبير رضى الله تعالى عنه ، والذى لفظته الأرض اسمه فليت .

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

إلى العزى

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى بين فتح مكة الوليد فى ثلاثين فارسا من أصحابه إلى العزى، وهو صنم كان لقريش، وكان معظما جدا ، وفى لفظ :العزى نخلات أى سمرات مجتمعة ، لأنه كان يهدى إليها كما يهدى إلى الـكعبة ، لأن عمرو بن لحى أخبرهم أن الرب يشتى بالطائف عند اللات ويصيف عند العزى ، فلما وصل إلى محلها أى وكان بناء على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم ذلك البناء ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فقال له : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا ، قال : فارجع إليها ، فرجع خالد وهو متغيظ ، فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس : أى شعر رأسها منتشر تحثو التراب على رأسها ، فجعل السادن يصيح بها : أى يقول : ياعزى عوّريه ، ياعزى خبليه ، فضربها خالد فقطعها نصفين : أى وهو يقول :

ياعز كفرانك لا سبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم تلك العزى .

سرية عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى سواع

بالعين المهملة : أى سمى باسم سواع بن نوح عليه السلام ، وكان على صورة امرأة وكان لقوم نوح ، ثم صار لهذيل . كانوا يحجون إليه : أى قبل فتح مكة ، وبعد ذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فى جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله . قال عمرو رضى الله عنه : فانتهيت إلى ذلك الصنم وعنده سادنه : أى خادمه ، فقال لى : ما تريد ؟ فقلت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه ، قال : لا تقدر ، قلت لم ؟ قال : تمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيها شيئا ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

سرية سعد بن زيد الأشهلى رضى الله عنه إلى مناة

صنم كان للأوس والخزرج .

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى مناة ليهدم محله ، فلما وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل سعد إلى ذلك الصنم ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصيانك ، فضربها سعد رضى الله عنه فقتلها ، وهدم محلها .

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى بنى جذيمة

بناحية يلملم يدعوهم إلى الإسلام ، أى ولم يكن صلى الله عليه وسلم علم بإسلامهم ولم يأمره بمقا[illegible] أى إذا لم يسلموا .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه فى ثلثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار ومن بنى سليم ، أى وهو عليه الصلاة والسلام مقيم بمكة إلى بنى جذيمة ، وكانوا فى الجاهلية قد قتلوا الفاكه عم خالد ، وقتلوا أخا الفاكه أيضا

فى الجاهلية ، وكانوا من أشر حى فى الجاهلية وكانوا يسمون لعقة الدم ، وقتلوا والد عبد الرحمن بن عوف ، فلما علموا به وعلموا أن معه بنى سليم وكانوا قتلوا منهم مالك بن الشريد وأخويه فى موطن واحد خافوه ، فلبسوا السلاح ، فلما انتهى خالد رضى الله عنه إليهم تلقوه ، فقال لهم خالد : أسلموا، فقالوا نحن قوم مسلمون. قال: فألقوا سلاحكم وانزلوا ، قالوا : لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل، ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك. قال خالد : فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا ، فنزلت فرقة منهم فأسرهم وتفرقت بقية القوم .

وفى رواية: لما انتهى خالد إلى القوم فتلقوه ، فقال لهم : ما أنتم ؟ أى أمسلمون أم كفار ؟ قالوا : مسلمون ، قد صلينا ، وصدقنا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبنينا المساجد فى ساحتنا وأذنا فيها . وفى لفظ : لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، قال: فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح ، قال : فضعوا السلاح فوضعوا ، فقال : استأسروا ، فأمر بعضهم فكتف بالتخفيف بعضا وفرقهم فى أصحابه ، فلما كان فى السحر نادى منادى خالد رضى الله عنه: من كان معه أسير فليقتله ، فقتل بنوسليم من كان معهم ، وامتنع المهاجرون والأنصار رضى الله تعالى عنهم ، وأرسلوا أسراهم، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما فعل خالد ، أى فإن رجلا من القوم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما فعل خالد ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ قال : نعم ، رجل أصفر ربعة ، ورجل طويل أحمر ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : والله يارسول الله أعرفهما ؛ أما الأول فهو ابنى فهذه صفته ، وأما الثانى فهو سالم مولى أبى حذيفة ؛ فعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ، أى قال ذلك مرتين، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه فودى لهم قتلاهم ، قال له صلى الله عليه وسلم: يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، ودفع إليه صلى الله عليه وسلم مالا : أى إبلا وورقا ، يدى به قتلاهم ، ويعطيهم منه بدل ما تلف عليهم من أموالهم ، فودى قتلاهم ، وأعطاهم عوض ما تلف عليهم حتى ميغلة الكلب : أى الإناء التى يشرب فيها ، حتى إذا لم يبق لهم دم ولا مال ، قال : هل بقى لكم دم أو مال ؟ قالوا: لا ، قال : أعطيكم ما بقى معى من المال احتياطا بدل ما لا تعلمون : أى مما تلف من

أموالكم ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبت وأحسنت أى وزاد .

وفى رواية : والذى أنا عبده لهى أحب إلىّ من حمر النعم ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة شاهرا يديه يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات انتهى .

ووقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما شر بسبب ذلك ، فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام ، فقال له : إنما أخذت بثأر أبيك ، فقال له عبد الرحمن : كذبت ، أنا قتلت قاتل أبى . أى وفى رواية : كيف تأخذ مسلمين بقتل رجل فى الجاهلية ؟ فقال خالد : ومن أخبركم أنهم أسلموا ؟ فقال : أهل السرية كلهم أخبروا بأنك قد وجدتهم بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ، فقال : جاءنى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أغير ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أخذت بثأر عمك الفاكه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته ، أى والغدوة: السير فى أول النهار إلى الزوال . والروحة : السير من الزوال إلى آخر النهار .

والمراد بأصحابه هنا السابقون إلى الإسلام ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، بل هو المراد كما تصرح به الرواية الآتية ، فقد نزّل صلى الله عليه وسلم الصحابة غير السابقين الذين يقع منهم الرد على الصحابة غير السابقين — لكون ذلك لا يليق بهم — منزلة غير الصحابة.

قال : ولما عاب عبد الرحمن على خالد الفعل المذكور أعان عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عن خالد وقال : يا خالد ذر أصحابى . وفى رواية « لا تسب أصحابى لو كان لك أحد ذهبا فأنفقته قيراطا قيراطا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن » انتهى .

أى ولا يخفى أنه يبعد أن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إنما قتلهم لقولهم صبأنا ولم يقولوا أسلمنا ، إلا أن يقال : يجوز أن يكون خالد فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام ، وأنه صلى الله عليه وسلم إنما أنكر عليه العجلة وترك التثبت فى أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا ، ثم لا يخفى أنه جاء « لا تسبوا أصحابى ، فلو أنفق

أحدكم مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » ونقل الإمام السبكى عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : فإنه كان يحضر مجلس وعظه أن قوله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى كان خطابا لمن يأتى بعده من أمته ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان له تجليات ،فرأى فى بعضها سائر أمته الآتين من بعده ،فقال خطابا لهم : لا تسبوا أصحابى ، وارتضى منه هذا التأويل اه . فالنهى والخطاب بلا تسبوا أصحابى لغير الصحابة تنزيلا للغائب الذى لم يوجد منزلة الموجود الحاضر . وفيه أن هذا لا يساعد عليه المقام .

وفى الحديث من التنويه برفعة الصحابة وعلو منزلتهم مايقطع الأطماع عن مداناتهم ، فإن كون ثواب إنفاق مثل جبل أحد ذهبا فى وجه الخير لايبلغ ثواب التصدق بنصف المدّ الذى إذا طحن وعجن لا يبلغ الرغيف المعتاد أمر عظيم .

أقول ووقع لخالد رضى الله تعالى عنه نظير ذلك فى زمن خلافة الصديق . فإن العرب لما ارتدت بعد موته صلى الله عليه وسلم عين خالدا لقتال أهل الردة وكان من جملتهم مالك بن نويرة ، فأسره خالد هو وأصحابه ، وكان الزمن شديد البرد ، فنادى منادى خالد : أن ادفنوا أسراكم ،فظن القوم أنه أراد ادفنوا أسراكم : أى اقتلوهم ، فقتلوهم ، وقتل مالك بن نويرة ، فلما سمع خالد بذلك ، قال : إذا أراد الله أمرا أمضاه ، وتزوج خالد رضى الله عنه زوجة مالك بن نويرة وكانت من أجمل النساء . ويقال إن خالدا استدعى مالك بن نويرة وقال له : كيف ترتد عن الإسلام وتمنع الزكاة ؟ ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة ؟ فقال : كان صاحبكم يزعم ذلك ، فقال له : هو صاحبنا وليس هو بصاحبك ، ياضرار اضرب عنقه ، وأمر برأسه فجعل ثالث حجرين جعل عليها قدر يطبخ فيه لحم ، فعل ذلك إرجافا لأهل الردة . فلما بلغ سيدنا عمر ذلك قال للصديق رضى الله تعالى عنهما اعزله ، فإن فى سيفه رهقا كيف يقتل مالكا ويأخذ زوجته ؟ فقال الصديق رضى الله تعالى عنه : لا أغمد سيفا سله على الكافرين والمنافقين ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين » وقال الصديق رضى الله تعالى عنه فى حق خالد : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد .

وفى كلام السهيلى أنه روى عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبى بكر الصديق إن فى سيف خالد رهقا فاقتله ، وذلك حين قتل مالك بن نويرة وجعل رأسه تحت قدر حتى

طبخ به ، وكان مالك ارتد ثم رجع إلى الإسلام ولم يظهر ذلك لخالد ، وشهد عنده رجلان من الصحابة برجوعه إلى الإسلام فلم يقبلهما وتزوج امرأته . فلذلك قال عمر لأبي بكر اقتله ، فقال : لاأفعل لأنه متأول ، فقال : اعزله ، فقال : لاأغمد سيفا سله الله تعالى على المشركين ، ولا أعزل واليا ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيل وأصل العدواة بين خالد وسيدنا عمر رضى الله عنهما على ما حكاه الشعبي أنهما وهما غلامان تصارعا ، وكان خالد ابن خال عمر ، فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت .

ولما ولى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه الخلافة أول شيء بدأ به عزل خالدا لما تقدم ، وقال : لا يلى لى عملا أبدا . وقيل لكلام بلغه عنه ، ومن ثم أرسل إلى أبي عبيدة : إن أكذب خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه ، وإن لم يكذب نفسه فهو معزول ، فانتزع عمامته وقاسمه ماله نصفين فلم يكذب نفسه ، فقاسمه أبو عبيدة ماله حتى إحدى نعليه وترك له الأخرى وخالد يقول : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين .

وبلغه أن خالدا أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف وقد قصده ابتغاء إحسانه ، فأرسل لأبي عبيدة أن يصعد المنبر ويوقف خالدا بين يديه وينزع عمامته وقلنسوته ويقيده بعمامته ، لأن العشرة آلاف إن كان دفعها من ماله فهو سرف ، وإن كان من مال المسلمين فهى خيانة ، فلما قدم خالد رضى الله تعالى عنه على عمر رضى الله تعالى عنه قال له : من أين هذا اليسار الذى تجيز منه بعشرة آلاف ؟ فقال : من الأنفال والسهمان ، قال : ما زاد على التسعين ألفا فهو لك ، ثم قوم أمواله وعروضه وأخذ منه عشرين ألفا ، ثم قال له : والله إنك على لكريم ، وإنك لحبيب ، ولم تعمل لى بعد اليوم على شيء ، وكتب رضى الله عنه إلى الأمصار : إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، أى وأن نصر خالد على من قاتله من المشركين ليس بقوته ولا بشجاعته ، بل بفضل الله .

فالصديق لم يعزل خالد بن الوليد مع فعله ما يكرهه بتأويل له فى ذلك ، كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يعزله مع فعله لما كرهه صلى الله عليه وسلم حيث رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد ، لكونه كان شديدا على الكفار ، لرجحانه

المصلحة على المفسدة . وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه عزاه لخوف افتتان الناس به ، فعزله وولى أبا عبيدة بن الجراح .

قال بعضهم: كان الصديق رضي الله تعالى عنه لينا وخالد بن الوليد شديدا ،وعمر رضي الله عنه كان شديدا وأبو عبيدة لينا ، فكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه ليحصل التعادل ، والله أعلم .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في القوم رجل قال لهم أنا لست من هؤلاء ولكني عشقت امرأة فلحقتها ،فدعوني أنظر إليها ثم افعلوا بي مابدا لكم ،ثم أشار إلى نسوة مجتمعات غير بعيد . قال بعضهم : فقلت : والله ليسير ما طلب ، فأخذته حتى أوقفته عليهن فأنشد أبياتا ، ثم جئت به ، فقدموه فضربت عنقه ، فقامت امرأة من بينهن ، فجاءت حتى وقفت عليه فشهقت بفتح الهاء شهقة أو شهقتين ثم ماتت . أي وفي رواية فأكبت عليه تقبله حتى ماتت انتهى. أي وفي رواية فانحدرت إليه من هو دجها فحنت عليه حتى ماتت ، فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما كان فيكم رجل رحيم القلب » .

سرية أبي عامر الأشعري رضي الله عنه إلى أوطاس

لما انصرف صلى الله عليه وسلم من حنين وانهزم المشركون عسكر منهم طائفة بأوطاس ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عامر الأشعري عم أبي موسى الأشعري في جماعة فيهم أبو موسى الأشعري . ووقع في الأصل أن أبا عامر ابن عم أبي موسى الأشعري قال في النور وهو غلط ، وإنما أبو موسى ابن أخي أبي عامر . فلحقوا بالقوم وتناوشوا القتال : أي تكافئوا فيه ، وبارز أبو عامر تسعة ، ويقال إنهم إخوة وهو يقتلهم واحدا بعد واحد ، أي وصار كل من برز له منهم يدعوه إلى الإسلام فيأبى فيقول اللهم اشهد ويحمل عليه فيقتله. ثم برز له أخوهم العاشر فقتل أبا عامر ؛ أي فإنه قال له أسلم فأبى، فقال : اللهم اشهد. فقال : اللهم لاتشهد وفرش يديه ، فظن أبو عامر أنه أسلم فكف عنه ، فعاد إلى أبي عامر فقتله ثم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه، وكان إذا رآه صلى الله عليه وسلم يقول : هذا شريد أبي عامر .

قال : وعن أبي موسى الأشعري قال : جئت لأبي عامر وفيه رمق فقلت: يا عم من

رماك ؟ فقال : ذاك ، وأشار إلى شخص من القوم ، فقصدته فلحقته ، فلما رآنى ولى ، فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحى ألا تثبت ؟ فثبت ، فاختلفنا ضربتين فقتلته ، ثم قلت لأبى عامر : قد قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم فنزعته ، فقال : يا ابن أخى بلغ النبى صلى الله عليه وسلم منى السلام وقل له يستغفر لى ، وقال : ادفع فرسى وسلاحى له انتهى ، فليتأمل الجمع بين هذا وما قبله .

وقبل أن يموت أبو عامر رضى عنه استخلف ابن عمه أبا موسى ودفع الراية له . وفى لفظ : أن أبا عامر رماه واحد فأصاب قلبه ، ورماه آخر فأصاب ركبته فقتلاه ، وولى الناس أبا موسى فحمل عليهما فقتلهما : أى وفتح الله عليهم ، وانهزم المشركون وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا .

ولما رجع أبو موسى رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بموت أبى عامر استغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «اللهم اجعله من أعلى أمتى فى الجنة» أى وفى رواية : «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» ودعا لأبى موسى أى فقال : «اللهم اغفر له ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما» .

سرية الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه إلى ذى الكفين

صنم عمرو بن حيمة الدوسى ليهدمه

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى الطائف بعث الطفيل رضى الله تعالى عنه لهدم ذى الكفين ، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف ، فخرج سريعا إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشى النار فى وجهه ، وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا ، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر الأزد من يحمل رايتكم ؟ فقال الطفيل : من كان يحملها فى الجاهلية النعمان بن الراوية ، قال : أصبتم .

سرية عيينة بن حصن الفزارى رضى الله تعالى عنه
إلى بنى تميم

أى وسببها أنه صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سفيان إلى بنى كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بنى تميم على ماء ، فأخذ بشر صدقات بنى كعب ، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك : لم تعطونهم أموالكم ؟ فاجتمعوا وأشهروا السلاح ، ومنعوا بشرا من أخذ الصدقة ، فقال لهم بنو كعب : نحن أسلمنا ولا بد فى ديننا من دفع الزكاة ، فقال لهم بنو تميم : والله لاندع يخرج بعير واحد ، ولما رأى بشر رضى الله تعالى عنه ذلك قدم المدينة ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك .

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم فى خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى ، فكان يسير الليل ويكمن النهار ، فهجم عليهم ، وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة . وفى لفظ : إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فجاء بهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث ، فجاء فى أثرهم جماعة من رؤسائهم ، منهم عطارد ابن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ، ورباح بكسر الراء والمثناة تحت ابن الحارث ، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذرارى ، فجاءوا إلى باب النبى صلى الله عليه وسلم ، أى بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستبطئوه ، فجاءوا من وراء الحجرات ، فنادوا : أى بصوت جاف : اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين ، يامحمد اخرج إلينا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أى وقد تأذى من صياحهم ، وأقام بلال رضى الله تعالى عنه الصلاة ، وتعلقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم : أى قالوا له : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ثم جلس فى صحن المسجد ، أى بعد أن قالوا له ما تقدم ، ومنه : إن مدحنا لزين ، وإن شتمنا لشين ، نحن

أكرم العرب ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين ، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام، ثم قالوا له : فائذن لخطيبنا وشاعرنا ، قال : أذنت فليقم . وفى لفظ : إنى لم أبعث بالشعر ، ولم أومر بالفخر ، ولكن هاتوا ، فقدموا عطارد بن حاجب .

وفى لفظ قال الأقرع بن حابس لشاب منهم : قم ياقلان فاذكر فضلك وفضل قومك ، فتكلم وخطب ، أى فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف . وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عددا ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخر فليعدد مثل ماعددنا ، وإنا لوشئنا لأكثرنا ، وإنما أقول قولى هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس . أى وفى رواية أنه قال : الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وأعطانا أموالا نفعل فيها مانشاء ، فنحن خير أهل الأرض ، وأكثرهم عددا ، وأكثرهم سلاحا ، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا أو بفعال هى أفضل من فعالنا .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه ، أى قال له : قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت رضى الله تعالى عنه فقال : الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يكن شىء قط إلا من فضله ؛ ثم إنه كان من فضله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ؛ أكرمه نسبا ، وأصدقه قلبا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوو رحمه ؛ أكرم الناس أحسابا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس مقالا ، ثم كان أول الناس إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ورسوله ؟ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، فمن آمن بالله ورسوله منع دمه وماله ، ومن كفر جاهدناه فى الله ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

أى وفى رواية أنه قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ دعا المهاجرين من بنى عمه ، أحسن الناس وجوها ، وأعظم الناس أحلاما فأجابوه . والحمد لله الذى جعلنا أنصاره .

ووزراء رسوله وعزا المدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباها قاتلناه .وكان رغمه فى الله علينا هينا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

ثم قال الزبرقان لرجل منهم : فقم يافلان فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، فقال أبياتا منها

نحن الكرام فلا حى يعادلنا نحن الرءوس وفينا يقسم الربع
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد إنا لذلك عند الفخر نرتفع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علىّ بحسان بن ثابت ، فحضر ، فقال له : قم فأجبه ، فقال : يسمعنى ما قاله ، فأسمعه ، فقال حسان رضى الله تعالى عنه أبياتا ، منها :

نصرنا رسول الله والدين عنوة على من رغم عات بعيد وحاضر
وأحياؤنا من خير من وطىء الحصا وأمواتنا من خير أهل المقابر

وثابت بن قيس هذا كان يعرف بخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال : من يعلم لى علمه ؟ فقال رجل : أنا يارسول الله ، فذهب فوجده فى منزله جالسا منكسا رأسه ؟ فقال له : ما شأنك ؟ قال : أخشى أن أكون من أهل النار لأنى رفعت صوتى فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم . فرجع الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه . فقال : اذهب إليه فقل له : لست من أهل النار . ولكنك من أهل الجنة ، وقال صلى الله عليه وسلم « نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس » قتل يوم اليمامة ، وكان عليه درع نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى منامه فقال له : إنى أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه ، إنى لما قتلت مربى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس ، عند خبائه فرس ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل ، فأت خالدا فمره فليأخذها ، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فقل له : إن علىّ من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقى عتيق ، فاستيقظ الرجل فأتى خالدا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها بعد أن وجدها على ماوصف . وحدث أبا بكر رضى الله تعالى عنه برؤياه فأجاز وصيته . قال بعضهم : ولا يعلم أحد حدثت وصيته بعد موته سواه .

ووقعت مفاخرة بين الزبرقان بن بدر وبين حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه كل منهما يذكر قصيدة يذكر فيها فخرا . فمن قصيدة الزبرقان بن بدر وهو مطلعها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

ومن قصيدة حسان رضى الله تعالى عنه وهو مطلعها :

إنا أبينا ولم يأبى لنا أحـد   إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وفيه أن هذا البيت من قول بعض بنى تميم ، وقد أسمعه لحسان كما تقدم فليتأمل .

ووقعت مفاخرة بين الأقرع بن حابس وبين حسان رضى الله تعالى عنه ، فقال الأقرع ابن حابس : إنى والله يامحمد قد قلت شعرا فاسمعه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هات ، فأنشد :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا   إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وإنا رءوس الناس من كل معشر   وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم ياحسان فأجبه ، فقال :

بنى دارم لاتفخروا إن فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم   لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأقرع : لقد كنت غنيا ياأخا بنى دارم أن تذكر ما كنت ترى أن الناس قد نسوه ، فكان هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد عليهم من قول حسان رضى الله تعالى عنه . وحينئذ قال الأقرع بن حابس: لخطيبه — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم — أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، أى ثم دنا من النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد أن لاإله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايضرك ما كان قبل هذا . ورأى النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن رضى الله تعالى عنه ، فقال : يارسول الله لى من الولد عشرة ماقبلت واحدا منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لايرحم لايرحم » .

قال ابن دريد رحمه الله : اسم الأقرع نواس ، وإنما لقب الأقرع لقرع كان فى رأسه ، والقرع : انحصاص الشعر . وكان رضى الله تعالى عنه شريفا فى الجاهلية والإسلام ، ونزله

فيهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) .

ووقع أن عمرو بن الأهتم مدح الزبرقان للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنه لمطاع فى أنديته ، سيد فى عشيرته ، فقال الزبرقان : لقد حسدنى يا رسول الله لشرفى ، وقد علم أفضل مما قال ، فقال عمرو : إنه لزمر المروءة ، ضيق العطن ، لئيم الخال . وفى لفظ أن الزبرقان قال : يا رسول الله أنا سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب منهم ، آخذ لهم بحقوقهم ، وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك ، يعنى عمرو بن الأهتم ، فقال عمرو : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى ناديه ، مانع لما وراء ظهره ، فقال الزبرقان والله لقد كذب يارسول الله ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو : أنا أحسدك ؟ والله إنك للئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد ، مبغض فى العشيرة ، فعرف عمرو الإنكار فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا رسول الله ، والله لقد صدقت فى الأولى وما كذبت فى الثانية ، رضيت فقلت أحسن ماعلمت ، وسخطت فقلت أقبح ماعلمت. وفى رواية: والله يا رسول الله لقد صدقت فيهما ؛ أرضانى فقلت أحسن ماعلمت ، وأسخطنى فقلت أسوأ ماعلمت ؛ فعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » وجاء « إن من لبيان سحرا ، وإن من العلم جهلا ، وإن من الشعر حكما ، وإن من القول عيا » .

قال بعضهم : أما قوله صلى الله عليه وسلم « إن من البيان سحرا » فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وأما قوله « إن من العلم جهلا » فإن العالم يكلف مالا يعلم فيجهله ذلك . وأما قوله « إن من الشعر حكما » فهو هذه المواعظ والأمثال . وأما قوله « وإن من القول عيا » فعرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ، هذا كلامه .

وفيه إن هذا بيان للسحر المذموم ، وليس المراد هنا وإنما هو من السحر الحلال ، ومن ثم أقر صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عليه ولم يسخطه منه ، فالسحر المذموم أن يصوّر الباطل فى صورة الحق ببيانه ، ويخدع السامع بتمويهه وهو المراد عند الإطلاق ، والسحر غير المذموم فاكان من البيان على حق، لأن البيان بعبارة مقبولة عذبة لااستكراه فيها تستميل القلوب كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إلى ماموّه به .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم رد عليهم الأسارى والسبي وأحسن جوائزهم، قال: أي بعد أن أسلموا ، وأعطى كل واحد اثنى عشر أوقية ، قيل إلا عمرو بن الأهتم فإن القوم خلفوه فى ظهورهم ، لأنه كان أصغرهم سنا فأعطاه خمس أواق .

وقد اختلف فى عدد هذا الوفد ، فقيل كانوا سبعين رجلا ، وقيل كانوا ثمانين ، وقيل كانوا تسعين انتهى .

أى والذى فى الاستيعاب: ثم أسلم القوم وبقوا فى المدينة مدة يتعلمون الدين والقرآن. ثم أرادوا الخروج إلى قومهم فأعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم أسراهم ونساءهم ، وقال : أما بقى منكم أحد؟ وكان عمر بن الأهتم فى ركابهم ، فقال قيس بن عاصم وكان مشاحنا له : لم يبق منا إلا غلام فى ركابنا وأزرى به ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ماأعطاهم ، وبلغ عمرا ماقال قيس فى حقه ، فأنشد أبياتا تتضمن لومه على ذلك ، وكان عمرو خطيبا بليغا شاعرا محسنا ، يقال إن شعره كان حللا منثورة ، وكان رضى الله تعالى عنه جميلا يدعى الكحيل لجماله ، وهو القائل :

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها ولكنّ أخلاق الرجال تضيق

هذا كلامه ، وأنزل الله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قيل معناه لاتجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا فتؤخروا إجابته بالأعذار التى يؤخر بها بعضكم إجابة بعض ، ولكن عظموه صلى الله عليه وسلم بسرعة الإجابة .

سرية قطبة بن عامر رضى الله تعالى عنه
إلى حى من خثعم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قطبة بن عامر فى عشرين رجلا إلى حى من خثعم ، وأمره أن يشن الغارة عليهم ، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم : أى سكت ولم يعلمهم بالأمر ، فجعل يصيح بالحاضر : أى وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم ويحذرهم ، فضربوا عنقه ، ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى فى الفريقين ، وساقوا النعم والشاء إلى المدينة ، وجاء سيل فحال بينهم وبين القوم ، فلم يجد القوم إليهم سبيلا وتقدمت الحوالة على هذا .

سرية الضحاك الكلابى رضى الله تعالى عنه

فى جمع إلى بنى كلاب ، فلقوهم ودعوهم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلوهم فهزموهم ،وكان من جملة المسلمين شخص لقى أباه فى جملة القوم ، فدعاه إلى الإسلام فسبه وسب الإسلام فضرب عرقوب فرس أبيه فوقع ، فأمسك أباه إلى أن أتى بعض المسلمين فقتله ، أى وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم بعث لبنى كلاب وكتب إليهم فى رق فلم ينقادوا للإسلام ، وغسلوا الخط من الرق ، وخاطوه تحت دلوهم ، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال : مالهم ؟ أذهب الله عقولهم ، فصار لايوجد أحد منهم إلا مختلّ العقل ، مختلط الكلام بحيث لايفهم كلامه . .

سرية علقمة بن مجزز رضى الله تعالى عنهما

بضم الميم وفتح الجيم وزايين الأولى مكسورة مشدودة المدلجىّ : أى وهو ولد القائف الذى قاف فى حق زيد بن حارثة وأسامة رضى الله تعالى عنهما وقال : إن بعض هذه الأقدام من بعض ، فهو صحابى ابن صحابى ، إلى جمع من الحبشة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناسا من الحبشة تراءاهم أهل جدة : أى فى مراكب ، وجدة بضم الجيم وتشديد الدال المهملة : قرية ؛ سميت بذلك لبنائها على ساحل البحر ، لأن الجدة شاطئ البحر ، فبعث إليهم علقمة بن مجزز رضى الله تعالى عنهما فى ثلثمائة ، فخاض بهم البحر حتى أتوا إلى جزيرة فى البحر فهربوا ، أى ورجعوا ، ولم يلق كيدا . ثم لما كانوا فى أثناء الطريق أذن علقمة رضى الله تعالى عنه لجماعة أن يعجلوا وأمر عليهم أحدهم ، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يصطلون عليها ، فقال لهم أميرهم : عزمت عليكم إلا تواثبتم : أى وقعتم فى هذه النار ، فقام بعض القوم فحجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال : اجلسوا إنما كنت أضحك معكم ،فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

قال : وعن على كرم الله وجهه قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار ، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه فى شىء ،

فقال : اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا له ، ثم قال : أوقدوا نارا فأوقدوها ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى ، قال: فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنا فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فكان كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار ، فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا له ذلك ، فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها أبدا . وقال صلى الله عليه وسلم « لاطاعة فى معصية الله ، وإنما الطاعة فى المعروف » انتهى ، أى والضمير فى « دخلوها » للنار التى أوقدت ، والضمير فى منها لنار الآخرة ، لأن الدخول فيها معصية والعاصى يستحق النار ، فالمقصود من ذلك الزجر .

وفى رواية « من أمركم منهم » أى من الأمراء « بمعصية الله فلا تطيعوه » وفى لفظ « لاطاعة فى معصية الله » ولا مانع من تكرر هذه الواقعة .

سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه

إلى هدم الفلس بضم الفاء وسكون اللام «صنم طيء» والغارة عليهم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا معه راية سوداء ولواء أبيض إلى هدم الفلس والغارة عليهم ، فشنوا الغارة عليهم مع الفجر ، فهدموا الفلس وأحرقوه ، واستاقوا النعم والشاء والسبى ، وكان فى السبى أخت عدى بن حاتم الطائى ، أى واسمها سفانة بفتح السين المهملة وتشديد الفاء وبعد الألف نون مفتوحة ثم تاء تأنيث ، والسفانة فى الأصل : هى الدرة ، وهذه أسلمت رضى الله تعالى عنها . قال بعضهم : ولا يعرف لحاتم بنت إلا هذه ، ووجدوا فى خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب ، وهى : رسوب ، والمخذم ، واليمانى ، وثلاثة أدراع . وجعل الرسوب والمخذم صفيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار إليه الثالث الذى هو اليمانى .

قال : ومر النبى صلى الله عليه وسلم بأخت عدى فقامت إليه ، وكانت امرأة جذلة : أى ذات وقار وعقل ، وكلمته صلى الله عليه وسلم أن يمن عليها ، فمنّ عليها ، فأسلمت رضى الله تعالى عنها ، وخرجت إلى أخيها عدى فأشارت إليه بالقدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عليه كما سيأتى فى الوفود .

ويذكر أنها قالت له صلى الله عليه وسلم « يامحمد أرأيت أن تخلى عنا ، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيء ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : ياجارية هذه صفة المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » .

أى وفى لفظ « قالت له صلى الله عليه وسلم : يامحمد أرأيت أن تمنّ علىّ ولا تفضحنى فى قومى فإنى بنت سيدهم ، إنّ أبى كان يطعم الطعام ، ويحفظ الجوار ، ويرعى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العريان ، ولم يردّ طالب حاجة قط » أنا بنت حاتم الطائى . فقال لها صلى الله عليه وسلم : هذه مكارم الأخلاق حقا ، ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق » .

وفى رواية « أنها قالت : يارسول الله ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن علىّ منّ الله عليك . قال : ومن وفدك ؟ قالت عدى بن حاتم ، قال : الفارّ من الله ورسوله » أى لأنه هرب لما رأى الجيش كما سيأتى فى الوفود « قالت : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركنى حتى إذا كان من الغد قلت له كذلك وقال لى مثل ذلك ، فنى اليوم الثالث أشار إلىّ رجل خلفه بأن كلميه فكلمته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد فعلت فلا تعجلى حتى يجىء من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك ، فآذنينى أى أعلمينى وسألت عن الرجل الذى أشار علىّ بكلامه ، فقيل لى إنه على بن أبى طالب كرم الله وجهه قالت : فصبرت حتى قدم علىّ من أثق به ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملنى ، وأعطانى نفقة ، فخرجت حتى قدمت الشام على أخى » انتهى .

سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج

بفتح الميم وإسكان الذال المعجمة ثم حاء مهملة مكسورة ثم جيم كمسجد : أبو قبيلة من اليمن .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج من أرض

اليمن فى ثلثمائة فارس ، وعقد له لواء وعممه بيده وقال : امض ولا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد ، ففرق أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فأتوا بنهب بفتح النون وغنائم وأطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك ، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين ، ثم لقى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة فصف أصحابه ، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان ، ثم حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلا فانهزموا وتفرقوا ، فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، فأسرع إلى إجابته ومتابعته نفر من رؤسائهم وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا ، وهذه صدقاتنا ، فخذ منها حق الله تعالى . وجمع علىّ كرم الله وجهه الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء ، فكتب فى سهم منها لله ، وأقرع عليها فخرج أول السهام سهم الخمس ، وقسم الباقى على أصحابه ، ثم رجع علىّ كرم الله وجهه فوافى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة قدمها للحج ، أى حجة الوداع .

وذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم بعث عليا كرم الله وجهه فى سرية إلى اليمن ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ كتابه خرّ ساجدا ثم جلس ، فقال : السلام على همدان ، وتتابع أهل اليمن إلى الإسلام . قال فى الأصل : إن هذه السرية هى الأولى وما قبلها السرية الثانية .

سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه

إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان نصرانيا

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارسا فى رجب سنة تسع إلى أكيدر بدومة الجندل وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وكانت ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له ومعه امرأته ، فجاءت البقر تحكّ بقرونها باب الحصن ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذه ؟ قال لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وركب معه نفر من أهله فيهم أخ له يقال له حسان ، فتلقتهم خيل خالد فاستأسر أكيدر ، وقاتل أخوه حتى قتل ، وأجار خالد أكيدرا من القتل حتى يأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل ، وكان على أكيدر قباء من

ديباج مخوّصة : أي فيها خوص منسوجة بالذهب مثل خوص النخل ، فاستلبه خالد إياها ، وأرسلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعجبت الصحابة منها . فقال صلى الله عليه وسلم « لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » أى وقد تقدم . وصالح على أهل دومة الجندل بألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح .

ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه مصاد قافلا إلى المدينة ، فقدم بالأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه ، وخلى سبيلهما ، وكتب له كتابا فيه أمانهم وختمه يومئذ بظفره : أى ومن جملة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد ابن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها » إلى آخره ، وهذا كما لايخفى يدل على أن أكيدر أسلم ، أى وهو الموافق لقول أبى نعيم وابن منده بإسلامه ، وأنه معدود من الصحابة وأهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم حلة ؛ فوهبها صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب .

وذكر ابن الأثير أى فى أسد الغابة أن القول باسلامه غلط فاحش ، فإنه لم يسلم بلا خلاف بين أهل السير ، أى وحينئذ يكون قوله فى الكتاب حين أجاب إلى الإسلام أى انقاد إليه . ويبعده قوله : وخلع الأنداد والأصنام فليتأمل ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما صالحه عاد إلى حصنه وبقى فيه على نصرانيته .

ثم إن خالدا رضى الله تعالى عنه حاصره فى زمن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما فقتله لنقضه العهد .

قال ابن الأثير : وذكر البلاذرى أن أكيدرا لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم أسلم ، ثم بعد موته صلى الله عليه وسلم ارتد ، ثم قتله خالد أى بعد أن عاد من العراق إلى الشام .

قال : وعلى هذا القول لاينبغى أن يذكر فى الصحابة ، وإلا كان كل من أسلم فى حياته صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، أى ومات مرتدا يذكر فى الصحابة ، أى ولا قائل بذلك .

ثم رأيت الذهبى قال فى عمارة بن قيس بن الحارث الشيبانى إنه ارتد ، وقتل مرتدا فى خلافة أبى بكر ، وبهذا خرج عن أن يكون صحابيا بكل حال .

سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه إلى أبنى

بضم الهمزة ثم موحدة، ثم نون مفتوحة مقصورة : اسم موضع بين عسقلان والرملة. وفى كلام السهيلى رحمه الله : وهى قرية عند مؤتة التى قتل عندها زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما .

لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة أمر صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو الروم ، فلما كان من الغد دعا صلى الله عليه وسلم أسامة ابن زيد فقال : سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحا على أهل أبنى ، وحرق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله عليهم فأقلّ اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

فلما كان يوم الأربعاء بدأ به صلى الله عليه وسلم وجعه فحمّ وصدع ، فلما أصبح يوم الخميس عقد صلى الله عليه وسلم لأسامة لواء بيده ، ثم قال : اغز باسم الله وفى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله ، فخرج رضى الله تعالى عنه بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة ، وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنهم ، فتكلم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ، أى لأن سن أسامة رضى الله تعالى عنه كان ثمان عشرة ، وقيل تسع عشرة سنة ، وقيل سبع عشرة سنة .

ويؤيد ذلك أن الخليفة المهدى لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية الذى يضرب به المثل فى الذكاء وهو صبى وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة . فقال المهدى : أف لهذه العثانين ، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث ، ثم التفت إليه المهدى وقال : كم سنك يا فتى ؟ فقال : سنى — أطال الله بقاء أمير المؤمنين — سن أسامة بن زيد ابن حارثة رضى الله تعالى عنهم لما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا فيه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما . فقال : تقدم ، بارك الله فيك ، وكان سنه سبع عشرة سنة .

ومما يؤثر عنه : من لم يعرف عيبه فهو أحمق ، فقيل له ماعيبك يا أبا واثلة ؟ قال : كثرة الكلام ، وقيل كان عمر أسامة رضى الله تعالى عنه عشرين سنة .

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالتهم وطعنهم فى ولايته مع حداثة سنه غضب صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، وخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعايه قطيفة ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ، ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق الإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ ، وإنهما مظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم ، وتقدم أنه رضى الله تعالىّ عنه كان يقال له الحب ابن الحب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح خشمه وهو صغير بثوبه .

ثم نزل صلى الله عليه وسلم فدخل بيته وذلك فى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة ، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخرجون إلى العسكر بالجرف ، وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : أرسلوا بعث أسامة ، أى واستثنى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس .

أى فلا منافاة بين القول بأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان من جملة الجيش وبين القول بأنه تخلف عنه ، لأنه كان من جملة الجيش أولا ، وتخلف لما أمره صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس .

وبهذا يرد قول الرافضة طعنا فى أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه تخلف عن جيش أسامة رضى الله تعالى عنه ، لما علمت أن تخلفه عنه كان بأمر منه صلى الله عليه وسلم لأجل صلاته بالناس ، وقول هذا الرافضى مع أنه صلى الله عليه وسلم لعن المتخلف عن جيش أسامة مردود ، لأنه لم يرد اللعن فى حديث أصلا .

فلما كان يوم الأحد اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه ، فدخل أسامة من عسكره والنبى صلى الله عليه وسلم مغمور ، فطأطأ رأسه فقبله وهو صلى الله عليه وسلم لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة رضى الله تعالى عنه . قال أسامة : فعرفت أنه صلى الله عليه وسلم يدعو لى ، ورجع أسامة رضى الله تعالى عنه إلى عسكره ، ثم دخل عليه صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، فقال له صلى الله عليه وسلم : اغد على بركة الله تعالى ، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل ، فبينما هو

بريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن رضى الله تعالى عنها قد جاءه يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت .

وفى لفظ : فسار حتى بلغ الجرف فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول له : لا تعجل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيل ، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنهم ، فانتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يموت ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس .

أى وفى لفظ أنه رضى الله تعالى عنه لما نزل بذى خشب قبض النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغرزه عنده .

فلما بويع لأبى بكر رضى الله تعالى عنه بالخلافة أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة وأن يمضى أسامة لما أمر به .

فلما مات صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، أى فإنه لما اشتهرت وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ظهر النفاق ، وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية ، وصارت المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، وارتدت طوائف من العرب وقالوا نصلى ولا ندفع الزكاة وعند ذلك كلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى منع أسامة من السفر : أى قالوا له كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟ فأبى أى وقال : والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرد جيشا وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا حللت لواء عقده . وفى لفظ : والله لأن تخطفنى الطير أحب إلىّ من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أقول : ذكر بعضهم أن أسامة رضى الله تعالى عنه وقف بالناس عند الخندق وقال لسيدنا عمر : ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه أن يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ، وقالت له الأنصار رضى الله تعالى عنهم : فإن أبى أبو بكر إلا أن يمضى : أى الجيش فأبلغه منا السلام ، واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة ، فقدم عمر على أبى بكر رضى الله تعالى عنهما وأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر : والله لو تخطفنى الذئاب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى

الله عليه وسلم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك وعدمتك ياابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ، فخرج عمر إلى الناس فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، مالقيت اليوم بسببكم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، هذا كلامه .

وفيه أن هذا مخالف لما تقدم من صعوده صلى الله عليه وسلم المنبر وإنكاره على من طعن فى ولاية أسامة ، إذ يبعد عدم بلوغ ذلك للأنصار رضى الله تعالى عنهم ، إلا أن يقال : لعل من قال لسيدنا عمر هذه المقالة جمع من الأنصار لم يكونوا سمعوا ذلك ولابلغهم ، أو جوزوا أن الصديق رضى الله تعالى عنه يوافق على ذلك حيث رأى فيه المصلحة ، وسيدنا عمر رضى الله تعالى عنه جوّز ذلك حيث لم يتكفل بالرد عليهم بأنه صلى الله عليه وسلم أنكر على من طعن فى ولاية أسامة رضى الله تعالى عنه ، فليتأمل ، والله أعلم .

وكلم أبو بكر رضى الله تعالى عنه أسامة فى عمر رضى الله تعالى عنه أن يأذن له فى التخلف ففعل ، ولعل ذلك كان تطييبا لخاطر أسامة ، ومن ثم كان عمر رضى الله تعالى عنه لا يلقى أسامة إلا قال السلام عليك أيها الأمير كما يأتى . فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرج أسامة رضى الله تعالى عنه : أى فى ثلاثة آلاف فيهم ألف فرس ، وودعه سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد أن سار إلى جانبه ساعة ماشيا ، وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق ، فقال أسامة : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل ، فقال : والله لستَ بنازل ، ولستُ براكب : ثم قال له الصديق ، رضى الله تعالى عنه : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وقد وقع نظير ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضى الله تعالى عنه إلى اليمن شيعه صلى الله عليه وسلم وهو يمشى تحت راحلة معاذ وهو يوصيه .

ثم إن أسامة رضى الله تعالى عنه سار إلى أهل أبنى ، فشن عليهم الغارة : أى فرق الناس عليهم ، وكان شعارهم « يامنصور أمت » فقتل من قتل وأسر من أسر ، وحرق منازلهم وحرق أرضها فأزال نخلها ، وأجال الخيل فى عرصاتها ، ولم يقتل من المسلمين أحد . وكان أسامة رضى الله تعالى عنه على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه رضى الله تعالى عنهما ،

وأسهم للفرس سهمين وللفارس سهما ، وأخذ لنفسه مثل ذلك ، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ، وأسرع السير ، وبعث مبشرا إلى المدينة بسلامتهم .

وخرج أبو بكر فى المهاجرين والأنصار ممن لم يكن فى تلك السرية يتلقون أسامة ومن معه ، وسروا بسلامتهم . ودخل أسامة رضى الله تعالى عنه واللواء بين يديه حتى انتهى إلى باب المسجد ثم انصرف إلى بيته .

أى وكان فى خروج هذا الجيش نعمة عظيمة ، فإنه كان سببا لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب أرادوا ذلك ، وقالوا : لولاقوة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ، فثبتوا على الإسلام .

أى وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حتى بعد أن ولى الخلافة إذا رأى أسامة رضى الله تعالى عنه قال : السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أسامة : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، تقول لى هذا ؟ فيقول : لا أزال أدعوك ماعشت الأمير . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت علىّ أمير . وفى السيرة الشامية سرايا أخر تركنا ذكرها تبعا للأصل .

وفى السنة الثامنة أمر صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضى الله تعالى عنه أن يحج بالناس وهو بمكة .

وقد كان صلى الله عليه وسلم استعمله عليها لما أراد الخروج إلى حنين ، وقيل لما رجع من حنين . واستمر أميرا على مكة حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقره الصديق رضى الله تعالى عنه إلى أن توفى ، وكانت وفاته يوم وفاة الصديق رضى الله تعالى عنهما ، أى لأنه أطعم سم سنة فى اليوم الذى أطعم فيه الصديق ذلك ، وكان ذلك الحج على ماكانت عليه العرب فى الجاهلية من حج الكفار مع المسلمين ، لكن كان المسلمون بمعزل عنهم فى الموقف .

ولما دخلت سنة تسع استعمل صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه على الحج ، فخرج فى ثلاثمائة رجل من المدينة ، وبعث معه صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة قلدها صلى الله عليه وسلم وأشعرها بيده الشريفة ، وساق أبو بكر رضى الله تعالى عنه خمس بدنات ، ثم تبعه علىّ كرم الله وجهه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء : أى بفتح القاف والمد . وقيل بالضم والقصر ونسب للخطأ ، فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال :

لا ، ولـكن بعثنى أقرأ براءة على الناس ، وأنبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وكان العهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عاما وخاصا ، فالعام أن لا يصد أحد عن البيت جاءه ، ولايخاف أحد فى الأشهر الحرم كما تقدم ، والخاص بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة .

وفى كلام السهيلى رحمه الله تعالى : لما أردف أبو بكر بعلىّ رضى الله تعالى عنهما رجع أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله هل أنزل فىّ قرآن ؟ قال : لا ولكن أردت أن يبلغ عنى من هو من أهل بيتى ، فمضى أبو بكر رضى الله عنه فحج بالناس : أى فى ذى الحجة لا فى ذى القعدة كما قيل من أجل النسىء الذى كان فى الجاهلية ، يؤخرون له الأشهر الحرم ، أى فإن براءة نزلت : أى صدرها ، وإلا فقد نزل منها قبل ذلك فى غزوة تبوك (انفروا خفافا وثقالا) الآيات ، وكان نزول صدرها بعد سفر أبى بكر رضى الله عنه فقيل له صلى الله عليه وسلم : لو بعثت بها إلى أبى بكر ، فقال : لايؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه ، فقال : اخرج بصدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، فقرأ على بن أبى طالب كرم الله وجهه براءة يوم النحر : أى الذى هو يوم الحج الأكبر عند الجمرة الأولى وقال : « لايحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « أمرنى على كرم الله وجهه أن أطوف فى المنازل من منى ببراءة فـكنت أصيح حتى صحل حلقى ، فقيل له : بماذا كنت تنادى ؟ فقال : بأربع : أن لايدخل الجنة إلا مؤمن ، وأن لايحج بعد العام مشرك ، وأن لايطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد فله عهد أربعة أشهر ثم لاعهد له ، وأول تلك الأربعة يوم النحر من ذلك العام — ولا عهد له فعهده إلى انقضاء المحرم » .

وكان المشركون إذا سمعوا النداء ببراءة يقولون لعلى كرم الله وجهه : سترون بعد الأربعة أشهر ، فإنه لاعهد بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن والضرب .

وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بما ذكر ، لأنهم كانوا يحجون مع المسلمين ويرفعون أصواتهم بقولهم : لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . أى وتقدم سبب الإتيان بذلك ، ويطوف رجال منهم عراة ليس على رجل منهم ثوب بالليل ، فيقول الواحد

منهم : أطوف بالبيت كما ولدتنى أمى ليس على شئ من الدنيا خالطه الظلم : أى وفى لفظ التى قارفنا فيها الذنوب .

وكان لايطوف الواحد منهم بثوب إلا بثوب من ثياب الحمس وهم قريش ، يستعيره أو يكتريه ، وإذا طاف بثوب من ثيابه ألقاه بعد طوافه فلا يمسه هو ولا أحد غيره أبدا ، فكانوا يسمون تلك الثياب اللقى .

وفى الكشاف : كان أحدهم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه ، لأنهم قالوا لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها . وقيل تفاؤلا بأن يعروا من الذنوب كما يعرون من الثياب .

وكانت النساء يطفن كذلك ، وقيل كانت الواحدة تلبس درعا مفرجا . وقد طافت امرأة عريانة ويدها على قبلها وهى تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد — قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فأبطلت ذلك سورة براءة فى تلك السنة ، أى وقيل الزينة المشط ، وقيل الطيب .

وكان بنو عامر فى أيام الحج لا يأكلون الطعام إلا قوتا ، ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجتهم ، فقال المسلمون فإنا أحق أن نفعل ذلك ، فقيل لهم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

ويحكى أن بعض الأطباء الحذاق من النصارى ، قال لبعض الحكماء : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء . والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله فى بعض آية من كتابه ، قال له : وما هى ، قال : قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، فقال النصرانى : ولا يؤثر عن رسولكم صلى الله عليه وسلم شىء من الطب ؟ قال : قد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وما هى ؟ قال قوله « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعط كل بدن ما عودته » . فقال ذلك الطبيب : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئا .

وبينت براءة أن من كان له عهد فعهده إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة

أشهر . وفى لفظ : لما لحق على كرم الله وجهه أبا بكر رضى الله عنه ، قال له أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور .

وزعمت الرافضة أنه صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر عن إمارة الحج بعلىّ . وعبارة بعض الرافضة : ولما تقدم أبو بكر بسورة براءة رده صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة أيام بوحى من الله . وكيف يرضى العاقل إمامة من لا يرتضيه النبى صلى الله عليه وسلم بوحى من الله لأداء عشر آيات من براءة ، هذا كلامه .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : وهذا أبين من الكذب ، فان من المعلوم المتواتر أن أبا بكر رضى الله عنه لم يعزل ، وأنه حج بالناس ، وكان علىّ كرم الله وجهه من جملة رعيته فى تلك السفرة ، يصلى خلفه كسائر المسلمين ، ولم يرجع إلى المدينة حتى قضى الحج فى ذلك العام .

وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه بعلى كرم الله وجهه لنبذ العهود ، وكان من عادة العرب لا ينبذ العهد إلا المطاع أو رجل من أهل بيته ، أى فلو تلا أبو بكر رضى الله عنه ما فيه نقض عهد عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما تعللوا وقال قائلهم هذا خلاف ما نعرف ، فأزاح الله عللهم بكون ذلك على يد رجل من بنى أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدنى إليه ممن له ذرية وهو عبد المطلب ، قال : وهذا غير بعيد من افتراء الرافضة وبهتانهم ، أى وعلى عادة العرب بما ذكر جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عنى إلا رجل من أهل بيتى » كما تقدم . وفى لفظ « إلا رجل منى » أى لا يبلغ عنى عقد العقود ولا حلها إلا رجل منى ، أى من بنى أبى الأدنى ولا أب له ذرية أدنى إليه صلى الله عليه وسلم من عبد المطلب .

ولا يجوز حمل ذلك على تبليغ الأحكام والقرآن ، إذ كل أحد من المسلمين مأذون له فى تبليغ ذلك عنه صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه السنة التى هى سنة تسع تتابعت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل لها سنة الوفود .

باب يذكر فيه ما يتعلق بالوفود التي وفدت عليه صلى الله عليه وسلم

أى غير من تقدم ؛ فقد تقدم أنه قدم عليه صلى الله عليه وسلم وفد هوازن بالجعرانة ، وكذا وفد عليه بها مالك بن عوف النصرى وذلك فى آخر سنة ثمان : أى ووفد نصارى نجران ، أى قبل الهجرة ، ووفد بنى تميم فى سرية عيينة بن حصن . وذكر ابن سعد أن ذلك كان فى المحرم سنة تسع .

ووفد عليه وفد نصارى نجران أيضا بعد الهجرة وكانوا ستين راكبا ودخلوا المسجد النبوى ، أى وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بخواتم الذهب ، أى ومعهم هدية وهى بسط فيها تماثيل ومسوح ، فصار الناس ينظرون للتماثيل فقال صلى الله عليه وسلم : أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها ، فقالوا نعم : نعطيكها . ولما رأى فقراء المسلمين ما عليه هؤلاء من الزينة والزى الحسن تشوقت نفوسهم إلى الدنيا ، فأنزل الله تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآيات ، وأرادوا أن يصلوا بالمسجد بعد أن حان وقت صلاتهم وذلك بعد العصر ، فأراد الناس منعهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوهم ، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا وقالوا قد كنا مسلمين قبلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا : أى لأن أحدهم قال له صلى الله عليه وسلم المسيح عليه الصلاة والسلام ابن الله لأنه لا أب له . وقال له آخر : المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى ، وأخبر عن الغيوب ، وأبرأ من الأدواء كلها ، وخلق من الطين طيرا . وقال له أفضلهم : فعلام تشتمه وتزعم أنه عبد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم هو عبد الله « وكلمته ألقاها إلى مريم » فغضبوا ، وقالوا : إنما يرضينا أن تقول إنه إله ، وقالوا له صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا فأرنا عبد الله يحيى الموتى ويشفى الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيرا فينفخ فيها فتطير ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم عنهم ، فنزل الوحى بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

ابن مريم) وقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للإسلام أن أباهلكم ، أى ندعو ونجتهد فى الدعاء باللعنة على الكاذب ، فقالوا له : يا أبا القاسم نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، فخلا بعضهم ببعض ، فقال بعضهم : والله علمتم أن الرجل نبىّ مرسل ، وما لاعن قوم قط نبيا إلا استؤصلوا : أى أخذوا عن آخرهم ، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم ، وفى لفظ : أنهم ذهبوا إلى بنى قريظة : أى من بقى منهم وبنى النضير وبنى قينقاع واستشاروهم ، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه .

وفى لفظ : أنهم وادعوه على الغد ، فلما أصبح صلى الله عليه وسلم أقبل ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلى رضى الله عنهم وقال : اللهم هؤلاء أهلى ، أى وعند ذلك قال لهم الأسقف : إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم جبلا لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى ، فقالوا : لا نباهلك .

وعن عمر رضى الله عنه « أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو لاعنتهم يا رسول الله بيد من كنت تأخذ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : آخذ بيد علىّ وفاطمة والحسن والحسين وعائشة وحفصة » وهذا أى زيادة عائشة وحفصة فى هذه الرواية دل عليه قوله تعالى (ونساءنا ونساءكم) وصالحوه صلى الله عليه وسلم على الجزية ، صالحوه على ألف حلة فى صفر ، وألف فى رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وكتب لهم كتابا وقالوا له أرسل معنا أمينا ، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه ، وقال لهم : هذا أمين هذه الأمة ، أى وفى رواية هذا هو القوىّ الأمين ، وكان لذلك يدعى فى الصحابة بذلك .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أما والذى نفسى بيده لقد تدلى العذاب على أهل نجران ، ولو لاعنونى لمسخوا قردة وخنازير ، ولأضرم الوادى عليهم نارا ، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على الشجر ، ولا حال الحول على النصارى حتى يهلكوا » .

ووفد عليه صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة الداريون أبو الهند الدارى وتميم الدارى وأخوه نعيم ، وأربعة آخرون ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم أرضا من أرض الشام فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا حيث شئتم ، قال أبو هند :

فنهضنا من عنده نتشاور فى أى أرض نأخذ ؟ فقال تميم الدارى رضى الله عنه نسأله بيت المقدس وكورتهما ، فقال أبو هند : هذا محل ملك العجم وسيصير محل ملك العرب ، فأخاف أن لا يتم لنا ، قال تميم : نسأله بيت جيرون وكورتها ، فنهضنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ، فدعا بقطعة من أدم وكتب لهم كتابا نسخته بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب ذكر فيه ماوهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للداريين إذا أعطاه الله الأرض وهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم ، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أبد الأبد ، شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخذيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة ، وكتب : ثم أعطانا كتابنا ، وقال : انصرفوا حتى تسمعوا أنى قد هاجرت ، قال أبو هند : فانصرفنا ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا كتابا آخر ، فكتب لنا كتابا نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أنطى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم الدارى وأصحابه ، إنى أنطيتكم بيت عينون وجيرون والمرطوم ، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام برمتهم وجميع مافيهم نطية بيت ونفذت ، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد ، فمن آذاهم آذاه الله ، شهد بذلك أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وكتب نقل ذلك فى المواهب وأقره .

وخطب صلى الله عليه وسلم خطبة ، قال فيها : حدثنى تميم الدارى ، وذكر خبر الجساسة : أى لأن تميما رضى الله عنه أخبره صلى الله عليه وسلم أنه ركب البحر فتاهت به سفينته . فسقطوا إلى جزيرة فخرجوا إليها يلتمسون الماء فلقى إنسانا يجر شعره ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الجساسة ، قالوا : فأخبرنا ، قال : لاأخبركم ولكن عليكم بهذه الجزيرة فدخلناها ، فإذا رجل مقيد ، فقال : من أنتم ؟ قلنا ناس من العرب ، قال : مافعل هذا النبى الذى خرج فيكم ؟ قلنا قد آمن به الناس واتبعوه وصدقوه ، قال : فإن ذلك خير لهم ، قال : أفلا تخبرونى عن عين ذعر مافعلت ؟ فأخبرناه عنها ، فوثب وثبة ، ثم قال : مافعل نخل بيسان العرب ، هل أطعم بتمر ؟ فأخبرناه أنه قد أطعم ، فوثب مثلها ، فقال : أما لوقد أذن لى فى الخروج لوطئت البلاد كلها غير طيبة ، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدث الناس ، فقال : هذه طيبة وذاك الدجال ، قال ابن عبد البر : وهذا أولى مايخرجه المحدثون فى رواية الكبار عن الصغار ، أى كما تقدم .

ووفد عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى خيبر الأشعريون صحبة أبى موسى الأشعرى ، صحبوا جعفر بن أبى طالب من الحبشة ،وقال صلى الله عليه وسلم فيهم كما تقدم « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » وقال فى حق أهل اليمن « يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم » والأشعرى نسبة إلى أشعر ، واسمه نبت بن أدد ابن يشجب ، وإنما قيل له أشعر ، لأن أمه ولدته والشعر على بدنه .

قال : ولما فتحت مكة ودانت له صلى الله عليه وسلم قريش عرفت العرب أنه لاطاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعداوته ، لأن قريشا كانت قادة العرب ودخلوا فى دين الله أفواجا .

قال فى النهاية : الوفد القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وافد اه . والوفد رسول القوم يقدمهم ، وقد يراد به ماهو أعم من ذلك ، فيشمل من قدم غير رسول الله ، وحينئذ يكون من ذلك كعب بن زهير رضى الله تعالى عنه فإنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسبب ذلك أن أخاه بجير بن زهير خرج يوما هو وكعب فى غنم لهما ، فقال لأخيه كعب اثبت فى الغنم حتى آتى هذا الرجل ، يعنى النبى صلى الله عليه وسلم فأسمع كلامه وأعرف ما عنده ، فأقام كعب ومضى بجير ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه وآمن به ، وذلك أن أباهما زهيرا كان يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ورأى زهير والدهما رضى الله تعالى عنهما أنه قد مد بسبب من السماء ، وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأوله بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى يبعث فى آخر الزمان وأنه لا يدركه وأخبر بنيه بذلك وأوصاهم إن أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلموا ، ولما اتصل خبر إسلام بجير بأخيه كعب أغضبه ذلك ، فلما كان منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف كتب بجير رضى الله تعالى عنه إلى أخيه كعب بن زهير — وكان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم — يخبره بفتح مكة وأنه صلى الله عليه وسلم قتل بها رجالا ممن كان يهجوه من شعراء قريش ، وهرب بعضهم فى كل وجه كابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب وأنه صلى الله عليه وسلم ، قال : من لقى منكم كعب بن زهيرة فليقتله : فإن كان لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لايقتل أحدا جاء تائبا ، ولا يطالبه بما تقدم الإسلام ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك .

وفى تصحيح الأنساب لابن أبى الفوارس أن زهير بن أبى سلمى قال لأولاده : إنى رأيت فى المنام سببا ألقى إلىّ من السماء ، فمددت يدى لأتناوله ففاتنى ، فأولته أنه النبى الذى يبعث فى هذا الزمان وأنا لا أدركه ، فمن أدركه منكم فليصدّقه وليتبعه ليهتدى به ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمن به ابنه بجير وأقام كعب ابنه على الشرك والتشبيب بأم هانئ بنت أبى طالب رضى الله عنها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال : لئن وقع كعب فى يدىّ لأقطعن لسانه الحديث .

أى ولا مانع أن يكون ضم إلى هذا هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأرجف به أعداؤه ، وصاروا يقولون هو مقتول لا محالة ، فلم يجد بدا من مجيئه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعمل القصيدة التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فيها إرجاف أعدائه به رضى الله تعالى عنه التى مطلعها : • بانت سعاد فقلبى اليوم متبول •

ثم خرج رضى الله تعالى عنه حتى قدم المدينة فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة ، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح ، فأشار له ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا رسول الله ، فقم إليه واستأمنه ، فقام إلى أن جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده فى يده وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ومن حضره لا يعرفه ، فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال : يا رسول الله أنا كعب بن زهير ، فوثب رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا ، فلما أنشد القصيدة المذكورة ومدح فيها المهاجرين ولم يتعرض للأنصار ، قيل حمله على ذلك ما سمعه من ذلك الأنصارى مما غاظه، ولم يسمع من المهاجرين شيئا يغيظه .

وفيه أن هذا واضح إذا كان أنشأ ذلك فى ذلك الوقت ، وأما إذا كان عمله قبل مجيئه كما هو ظاهر ما تقدم أنه عمل تلك القصيدة التى من جملتها ما ذكر فلا ، فعند ذلك غضب الأنصار ، فمدحهم بالقصيدة التى مطلعها .

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأنصار

أى ويقال إنه صلى الله عليه وسلم هو الذى حضه على مدحهم وقال له لما أنشد: بانت سعاد ، ورآها صلى الله عليه وسلم مشتملة على مدح المهاجرين دون الأنصار : لولا : أى هلا ذكرت الأنصار بخير ، فان الأنصار أهل لذلك ؟ أى ولما أنشده صلى الله عليه وسلم بانت سعاد وقال :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ألقى صلى الله عليه وسلم بردة كانت عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتراها معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما من آل كعب بمال كثير ، أى بعد أن دفع لكعب فيها عشرة آلاف ، فقال : ماكنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا ، فلما مات كعب رضى الله تعالى عنه أخذها من ورثته بعشرين ألفا ، وتوارثها خلفاء بنى أمية ، ثم خلفاء بنى العباس . اشتراها السفاح أول خلفاء بنى العباس بثلاثمائة دينار أى بعد انقراض دولة بنى أمية ، أى وكانوا يطرحونها على أكتافهم جلوسا وركوبا ، وكانت على المقتدر حين قتل وتلوثت بالدم .

ويقال إن التى كانت عند بنى العباس بردته صلى الله عليه وسلم التى أعطاها لأهل أيلة مع كتابه الذى كتبه لهم أمانا وذلك فى غزوة تبوك ، وحينئذ تكون بردة كعب رضى الله تعالى عنه فقدت عند زوال دولة بنى أمية : وأما هذه البردة فلعل فقدها كان فى فتنة التتار .

ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال : إن معاوية رضى الله تعالى عنه اشترى البردة التى كانت عند الخلفاء من أهل كعب بأربعين ألف درهم ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتر منهم سنة أخذ بغداد . وقال : هذا من الأمور المشهورة جدا ، ولكنى لم أر ذلك فى شىء من الكتب باسناد أرتضيه . وصار كعب رضى الله تعالى عنه من شعرائه صلى الله عليه وسلم الذين يذبون عن الإسلام كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنهما الأنصاريين .

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة من تبوك فى رمضان قدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف . وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود رضى الله تعالى عنه حتى أدركه صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنهم قاتلوك ، فقال له عروة : يارسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم : أى أول أولادهم . وفى رواية : من أبصارهم ، فخرج رضى الله تعالى عنه يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمرتبته فيهم ، أى لأنه رضى الله تعالى عنه كان فيهم محببا مطاعا ، فلما أشرف لهم على علية ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم فقتله .

وفى لفظ : أنه رضى الله تعالى عنه قدم الطائف عشاء ، فجاءته ثقيف يسلمون عليه ، فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه وأسمعوه من الأذى مالم يكن يغشاه منهم ، فخرجوا من عنده حتى إذا كان السحر وطلع الفجر قام على غرفة فى داره وتشهد ، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله ، فقيل له قبل أن يموت : ماترى فى دمك ؟ فقال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ فليس فىّ إلا مافى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم ، وقال فى حقه صلى الله عليه وسلم « إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس إنه قال لقومه (اتبعوا المرسلين) الآيات فقتله قومه » أى المذكورة فى سورة يس وهو حبيب بن برى .

وقال السهيلى : يحتمل أن المراد به صاحب إلياس ، فإن إلياس يقال فى اسمه يس أيضا . وقد قال صلى الله عليه وسلم مثل هذه المقالة فى حق شخص آخر يقال له قرة بن حصين أو ابن الحارث ، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى هلال بن عامر يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه ، فقال صلى الله عليه وسلم «مثله مثل صاحب يس » .

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة شهرا ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد أسلموا ، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو وكان فى سن عروة بن مسعود رضى الله تعالى عنه فى ذلك ، فأبى أن يفعل ، لأنه خشى أن يفعل به كما فعل بعروة . وقيل كلموا مسعود بن عبد ياليل ونسب قائله إلى الغلط ، فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا فبعثوا معه خمسة أنفار منهم شرحبيل بن غيلان أحد أشراف ثقيف ، أسلم غيلان بالغين المعجمة على عشر نسوة ، وممن أسلم على عشر نسوة أيضا عروة بن مسعود ، وكذلك مسعود بن معتب ، ومسعود بن عمير ، وسفيان بن عبد الله ، وأبو عقيل مسعود بن عامر ، وكلهم من ثقيف .

ويقال : وفد عليه صلى الله عليه وسلم تسعة عشر رجلاهم أشراف ثقيف ، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبى العاص وهو أصغرهم ، فلما قربوا من المدينة لقوا المغيرة بن شعبة الثقفى ، فذهب مسرعا ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخبره ، فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أقسمت عليك لاتسبقنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، فدخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة أى وعلمهم رضى الله تعالى عنه كيف يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا إلا تحية الجاهلية وهى عم صباحا ، ثم قدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب لهم قبة فى ناحية المسجد : أى ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وكانوا يغدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص عند أسبابهم ، فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبى صلى الله عليه وسلم نائما ذهب إلى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحبه وكان فيهم رجل مجذوم ، فأرسل صلى الله عليه وسلم يقول له : إنا بايعناك فارجع . وفى المرفوع « لاتديموا النظر إلى المجذومين » وجاء « كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أورمحين » هذا معارض بقوله صلى الله عليه وسلم « لاعدوى ولاطيرة » وبما جاء فى أحاديث أخر «أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع المجذوم طعاما . وأخذ يده وجعلها معه فى القصعة وقال : كل بسم الله ، ثقة بالله، وتوكلا عليه» .

وأجيب بأن الأمر باجتناب المجذوم إرشادى ، ومؤاكلته لبيان الجواز ، أو جواز المخالطة محمولة على من قوى إيمانه وعدم جوازها على من ضعف إيمانه ، ومن ثم باشر صلى الله عليه وسلم الصورتين ليقتدى به : فيأخذ القوى الإيمان بطريق التوكل، والضعيف الإيمان بطريق الحفظ والاحتياط .

وعند انصرافهم قالوا : يارسول الله : أمّر علينا رجلا يؤمنا ، فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص لما رأى من حرصه على الإسلام وقرأ القرآن وتعلم الدين ، ولقول الصديق رضى الله تعالى عنه له صلى الله عليه وسلم : يارسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

وفى رواية أن عثمان بن أبى العاص قال : قلت : يارسول الله اجعلنى إمام قومى، قال : أنت إمامهم ، وقال لى : إذا أممت فأخفّ بهم الصلاة ، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا ، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب لهم كتابا ، وكان الكاتب له خالد المذكور . ومن جملته : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين . إن عضاه وجّ وصيده حرام ، لايعضد شجره ، ومن وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه . ووجّ : واد بالطائف ، وقيل هو الطائف . والعضاه : كل شجر له شوك واحده عضة كشفة وشفاه .

وروى أبوداود والترمذى : « ألا إن صيد وجّ وعضاهه حرام محرم » وكانوا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا ؛ وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم الصلاة . فقال : لاخير فى دين لاصلاة فيه . وفى لفظ : لا ركوع فيه . وأن يترك لهم الزنا والربا وشرب الخمر فأبى ذلك . وسألوه أن يترك لهم الطاغية التى هى صنمهم وهى اللات ، أى وكانوا يقولون لها الربة ، لايهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم له ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فلا زالوا يسألونه سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدومهم وأرادوا بذلك ليدخل الإسلام فى قومهم ولا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم بهدمها ، فأبى عليهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أى وعند خروجهم قال لهم سيدهم كنانة : أنا أعلمكم بثقيف ، اكتموا إسلامكم وخوّفوهم الحرب والقتال ، وأخبروهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم سألنا أمورا عظيمة ماأبيناها عليه ؛ سألنا أن نهدم الطاغية ، وأن نترك الزنا والربا وشرب الخمر ، فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا : جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودان له الناس ، فعرض علينا أمورا شدادا وذكروا ما تقدم ، قالوا : والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا ، فقالوا لهم : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال ، ورموا حصنكم ، فمكثت ثقيف كذلك يومين أوثلاثة ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقالوا : والله مالنا من طاقة ، فارجعوا إليه وأعطوه ماسأل ؛ فعند ذلك قالوا لهم : قد قاضيناه وأسلمنا ، فقالوا لهم : لم كتمتمونا ؟ قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان ، فأسلموا ومكثوا أياما ، فقدم عليهم رسل رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنهما لهدم الطاغية .

وفى رواية : لما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة رضى الله تعالى عنه أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال : ادخل أنت على قومك ، فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول : أى الفأس العظيمة التى يقطع بها الصخر ، وقام قومه دونه خشية أن يرمى كما رمى عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا . أى مكشوفات الرءوس حتى العواتق من الحجال يبكين على الطاغية .

قال : وفى رواية يظنون أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد المغيرة رضى الله تعالى عنه أن يسخر بثقيف ، فقال لأصحابه : لأضحكنكم من ثقيف ، فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها . وفى لفظ أخذ يرتكض فصاحوا صيحة واحدة ، فقالوا : أبعد الله المغيرة قتلته الربة ، وقالوا : والله لا يستطيع هدمها .

وفى رواية لما أخذ المعول وضرب به اللات ضربة صاح وخرّ لوجهه ، فارتجّ الطائف بالصياح سرورا ، وإن اللات قد صرعت المغيرة ، وأقبلوا يقولون كيف رأيت يامغيرة ؟ دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟ فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم : يا خبثاء ، والله ما قصدت إلا الهزؤ بكم .

وفى رواية : فوثب وقال لهم : قبحكم الله ، إنما هى لكاع ، حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم أخذ فى هدمها اه ، فهدمها بعد أن بدأ بكسر بابها حتى هدم أساسها وأخرج ترابها لما سمع سادنها يقول : ليغضبن الأساس فليخسفن بهم وأخذ مالها وحليها ، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود أخاه من مال الطاغية ، فقضاه ، فإن أبا مليح بن عروة ابن مسعود وقارب ابن عمه بن الأسود أخو عروة بن مسعود سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وكانا قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين لما قتلت ثقيف عروة ابن مسعود قبل أن تسلم ثقيف كما تقدم ، وكان صلى الله عليه وسلم قد أجاب أبا مليح ، فقال له نعم ، فقال له ابن عمه قارب بن الأسود : وعن الأسود يا رسول الله ، فإن عروة

والأسودأخوان لأب وأم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأسود مات مشركا ، فقال قارب : يارسول الله إنما الدين عليّ وأنا الذى أطلب به .

ومن الوفود وفد بنى تميم وقد تقدم ذكره : أى فى الكلام على سرية عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم ، وفى ذلك الوفد عطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر .

وذكر فى الاستيعاب أنه كان مع وفد تميم قيس بن عاصم فأسلم ، وذلك فى سنة تسع ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا سيد أهل الوبر ، وكان عاقلا حليما مشهورا بالحلم . قيل للأحنف بن قيس — وكان من أحلم الناس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، رأيته يوما قاعدا بنفاء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدّث قومه ، فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قد قتل ابنك ، قال فوالله ماحل حبوته ولا قطع كلامه ، فلما أتمــه التفت إلى ابن أخيه ، فقال : يا ابن أخى بئس مافعلت ، أثمت بربك ، وقطعت رحمك ، وقتلت ابن عمك ، ورميت نفسك بسهمك ، ثم قال لابن له آخر : قم يابنى فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها فانها غريبة .

وكان قيس بن عاصم رضى الله تعالى عنه ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية . وسبب ذلك أنه سكر يوما فغمز عكنة ابنته وسب أبويها ، ورأى القمر فصار يخاطبه ، وأعطى الخمار مالا كثيرا ، فلما أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه وقال فى ذمها أبياتا كثيرة .

ولما حضرته الوفاة دعابنيه ، فقال لهم : يابنى احفظوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى ، إذامت فسودوا كباركم ، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم . وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب الرجل ، فإذامت فلا تنوحوا عليّ ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينح عليه ، وقد قيل فيه من جملة أبيات عند موته :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وتقدم أنهم نادوه صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات : يامحمد اخرج إلينا ثلاث مرات ، فخرج إليهم إلى آخر ماتقدم .

ومنها وفد بنى عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى بضم السين وفتحها ، وكانوا أى هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم ، وكان عامر بن الطفيل عدو الله سيدهم ، كان مناديه ينادى بسوق عكاظ : هل من راجل فنحمله ، أو جائع فنطعمه ، أو خائف فنؤمنه؟ وكان من أجمل الناس ، وكان مضمرا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لأربد وهو أخو لبيد الشاعر : إذا قدمنا على هذا الرجل فإنى شاغل عنك وجهه ؟ فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، وقد قال قومه : ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، فقال : والله لقد كنت آليت : أى حلفت أن لاأنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر بن الطفيل : يامحمد خالنى : أى اجعلنى خليلا وصديقا لك ، قال : لاوالله حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له ، قال : يامحمد خالنى ، وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم وينتظر من أربد ماكان أمره به فجعل أربد لايأتى بشىء .

وفى رواية لما أتاه صلى الله عليه وسلم عامر وسده : أى ألقى له وسادة ليجلس عليها ، ثم قال له صلى الله عليه وسلم : أسلم ياعامر ، فقال له عامر : إن لى إليك حاجة ، قال : اقرب منى ، فقرب منه حتى حنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يدل على أن قوله خالنى : أى اجعل لى منك خلوة ، وهو المناسب لقول عامر لأربد إنى أشاغل عنك وجهه .

قال : وذكر أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له أسلم ياعامر ، فقال : أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك لك ولا لقومك : أى إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء : أى وقال له : يامحمد أسلم على أن لى الوبر ولك المدر ، فقال : لا ، فقال : مالى إن أسلمت ؟ فقال : لك ماللمسلمين وعليك ماعليهم ، فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا . وفى رواية : خيلا جردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله عز وجل .

قال السهيلى : وجعل أسيد بن حضير رضى الله تعالى عنه يضرب فى رءوسهما ويقول اخرجا أيها الهجرسان : أى القردان ، فقال له عامر : ومن أنت ؟ فقال : أسيد بن حضير ، فقال : أحضير بن سماك ؟ قال نعم ، قال : أبوك كان خيرا منك ، قال : بلى أنا خير منك ومن أبى ، لأن أبى كان مشركا وأنت مشرك .

ومكث صلى الله عليه وسلم أياما يدعو الله عليهم ويقول : اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت وابعث له داء يقتله اه . أى ثم قال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريشا على منابرها ، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياقوم آمنوا ، ثم قال : اللهم اهد بنى عامر ، واشغل عنى عامر بن الطفيل بما شئت وأنى شئت .

وفى البخارى « أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم أخيرك بين ثلاث خصال : يكون لك أهل السهل ولى أهل الوبر ، وأكون خليفتك من بعدك ، أوأغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر لأربد : ويلك ياأربد ، أين ما كنت أمرتك به ، والله ما كان على وجه الأرض من رجل أخافه على نفسى منك أبدا ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا ، فقال : لا أبالك ، لاتعجل علىّ ، والله ماهممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ أى وفى رواية : إلا رأيت بينى وبينه سورا من حديد . وفى رواية : لما وضعت يدى على قائم السيف يبست فلم أستطع أن أحركها . وفى رواية : لما أردت سل سيفى نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يدىّ يهوى إلىّ ، فو الله لوسللته لخفت أن يبتلع رأسى .

ويمكن الجمع بأن ما فى الرواية الأولى كان بعد أن تكرر منه الهم ، وما فى الرواية الثانية كان بعد أن حصل منه هم آخر ، وكذا يقال فى الثالثة ، وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه : أى وفى لفظ حلقه ، أى وأوى لبيت امرأة سلولية من بنى سلول ، وكانوا موصُوفين باللؤم .
وفى كلام السهيلى : إنما اختصها بالذكر لقرب نسبها منه لأنها منسوبة إلى سلول بن صعصعة ، والطفيل من بنى عامر بن صعصعة أى فهى تأسف عليه ، وصار يأسف الذى كان موته ببيتها ، وصار يمس الطاعون ويقول : يابنى عامر غدة : أى أغد غدة كغدة البعير ، وموتا فى بيت امرأة من بنى سلول ، ائتونى بفرسى ، ثم ركب فرسه وأخذ رمحه ، وصار يجول حتى وقع عن فرسه ميتا .
أى ويذكر أنه صار يقول : ابرز ياملك الموت . وفى لفظ : ياموت ابرزلى : أى أى لأقاتلك ، وهذا يدل على أن موت عامر لم يتأخر سيما وقد جاء فى رواية : فخرج حتى

إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها سلولية فنزل عن فرسه ونام فى بيتها ، فأخذته غدة فى حلقه فوثب على فرسه وأخذ رمحه ، وأقبل يجول وهو يقول : غدة كغدة البـكر ، وموت فى بيت سلولية ، فلم يزل على تلك الحالة حتى سقط عن فرسه ميتا .

ويحتاج للجمع بينه وبين قول الأوزاعى قال يحيى : فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحا ، وقدم صاحباه على قومهما ، فقالوا لأربد : ماوراءك ياأربد ؟ فقال : لا شىء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شىء اوددت أنى عنده الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله ، فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمله يتبعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة أحرقتهما . أى وذلك فى يوم صحو قائظ ، وأنزل الله تعالى قوله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) وأما جبار بن سلمى الذى هو ثالثهم ، فقد أسلم مع من أسلم من بنى عامر .

ومنها وفود ضمام بن ثعلبة ، أى وقيل وفد فى سنة خمس ، بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه متكئا جاءه رجل من أهل البادية قال فيه طلحة بن عبيد الله : جاءنا أعرابى من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه مايقول ، الحديث : أى جاء على جمل وأناخه فى المسجد ثم عقله وقال : أيكم ابن عبد المطلب . أى وفى رواية : أيكم محمد ؟ قالوا هذا الأمغر المرتفق : أى الأبيض المشرب بحمره المتكىء على مرفقه ، فدنا منه صلى الله عليه وسلم فقال : إنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة قال : سل عما بدا لك . أى وفى رواية : لمغلظ عليك فى المسئلة فلا تجد على فى نفسك مالا أجد فى نفسى ، فقال : سل مابدالك ، فقال : يامحمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق ، فقال : أنشدك بفتح الهمزة برب من قبلك ورب من بعدك . وفى رواية : بالذى خلق السموات والأرض ، ونصب هذه الجبال ، قال : اللهم نعم . قال : وفى رواية أنه قال له قبل ذلك : آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لانشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون ؟ قال : اللهم نعم انتهى . قال : أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ؟ قال اللهم نعم . قال : وأنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال : اللهم نعم ، قال وأنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال : اللهم نعم ، قال : وأنشدك بالله آلله أمرك أن يحج

هذا البيت من استطاع إليه سبيلا ، قال : اللهم نعم ، قال : فأنا قد آمنت وصدقت وأنا ضمام ابن ثعلبة .

أقول : وهذا السياق يدل على أن وفوده كان بعد فرض الحج ، وهو يخالف ماسبق أنه كان فى سنة خمس ومن ثم استبعده ابن القيم . قال : والظاهر أن هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة .

وفيه أن الذى جزم به إسحاق وأبو عبيدة أنه وفد فى سنة تسع وصوبه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ، ومن ثم جاء ذكر الحج فى مسلم ، ويؤيد ذلك قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم علينا الحديث ، لأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إنما قدم المدينة بعد الفتح ، فلما أن ولى ضمام رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقه الرجل : أى بضم القاف صار فقيها ، وبكسرها فهم . وفى لفظ : لئن صدق ليدخلنّ الجنة ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول : مارأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة . أى وفى لفظ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : فما سمعنا بوافد وقد كان أفضل من ضمام .

ولما رجع ضمام رضى الله تعالى عنه إلى قومه قال لهم : إن الله تعالى قد بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه .

قال : وفى رواية أن أول شىء تكلم به أن سب اللات والعزى ، فقال له قومه : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، فقال لهم ويلكم ، والله إنهما لايضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا إلى آخر ماتقدم ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا وأسلم .

ومنها وفد عبد القيس وفيهم الجارود ، وكان نصرانيا أى قد قرأ الكتب فقال أبياتا مخاطبا بها النبى صلى الله عليه وسلم ، منها :

يا نبى الهدى أتاك رجالا   قطعت فدفدا وآلافا آلا
تتقى وقع شر يوم عبوس   أوجل القلب ذكره ثم هالا

الفدفد : المفازة ، والآل : ما يرفع الشخوص فى أول النهار وفى آخره ، وقيل السراب .

قيل وكانوا ستة عشر ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام ، فقال : يا محمد إنى

كنت على دين وإنى تارك دينى لدينك فتضمن لى ذنبى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم نعم أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير لك منه ، فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم ، فقال : والله ما عندى ما أحملكم عليه ، فقال يارسول الله يحال بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال المسلمين أى من الإبل والبقر مما يحمى نفسه أفنتبلغ عليها : أى نركبها إلى بلادنا . قال : لا ، إياك وإياها ؛ فإنما تلك حرق النار أى لهبها كذا فى الأصل .

وفى السيرة الهشامية أن الجارود إنما وفد مع حلف له يقال له سامة بن عياض الأزدى وأن الجارود قال لسلمة : إن خارجا خرج بتهامة يزعم أنه نبى ، فهل لك أن تخرج إليه ، فإن رأينا خيرا دخلنا فيه ، وأنا أرجو أن يكون هو النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، لكن يضمر كل واحد منا له ثلاث مسائل يسأله عنها لا يخبر بها صاحبه ، فلعمرى إنه إن أخبرنا بها إنه لنبى يوحى إليه ، فلما قدما عليه صلى الله عليه وسلم قال له الجارود : بم بعثك به ربك يا محمد ؟ قال : بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله ، والبراءة من كل ند أو دين يعبد من دون الله ، وباقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا بغير إلحاد (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) قال الجارود : يا محمد إن كنت نبيا فأخبرنا عما أضمرنا عليه ، فخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة كأنها سنة ثم رفع رأسه الشريف والعرق يتحدر عنه ، فقال : أما أنت يا جارود ، فإنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة . ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مردود ، ولا حلف فى الإسلام . ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ، فإنها تغدو برفده وتروح بمثله . وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت على أن تسألنى عن عبادة الأوثان ، وعن يوم السباسب ، وعن عقل الهجين . فأما عبادة الأوثان فإن الله تعالى يقول (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وأما يوم السباسب فقد أعقبه الله ليلة خيرا من ألف شهر ، فاطلبوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها ، تطلع الشمس فى صبيحتها لاشعاع لها . وأما عقل الهجين ، فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم ، يجير أقصاهم على أدناهم ؛ أكرمهم عند الله أتقاهم ، فقالا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله انتهى .

وذكر فى السيرة الهشامية فى وفد عبد القيس أنه كان قبل فتح مكة ، وذكر ما حاصله « أنه صلى الله عليه وسلم بينما هو يحدّث أصحابه ، إذ قال لهم : سيطلع عليكم من ههنا ركب هم خير أهل المشرق » وفى رواية « ليستبين ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا » أى أهزلوا « الركائب ، وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس ، فقام عمر رضى الله تعالى عنه ، فتوجه نحو مقدمهم ، فلقى ثلاثة عشر راكبا ، وقيل كانوا عشرين راكبا ، وقيل كانوا أربعين رجلا ، فقال : من القوم ؟ قالوا : من بنى عبد القيس ؟ فقال : أما إن النبى صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفا ، فقال خيرا ، ثم مشى معهم حتى أتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للقوم : هذا صاحبكم الذى تريدون ، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد بثياب سفرهم ، وتبادروا يقبلون يده صلى الله عليه وسلم ورجله ، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج ، وهو رأسهم ، وكان أصغرهم سنا ، فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع ، وذلك بمرأى من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخرج ثوبين أبيضين لبسهما ، ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها ، وكان رجلا دميما ففطن لنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمامته ، فقال : يا رسول الله إنه لا يستقى أى يشرب فى مسوك : أى جلود الرجال ، وإنما يحتاج الرجل من أصغريه لسانه وقلبه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة ، فقال : يا رسول الله أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما ؟ قال : لا ، بل الله تعالى جبلك عليهما ، فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ورسوله صلى الله عليه وسلم » والأناة على وزن قناة : التؤدة . وقد جاء « التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة » .

وفى رواية « أنهم لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من القوم ؟ قالوا : من ربيعة » أى وهو المراد بما فى بعض الروايات ربيعة ، فإنه من التعبير عن البعض بالكل .

وفى البخارى فى الصلاة « إن هذا الحى من ربيعة » أى إن هذا الحى حى من ربيعة وهو فى الأصل اسم لمنزل القبيلة ، سميت به القبيلة ، لأن بعضهم يحيا ببعض ، قال « خير ربيعة عبد القيس ، مرحبا بالقوم » أى صادفتم رحبا بضم الراء : أى سعة . وأول من قال مرحبا سيف بن ذى يزن ، وقد تكررت هذه الكلمة منه صلى الله عليه وسلم ، قالها

لابنة عمه أم هانئ رضى الله تعالى عنها . وقال لعكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه « مرحبا بالراكب المهاجر » وقال لابنته فاطمة رضى الله تعالى عنها « مرحبا بابنتى » وقال لشخص دخل عليه « مرحبا ، وعليك السلام » .

ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم « غير خزايا ، ولا ندامى » أى حالة كونكم سالمين من الخزى ومن الندم . وفى لفظ « مرحبا بالوفد الذين جاءوا غير خزايا ولاندامى ، أنا حجيج من ظلم عبد القيس ، فقالوا : يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة » أى من سفر بعيد ؛ لأن مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق . وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لانصل إليك إلا فى شهر حرام » أى وفى لفظ « إلا فى هذا الشهر الحرام » وهو كمسجد الجامع (ونساء مؤمنات) وهو شهر رجب للتصريح به فى بعض الروايات .

وقال بعضهم : وفى هذا دليل على أن الأعمال الصالحة تدخل الجنة إذاقبلت،وقبولها يقع برحمة الله ، لأن مضر كانت تبالغ فى تعظيم شهر رجب زيادة على بقية الأشهر الحرم ومن ثم قيل رجب مضر « فأمرنا بأمر فصل » أى فاصل بين الحق والباطل « فقال : آمركم بأربع » أى بخصال أربع أو جمل أربع .

ففى بعض الروايات « قالوا حدثنا بجمل من الأمر ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله ، أتدرون ما الإيمان بالله : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله» أى وفيه أن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمة الشهادة .

ووقع فى البخارى فى الزكاة زيادة واو قبل شهادة وهى زيادة شاذة لم يتابع عليها راويها « وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس » أى لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر ، وهذا زائد على الأربع ، ومن ثم قال بعضهم هو معطوف على قوله بأربع : أى آمركم بأربع وبأن تعطوا ، ومن ثم غاير فى الأسلوب ؛

وفى مسلم « آمركم بأربع : اعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، وأعطوا الخمس من الغنائم » ولم يذكر الحج ، لأنه لم يكن فرض على الصحيح كما قال الحافظ الدمياطى رحمه الله ، وهو بناء على الأصح أنه فرض سنة ست . وقول الواقدى إن قدوم وفد عبد القيس كان فى سنة ثمان ليس بصحيح ، لكن ذكر بعضهم أن لعبد القيس وفدتين ، واحدة كانت قبل فرض الحج ، وواحدة

بعده . ومن ثم جاء ذكر الحج فى مسند الإمام أحمد ، وهو « وأن تحجوا البيت » وإنه لم يتعرض فى هذه الرواية لعدد : أى لقوله أربع ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لهم « وأنهاكم عن أربع ، عن الدبا » أى القرع : أى عما ينبذ فيها « والحنتم » وهو جرار مدهونة بدهان أخضر : أى عما ينبذ فيها : أى وقيل الحنتم جرار كانت تعمل من طين وشعر وأدم « والنقير » أصل النخلة ينقر وينبذ فيه التمر ، أى ما ينبذ فى ذلك « والمزفت » ما طلى بالزفت أى عما ينبذ فيه . وفى رواية زيادة على ذلك « والقير » ماطلى بالقار ، وهو نبت يحرق إذا يبس وتطلى به السفن كما تطلى بالزفت ، زاد فى رواية « وأخبروا بهن من وراءكم » أى من جئتم من عندهم ، ومن يحدث من الأولاد « قالوا : فيم نشرب يا رسول الله ؟ قال : فى أسقية الأدم » أى الجلود التى يلاث : أى يربط على أفواهها « قالوا : يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان » أى الفيران : أى لاتبقى فيها أسقية الأدم ، قال « وإن أكلها الجرذان ، قال ذلك مرتين أو ثلاثا » فقال له الأشج « يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة ، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا ، فرخص لنا فى مثل هذه ، فأومأ صلى الله عليه وسلم بكفيه وقال له : يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه شربته فى مثل هذه وفرج بين يديه وبسطها » يعنى أعظم منها « حتى إذا ثمل » ، أى سكر « أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف ، وكان ٭ القوم رجل وقع له ذلك » أى وهو جهم بن قثم ، قال : لما سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت أسدل ثوبى لأغطى الضربة وقد أبداها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، أى وفى كلام السهيلى « فعجبوا من علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وإشارته إلى ذلك الرجل هذا كلامه .

أى وفى رواية « أنهم سألوه عن النبيذ ، فقالوا : يا رسول الله إن أرضنا أرض وخمة لايصلحها إلا النبيذ ، قال : فلا تشربوا فى النقير ، فكأنى بكم إذا شربتم فى النقير قام بعضكم إلى بعض بالسيوف ، فضرب رجلا منكم ضربة لايزال يعرج منها إلى يوم القيامة فضحكوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : مايضحككم ؟ قالوا : ولقد شربنا فى النقير فقام بعضنا إلى بعض بالسيوف فضرب هذا ضربه بالسيف فهو أعرج كما ترى ، ثم ذكر لهم صلى الله عليه وسلم أنواع تمر بلدهم ، فقال : لكم تمرة تدعونها كذا وتمرة تدعونها كذا ، فقال له رجل من القوم : بأبى أنت وأمى يارسول الله لو كنت ولدت فى جوف هجر ماكنت بأعلم منك الساعة ، أشهد أنك رسول الله ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن أرضكم رفعت إلىّ منذ قعدتم ، أى فنظرت من أدناها إلى أقصاها وقال لهم : خير تمركم البرنى ، يذهب بالداء ولاداء معه » أى وإنما اقتصر صلى الله عليه وسلم فى المناهى على شرب الأنبذة فى الأوعية المذكورة مع أن فى المناهى ما هو أشد فى التحريم لكثرة تعاطيهم لها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ومعنى النهى عن الانتباذ فى هذه الأوعية بخصوصها أنه يسرع فيها الإسكار ، فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك .

وكان فى عبد القيس أبو الوازع بن عامر وابن أخته مطر بن هلال ، ولما ذكروا للنبى صلى الله عليه وسلم أنه ابن أختهم قال « ابن أخت القوم منهم » وكان فيهم ابن أخى الوازع وكان شيخا كبيرا مجنونا جاء به الوازع معه ليدعو له صلى الله عليه وسلم ، فمسح ظهره ودعا له ، فبرأ لحينه وكسى شبابا وجمالا حتى كأن وجهه وجه العذراء .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم زودهم الأراك يستاكون به وذكر أنه كان فيهم غلام ظاهر الوضاءة فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم خلف ظهره ، وقال : إنما كان خطيئة داود عليه الصلاة والسلام النظر » .

ومنها وفد بنى حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب ، قيل جاء بنو حنيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم مسيلمة الكذاب ، يسترونه بالثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى أصحابه رضى الله تعالى عنهم معه عسيب من عسب النخل فى رأسه خويصات ، فلما انتهى مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يسترونه بالثياب ، كلمه وسأله أن يشركه معه فى النبوة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه .

وقيل إن بنى حنيفة جعلوه فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : يارسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا فأمر له صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لواحد من القوم ، وهو خمس أواق من فضة ، وقال : أما إنه ليس بشركم مكانا ، فلما رجعوا إليه أخبروه بما قال عنه ، فقال : إنما قال ذلك لأنه عرف أن لى الأمر من بعده ، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وكذب ، وادعى أنه أشرك معه صلى الله عليه وسلم فى النبوة وقال لمن وفد معه : ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له : أما إنه ليس بشركم مكانا

ماذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر . أى وهو صلى الله عليه وسلم إنما أراد بذلك أنه حفظ ضيعة أصحابه ، هذا .

وفى الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم أقبل ومعه ثابت بن قيس بن شماس رضى الله تعالى عنه وفى يد النبى صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال : إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم بلغه عنه أنه قال : إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته « وإنى لأراك الذى منه رأيت » وهذا قيس يجيبك عنى ثم انصرف » .

والذى رآه منه صلى الله عليه وسلم أنه رأى فى المنام أن فى يده سوارين من ذهب قال : فأهمنى شأنهما فأوحى الله إلىّ فى المنام : أن انفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى : أى وهما طليحة العبسى صاحب صنعاء ، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة » فإن كلا منهما ادعى النبوة فى حياته صلى الله عليه وسلم . وكان طليحة العبسى يقول : إن ملكا كان يقال له ذو النون يأتينى كما يأتى جبريل محمدا ، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : لقد ذكر ملكا عظيما فى السماء يقال له ذو النون . وجمع بعضهم بين هذا الذى فى الصحيحين وماهنا بأنه يجوز أن يكون مسيلمة قدم مرتين : الأولى كان تابعا ومن ثم كان فى حفظ الرحال ، والثانية كان متبوعا ولم يحضر أنفة منه واستكبارا ، وعامله صلى الله عليه وسلم معاملة الإكرام على عادته صلى الله عليه وسلم فى الاستئلاف فأتى إلى قومه وهو فيهم. كذا قيل .

ولا يخفى أن قوله ولم يحضر يقتضى أنه لم يجئ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المرتين ، وتقدم أنه جاء إليه صلى الله عليه وسلم وهم يسترونه بالثياب ، وهذا : أى ستره بالثياب هو المناسب لكونه متبوعا ثم صار مسيلمة لعنه الله يتكلم بالهذيان يضاهى به القرآن . فمن ذلك قوله قبحه الله : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمه تسعى من بين شغاف وحشا ، وقال : والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . والخابزات خبزا . والثاردات ثردا . واللاقمات لقما . ووضع عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا . وقيل إنه لعنه الله طلب منه أن يتفل فى بئر تبركا ففعل فملح ماؤها . ومسح رأس صبى فصار أقرع قرعا فاحشا . ودعا لرجل فى بنين له بالبركة فيهما ، فرجع الرجل إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط فى بئر والآخر أكله الذئب . ومسح على عينى رجل للاستشفاء بمسحه فابيضت عيناه ، فعل ذلك مضاهاة للنبى صلى الله عليه وسلم . وهذا السياق يرشد إلى أنه كان برأس ذلك الصبى قرع يسير

فمسح عليه للاستشفاء ، ثم أظهر معجزة بزعمه . وهو أنه أدخل بيضة فى قارورة وافتضح بأن البيضة بنت يومها إذا ألقيت فى الخل والنوشادر يوما وليلة فإنها تمتد كالخيط . فتجعل فى القارورة ويصب عليها ماء فتجمد ، وبهذا يرد على من رثاه من بنى حنيفة بقوله :

لهفى عليك أبا ثمامه ... كم آية لك فيهمو ... كالشمس تطلع من غمامه

فيقال له : كذبت ، بل كانت آياته معكوسة .

قال : وكتب مسيلمة قبحه الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم كتابا فقال : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد — فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأمر ، وليس قريش قوما يعدلون ، وبعث رجلين . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى . أما بعد — فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال للرجلين : وإنما تقولان مثل مايقول ؟ قالا نعم ، قال : أما والله لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما انتهى .

ومنها وفد طيء ، وفيهم زيد الخيل رضى الله تعالى عنه . وفد عليه صلى الله عليه وسلم ، وفيهم قبيصة بن الأسود ، وسيدهم زيد الخيل . قيل له ذلك ، لخمسة أفراس كانت له : أى ولو كان وجه التسمية يلزم اطراده لقيل للزبرقان بن بدر زبرقان الخيل .

فقد قيل : إنه وفد على عبد الملك بن مروان وقاد إليه خمسة وعشرين فرسا ، ونسب كل واحدة من تلك الأفراس إلى آبائها وأمهاتها ، وحلف على كل فرس يمينا غير اليمين التى حلف بها على غيرها ، فقال عبد الملك : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبى من معرفته بأنساب الخيل .

وكان زيد الخيل شاعرا خطيبا بليغا جوادا ، فعرض عليهم صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم . وقال صلى الله عليه وسلم فى حق زيد الخيل « ماذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ماقيل فيه إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ أى ماقيل فيه كل مافيه » وسماه صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال له وهو لايعرفه : « الحمد لله الذى أتى بك من سهلك وحزنك ، وسهل قلبك للإيمان ، ثم قبض صلى الله عليه وسلم على يده ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، أشهد أن لاإله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، فقال له صلى الله عليه وسلم : بل أنت زيد

الخير ، ثم قال : يازيد ماأخبرت عن رجل قط شيئا إلا رأيته دون ماأخبرت عنه غيرك ؛ أى وأجاز صلى الله عليه وسلم كل واحد منهم خمس أواق ، وأعطى زيد الخيل اثنتى عشرة أوقية ونشا : أى وأقطعه محلين من أرضه ، وكتب له بذلك كتابا ، ولما خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها إلى قومه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ينجو زيد من الحمى » أى ماينجو منها ، فنى أثناء الطريق أصابته الحمى ، أى وفى لفظ أنه صلى الله عليه وسلم قال له : يازيد تقتلك أم ملدم يعنى الحمى .

وفى رواية أن زيد الخيل لما قام من عنده صلى الله عليه وسلم وتوجه إلى بلاده ، قال صلى الله عليه وسلم : « أى فتى إن لم تدركه أم كلبة » يعنى الحمى ، والكلبة الرعدة .

وفى رواية « ماقدم علىّ رجل من العرب يفضله قومه إلا رأيته دون مايقال فيه إلا ماكان من زيد ، فإن ينج زيد من حمى المدينة فلأمر ماهو » .

قال : ولما مات أقام قبيصة بن الأسود الناحة عليه سنة ، ثم وجه براحلته ورحله . وفيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أقطعه فيه محلين بأرضه ، فلما رأت امرأته الراحلة ضرمتها بالنار ، فاحترقت واحترق الكتاب انتهى .

وفى كلام السهيلى : وكتب له كتابا على ماأراد وأطعمه قرى كثيرة منها فدك ، هذا كلامه . وقيل بقى إلى خلافة عمر رضى الله عنهما .

ومنها وفود عدى بن حاتم الطائى . حدث عدىّ رضى الله عنه قال : كنت امرأ شريفا فى قومى ، آخذ المرباع من الغنائم كما هو عادة سادات العرب فى الجاهلية : أى وهو ربع الغنيمة كما تقدم ، فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته ، مامن رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به منى ، فقلت لغلام كان راعيا لإبلى : لاأبا لك اعزل من إبلى أجمالا ذللا سمانا ، فاحتبسها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنى ففعل ، ثم إنه أتانى ذات يوم ، فقال ياعدىّ ماكنت صانعا إذا غشيتك محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت له قرب لى أجمالى ، فقرّبها فاحتملت أهلى وولدى ، والتحقت بأهل دينى من النصارى بالشام ، وخلفت بنتا لحاتم فى الحاضر ، فأصيبت فيمن أصيب : أى سبيت فيمن أصيب من الحاضر ، فلما قدمت فى السبايا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربى إلى الشام منّ عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكساها ، وحملها ، وأعطاها نفقة ، وخرجت إلى أن قدمت علىّ الشام ، فوالله إنى لقاعد فى أهلى ، إذ نظرت إلى ظعينة تؤمنا ، فقلت : ابنة حاتم ، فإذا هى هى . فلماوقعت علىّ قالت : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وقطعت بقية والديك وعورتك ، فقلت: أى أخية ، لاتقولى إلا خيرا فوالله مالى من عذر ، ولقد صنعت ماذكرت ، ثم نزلت وأقامت عندى . فقلت لها وكانت امرأة حازمة : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فأنت أنت . فقلت والله إن هذا للرأى ، أى ولعلها لم تظهر له إسلامها لئلا ينفر طبعه من قولها له إن يكن نبيا أى على الفرض والتنزل تحريضا له على اللحوق به صلى الله عليه وسلم ، فخرجت حتى جئته صلى الله عليه وسلم بالمدينة فدخلت عليه . فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لقائدنى إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته صلى الله عليه وسلم فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . فقلت ماهو بملك ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من أدم محشوة ليفا فقدمها إلىّ وقال : اجلس على هذه . فقلت بل أنت فاجلس عليها ، قال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض . فقلت والله ماهذا بأمر ملك ، ثم قال لى مامعناه : ياعدى بن حاتم أسلم تسلم قالها ثلاثا . فقلت : إنى على دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بدينى ؟ قال نعم ألست من الركوسية : ألست من القوم الذين لهم دين ؟ لأنه تقدم أنه كان نصرانيا . فقلت بلى ، فقال : ألم تكن تسير فى قومك بالمرباع ، أى تأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة ؟ قلت بلى . قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . فقلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبى مرسل يعلم مايجهل ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لعلك ياعدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ماترى ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لاقوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لايوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالله ، وفى لفظ : فوالذى نفسى بيده ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد .

وفى رواية : ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية : أى وهى قرية بينها وبين

الكوفة نحو مرحلتين — على بعيرها حتى تزور البيت ، أى الكعبة لاتخاف — ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج بالبيت وايم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لايوجد من يأخذه .

ومنها وفود فروة بن مسيك المرادى ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فروة مفارقا لملوك كندة ، وكان بين قومه مراد وبين همدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا فى يوم يقال الردم ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم . فقال : يارسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم ولا يسوءه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا ، واستعمله صلى الله عليه وسلم على مراد وزبيد ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصى على الصدقة فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فروة عند توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نسائها
فركبت راحلتى أؤم محمدا أرجو فواضلها وحسن ثوابها

ومنها وفد بنى زبيد بضم الزاى وفتح الموحدة . وفد بنو زبيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان فارس العرب مشهورا بالشجاعة ، شاعرا مجيدا ، قال لابن أخيه قيس المرادى : إنك سيد قومك وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبى فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه ، فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه . فركب عمرو رضى الله عنه حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه فأسلم ، فلما بلغ ذلك قيسا قال خالفنى وترك أمرى ورأيى ، وتوعد عمرا . فقال عمرو فى قيس أبياتا منها :

فمن ذا عاذرى من ذى سفاه يريد بنفسه شد المزاد
أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مرادى

أى وبعد موته صلى الله عليه وسلم ارتد عمرو هذا مع الأسود العبسى ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وشهد فتوحات كثيرة أيام الصديق وأيام عمر رضى الله عنهما .

وعن ابن إسحاق : قيل إن عمرو بن معد يكرب لم يأت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسلم قيس بعد ذلك ، قيل له صحبة ، وقيل لا .

ومنها وفد كندة ، أى وله صلى الله عليه وسلم جدّة منهم ، وهى أمّ جدّه كلاب . وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون ، أى وقيل ستون من كندة فيهم الأشعث بن قيس ، وكان وجيها مطاعا فى قومه ، وفى الإمتاع وهو أصغرهم . فلما أرادوا الدخول عليه صلى الله عليه وسلم رجلوا : أى سرحوا جممهم . أى شعور رءوسهم ، أى الساقطة على مناكبهم ، وتكحلوا ، ولبسوا عليهم جبب الحبرة أى بوزن عنبة : برود اليمن المخططة ، قد كففوها : أى سجفوها بالحرير . فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وعند ذلك قالوا : أبيت اللعن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست ملكا أنا محمد بن عبد الله . قالوا : لا نسميك باسمك ، قال : أنا أبو القاسم . فقالوا : يا أبا القاسم إنا خبأنا لك خبئا فما هو ؟ وكانوا خبئوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عين جرادة فى ظرف سمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله ، إنما يفعل ذلك بالكاهن ، وإن الكاهن والكهانة والمتكهن فى النار . فقالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من حصباء فقال : هذا يشهد أنى رسول الله ، فسبح الحصى فى يده ، فقالوا نشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى بالحق وأنزل علىّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقالوا أسمعنا منه ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والصافات صفا) حتى بلغ (رب المشارق والمغارب) ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكن بحيث لا يتحرك منه شىء ودموعه تجرى على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكى ، أفمن مخافة من أرسلك تبكى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن خشيتى منه أبكتنى ، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) الآية ، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى ، قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم . فعند ذلك شقوه منها وألقوه .

وفيه أن هذا يخالف ما قاله فقهاؤنا معاشر الشافعية من جواز التسجيف بالحرير ، إلا

أن يقال الجواز مخصوص ، بأن لا يجاوز الحد اللائق بالشخص ، ولعل سجفهم جاوزت الحد اللائق بهم وقد قال الأشعث له صلى الله عليه وسلم : نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار ، يعنى جدته أم كلاب ، فقد تقدم أنها من كندة ، وقيل إنما قال ذلك الأشعث ، لأن عمه العباس بن عبد المطلب كان إذا دخل حيا من أحياء العرب ، لأنه كما تقدم كان تاجرا ، فإذا سئل من أين ؟ قال : أنا ابن آكل المرار ليعظم ، يعنى انتسب إلى كندة ، لأن كندة كانوا ملوكا فاعتقدت كندة أن قريشا منهم لقول العباس المذكور ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفى من آبائنا : أى لا ننتسب إلى الأمهات ونترك النسب إلى الآباء .

والأشعث هذا ممن ارتد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا إلى الإسلام فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أى فإنه حوصر ، ثم جيء به أسيرا ، فقال للصديق حين أراد قتله : استبقنى لحروبك وزوّجنى أختك ، فزوجه أخته أم فروة فدخل سوق الإبل بالمدينة واخترط سيفه ، فجعل لا يرى جملا إلا عرقبه ، فصاح الناس : كفر الأشعث ، فلما فرغ طرح سيفه وقال : والله ما كفرت إلا أن الرجل يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه زوجنى أخته ، ولو كنا ببلادنا لكانت لنا وليمة غير هذه وقال : يا أهل المدينة انحروا وكلوا ، وأعطى أصحاب الإبل أثمانها ، قال : وقال صلى الله عليه وسلم للأشعث « هل لك من ولد ؟ فقال : لى غلام ولد لى عند مخرجى إليك اوددت أن لى به لسبعة ، فقال : إنهم لمجبنة مبخلة محزنة ، وإنهم لقرة العين ، وثمرة الفؤاد » انتهى .

ومنها وفد أزد شنوءة . وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدى أى وكان أفضلهم ، فأمره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ، فخرج حتى نزل بجرش بضم الجيم وفتح الراء وبالشين المعجمة وهى مدينة بها قبائل من قبائل اليمن وحاصرها المسلمون قريبا من شهر ثم رجعوا عنها ، حتى إذا كانوا بجبل يقال له شكر بالشين المعجمة والكاف المفتوحتين ، وقيل باسكان الكاف ، فلما وصلوا ذلك المحل ظن أهل جرش أن المسلمين رضى الله تعالى عنهم إنما رجعوا عنهم منهزمين ، فخرجوا فى طلبهم حتى إذا أدركوهم عطفوا عليهم فقتلوهم قتلا شديدا .

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة

يرتادان : أي ينظران الأخبار ، فبينما هما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بأي بلاد الله شكر ؟ فقام إليه رجلان فقالا : يارسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر ، فقال إنه ليس بكشر ولكنه شكر ، قالا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال إن بدن الله لتنحر عنده الآن ، وأخبرهما الخبر ، فخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى قومهما فوجدا قومهما قد أصيبوا في اليوم والساعة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقال ، وعند إخبارهما لقومهما بذلك وفد وفد جرش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرحبا بكم أحسن الناس وجوها ، وأصدقه لقاء ، وأطيبه كلاما ، وأعظمه أمانة ، أنتم مني وأنا منكم ، وحمى لهم حمى حول بلدهم .

ومنها وفد رسول ملوك حمير ، وحامل كتابهم إليه صلى الله عليه وسلم ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إليه صلى الله عليه وسلم بإسلام الحارث بن عبد كلال بضم الكاف .

وقد اختلف في كون الحارث له وفادة فهو صحابي أولا ، والنعمان ومعافر بالفاء مكسورة وهمدان ، أي باسكان الميم وفتح الدال المهملة وهي قبيلة .

وأما همذان بفتح الميم والذال المعجمة فقبيلة بالعجم ، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال وإلى النعمان ومعافر وهمدان ، أما بعد : فاني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم : أي رجوعنا من غزوة تبوك ، فلقيناه بالمدينة فبلغ ماأرسلتم به وخبر ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفيه ، وماكتب على المؤمنين من الصدقة . أما بعد : فإن محمدا النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن . وفي الاستيعاب : زرعة بن سيف ذي يزن . وفي كلام الذهبي : زرعة بن سيف ذي يزن أن : إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة بن نمر ، ومالك ابن مرارة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم بالخاء المعجمة

جمع مخلاف ، وأبلغوها رسلي ، وأن أميرهم معاذ بن جبل ، فلاينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله .

ثم إن مالك بن كعب بن مرارة قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين : فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ، ولا تخونوا ، ولا تخاذلوا بضم التاء المثناة الفوقية وكسر الذال . ويجوز أن يكون بفتح المثناة وفتح الدال محذوف إحدى التاءين ، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وإن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ومنها وفد رسول فروة بن عمرو الجذامى : وفد رسول فروة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بإسلامه : وأهدى له صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء : أى يقال لها فضة وحمارا يقال له يعفور وفرسا يقال له الظرب وثيابا وقباء مرصعا بالذهب :

وكان فروة رضى الله تعالى عنه عاملا للروم على ما يليهم من العرب ، فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه وحبسوه ، ثم ضربوا عنقه وصلبوه أى بعد أن قال له الملك ارجع عن دين محمد ونحن نعيدك إلى ملكك قال : لا أفارق دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنك تعلم أن عيسى عليه الصلاة السلام بشر به ، ولكنك تضن بملكك .

ومنها وفد بنى الحارث بن كعب . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، وقال له: إن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد رضى الله تعالى عنه حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلموا ، فقام فيهم خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنهم يعلمهم الإسلام ، أى شرائعه ، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل ويقبل معه وفدهم . فأقبل رضى الله تعالى عنه ومعه وفدهم . وفيهم قيس بن الحصين ذو الغصة بالغين المعجمة . أى لأنه كان فى حلقه غصة لايكاد يبين الكلام منها . وهى صفة لأبيه الحصين . وربما وصف بها قيس . قال فى النور : ويحتمل أن يقال له ذو الغصة وابن ذى الغصة لأنه وأباه كانت بهما الغصة وفيه بعد .

وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم : بما كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم . قال صدقتم . وأمر عليهم صلى الله عليه وسلم زيد بن الحصين ، ولم يمكثوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها أنه وفد عليه صلى الله عليه وسلم رفاعة بن زيد الخزاعى . وفد رفاعه بن زيد الخزاعى بالخاء المعجمة والزاى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما فأسلم وحسن إسلامه ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا إلى قومه «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد إنى بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ، فمن أقبل منهم ففى حزب الله وحزب رسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » فلما قدم رفاعة رضى الله تعالى عنه على قومه أجابوا وأسلموا .

ومنها وفد همدان . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من همدان فيهم مالك ابن نمط وكان شاعرا مجيدا ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك ؛ عليهم مقطعات من الحبرات بكسر الحاء المهملة : ثياب قصار . وقيل مخططة من برود اليمن . والعمائم العدنية نسبة إلى عدن مدينة باليمن ؛ سميت بذلك لأن تبعا كان يحبس فيها أرباب الجرائم . وفدوا إليه صلى الله عليه وسلم على الرواحل المهرية والأرحبية . والمهرية : نسبة إلى قبيلة يقال لها مهرة باليمن والأرحبية : نسبة إلى أرحب وصار مالك بن نمط يرتجز : أى يقول الرجز بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

إليك جاوزنا سواد الريف ... فى هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال الليف

ومن شعره :

حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد

بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وقد أمره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره بقتال ثقيف ، فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه كذا فى الأصل .

وفى الهدى : روى البيهقى باسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد

ابن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى من ذكر يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه . ثم إنه صلى الله عليه وسلم بعث عليا كرم الله وجهه وأمر خالدا بالرجوع إليه وأن من كان مع خالد إن شاء بقى مع علىّ وإن شاء رجع مع خالد ، فلما دنا من القوم خرجوا إليه ، فصف على كرم الله وجهه أصحابه صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيديهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا جميعا ، وكتب بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه ، ثم قال : السلام على همدان ، السلام على همدان ، وهذا أصح ، لأن همدان لم تكن تقاتل ثقيفاً ، فإن همدان باليمن وثقيفاً بالطائف .

أى وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : نعم الحى همدان ، ماأسرعها إلى النصر ، وأصبرها على الجهد . وفيهم أبدال وفيهم أوتاد .

ومنها وفد تجيب أى بضم المثناة فوق وتحتية ويجوز الفتح ، وهى قبيلة من كندة . وفد على رسول الله صلى الله عليه و سلم وفد تجيب وقد كانوا ثلاثة عشر رجلا ، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم ، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم مثواهم . وقالوا : يارسول الله إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوها فاقسموها على فقرائكم ، قالوا : يارسول الله ماقدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا ، أى وفضل بفتح الضاد وكسرها ، قال أبو بكر : يارسول الله ماقدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان ؛ وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن ، فازداد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم رغبة ، وأرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل له مايعجلكم ؟ قالوا : نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاقينا إياه وما ورد علينا ، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه ، فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا ، قال : فأرسلوه إلينا ، فأرسلوه فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يارسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى ، قال : وما حاجتك ؟ قال : تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، ويجعل غناى فى قلبى ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه ، ثم أمر له صلى الله عليه وسلم بمثل ماأمر به لرجل من أصحابه .

ثم إنهم بعد ذلك وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فى الموسم إلا ذلك الغلام، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مافعل الغلام الذى أتانى معكم ؟ قالوا : يارسول الله ، مارأينا مثله قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لولا أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها فقال رسول اللهصلى الله عليهوسلم: الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعا ، فقال رجل منهم ، أو ليس يموت الرجل جميعا يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل الأجل يدركهفى بعض تلك الأودية فلا يبال الله عز وجل فى أيها هلك .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام ذلك الغلام فى قومه فذكرهم الله والإسلام ، فلم يرجع منهم أحد ، وجعل أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يذكر ذلك الغلام ويسأل عنه ، ولما بلغه ماقام به كتب إلى زياد بن الوليد أى وكان واليا على حضرموت يوصيه به خيرا .

ومنها وفد بنى ثعلبة . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من الجعرانة أربعة نفر من بنى ثعلبة : أى مقرين بالإسلام ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماء . قال بعضهم : فرمى ببصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم الصلاة ، فسلمنا عليه وقلنا يارسول الله إنارسل منخلفنا من قومنا ، ونحن مقرونبالإسلام. وقد قيل لنا إن رسول الله صلىالله عليه وسلم يقول: لاإسلام لمن لاهجرة له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم ، أى ثم صلى رسول الله صلىالله عليه وسلم بنا الظهر ثم انصرف إلى بيته فلم يلبث أن خرج إلينا فدعا بنا ، فقال : كيف بلادكم ؟ فقلنا مخصبون ، فقال : الحمد الله ، فأقمنا أياما وضيافته صلى الله عليه وسلم تجرى علينا، ثم لما جاءوا يودعونه صلى الله عليه وسلم قال لبلال أجزهم ، فأعط كل واحد منهم خمس أواق فضة أى والأوقية أربعون درهما .

ومنها وفد بنى سعد هذيم من قضاعة . عن النعمان رضى الله تعالى عنه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدا فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد : أى جعلها موطأة قهرا وغلبة ، وأزاح العرب : أى استولى عليها ،

والناس صنفان إما داخل فى الإسلام راغب فيه ، وإما خائف السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه ، فنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على جنازة فى المسجد ، أى وهو سهيل بن البيضاء ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يصل فى مسجده على جنازة إلا عليه رضى الله تعالى عنه . وما وقع له فى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم صلى فيه على سهيل وأخيه نظر فيه مع أن فقهاءنا ذكروه وأقروه ، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم . وقلنا حتى يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبايعه .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلينا ، فدعا بنا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا : من بنى سعد هذيم ، فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا : نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا : يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما أسلمتم فأنتم مسلمون قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدينا على الإسلام ، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبنا ، فأتى بنا إليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه صلى الله عليه وسلم على الإسلام . فقلنا : يارسول الله إنه أصغرنا ، وإنه خادمنا فقال صلى الله عليه وسلم « سيد القوم خادمهم ، بارك الله عليه » قال النعمان رضى الله تعالى عنه : فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فكان يؤمنا فلما أردنا الانصراف أمر صلى الله عليه وسلم بلالا فأجازنا بأواق من فضة ، لكل رجل منا ، فرجعنا إلى قومنا .

ومنها وفد بنى فزارة . وفد عليه صلى الله عليه وسلم بضعة عشر رجلا من بنى فزارة فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن وابن أخيه الجد بن قيس بن حصن وهو أصغرهم مقرين بالإسلام وهم مسنتون : أى توالى عليهم الجدب على ركائب عجاف : أى هزال ، فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم ؟ فقال رجل منهم : أى وهو خارجة : أسنتت بلادنا ، وهلكت مواشينا ، وأجدب جنابنا : أى ما حولنا وغرثت [ ] أى جاعت عيالنا فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا إلى ربك ، وليشفع لنا ربك إليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله ويلك هذا أنا أشفع إلى ربى عزوجل ، فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه ! لا إله إلا هو العلى العظيم ، وسع كرسيه : أى علمه ، كذا قيل . وقيل موضع قدميه السموات والأرض : أى أحاط بالسموات والأرض ، وهو دون العرش

كما جاءت به الآثار ، فهى تئط : أى تصوت من عظمته وجلاله كما يئط الرحل بالحاء المهملة » الحديث : أى من ثقل الحمل .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليضحك من شغفكم وأزلكم : أى شدة ضيقكم وجدبكم ، وقرب غياثكم ، فقال الأعرابى : لن نعدم من رب يضحك خيرا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، وصعد صلى الله عليه وسلم المنبر فتكلم بكلمات ، وكان لا يرفع يديه : أى الرفع البالغ فى شىء من الدعاء إلا فى الاستسقاء ، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه حتى رؤى بياض إبطيه . أى وفى النور : وقد جوزت وجها وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان يرفع يديه فى الاستسقاء يعنى ظهور كفيه إلى السماء كما فى مسلم ، أى فيكون التقدير : لا يرفع ظهور كفيه إلى السماء إلا فى الاستسقاء .

وأقول : فيه أن هذا يقتضى أنه يفعل ذلك ، وإن كان استسقاؤه لطلب حصول شىء كما فى دعائه صلى الله عليه وسلم فى هذا الاستسقاء فإنه متضمن للحصول .

وقد ذكر فى النور أن ما كان الدعاء فيه لطلب شىء كان ببطون الكفين إلى السماء .

والظاهر أن مستند ذلك استقراء حاله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء فى الاستسقاء وغيره فليتأمل ، والله أعلم .

ومما حفظ من دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم أسق » بقطع الهمزة ووصلها « بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثاً» أى مطراً «مغيثا مربعا» بضم الميم وإسكان الراء ، وبالموحدة مكسورة وبالعين المهملة : مسرعا لإخراج الربيع ، «مرتعا» بالتاء المثناة فوق من رتعت الدابة : إذا أكلت ما شاءت « طبقا » أى مستوعبا للأرض منطبقا عليها ، واسعا « عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار . اللهمّ اسقنا رحمة ، ولا تسقنا عذابا ، ولا هدما ، ولا غرقا ، ولا محقا . اللهمّ أسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء . فقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله التمر فى المرابد ، أى وتكرر ذلك منه صلى الله عليه وسلم ومن أبى لبابة ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أسقنا الغيث حتى يقوم أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده ، أى المحل الذى يخرج منه ماء المطر بازاره فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فوالله ما رأينا الشمس سبتا » أى من السبت إلى السبت الآخر ، وقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه عريانا يسد ثعلب مربده بازاره لئلا يخرج التمر منه .

وفى بعض الروايات « فأمطرت السماء وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم طاف الأنصار بأبي لبابة رضى الله تعالى عنهم يقولون له : يا أبالبابة إن السماء والله لم تقلع حتى تقوم عريانا تسد ثعلب مربدك بازارك كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو لبابة رضى الله تعالى عنه عريانا يسد ثعلب مربده بازاره فأقلعت السماء » وحينئذ يكون قول الراوى لئلا يخرج منه التمر بحسب مافهم ، ويكون قول الصحابة : فوالله ما رأينا الشمس سبتا كان فى قصة غيرها فخلط بعض الرواة : فجاء ذلك الرجل أو غيره . والذى فى الصحيح أنه الرجل الأول .

وذكر بعض الحفاظ « أنه خارجة بن حصن ، فقال: يارسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، فدعا ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه » وهو أى بياض الإبط معدود من خصائصه صلى الله عليه وسلم « ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الإكام » بكسر الهمزة ، جمع أكمة : وهى التل المرتفع « والظراب » بكسر الظاء المشالة جمع ظرب بفتحها : الروابى الصغار « وبطون الأودية ، ومنابت الشجر فانجابت السحابة » أى أقلعت عن المدينة انجياب الثوب .

أقول : لعل هذا المطر كان عاما للمدينة وما حولها حتى وصل إلى محل هؤلاء الوفد ، وإلا فهم إنما طلبوا حصول المطر لمحلهم ، ولا يلزم من وجوده بالمدينة وجوده بمحلهم إلا إذا كان قريبا بالمدينة بحيث إذا وجد المطر بها يوجد بمحلهم غالبا ، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى هذه القصة بقوله :

ودعا للأنام إذ دهمتهم	سنة من محولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا	م عليهم سحابة وطفاء
تتحرى مواضع الرعى والسق	ى وحيث العطاش توهى السقاء
وأتى الناس يشتكون أذاها	ورخاء يؤذى الأنام غلاء
فدعا فانجلى الغمام فقل فى	وصف غيث إقلاعه استسقاء
ثم أثرى الثرى وقرت عيون	بقراها وأحييت إحياء
فترى الأرض عنده كسماء	أشرقت من نجومها الظلماء
يخجل الدر واليواقيت من نو	ر رباها البيضاء والحمراء

ثم رأيت فى الحدائق لابن الجوزى رحمه الله عن أنس رضى الله تعالى قال « أصابت

الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة ، فقام أعرابي فقال : يارسول الله هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله أن يسقينا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما فى السماء قزعة سحاب ، فدار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل صلى الله عليه وسلم عن المنبر حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته الشريفة ، قال : فمطرنا يومنا ذلك . ومن الغد ومن بعد الغد والذى يليه إلى الجمعة الأخرى ؛ فقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال : يارسول الله تهدم البناء ، وغرق المال ، ادع الله لنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال : اللهم حوالينا ولا علينا قال فما جعل يشير بيديه إلى ناحية من السماء إلا انفرجت حتى صارت المدينة فى مثل الجونة حتى سال الوادى شهرا فلم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود .

ثم رأيت بعضهم قال : أحاديث الاستسقاء ثابتة فى الصحيحين . وظاهرها أنه تعدد ؛ فى بعضها أنه وقع وهو فى خطبة الجمعة ، وفى بعضها أنه صعد المنبر حين شكى إليه فخطب ودعا .

وفى بعضها ، أنه خرج إلى المصلى بعد أن وعد الناس يوما يخرج فيه ونصب له منبرا واستسقى وأجيبت دعوته ونزل المطر وجاء إليه صلى الله عليه وسلم أعرابي . وقال له : يارسول الله أتيناك ومالنا بعير يئط ، ولا صغير يغط ، ثم أنشد شعرا يقول فيه :

وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فدعا فسقى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه ، من ينشدنا قوله ؟ فقام على كرم الله وجهه فقال : يارسول الله كأنك تريد قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل الأبيات

فقال صلى الله عليه وسلم أجل » .

وفى رواية « لما جاءه صلى الله عليه وسلم المسلمون : وقالوا : يارسول الله ، قحط المطر ، ويبس الشجر ، وهلكت المواشى وأسنت الناس ، فاستسق لنا ربك ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى أتوا المصلى ، فتقدم صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة وكان يقرأ فى العيدين والاستسقاء فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب : وسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وهل

أتاك حديث الغاشية ، فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه لكى ينقلب القحط إلى الخصب ، ثم جثى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه ورفع يديه وكبر تكبيرة. ثم قال : اللهم اسقنا ، وأغثنا غيثا مغيثا رحيما واسعا وجدا ؛ طبقا مغدقا عاما ، هنيئا مريئا مربعا مرتعا وابلا ، سائلا مسبلا ، مجللا دائما ، دارًا نافعا ، غير ضار ، عاجلا غير واب غيثا . اللهم تحيي به البلاد ، وتغيث به العباد ، وتجعله بلاغا للحاضر منا والباد . اللهم أنزل فى أرضنا زينتها ، وأنزل علينا سكنها . اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهورا ، تحيي به بلدة ميتا واسعة ، مما خلقت أنعاما وأناسى كثيرا ، فما برحوا حتى أقبل قزع من السحاب فالتأم بعضه إلى بعض . ثم أمطرت سبعة أيام لا تقلع عن المدينة ، فأتاه صلى الله عليه وسلم المسلمون فقالوا : قد غرقت الأرض ، وتهدمت البيوت ، وانقطعت السبل ، فادع الله يصرفها عنا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر حتى بدت نواجذه ، تعجبا لسرعة ملالة ابن آدم . ثم رفع يديه ، ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على رءوس الظراب ، ومنبت الشجر ، وبطون الأودية ، وظهور الآكام ، انقشعت عن المدينة ثم قال صلى الله عليه وسلم : لله در أبي طالب لو كان حيا قرت عيناه ، من الذى ينشدنا قوله ؟ فقام على كرم الله وجهه فقال : يارسول الله كأنك أردت قوله فقال الأبيات .

ومنها وفد بنى أسد . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط من بنى أسد ، منهم ضرار بن الأزور ، ووابصة بن معبد وطليحة بن عبد الله الذى ادعى النبوة بعد ذلك ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ومنهم معاذة بن عبد الله بن خلف .

وقد استهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ناقة تكون جيدة للركوب والحلب ، من غير أن يكون لها ولد معها ، فطلبها فلم يجدها إلا عند ابن عم له ، فجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلبها فشرب منها ثم سقاه ، ثم قال : اللهم بارك فيها وفيمن منحها ، فقال : يارسول الله وفيمن جاء بها ، فقال : وفيمن جاء بها . ومنهم حضرمى بن عامر ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد مع أصحابه ، فسلموا عليه ، وقال شخص منهم : يارسول الله صلى الله عليك وسلم ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله ، وجئناك يارسول الله ولم تبعث إلينا بعثا ، ونحن لمن وراءنا .

أى وفى لفظ إن حضرمى بن عامر قال : أتيناك نتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء : أى ذات قحط ولم تبعث إلينا . وفى رواية : يارسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب ، فأنزل

الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم (يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) .

وسألوه صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، من العيافة وهى زجر الطير ، والتخرص على الغيب ، والكهانة ، وهى الإخبار عن الكائنات فى المستقبل ، وضرب الحصباء ، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله خصلة بقيت ، فقال : وما هى ؟ قالوا الخط : أى خط الرمل ومعرفة ما يدل عليه ، قال صلى الله عليه وسلم : علمه نبي ، فمن صادف مثل علمه علم . أى وفى رواية لمسلم : فمن وافق خطه ، أى علم موافق خطه فذاك : أى يباح له وإلا فلا يباح له إلا بتبيين الموافقة .

أى وفى شرح مسلم أن محصل مجموعُ كلام العلماء فيه الاتفاق على النهى عنه ، أى لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقينى بالموافقة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم قال : لو علمتم موافقته ، لكن لا علم لكم بها ؛ وأقاموا أياما يتعلمون الفرائض ، ثم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه وأمر لهم بجوائز ثم انصرفوا إلى أهليهم .

ومنها وفد بنى عذرة : قبيلة باليمن ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا من بنى عذرة ، أى وسلموا بسلام الجاهلية فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من القوم ؟ فقال قائلهم : من بنى عذرة : أى أخو قصى لأمه : نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، فلنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بكم وأهلا : أى لقيتم رحبا وأتيتم أهلا ، فاستأنسوا ولا تستوحشوا ، ماأعرفنى بكم ، قال : ثم قال صلى الله عليه وسلم لهم : فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟ قالوا : يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا ، فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، وقالوا إلام تدعو ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى الناس كافة ، فقال متكلمهم : فما وراء ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس تحسن طهورهن وتصليهن لمراقيتهن فإنه أفضل العمل ، ثم ذكر لهم صلى الله عليه وسلم باقى الفرائض من الصيام والزكاة والحج انتهى فأسلموا ، وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام عليهم ، وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده ، ونهاهم صلى الله عليه وسلم عن سؤال الكاهنة : أى فقد قالوا : يا رسول الله إن فينا امرأة كاهنة قريش والعرب يتحاكمون إليها ، أفنسألها عن أمور ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

لا تسألوها عن شيء . ونهاهم صلى الله عليه وسلم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها إلى أصنامهم ، وقالوا نحن أعوانك وأنصارك ، ثم انصرنوا وقد أجيزوا ، أي وكسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدهم دابر .

ومنها وفد بني بليّ على وزن على مكبرا ، وهو حي من قضاعة . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من بلى ؛ منهم - وهو شيخهم - أبو الضبيب تصغير الضب : الدابة المعروفة ، نزلوا على رويفع بن ثابت البلوى ، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هؤلاء قومى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك ، فأسلموا ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداكم للإسلام ، فمن مات منكم على غير الإسلام فهو فى النار .

قال : وفى رواية عن رويفع رضى الله عنه قال : قدم وفد قومى ، فأنزلتهم علىّ ، ثم خرجت بهم حتى انتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى أصحابه ، فسلمنا عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم رويفع ؟ فقلت : لبيك ، قال : من هؤلاء القوم ؟ قلت : قومى يا رسول الله ، قال : مرحبا بك وبقومك . قلت يا رسول الله قدموا وافدين عليك مقرّين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يهديه للإسلام » فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنا وفدنا إليك لنصدّقك ، ونشهد أنك نبي حق ، ونخلع ما كنا نعبد وكان يعبد آباؤنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى هداكم للإسلام ، فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار انتهى . وقال له أبو الضبيب : يا رسول الله إن لى رغبة فى الضيافة ، فهل لى فى ذلك أجر؟ قال : نعم ، وكل معروف صنعته إلى غنىّ أو فقير فهو صدقة ، فقال: يا رسول الله ما وقت الضيافة ؟ قال : ثلاثة أيام فما بعد ذلك صدقة ، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحوجك : أى يضيق عليك ، أى وفى لفظ : فيؤثمك : أى يعرضك للإثم : أى تتكلم بسيء القول ؛ قال : يا رسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها ؟ فى الفلاة من الأرض قال : هى لك ، أو لأخيك ، أو للذئب . قال : فالبعير ؟ قال : مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه . قال رويفع ثم قاموا فرجعوا إلى منزلى ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى منزلى يحمل تمرا ، فقال : استعن بهذا التمر ، فكانوا يأكلون منه ومن

غيره ، فأقاموا ثلاثة أيام ؛ ثم ودعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم .

ومنها وفد بني مرة. وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر رجلا من بنى مرة ، رأسهم الحارث بن عوف ، فقال يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك ، نحن قوم من بنى لؤى ابن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه سلم وقال للحارث : أين تركت أهلك؟ فقال : بسلاح وما والاها ، فقال : كيف البلاد ؟ فقال : والله إنا لمسنتون ، وما فى المال مح : أى صوت يردده فادع الله لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اسقهم الغيث فأقاموا أياما ، ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مودعين له فأمر بلالا أن يجيزهم ، فأجازهم بعشرة أواق من فضة ، وفضل الحارث ابن عوف فأعطاه اثنى عشر أوقية ، أى وهذا يفيد أن كل واحد أعطى عشر أواق ، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرة ، فسألوا قومهم متى مطرتم ؟ فإذا هو ذلك اليوم الذى دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخصبت لهم بعد ذلك بلادهم .

ومنها وفد خولان ، وهى قبيلة من اليمن . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من خولان ، فقالوا : يارسول الله نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل ، مصدقون برسوله ، وقد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها . وحزون كفلوس : وهو ما غلظ منها ، والمنة لله ولرسوله علينا ، وقدمنا زائرين لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ما ذكرتم من مسيركم إلىّ ، فإن لكم بكل خطوة خطاها بغير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم زائرين لك ، فإنه من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة . فقالوا : يارسول الله ، هذا السفر الذى لاتوى عليه : أى والتوى بفتح المثناة فوق وفتح الواو مقصورا : هو هلاك المال ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل عم أنس ؟ وهو صنم خولان الذى كانوا يعبدونه ، قالوا : بشرّ بدلنا الله تعالى ما جئت به ، وقد بقيت منا بعد بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى فقد كنا منه فى غرور وفتنة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أعظم ما رأيتم من فتنة ؟ قالوا : لقد رأيتنا بضم المثناة فوق ، وأسنتنا حتى أكلنا الرمة ، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعم أنس قربانا فى غداة واحدة ، وتركناها يردها السباع ونحن أحوج إليها من السباع ، فجاءنا الغيث من

ساعتنا ، ولقد رأينا الغيث يوارى الرحال ويقول قائلنا أنعم علينا عم أنس ، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم من إنعامهم وحرثهم ، فقالوا : كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه ، فنسميه له ونسمى زرعا آخر حجرة : أى ناحية لله ، فإذا مالت الريح بالذى سميناه له : أى لله جعلناه لعم أنس ، وإذا مالت الريح بالذى سميناه لعم أنس لم نجعله لله ، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل علىّ فى ذلك (وجعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية ، قالوا : وكنا نتحاكم إليه فيتكلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الشياطين تكلمكم ، وسألوه صلى الله عليه وسلم عن فرائض الله فأخبرهم بها صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وحسن الجوار لمن جاوروا ، وأن لا يظلموا أحدا ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ثم ودعوه صلى الله عليه وسلم بعد أيام وأجازهم : أى أعطى كل واحد اثنتى عشرة أوقية ونشا ، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس .

ومنها وفد بنى محارب . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من بنى محارب وفيهم خزيمة بن سواد ، وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عرضه نفسه على القبائل فى المواسم يدعوهم إلى الله تعالى ، فجلسوا عنده يوما من الظهر إلى العصر ، وأدام صلى الله عليه وسلم النظر إلى رجل منهم ، وقال له : قد رأيتك ، فقال له ذلك الرجل : إى والله لقد رأيتنى ، وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، ثم قال : يا رسول الله ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام منى ، فأحمد الله الذى جاءبى حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل . فقال : يا رسول الله استغفر لى من مراجعتى إياك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الإسلام يجبّ ما قبله : يعنى الكفر ، أى ومسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه خزيمة بن سواد فصارت له غرة بيضاء ، وأجازهم كما يجيز الوفود ، ثم انصرفوا إلى أهليهم .

ومنها وفد صداء : حىّ من عرب اليمن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر رجلا من صداء .

وسبب ذلك أنه صلى الله عليه وسلم هيأ بعثا أربعمائة من المسلمين استعمل عليهم قيس

ابن سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنهم ، ودفع له لواء أبيض ، ودفع إليه راية سوداء ، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منهم ، وعلم بالجيش ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله جئتك وافدا على من ورائى ، فاردد الجيش ، وأنا لك بقومى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن سعد رضى الله تعالى عنهما وخرج الصدائى إلى قومه ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولئك القوم ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله دعهم ينزلون علىّ ، فنزلوا عليه فحباهم بالموحدة : أعطاهم وأكرمهم وكساهم ، ثم ذهب بهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم : فبايعوه على الإسلام ، وقالوا له : نحن لك على من وراءنا من قومنا فرجعوا إلى قومهم نفشافيهم الإسلام ، فوافى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة رجل فى حجة الوداع ، وسمى ذلك الرجل الذى كان سببا فى رد الجيش ومجىء الوفد بزياد بن الحارث الصدائى ، أى وذكر زياد أنه صلى الله عليه وسلم قال له : يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك ، قال : فقلت بلى من منّ الله عز وجل ومنّ رسوله . قال وفى رواية : بل الله هداهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلا أؤمرك عليهم؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، فكتب لى كتابا بذلك ، فقلت : يا رسول الله مر لى بشىء من صدقاتهم ، قال : نعم . فكتب لى كتابا آخر انتهى .

قال زياد رضى الله تعالى عنه : وكنت معه صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، وكنت رجلا قويا ، فلزمت غرزه : أى ركابه ، وجعل أصحابه يتفرقون عنه ، فلما كان السحر قال صلى الله عليه وسلم : أذن يا أخا صداء ، فأذنت على راحلتى ، ثم سرنا حتى نزلنا ، فذهب صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع ، فقال : يا أخا صداء هل معك ماء ؟ قلت معى شىء فى إداوتى : أى وهى إناء من جلد صغير . وفى رواية : لا إلا شىء قليل لا يكفيك ، قال : هاته ، فجئت به ، قال : صب ، فصببت مافى الإداوة فى القعب ، أى وهو القدح الكبير ، وجعل أصحابه صلى الله عليه وسلم يتلاحقون ، ثم وضع صلى الله عليه وسلم كفه فى الإناء فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور ، ثم قال : يا أخا صداء لولا أنى أستحى من ربى عز وجل لسقينا وأسقينا : أى من غير أصل ، ثم توضأ وقال : أذن فى أصحابى : من كانت له حاجة فى الوضوء بفتح الواو فليرد ، قال : فورد الناس من آخرهم ، ثم جاء بلال يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أخا صداء

أذن ، ومن أذن فهو يقيم فأقمت ، ثم تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بنا ، فلما سلم: يعنى من صلاته قام رجل يشكو من عامله ، فقال : يا رسول الله إنه آخذنا بذحول كانت بيننا وبين قومه فى الجاهلية : أى وفى رواية آخذنا بكل شيء كان بيننا وبين قومه فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا خير فى الإمارة لرجل مسلم ، ثم قام رجل آخر ، فقال : يا رسول الله أعطنى من الصدقة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب ولا نبى مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت جزءا منها أعطيتك ، وإن كنت غنيا عنها فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن ، فقلت : يا رسول الله هذان كتاباك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ؟ قلت : إنى سمعتك تقول : لا خير فى الإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم ، وسمعتك تقول: من سأل الصدقة وهو عنها غنى فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن وأنا غنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إن الذى قلت كما قلت ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دلنى على رجل من قومك أستعمله ، فدللته صلى الله عليه وسلم على رجل منهم فاستعمله . قلت : يا رسول الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء كفانا ماؤها ، وإن كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه ، والإسلام فينا قليل ، ونحن نخاف ، فادع الله عز وجل لنا فى بئرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ناولنى سبع حصيات ، فناولته ففركهن فى يده الشريفة ثم دفعهن إلى وقال : إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاة وسم الله ، قال : ففعلت ، فما أدركنا لها قعرا حتى الساعة .

ومنها وفد غسان : اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه ، ومنهم بنو حنيفة ، وقيل غسان قبيلة .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من غسان فأسلموا، وقالوا: لاندرى هل يتبعنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقربهم من قيصر ، فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائز ، وانصرفوا راجعين إلى قومهم ، فلما قدموا عليهم ولم يستجيبوا لهم كتموا إسلامهم .

ومنها وفد سلامان بفتح السين وتخفيف اللام: وفى العرب بطون ثلاثة منسوبون إليه: بطن من الأزد ، وبطن من طيء ، وبطن من قضاعة وهم هؤلاء .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من سلامان ، فيهم خبيب بن عمرو السلامانى فأسلموا .

قال : وعن خبيب رضى الله تعالى عنه : صادفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا من المسجد إلى جنازة دعى إليها ، فقلنا : السلام عليك يا رسول الله : فقال : وعليكم السلام من أنتم ؟ قلنا : نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى ثوبان غلامه ، فقال : أنزل هؤلاء ، وسألنا عن أشياء انتهى .

قال خبيب رضى الله تعالى عنه : قلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال : الصلاة فى وقتها ، وصلوا معه صلى الله عليه وسلم يومئذ الظهر والعصر ، ثم شكوا له صلى الله عليه وسلم جدب بلادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اسقهم الغيث فى دارهم ، فقلت يا رسول الله ارفع يديك فإنه أكثر وأطيب ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قام صلى الله عليه وسلم وقمنا معه ، وأقمنا ثلاثة أيام وضيافته صلى الله عليه وسلم تجرى علينا ، ثم ودعناه ، وأمر لنا بجوائز ، فأعطينا خمس أواق فضة لكل واحد واعتذر إلينا بلال رضى الله تعالى عنه وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقلنا : ما أكثر هذا وأطيبه ثم رجعنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها وفد بنى عبس . وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من بنى عبس فقالوا : يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لاهجرة له ، ولنا أموال ومواش هى معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لاهجرة له بعناها وهاجرنا من آخرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم أى ينقصكم من أعمالكم شيئا وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خالد بن سنان هل له عقب ؟ فأخبروه أنه لا عقب له كانت له ابنة فانقرضت ، وأنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه عن خالد بن سنان وقال : إنه نبى ضيعه قومه . وجاء « ليس بينى وبين عيسى عليه الصلاة والسلام نبى » .

أى وإذا صح شيء من الأحاديث التى ذكر فيها خالد بن سنان أو غيره يكون .

معناه : لم يكن بينه صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام نبي مرسل ، أى وتقدم مافى ذلك .

ومنها وفد النخع : أى بفتح النون والخاء المعجمة : قبيلة من اليمن ، وهم آخرالوفود ؛ وكان وفودهم سنة إحدى عشرة فى النصف من المحرم .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا رجل من النخع مقرين بالإسلام وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ، فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو : يا رسول الله إنى رأيت فى سفرى هذا عجبا : أى وفى رواية : رأيت رؤيا هالتنى ، قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت أتانا تركبها فى الحي ولدت جديا أى وهو ولد المعز أسقع أحوى ، أى والأسقع الذى سواده مشرب بحمرة . والأحوى : الذى ليس شديد السواد ومن ثم فسر بالأخضر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تركت أمة لك مصرة لك على حمل ؟ قال نعم ، قال فإنها تلد غلاما وهو ابنك قال : يا رسول الله ، فماله أسقع أحوى ؟ قال : ادن منى ، فدنا منه ، فقال : هل بك من برص تكتمه ؟ قال : فوالذى بعثك بالحق ماعلم به أحد ولا اطلع عليه غيرك ، قال هو ذاك ، قال : يا رسول الله ورأيت النعمان بن المنذر أى وهو ملك العرب وعليه قرطان . والقرط : مايكون فى شحمة الأذن ، ودملجان بضم الدال المهملة وضم اللام وفتحها ، ومسكتان بضم الميم وسكون المهملة ، قال : ذاك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته ، قال : يا رسول الله ، ورأيت عجوزا شمطاء : أى يخالط شعر رأسها الأبيض شعر أسود خرجت من الأرض ، قال : تلك بقية الدنيا ، وقال : ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو ، وهى تقول لظى لظى ، بصير وأعمى أطعمونى أكلكم أهلكم ومالكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فتنة تكون فى آخر الزمان ، قال : يا رسول الله وما الفتنة ؟ قال : يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس ، ويشتجرون بالشين المعجمة وبالجيم : أى يشتبكون فى الفتنة اشتباك أطباق الرأس ، وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه ، يحسب المسىء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أسهل . أى وفى لفظ : أحلى من شرب الماء البارد ، وإن مات ابنك أدركت الفتنة ، وإن مت أنت أدركها ابنك ، فقال : يارسول الله ادع الله أنى لاأدركها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم لايدركها ، فمات وبقى ابنه عمرو ، ولم يجتمع به صلى الله عليه وسلم ، فهو تابعى وكان ممن خلع عثمان رضى الله تعالى عنه .

قال: وفى رواية أن النخع بعثت رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم أرطاة بن شرحبيل من بنى حارثة والأرقم من بنى بكر ، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهما الإسلام فقبلاه فبايعاه على قومهما ، وأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنهما وحسن هيئتهما ، وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما ؟ قالا : لا يا رسول الله، قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلا كلهم أفضل منا ، وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشياء ما يشاء ، فدعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقومهما بخير ، وقال : اللهم بارك فى النخع .

وعقد صلى الله عليه وسلم لأرطاة لواء على قومه ، فكان فى يده يوم الفتح ، وشهد به القادسية ، وقتل يومئذ رضى الله تعالى عنه اه .

وقوله وكان فى يده يوم الفتح لا يناسب ماتقدم أن وفد النخع كان قدومه فى سنة إحدى عشرة ، إلا أن يقال إن هذين وفدا قبل وفود ذلك الجمع .

وقد ترك الأصل التعرض لجملة من الوفود وذكرت فى السيرة العراقية والسيرة الهشامية تركناها تبعا للأصل .

منها أن عمرو بن مالك وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ، ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : حتى نصيب من بنى عقيل مثل ماأصابوا منا فكان بينهم وبين بنى عقيل مقتلة ، وكان عمرو بن مالك هذا من جملة من قاتل معهم ، فقتل رجلا من بنى عقيل ، قال عمرو : فشددت يدى فى غل وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه ماصنعت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أتانى لأضرب ما فوق الغل من يده ، فلما جئت سلمت فلم يرد على السلام وأعرض عنى ، فأتيته عن يمينه فأعرض عنى ، فأتيته عن يساره فأعرض عنى ، فأتيته من قبل وجهه ، فقلت : يا رسول الله إن الرب عز وجل ليترضى فيرضى ، فارض عنى رضى الله تعالى عنك ، قال: رضيت .

وتقدم أنه قد جاء فى الصحيح « لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » والله أعلم .

باب بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التى أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

أى فى الغالب ، وإلا فمنها ما ليس كذلك ، وهذه غير كتبه صلى الله عليه وسلم التى كتبها بالأمان التى تقدم ذكرها .

أى ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتب للملوك قيل له : يارسول الله إنهم لايقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما : أى ليكون فى ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغى أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم . وفيه أن هذا واضح إذا كان الختم عليها بعد طيها ، ويجعل عليها نحو شمع ويختم فوق ذلك . والظاهر أن ذلك لم يكن ، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم ، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة ، أى بعد أن اتخذ خاتما من ذهب ، فاقتدى به صلى الله عليه وسلم ذوو اليسار من أصحابه ؛ فصنعوا خواتيم من ذهب . ولما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لبس أصحابه رضى الله تعالى عنهم خواتيمهم ، فجاءه جبريل عليه السلام بعد من الغد بأن لبس الذهب حرام على ذكور أمتك ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الخاتم ، فطرح أصحابه خواتيمهم ، وكان نقش خاتمه الفضة ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

وفى حديث موضوع : كان نقش خاتمه صدق الله : وفى رواية شاذة أنه بسم الله محمد رسول الله ، والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق ؛ فمحمد آخر الأسطر ؛ ورسول فى الوسط ، والله فوق ، كذا قال بعض أئمتنا .

قال فى النور : والذى يظهر لى أن هذه الكتابة كانت مقلوبة حتى إذا ختم بها يختم على الاستواء كما فى خواتم الكبراء اليوم . وختم صلى الله عليه وسلم بذلك الخاتم الكتب وكان فى يده الشريفة ، ثم فى يد أبى بكر ، ثم فى يد عمر ، ثم فى يد عثمان رضى الله تعالى عنهم ؛ حتى وقع فى بئر أريس فى السنة التى توفى فيها عثمان رضى الله تعالى عنه ؛ فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه .

وذكر أن هذا الخاتم الذى كان فى يده صلى الله عليه وسلم ثم فى يد أبى بكر ثم فى يد عمر ثم فى يد عثمان رضى الله تعالى عنهم ، كان الخاتم الحديد الذى كان ملويا عليه الفضة ،

وأنه الذى كان فى يد خالد بن سعيد ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مانقش هذا الخاتم ، قال : محمد رسول الله ، قال : اطرحه إلىّ ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبسه ، فكان فى يده ثم فى يد أبى بكر الحديث .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة فصه حبشى أى من جذع » لأنه يؤتى به من بلاد الحبشة . وقيل صنف من الزبرجد ، وأنه الذى نقش فيه « محمد رسول الله » وفى لفظ « فصه منه » وفى لفظ « فصه من عقيق » .

أى ولا ينافى ذلك وصفه بأنه حبشى ؛ لأن العقيق يؤتى به من بلاد الحبشة ؛ ولم يرد أنه صلى الله عليه وسلم لبس خاتما كله عقيق . وفى الحديث « تختموا بالعقيق فإنه مبارك ، تختموا بالعقيق فإنه ينفى الفقر » .

قيل وكان خاتمه صلى الله عليه وسلم فى خنصر يده اليسرى ، وهو المروىّ عن عامة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وقيل كان فى خنصر يمينه صلى الله عليه وسلم ؛ وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وطائفة ، ومنهم عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتختم فى يمينه وقبض والخاتم فى يمينه ، قال بعضهم : وهذا رواه عبيدة بن القاسم وهو كذاب : أى وهو يخالف ما جمع به البغوى بأنه تختم أولا فى يمينه ثم تختم به فى يساره ، وكان ذلك آخر الأمرين . وروى أشعب الطامع عن عبد الله بن جعفر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتختم فى اليمنى » .

قال الإمام النووى رحمه الله : التختم فى اليمين أو اليسار كلاهما صح فعله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لكنه فى اليمين أفضل ؛ لأنه زينة واليمين بها أولى ، هذا كلامه ، أى ولأن ابن أبى حاتم نقل عن أبى زرعة أنه كان فى يمينه صلى الله عليه وسلم أكثر منه فى يساره وكان يجعل فصه مما يلى كفه ، وتقدم أن الخاتم الذى لبسه صلى الله عليه وسلم يوما وألقاه كان من الذهب ، وقيل كان ذلك الخاتم من حديد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم للابس خاتم الحديد « مالى أرى عليك حلية أهل النار » فطرحه . ولعله لكون سلاسل أهل النار وأغلالهم وقيودهم من حديد ؛ أى ثم جاء وعليه خاتم من صفر : أى نحاس فقال « مالى أجد فيك ريح الأصنام » ولعل الأصنام كانت تتخذ من نحاس غالبا ، ثم أتاه وعليه خاتم من ذهب فقال « مالى أرى عليك حلية أهل الجنة »

أى المختص إباحتها بأهل الجنة فى الجنة قال : « يارسول الله : من أى شيء أتخذه ؟ قال : من ورق ولا تتمه مثقالا » أى وزن مثقال ، لكن فى رواية أبى داود « ولا تتمه مثقالا ولا قيمة مثقال » وهى تفيد أن الخاتم إذا كان دون مثقال وزنا لكن بلغ بالصنعة قيمة مثقال كان منهيا عنه .

وفى الحديث « ما طهر الله كفا فيه خاتم من حديد » وهو يفيد كراهة لبس الخاتم الحديد .

وفى كلام الشمس العلقمى : ولا يكره كونه من نحو حديد ونحاس ، لحديث الشيخين « التمس ولو خاتما من حديد » فليتأمل .

وعند عزمه صلى الله عليه وسلم على إرسال الكتب وتكلم مع أصحابه فى ذلك خرج على أصحابه يوما فقال « أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى رحمكم الله ، ولا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه السلام ؛ فقال أصحابه رضى الله تعالى عنهم : وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يارسول الله ؟ قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وأبى ، فشكا ذلك عيسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه إليهم » .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر

المدعو هرقل ملك الروم على يد دحية الكلبى رضى الله تعالى عنه ، والدحية : بلسان اليمن الرئيس .

وقيصر معناه فى اللغة البقير لأنه شق عنه ، لأن أم قيصر ماتت فى المخاض فشق عنه وأخرج فسمى قيصر ، وكان يفتخر بذلك ويقول : لم أخرج من فرج ، أى لأن كل من ملك الروم يقال له قيصر .

كتب صلى الله عليه وسلم كتابا لقيصر يدعوه إلى الإسلام ، وبعث به دحية الكلبى رضى الله تعالى عنه ، وأمره أن يدفعه إلى قيصر ففعل كذلك ، أى بعد أن قال صلى الله عليه وسلم « من ينطلق بكتابى هذا ، فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟ » .

وقيل أمر صلى الله عليه وسلم دحية أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى قيصر .

ولما انتهى دحية رضي الله تعالى عنه إلى الحارث أرسل معه عدىّ بن حاتم رضي الله تعالى عنه ليوصله إلى قيصر ، فذهب به إليه ، فقال قومه لدحية رضي الله تعالى عنه : إذا رأيت الملك فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

قال دحية رضي الله تعالى عنه : لاأفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله ، قالوا : إذن لا يؤخذ كتابك ، فقال له رجل منهم : أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له ، فقال دحية رضي الله تعالى عنه وما هو ؟ فقال : إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه ، فضع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها ففعل ، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية ، ثم قال : انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه ، وكان أبوسفيان بن حرب رضي الله تعالى عنه بالشام ، أى بغزة مع رجال من قريش فى تجارة زمن هدنة الحديبية ، أى وكان أولها فى ذى القعدة سنة ست .

وقيل كتب إليه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وذلك فى السنة التاسعة . وجمع بينهما بأنه صلى الله عليه وسلم كتب لقيصر مرتين ، والأول ماهو فى الصحيحين ، والثانى قاله السهيلى ، واستدل له بخبر فى مسند الإمام أحمد أى وأغرب من قال إن الكتابة له كانت سنة خمس .

قال أبو سفيان : فأتانا رسول قيصر : أى وهو والى شرطته ، فانطلق بنا حتى قدمنا عليه : أى فى بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله . فقال لترجمانه : أى وهو المعبر عن لغة بلغة وهو معرّب . وقيل اسم عربى ، سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ أى وفى لفظ : لهذا الرجل الذى خرج بأرض العرب يزعم أنه نبى . فقال أبو سفيان ، أنا أقربهم نسبا إليه ، لأنه لم يكن فى الركب يومئذ من بنى عبد مناف غيرى : أى لأن عبد مناف هو الأب الرابع له صلى الله عليه وسلم وكذا لأبى سفيان . أى وزاد فى لفظ : ما قرابتك منه ؟ قلت : هو ابن عمى ، فقال له : ادن منى ثم أمر بأصحابى ، فجعلوا خلف ظهرى ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم سأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذبا

إن قاله : أى حتى لاتستحيوا أن تشافهوه بالتكذيب إذا كذب ، قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء يومئذ أن يردوا علىّ كذبا لكذبت ، ولكنى استحييت : فصدقت وأنا كاره . أى وفى رواية لولا مخافة أن يؤثر عنى الكذب لكذبت أى لولا خفت أن ينقل عنى الكذب إلى قومى ويتحدثوا به فى بلادى لكذبت عليه لبغضى إياه ومحبتى نقصه ، وبه يعلم أن الكذب من القبائح جاهلية وإسلاما ثم قال لترجمانه قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت : هو مناذ ونسب . قال : قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟ قلت : لا قال : قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ماقال؟ قلت لا . أى وفى رواية : هل كان حلافا كذابا مخادعا فى أمره لعله يطلب ملكا وشرفا كان لأحدمن أهل بيته قبله . قال : هل كان من آبائه ملك؟ قلت :لا ، أى وزاد فى رواية: كيف عقله ورأيه ؟ قال لم نعب عليه عقلا ولا رأياً قط . قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟قلت بل ضعفاؤهم ،أى والمراد بأشراف الناس أهل النخوة وأهل التكبر ، فلا يرد مثل أبى بكر وعمر وحمزة رضى الله عنهم ممن أسلم قبل هذا السؤال .

وعند ابن إسحاق رحمه الله تعالى: تبعه منا الضعفاء والمساكين والأحداث ، وأما ذوو الأحساب والشرف فما تبعه منهم أحد ، وهو محمول على الأكثر الأغلب أى الأكثر والأغلب أن أتباعه صلى الله عليه وسلم ضعفاء . قال فهل يزيدون أو ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه : أى كراهة له وعدم رضا به بعدأن يدخل فيه ؟ قلت لا . ولا يقال هذا منقوض بما لعبد الله بن جحش حيث ارتد ببلاد الحبشة لأنه يرتد كراهية للإسلام بل لغرض نفسانى كما تقدم . قال : فهل يغدر إذا عاهد ؟ قلت لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندرى ماهو فاعل فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .قال فكيف حربكم وحربه ؟ قلت دول وسجال ، ندل عليه مرة أى كما فى أحد ،ويدال علينا أخرى أى كما فى بدر ، وقد تقدم فى أحد أن أبا سفيان رضى الله عنه قال يوم أحد يوم بيوم بدر والحرب سجال : أى نوب .

وفى لفظ قال أبو سفيان : انتصر علينا مرة يوم بدر وأنا غائب ثم غزوتهم فى بيوتهم ببقر البطون وبجدع الآذان والأنوف والفروج ، وأشار بذلك إلى يوم أحد .

قال فما يأمركم به ؟ قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا أى والذى

فى البخارى يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة . وفى لفظ : والزكاة . وفى لفظ جمع بين الصدق والصدقة والعفاف أى ترك المحارم وخوارم المروءة ، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه : قل له : إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك : هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتم بقول قيل قبله . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فزعمت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى . وسألتك : هل كان من آبائه ملك فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل : أى لأن الغالب أن أتباع الرسل أهل الاستكانة لاأهل الاستكبار . وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم . وسألتك : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لايسخطه أحد . وسألتك : هل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، وإن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون له العاقبة . وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . أى وفى البخارى : وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر : أى لأنها لاتطلب حظ الدنيا الذى لايناله طالبه إلا بالغدر ، فعلمت أنه نبى . وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم ، وإن كان ماحدثتنى به حقا فيوشك : أى يقرب أن يملك موضع قدمى هاتين .

أى وذكر بعضهم أن هذا يدل على أن هذه الأشياء التى سأل عنها هرقل كانت عنده فى الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم .

وفيه أن هذا لايأتى مع قوله ماتقدم إذ هو يقضى أن ذلك علامة على رسالة كل رسول ثم قال قيصر : ولو أعلم أنى أخلص أى أصل إليه لتجشمت : أى تكلفت مع المشقة لقيه : أى وفى لفظ آخر : لاأستطيع أن أفعل ، إن فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم .

قال الإمام النووى رحمه الله تعالى : ولا عذر له فى هذا ، لأنه قد عرف صدق النبى

صلى الله عليه وسلم وإنما شح بالملك ، فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام ، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشى وما زالت عنه الرياسة .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : لو تفطن هرقل لقوله صلى الله عليه وسلم فى الكتاب إليه « أسلم تسلم » وحمل الجزاء على عمومه فى الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل مايخافه ، ولكن التوفيق بيد الله .

ثم قال : ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه : أى مبالغة فى خدمته والتعبد له ؛ ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

قال أبو سفيان : ثم دعا بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم فقرئ عليه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى » أى ومن لم يتبع الهدى فلا سلام عليه ، فليس فى هذا بداءة الكافر بالسلام « أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام » أى بالكلمة الداعية للإسلام وهى كلمة التوحيد أى إليها ، فالباء موضع إلى « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » أى لإيمانك بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو لإيمان أتباعك بسبب إيمانك « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين » أى فلاحين القرى ؛ أى ومن ثم جاء فى رواية « إثم الفلاحين » وفى رواية « إثم الأكارين » والأكار : الفلاح ، لأن أهل السواد وما والاهم أهل فلاحة ، والمراد إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك . وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أسرع انقيادا من غيرهم ، لأن الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين ، والمراد عليك مع إثمك إثم رعاياك ؛ لأنه إذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا ، فهو متسبب فى عدم إسلامهم ، والفاعل لمعصية المتسبب لارتكاب غيره لها عليه الإثم من جهتين : جهة فعله وجهة تسببه (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) والواو فى قوله صلى الله عليه وسلم « ويا أهل الكتاب » عاطفة على مقدر معطوف على قوله أدعوك . والتقدير أدعوك بدعاية الإسلام ، وأقول لك ولأتباعك يا أهل الكتاب .

قيل وهذه الآية كتبها صلى الله عليه وسلم قبل نزولها لأنها إنما نزلت فى وفد نجران ، وذلك فى سنة تسع . وهذه القصة كانت فى سنة ست ، وقيل بعد نزولها لأن نزولها كان فى أول الهجرة فى شأن اليهود ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : وجوز بعضهم نزولها مرتين وهو بعيد كذا قال فليتأمل .

قال أبو سفيان رضى الله عنه: فلما قضى مقالته وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم : أى أصواتهم التى لانفهم .

وفى البخارى: كثرعنده الصخب : وارتفاع الأصوات. والصخب. اختلاط الأصوات عند المخاصمة . زاد البخارى: فلا أدرى ماقالوا وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابى وخلصنا قلت لهم لقد أمِرَ أمْرُ ابن أبى كبشة : أى عظم أمره، هذا ملك بنى الأصفر يخافه، فما زلت موقنا أن سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام ، أى فأظهرت ذلك اليقين لأنه ارتفع . وفى لفظ : فما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت .

وقد تقدم الكلام على كبشة ، وهو أن جد وهب لأمه أبو آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة . قال فى شرح مسلم : وهو الذى كان يعبد الشعرى، وأبو سلمة أم جده عبد المطلب كان يكنى أبا كبشة ، وزوج مرضعته صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة ، وتقدم الكلام أيضا على بنى الأصفر.

ويروى أن أبا سفيان رضى الله تعالى عنه قال لقيصر لما سأله : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ فقال: لا لكن أخبرك عنه أيها الملك خبرا تعرف به أنه قد كذب ، قال : وما هو؟ قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح ، فقال بطريق : أى قائد من قواد الملك كان واقفا عند رأس قيصر : صدق أيها الملك ، فنظر إليه قيصر ، فقال : ماأعلمك بهذا ؟ قال : إنى كنت لاأنام ليلة أبدا حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى ، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلا ، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا : لانستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زواية المسجد مثقوب . قال فى النور الذى يظهر لى أنه الصخرة : أى المراد بالصخرة فى بعض الروايات كما قدمناه ، وإذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابى: ماحبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر ، فقال قيصر لقومه : ياقوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا : بلى ، قال : فإن الله قد جعله فى غيركم ، وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء ، أى وأمر بإنزال دحية وإكرامه .

وذكر أن ابن أخى قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه قد ابتدأ بنفسه وسماك

صاحب الروم ، ألق به : يعنى الكتاب ، فقال له : والله إنك لضعيف الرأى ، أترى أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر ؟ هو حق أن يبدأ بنفسه ، ولقد صدق ، أنا صاحب الروم ، والله مالكى ومالكه . أى وفى لفظ أن أخا قيصر لما سمع الترجمان يقرأ « من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم ضرب فى صدر الترجمان ضربة شديدة ، ونزع الكتاب من يده ، وأراد أن يقطعه ، فقال له قيصر : ماشأنك؟فقال: تنظر فى كتاب رجل قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم وما ذكر لك ملكا ؟ فقال لهقيصر: إنك أحمق صغير أو مجنون كبير ، أتريد أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه ؟ ولعمرى إن كان رسول الله كما يقول لنفسه أحق أن يبدأ بها منى ، ولئن سمانى صاحب الروم لقد صدق ، ما أنا إلا صاحبهم وما أملكهم ، ولكن الله سخرهم لى ، ولو شاء لسلطهم على كما سلط فارس على كسرى فقتلوه .

ولما جاءه صلى الله عليه وسلم الخبر عن قيصر قال : «ثبت ملكه » وفى لفظ « سيكون لهم بقية ، ولقد صدق الله ورسوله » .

فقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى أن الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمرائه إلى ملك المغرب بهدية فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنج فى شفاعة فقبله وأكرمه وقال له لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج له صندوقا مصفحا بالذهب وأخرج منه مقلمة : وفى لفظ قصبة من الذهب .

فعن السهيلى رحمه الله تعالى قال : بلغنى أن هرقل وضع الكتاب فى قصبة من ذهب تعظيما له ، فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه ، وقد ألصق عليه خرقة حرير ، فقال : هذا كتاب نبيكم لجدى قيصر ، مازلنا نتوارثه إلى الآن ، وذكر لنا آباؤنا عن آبائهم أنهمادام هذا الكتاب عندنا لايزول الملك عنا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا ، أى ولا ينافيه ماجاء « إذا هلك قيصر فلاقيصر بعده » لأن المراد إذا زال ملكه عن الشام لايخلفه فيه أحد ، وكان كذلك لم يبق إلا ببلاد الروم .

أى ويروى أن قيصر لما رجع من بيت المقدس إلى محل دار ملكه وهى حمص ، أى فإنه لما ظهر على الفرس وأخرجهم من بلاده نذر أن يأتى بيت المقدس ماشيا شكرا لله ؛ فلما أراد الذهاب إلى بيت المقدس ماشيا بسط له البسط وطرح له عليها الرياحين ، ولا زال يمشى على ذلك إلى أن وصل إلى بيت المقدس كما سيأتى ؛ فلما رجع إلى حمص كان له فيها

قصر عظيم ، فأغلق أبوابه وأمر مناديا ينادى : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم : إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت فرضوا عنه .

والذى فى البخارى أن قيصر لما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع ، فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، فلما رأى قيصر نفرتهم وأيس من الإيمان منهم أى وقالوا له أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ، فقال ردوهم علىّ وقال : إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه . وعند ذلك كتب كتابا وأرسله مع دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه إنى مسلم ولكننى مغلوب ، وأرسل بهدية ، فلما قرئ عليه صلى الله عليه وسلم الكتاب قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وقبل صلى الله عليه وسلم هديته وقسمها بين المسلمين ، ومصداق قوله صلى الله عليه وسلم أن قيصر بعد هذه القصة بدون سنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة .

وفى صحيح ابن حبان عن أنس رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إليه أيضا من تبوك يدعوه وأنه قارب للإجابة ولم يجب » وفى مسند الإمام أحمد « أنه كتب من تبوك إلى النبى صلى الله عليه وسلم إنى مسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كذب إنه على نصرانيته » . وفى لفظ : « كذب عدو الله والله إنه ليس بمسلم » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : فعلى هذا إطلاق صاحب الاستيعاب أنه آمن : أى أظهر التصديق ، لكنه لم يستمر عليه ولم يعمل بمقتضاه ، بل شح بملكه ، وآثر العافية على العاقبة لعنة الله عليه ، أى لأنه تحقق كفره أى وقد ذكر حامل كتابه إليه صلى الله عليه وسلم قال جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهرانى أصحابه محتبيا ، فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل : هو هذا ، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ثم قال : من أنت ؟ قلت : أنا أحد تنوخ ، قال : هل لك فى الإسلام دين الحنيفية ملة إبراهيم ؟ قلت إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم ، فضحك صلى الله عليه وسلم وقال (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) فلما فرغ من قراءة كتابى قال : إن لك حقا ، وإنك رسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، إنا قوم سفر ،

فقال رجل : أنا أجوزه ، فأتى بحلة فوضعها فى حجرى ، فسألت عنه ؟ فقيل لى : إنه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس

على يد عبدالله بن حذافة ، أى لأنه كان يتردد عليه كثيرا

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمى ، وقيل أخاه خنيسا ، وقيل أخاه خارجة ، وقيل شجاع بن وهب ، وقيل عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إلى كسرى ، وبعث معه كتابا مختوما فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » أى الذين هم أتباعك . قال عبد الله بن حذافة رضى الله عنه : فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرئ عليه ، فأخذه ومزقه .

أى وفى رواية « أن كسرى لما أعلم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن بحامل الكتاب أن يدخل عليه ، فلما وصل أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب ، فقال : لا ، حتى أدفعه إليك كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال كسرى ادنه ، فدنا فناولته الكتاب ، فدعا من يقرؤه ، فقرأه فإذا فيه : من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس ، فأغضبه حين بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه ، وأمر باخراج حامل ذلك الكتاب فأخرج ، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار ، فلما ذهب عن كسرى سورة غضبه ، بعث فطلب حامل الكتاب فلم يجده ، فلما وصل إليه صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر قال صلى الله عليه وسلم : مزق كسرى ملكه » .

وكتب كسرى إلى بعض أمرائه باليمن يقال له باذان : إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلىّ برأسه ، يكتب إلىّ هذا الكتاب : أى الذى بدأ فيه بنفسه وهو عبدى ، أى وفى رواية : إن تكفينى رجلا

خرج بأرضك يدعونى إلى دينه وإلا فعلت فيك كذا يتوعده ، فابعث إليه برجلين جلدين فيأتيانى به : فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مع قهرمانه ، وبعث معه رجلا آخر من الفرس ، وبعث معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف ، فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف ، فسألاه عنه ، فقال : هو بالمدينة . فلما قدما عليه صلى الله عليه وسلم المدينة قالا له : شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك . وقد بعثنا إليك فان أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك ، وكانا على زى الفرس من حلق لحاهم وإعفاء شواربهم ، فكره صلى الله عليه وسلم النظر إليهما ، ثم قال لهما : ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا ربنا ، يعنيان كسرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكن أمرنى ربى باعفاء لحيتى وقص شاربى ، ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غدا ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه يقتله فى شهر كذا فى ليلة كذا ، فلما كان الغد دعاهما وأخبرهما الخبر ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى باذان : إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا من شهر كذا . فلما أتى الكتاب باذان توقف ، وقال إن كان نبيا فسيكون ماقال ، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد ولده شيرويه ، قيل قتله ليلا بعد مامضى من الليل سبع ساعات فيكون المراد باليوم فى تلك الرواية مجرد الوقت : أى وفى رواية : قال صلى الله عليه وسلم لرسول باذان : اذهب إلى صاحبك وقل له إن ربى قد قتل ربك الليلة ، ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءه صلى الله عليه وسلم هلاك كسرى قال : « لعن الله كسرى ، أول الناس هلاكا فارس ثم العرب » .

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال « لتفتحن عصابة من المسلمين أو المؤمنين أو رهط من أمتى كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض » فكنت أنا وأبى فيهم ، وأصبنا من ذلك ألف درهم وقدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه ، فيه : أما بعد ، فقد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس فانه قتل أشرافهم . فتفرق الناس ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا .

وفى رواية أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : إن كسرى قد استخلف ابنته . فقال : « لايفلح قوم تملكهم امرأة » .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشى ملك الحبشة

على يد عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه إلى النجاشى وبعث معه كتابا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة، سلم أنت : أى أنت سالم » لأن السلم يأتى بمعنى السلامة «فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة » : أى العفيفة : أى المنقطعة عن الرجال التى لا شهوة لها فيهم ، أو المنقطعة عن الدنيا وزينتها ؛ ومن ثم قيل لفاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم البتول « فحملت بعيسى . حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ،فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض ، ثم أسلم ودعا بحق من عاج : أى وهو عظم الفيل ، وجعل فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم .

أى وفى كلام بعضهم : وبعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فكان أول رسول ،وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام ، وفى الآخر يأمره أن يزوجه صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ،فأخذ الكتابين وقبلهما ووضعهما على رأسه وعينيه ، ونزل عن سريره تواضعا ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق .

وكتب إليه صلى الله عليه وسلم النجاشى : أى جواب الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من النجاشى أصحمة ، السلام عليك يانبى الله من الله ورحمة الله وبركاته الذى لا إله إلا هو . زاد فى لفظ : الذى هدانى للإسلام. أما بعد فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، فورب

السماء والأرض إن عيسى عليه الصلاة والسلام لايزيد على ماذكرت ، وقد عرفنا مابعث به إلينا . وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه ، يعنى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين رضى الله عنهم ، فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، أى جعفر بن أبى طالب ، وأسلمت على يده لله رب العالمين . أى وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتركوا الحبشة ماتركوكم » .

وذكر أن عمرو بن أمية رضى الله عنه قال للنجاشى . أى عند إعطائه الكتاب : يا أصحمة إن علىّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا منا وكأنا فى الثقة بك منك ؛ لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ، ولم نحفظك على شرّ قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم ، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لايردّ ، وقاض لا يجور ، فى ذلك موقع الخير وإصابة الفضل ، وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى صلى الله عليه وسلم كاليهود فى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد فرق النبى صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس ، فرجاك لمالم يرجهم له ، وأمنك على ماخافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر ، فقال النجاشى : أشهد بالله إنه للنبى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . زاد بعضهم : ولكن أعوانى من الحبشة قليل ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب .

أقول : كذا فى الأصل ، وهو صريح فى أن هذا المكتوب إليه هو الذى هاجر إليه المسلمون سنة خمس من النبوة ، ونعاه النبى صلى الله عليه وسلم يوم توفى وصلى عليه بالمدينة منصرفه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وذلك فى السنة التاسعة .

والذى قاله غيره كابن حزم أن هذا النجاشى الذى كتب إليه صلى الله عليه وسلم الكتاب وبعث به عمرو بن أمية الضمرى لم يسلم ، وأنه غير النجاشى الذى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم الذى آمن به وأكرم أصحابه ، وفى صحيح مسلم مايوافق ذلك .

ففيه عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النجاشى الذى كتب إليه ليس بالنجاشى الذى صلى عليه . ويردّ بأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم كتب للنجاشى الذى صلى عليه وللنجاشى الذى تولى بعده على يد عمرو بن أمية فلا مخالفة .

ومن ثم قال فى النور : والظاهر أن هذه الكتابة متأخرة عن الكتابة لأصحمة الرجل الصالح الذى آمن به صلى الله عليه وسلم وأكرم أصحابه هذا كلامه .

وفيه أن رد الجواب على النبى صلى الله عليه وسلم بالكتاب المذكور ورده على عمرو ابن أمية بقوله أشهد بالله إنه النبى الذى ينتظره أهل الكتاب إلى آخره إنما يناسب الأول الذى هو الرجل الصالح ويكون جواب الثانى لم يعلم ، وقد تقدم عن ابن حزم أنه لم يسلم .

وقال بعضهم : إنه الظاهر ، وحينئذ يكون الراوى خلط فوهم أن المكتوب إليه ثانيا هو المكتوب إليه أولا كما أشار إليه فى الهدى ، والله أعلم .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم المقوقس

ملك القبط

وهم أهل مصر والإسكندرية وليسوا من بنى إسرائيل — على يد حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس : أى فإنه صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الحديبية ، قال أيها الناس ، أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله ، فوثب إليه حاطب رضى الله عنه ، وقال : أنا يارسول الله ، قال : بارك الله فيك ياحاطب ، قال حاطب رضى الله عنه : فأخذت الكتاب وودعته صلى الله عليه وسلم ، وسرت إلى منزلى ، وشددت على راحلتى ، وودعت أهلى وسرت .

زاد السهيلى : وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل مع حاطب جبيرا مولى أبى رهم الغفارى ، فإن جبيرا هو الذى جاء بمارية من عند المقوقس .

واعترض بأن هذا لا يلزمه أن يكون صلى الله عليه وسلم أرسل جبيرا مع حاطب للمقوقس ، لجواز أن يكون المقوقس أرسل جبيرا مع حاطب . والمقوقس لقب ، وهو لغة : المطول للبناء ، واسمه جريج بن مينا . وبعث معه صلى الله عليه وسلم كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ،

فإن توليت فإنما عليك إثم القبط » أى الذين هم رعاياك ، و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وختم الكتاب ، وجاء به حاطب رضى الله عنه حتى دخل على المقوقس بالإسكندرية : أى بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية ، فأخبر أنه فى مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب رضى الله عنه سفينة وحاذى مجلسه ، وأشار بالكتاب إليه . فلما رآه أمر باحضاره بين يديه ؛ فلما جىء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه ، وقال لحاطب : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه : أى من قومه ، وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت ، فقال له حاطب : ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ؟ فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لايكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه ؟ قال : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم ، ثم قال له حاطب رضى الله عنه : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعنى فرعون (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) فانتقم به ثم انتقم منه ؛ فاعتبر بغيرك ولايعتبر غيرك بك ، إن هذا النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له يهود ، وأقربهم منه النصارى ؛ ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى . ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ، ولكنا نأمرك به . فقال : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة باخراج الخبء بفتح الخاء المعجمة وهمز فى آخره : أى الشىء الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، أى يخبر بالمغيبات وسأنظر ، وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وجعله فى حق عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له .

ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية ، فكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم «بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت

أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك» أى فإنه قد دفع له مائة دينار وخمسة أثواب « وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم » أى وهما مارية وسيرين بالسين المهملة مكسورة « وبثياب : أى وهى عشرون ثوبا من قباطى مصر » قال بعضهم : وبقيت تلك الثياب حتى كفن صلى الله عليه وسلم فى بعضها .

وفى كلام هذا البعض : وأرسل له صلى الله عليه وسلم عمائم وقباطى وطيبا وعودا وندا ومسكا مع ألف مثقال من الذهب ومع قدح من قوارير ، فكان صلى الله عليه وسلم يشرب فيه ، أى لأنه سأل حاطبا رضى الله عنه فقال : أى طعام أحب إلى صاحبكم ؟ قال : الدباء : يعنى القرع ، ثم قال له : فى أى شىء يشرب ؟ قال : فى قعب من خشب ، ثم قال « وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » ولم يزد على ذلك ، ولم يسلم .

ولا يخفى أنه سيأتى أنه أهدى إليه صلى الله عليه وسلم زيادة على الجاريتين جارية أخرى اسمها قيسر ، وهى أخت ماوية ، ولعله إنما اقتصر على ذكر الجاريتين دون هذه الثالثة مع أنها أخت مارية لأنها دونهما فى الحسن .

وذكر بعضهم أن سيرين أيضا أخت مارية ، فالثلاث أخوات .

وفى ينبوع الحياة لابن ظفر : فأهدى إليه صلى الله عليه وسلم المقوقس جوارى أربعا ، أى ويوافقه قول بعضهم : وأرسل إليه صلى الله عليه وسلم جارية سوداء اسمها بريرة .

وفى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم أهدى إحدى الجاريتين لأبى جهم بن قيس العبدى ، فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر . وأخرى أهداها لحسان بن ثابت ، وهى أم عبد الرحمن بن حسان كما تقدم فى قصة الإفك . وأهدى إليه المقوقس زيادة على ذلك خصيا : أى مجبوبا : أى غلام أسود يقال له مأبور بإثبات الراء ، وقيل بحذفها ، وقيل هابو أى بالهاء بدل الميم وإسقاط الراء ابن عمّ مارية : وكونه كان مجبوبا عند إرساله وكان المهدى له المقوقس هو المشهور .

وفى كلام بعضهم أن المهدى له جريج بن مينا القبطى الذى كان على مصر من قبل هرقل ، وأنه لم يكن حال الإرسال مجبوبا ، وأنه قدم مع مارية فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يدخل عليها ، وأنه رضى من مكانه من دخوله على سرية النبى صلى الله عليه وسلم

أن يجبّ نفسه فقطع ما بين رجليه حتى لم يبق منه شيء فليتأمل ، وسيأتى ما وقع له . وأهدى إليه المقوقس زيادة على البغلة وهى الدلدل ، وكانت شهباء . والدلدل فى اللغة : اسم للقنفذ العَظيم ، وكانت أنثى ، ولا يستدل بلحوق التاء لها لأنها للوحدة .

وفى كلام بعضهم أجمع أهل الحديث على أن بغلة النبي صلى الله عليه وسلم كانت ذكرا لا أنثى ، وأول من استنتج البغال قارون . قالوا : والبغل أشبه بأمه منه بأبيه .

قيل : ولم يكن يومئذ فى العرب بغلة غيرها . وقد قال له سيدنا على رضى الله عنه : لو حملنا الحمر على الخيل لكان لنا مثل هذه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون . قال ابن حبان : أى الذين لا يعلمون النهى عنه .

وفيه أن الله امتن بها كالخيل والحمير ، ولا يقع الامتنان بالمكروه . وحمارا أشهب يقال له يعفورا وعفير بالعين المهملة مضمومة . وضبطه القاضى عياض بالمعجمة وغلط فى ذلك ؛ مأخوذ من العفرة : وهى لون التراب ، وفرسا وهو اللزاز ، أى فإن المقوقس سأل حاطبا رضى الله عنه ما الذى يحب صاحبك من الخيل ؟ فقال له حاطب : الأشقر ، وقد ركب عنده فرسا يقال له المرتجز ، فانتخب له صلى الله عليه وسلم فرسا من خيل مصر الموصوفة ، فأسرج وألجم ، وهو فرسه صلى الله عليه وسلم الميمون .

وأهدى له صلى الله عليه وسلم عسلا من عسل بنها بكسر الباء الموحدة : قرية من قرى مصر ؛ وأعجب به صلى الله عليه وسلم ودعا فى عسل بنها بالبركة ؛ لأنه حين أكل منه قال : إن كان عسلكم أشرف فهذا أحلى ؛ ثم دعا فيه بالبركة .

وأهدى إليه مربعة يضع فيها المكحلة وقارورة الدهن والمشط والمقص والمسواك ؛ ومكحلة من عيدان شامية ومرآة ومشطا ؛ أى فإن المقوقس سأل حاطبا عن النبي صلى الله عليه وسلم هل يكتحل ؟ فقال له : نعم ؛ وينظر فى المرآة ، ويرجل شعره ، ولا يفارق خمسا فى سفر كان أو فى حضر ، وهى : المرآة ، والمكحلة ، والمشط ، والمدرى ، والمسواك والمدرى : شيء كالمسلة يفرق به بين شعر الرأس ويحك به لأن حكه بالأصبع يشوش الشعر ويلوى بها قرون شعر الرأس .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها «سبع لم تفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ولا حضر : القارورة التى يكون فيها الدهن ، والمشط ، والمكحلة ، والمقراض» أى المقص

والمسواك ، والمرآة » . زاد بعضهم«والإبرة ، والخيط » ولعل عدم ذكر ذلك فى الكتاب أنه لم يره شيئاينبغى ذكره .

أى وقد قال بعضهم : إن المقوقس أرسل مع الهدية طبيبا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ارجع إلى أهلك « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » .

واعترض كون الحمار الذى أرسله المقوقس يسمى يعفورا ، بأن الحمار الذى يسمى يعفورا أهداه له فروة بن عمرو الجذامى عامل قيصر .

وأهدى إليه أيضا بغلة شهباء يقال لها فضة . وفرسا يقال له الظرب كما تقدم .

ثم رأيت بعضهم سمى الحمار الذى أهداه عامل قيصر عفيرا أيضا ؛ وعليه فتسمية حمار المقوقس عفيرا أيضا كما فى الأصل أن الحمار الذى أهداه المقوقس يقال له يعفورا وعفير من خلط بعض الرواة فلا منافاة . وفى هذا قبول هدية المشركين . وقد تقدم رده صلى الله عليه وسلم لهداياهم وقال : لا أقبل زبد المشركين .

ومما يشكل عليه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم فى هدنة الحديبية أهدى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان عجوة ، واستهداه أدما فأهداه إليه أبو سفيان وهو على شركه .

وذكر أن المقوقس قال لحاطب رضى الله عنه القبط لا يطاوعونى فى اتباعه ، ولاأحب أن تعلم بمحاورتى إياك،وأنا أضن : أى أبخل بملكي أن أفارقه ، وسيظهر على البلاد ، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده أى وكان كذلك، فإن المسلمين فتحوا مصر سنةست‌عشرة ونزلها الصحابة . فارجع إلى صاحبك ، وارحل من عندى ، ولاتسمع‌منك القبط حرفا واحدا . قال حاطب رضى الله عنه : فرحلت من عنده ، أى وبعث معه جيشا إلى أن دخل جزيرة العرب ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة .

قال حاطب : وذكرت قوله للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال«ضن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» .

ومن ثم ذكر بعضهم أن هرقل لما علم ميل المقوقس إلى الإسلام عزله ، ويخالفه قول بعضهم : وبعث أبو بكر رضى الله عنه حاطبا هذا إلى المقوقس بمصر فصالح القبط ؛ إلا أن يقال : يجوز أن يكون المقوقس عاد لولايته بعد عزله .

وذكر بعضهم أن بانى الإسكندرية لما أراد بناءها قال : أبنى مدينة فقيرة إلى الله غنية

عن الناس فدامت ، وبنى أخوه مدينة قال عند إرادة بنائها : أبنى مدينة فقيرة إلى الناس غنية عن الله ، فسلط الله عليها الخراب فى أسرع وقت .

ولما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر وقف على بعض ما بقى من آثار تلك المدينة فسأل عن ذلك ، فأخبر بهذا الخبر .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوي العبدى بالبحرين على يد العلاء بن الحضرمى

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد : فإنى أذكرك الله عزوجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ماأسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » أى وهذا جواب كتاب أرسله المنذر جوابا لكتاب أرسله له صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه .

أقول : ولم أقف على ذلك الكتاب ولا على حامله . والظاهر أنه العلاء المذكور ، فقد ذكر السهيلى رحمه الله أن العلاء قدم على المنذر بن ساوى ، فقال له : يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرنّ عن الآخرة ، إن هذه المجوسية شر دين ، ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون فى الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا أن لا نصدقه ، ولمن لا يخون أن لا نأتمنه ، ولمن لا يخلف أن لا نثق به ، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبىّ الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به . فقال المنذر : قد نظرت فى هذا الذى فى يدىّ فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة

وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله ، وسأنظر والله أعلم .

ومن جملة كتاب المنذر ، أى الذى هذا الكتاب جوابه « أما بعد يا رسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لى فى ذلك أمرك » .

وذكر ابن قانع أن المنذر المذكور وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فهو من الصحابة . قال أبو الربيع : ولا يصح ذلك .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان

أى بضم العين المهملة وتخفيف الميم : بلدة من بلاد اليمن على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى » أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحقَّ القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرَّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل : أى تنزل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » وختم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب .

قال عمرو : ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فعمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فقلت : إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى المقدم علىَّ بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده . وتخلع ماعبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ يعنى العاص بن وائل ، فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت : مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددت له لو كان آمن وصدق به ، وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام

فقال : متى تبعته ؟ قلت : قريبا ، فسألنى أين كان إسلامى ؟ فقلت : عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه قال: والأساقفة : أى رؤساء النصرانية والرهبان، قلت نعم ؟ قال: انظر ياعمرو ماتقول؟ إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له : أى أكثر فضيحة من كذب . قلت : وماكذبت وما نستحله فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم باسلام النجاشى . قلت له بلى ، قال : بأى شيء علمت ذلك ياعمرو ؟ قلت : كان النجاشى رضى الله عنه يخرج له خراجا . فلما أسلم النجاشى وصدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال لا والله ، ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه : أتدع عبدك لايخرج لك خراجا ويدين دينا محدثا . فقال هرقل: رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع ، قال: انظر ما تقول ياعمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد: فأخبرنى: ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت: يأمر بطاعة الله عزوجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب : فقال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا: أى تابعا .

قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ، قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات فى الأموال . أى ولما ذكرت المواشى قال: ياعمرو ، يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى في الشجر وترد المياه : فقلت نعم ، فقال ؟ والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

قال عمرو : فمكثت أياما بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبرى ، ثم إنه دعانى فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعى : أى عضدى ، قال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه ، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتابا مختوما ، ففض خاتمه ، فقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه ، ثم قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت : اتبعوه، إما راغب فى الدين وإما راهب مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام ، واختاروه على غيره ،

وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطؤك الخيل وتبيد خضراءك : أى جماعتك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعنى يومى هذا وارجع إلىّ غدا . فلما كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله ألفت : أى وجدت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه ، فأصبح فأرسل إلىّ ، فأجاب إلى الاسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوذة

بالذال المعجمة ، وقيل بالدال المهملة . قال فى النور : ولا أظنه إلا سبق قلم — صاحب اليمامة — أى وزاد بعضهم : وإلى ثمامة بن أثال الحنفيين ملكى اليمامة ، وفيه نظر ، لأن ثمامة رضى الله تعالى عنه كان مسلما حينئذ على يد سليط بفتح السين المهملة بن عمرو العامرى أى لأنه كان يختلف إلى اليمامة ، وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر : أى حيث تقطع الإبل والخيل ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ماتحت يديك » فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مختوما أنزله وحياه ، وقرأ عليه الكتاب فردّ ردا دون ردّ . فكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم : ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطا رضى الله تعالى عنه بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم كتابه ، وقال : لو سألنى سيابة ، أى بفتح السين المهملة وتخفيف المثناة من تحت وموحدة مفتوحة : أى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه .

فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح جاءه جبريل عليه الصلاة والسلام . فأخبره بأن هوذة قد مات ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما إن اليمامة سيخرج

بها كذاب يتنبأ يقتل بعدى ، أى فقال قائل : يارسول الله من يقتله ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت وأصحابك » فكان كذلك .

أقول : هذا يدل على أن القائل له صلى الله عليه وسلم ذلك هو خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، فإن أبا بكر رضى الله تعالى عنه وجهه أميرا على الجيش الذى أرسله لمقاتلة مسيلمة لعنه الله ، وتقدم الخلاف فى قاتله . والمشهور أنه وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما ، وكان سن هوذة مائة وخمسين سنة .

ويذكر أن هوذة هذا كان عنده عظيم من عظماء النصارى حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال له : لم لاتجيبه ؟ قال : أنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لم أملك ، فقال : بلى والله لئن اتبعته ليملكنك ، وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه النبى العربى الذى بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل محمد رسول الله الحديث .

أى و ذكر السهيلى رحمه الله تعالى أن سليطا قال له : ياهوذة إنه سودتك أعظم حائلة : أى بالية ، وأرواح فى النار يعنى كسرى ، لأنه الذى كان توجه ، وإنما السيد من متع بالإيمان ، ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا آمرك بخير مأمور به ، وأنهاك عن شر منهى عنه ، آمرك بعبادة الله ، وأنهاك عن عبادة الشيطان ، فإن فى عبادة الله الجنة ، وفى عبادة الشيطان النار . فان قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت ، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهو المطلع ؛ فقال هوذة : ياسليط سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور ففقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلى رأيى فأجيبك به إن شاء الله تعالى .

ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى

أى وكان بدمشق : أى بغوطتها : أى وهو محل معروف كثير المياه والشجر .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وبعث معه كتابا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق ، و إنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يبقى لك ملكك » وختم الكتاب .

قال شجاع رضي الله تعالى عنه : فخرجت حتى انتهيت إلى بابه ، فأقمت يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . فقال : لاتصل إليه حتى يخرج يوم كذا ، وجعل حاجبه يسألنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه ، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء ، ويقول : إنى قرأت فى الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه فكنت أراه : أى أظنه يخرج بالشأم ، فأراه قد خرج بأرض القرظ : أى وهو ورق أو ثمر السلم ، فأنا أومن به وأصدقه ، وأنا أخاف من الحارث بن أبى شمر أن يقتلنى ، فكان هذا الحاجب يكرمنى ويحسن ضيافتى ، ويخبرنى عن الحارث باليأس منه . ويقول : هو يخاف قيصر ، فخرج الحارث يوما وجلس وعلى رأسه التاج وأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه ، ثم رمى به ، ثم قال : من ينزع منى ملكى ، أنا سائر إليه ، ولو كان باليمن جئته . على بالناس . فلم يزل جالسا يعرض عليه حتى الليل وأمر بالخيل أن تنعل ، ثم قال لى : أخبر صاحبك بما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره الخبر وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبى رضى الله عنه ، بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لاتسر إليه واله عنه ، أى لاتذكره ؛ واشتغل بإيلياء : أى بيت المقدس ، ومعنى إيلياء بالعبرانية بيت الله ، والمراد باشتغاله بذلك أن يهيء لقيصر الإنزال ببيت المقدس ، فإنه نذر المشى من حمص ، وقيل من قسطنطينية إلى بيت المقدس ماشياً شكرا لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس ، وأظهر الله تعالى الروم على فارس ، ففرشوا له بسطا ونثروا عليها الرياحين وهو يمشى عليها حتى بلغ بيت المقدس فجاء إليه كتاب قيصر : أى الذى فيه أنه يلهو عنه ولا يذكره وأنا مقيم فدعانى وقال متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ قلت : غدا ، فأمر لى بمائة مثقال ذهباً ، ووصلنى حاجبه بنفقة وكسوة ، وقال لى ذلك الحاجب : اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام وأخبره أنى متبع دينه .

قال شجاع : فقدمت على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من الحارث ، قال باد : أى هلك ملكه ؛ وأقرأته السلام من الحاجب وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق .

وفى كلام بعضهم وبعض أهل السير على أن الحارث أسلم ؛ ولكن قال : أخاف أن أظهر إسلامى فيقتلنى قيصر . وذكر ابن هشام وغيره أن شجاع بن وهب إنما توجه إلى جبلة ابن الأيهم .

ويقال إن شجاع بن وهب أرسل إلى الحارث وإلى جبلة بن الأيهم ، وإن شجاعاً قال له : ياجبلة إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم ؛ يعنى الأنصار ؛ فآووه ومنعوه ونصروه ، وإن هذا الدين الذى أنت عليه ليس بدين آبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم ، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس ، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة ، وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع ، والأذان بالناقوس ، والجمع بالشعانين ؛ وكان ماعند الله خير وأبقى . قال جبلة : إنى والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتماعهم على من خلق السموات والأرض ، وقد سرنى اجتماع قومى له ، وقد دعانى قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه ، ولكنى لست أرى حقا ولا باطلا وسأنظر .

وفى كلام بعضهم أنه أسلم ورد جواب كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلمه بإسلامه ، وأرسل الهدية ، وكان ثابتا على إسلامه لزمن عمر رضى الله عنه فإنه حج فى خلافته .

أى وفى كلام بعضهم : لما أسلم جبلة بن الأيهم فى أيام عمر رضى الله عنه وكتب إليه يخبره بإسلامه ويستأذنه فى القدوم عليه ، فسر عمر بذلك ، وأذن له ، فخرج فى خمسين ومائتين من أهل بيته ، حتى إذا قارب المدينة عمد إلى أصحابه فحملهم على الخيل ، وقلدها بقلائد الذهب والفضة ، وألبسها الديباج وسرف الحرير ، ووضع تاجه على رأسه ، فلم تبق بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه وزينته . فلما دخل على عمر رضى الله تعالى عنه رحب به وأدنى مجلسه ، وأقام بالمدينة مكرماً ، فخرج عمر رضى الله تعالى عنه حاجا فخرج معه وحين تطوف بالبيت وطئ رجل من فزارة إزاره فانحل ، فلطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه وكسر ثناياه ، أى ويقال فقأ عينه ، فشكا الفزارى ذلك إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، فاستدعاه وقال له : لم هشمت أنفه ، أو قال لم فقأت عينه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة البيت ، لضربت عنقه بالسيف ، فقال له عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك . وفى رواية : وحكم إما بالعفو أو بالقصاص ، فقال جبلة فتصنع بى ماذا ؟ قال : مثل ما صنعت به . وفى رواية : أتقتص له منى سواء وأنا ملك وهذا سوقى ؟ فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : الإسلام سوى بينكما ، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى ، فقال : إن كنت أنا وهذا الرجل سواء فى الدين فأنا أتنصر ، فإنى كنت

أظن يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعزمنى فى الجاهلية، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : إذا أضرب عنقك، فقال فأمهلنى الليلة حتى أنظر فى أمرى، قال : ذلك إلى خصمك فقال الرجل : أمهلته يا أمير المؤمنين ، فأذن له عمر رضى الله تعالى عنه فى الانصراف، ثم ركب فى بنى عمه وهرب إلى القسطنطينية أى فدخل على هرقل وتنصر هناك ومات على ذلك . وقيل عاد إلى الإسلام ومات مسلماً .

وكان جبلة رجلا طوالا طوله اثنا عشر شبراً، وكان يمسح الأرض برجليه وهو راكب، فسرّ هرقل به، وزوجه ابنته، وقاسمه ملكه، وجعله من سماره، وبنى له مدينة بين طرابلس واللاذقية سماها جبلة باسمه يقال إن فيها قبر إبراهيم بن أدهم .

وقيل المحاكمة كانت عند أبى عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه . أى فقد ذكر بعضهم أن جبلة لم يزل مسلما حتى كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فبينما هو فى سوق دمشق إذ وطىء رجلا من مزينة فوثب المزنى فلطم خدّ جبلة ، فأرسله مع جماعة من قومه إلى أبى عبيدة بن الجراح، فقالوا : هذا لطم جبلة ، قال : فليلطمه ، قالوا : مايقبل، قال : لا ،يقبل، قالوا : إنما تقطع يده ، قال : لا ،إنما أمر الله بالقود، فلما بلغ جبلة ذلك، قال: أترونى أنى جاعل وجهى ندا لوجه؟ بئس الدين هذا ، ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم على هرقل .

حجة الوداع

ويقال لها حجة البلاغ ، وحجة الإسلام ، لأنه صلى الله عليه وسلم ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها ، ولأنه ذكر لهم مايحل وما يحرم ، وقال لهم : هل بلغت ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج من المدينة غيرها ، قيل لإخراج الكفار الحج عن وقته، لأن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج فى كل عام أحد عشر يوما حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فى هذه الحجة « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فإن هذه الحجة كانت فى السنة التى عاد فيها الحج إلى وقته وكانت سنة عشر .

قال الجمهور: فرض الحج كان سنة ست من الهجرة أى وصححه الرافعى فى باب السير وتبعه النووى .

وقيل فرض سنة تسع : وقيل سنة عشر انتهى ، وبه قال أبو حنيفة ، ومن ثم قال إنه على الفور . وقيل فرض قبل الهجرة واستغرب .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الحج وأعلم الناس بذلك ،ولم يحج منذ هاجر إلى المدينة غير هذه الحجة ، قال : وأما بعد النبوة قبل الهجرة فحج ثلاث حجات ، أى وقيل حجتين : أى وهما اللتان بايع فيهما الأنصار عند العقبة .

وفى كلام ابن الأثير : كان صلى الله عليه وسلم يحج كل سنة قبل أن يهاجر . وفى كلام ابن الجوزى : حج صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها حججا لا يعلم عددها ، أى وكان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة ، مخالفا لقريش توفيقا له من الله ، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم ، فإنهم قالوا : نحن بنو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأهل الحرم ، وولاة البيت وعاكفو مكة فليس لأحد من العرب منزلتنا فلا تعظموا شيئا من الحل أى كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم ، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الحمس ، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منه إلى المزدلفة ، ويرون ذلك لسائر العرب : قال بعض الصحابة : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى وإنه واقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقا له من الله عز وجل .

وعند خروجه صلى الله عليه وسلم للحج أصاب الناس بالمدينة جدرى بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما أو حصبة ، منعت كثيرا من الناس من الحج معه صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى ، قيل كانوا أربعين ألفا ، وقيل كانوا سبعين ألفا ، وقيل كانوا تسعين ألفا ، وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفا ، وقيل وعشرين ألفا ، وقيل كانو أكثر من ذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : أى عند ذهابه : عمرة فى رمضان تعدل حجة ، أو قال حجة معى » أى قال ذلك تطييبا لخواطر من تخلف . وصوب بعضهم أن هذا إنما قاله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه [] أى إلى المدينة ، قاله لأم سنان الأنصارية لما قال لها : ما منعك أن تكونى حججت معنا ؟ وقالت : لنا ناضحان حج أبو فلان : تعنى زوجها وولدها على أحدهما ، وكان الآخر نسقى عليه أرضا لنا . وقال ذلك أيضا لغيرها من النسوة ، قاله لأم سليم ولأم طلق ولأم الهيثم . ولا مانع أن يكون قال ذلك مرتين : مرة عند ذهابه لما ذكر ، ومرة عند رجوعه لمن ذكر .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم يوم الخميس لست بقين من ذى القعدة أى وقيل يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة ورجحه بعضهم وأطال فى الاستدلال له وذلك سنة عشر نهارا بعد أن ترجل وادهن ، وبعد أن صلى الظهر بالمدينة ، وصلى عصر ذلك اليوم بذى الحليفة ركعتين ، وطاف تلك الليلة على نسائه ، أى فإنهن كن معه صلى الله عليه وسلم فى الهوداج وكن تسعة ، ثم اغتسل ، ثم صلى الصبح أى والظهر ، ثم طيبته عائشة رضى الله تعالى عنها بذريرة : هى نوع من الطيب مجموع من أخلاط الطيب وبطيب فيه مسك ، ثم أحرم صلى الله عليه وسلم أى وذلك بعد أن [ ] اغتسل لإحرامه غير غسله الأول ، وتجرد فى إزاره وردائه ، أى فقد روى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم أحرم فى رداء وإزار ، ولم يغسل الطيب بل كان يرى وبيص المسك فى مفارقه ولحيته الشريفة ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم لبد شعر رأسه بما يلزق بعضه ببعض فلا يشعث .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها « طيبته صلى الله عليه وسلم لحرمه وحله » وعنها رضى الله تعالى عنها قالت : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت » رواه الشيخان . وعنها قالت « كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يطوف على نسائه ، ثم يصبح محرما ينضح طيبا » وبه رد على ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قوله : لأن أصبح مطيبا بقطران أحب إلى من أن أصبح محرما أنضح طيبا . ويؤيد ماقاله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ماتقدم فى الحديبية : من أمره صلى الله عليه وسلم من تطيب قبل إحرامه بغسل الطيب وتقدم مافيه ، أى وصلى كما فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ركعتين أى قبل أن يحرم ، وبه يرد قول ابن القيم رحمه الله تعالى : لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر [ ] وأهل حيث انبعثت به راحلته أى وهى القصواء [ ] أى وهو يرد ماروى عن ابن سعد رحمه الله تعالى ، حج النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة قد ربطوا أوساطهم ، ومن ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إنه حديث منكر ضعيف الإسناد ، وإنما كان صلى الله عليه وسلم راكبا وبعض أصحابه مشاة : ولم يعتمر صلى الله عليه وسلم فى عمره ماشيا ، وأحواله صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تخفى على الناس ، بل هذا الحديث منكر شاذ لا يثبت مثله وكان على راحلته صلى الله عليه وسلم رحل رث يساوى أربعة دراهم وفى رواية « حج صلى الله عليه وسلم على رحل وقطيفة تساوى أو لاتساوى أربعة دراهم ، وقال : اللهم اجعله حجا مبرورا لا رياء فيه ولا سمعة وذلك عند مسجد ذى الحليفة ، وأحرم بالحج والعمرة معا فكان قارنا ،

قال: وقيل أحرم بالحج فقط فكان مفردا، وقيل بالعمرة فقط ، أى ثم أحرم بالحج بعد فراغه من أعمال العمرة فكان متمتعا ، أخذا من قول بعض الصحابة إنه صلى الله عليه وسلم أحرم متمتعا ، وقيل أطلق إحرامه .

وفى كلام السهيلى رحمه الله : واختلفت الروايات فى إحرامه صلى الله عليه وسلم ، هل كان مفردا ، أو قارنا ، أو متمتعا وكلها صحاح إلا من قال كان متمتعا وأراد أنه أهلّ بعمرة .

قال الإمام النووى : وطريق الجمع أى بين من يقول إنه أحرم قارنا ، ومن يقول إنه أحرم مفردا ، ومن يقول إنه أحرم متمتعا أنه أحرم أولا مفردا :أى بالحج ثم أدخل العمرة ، أى وذلك : أى دخول الأضعف وهى العمرة على الأقوى الذى هو الحج من خصائصه صلى الله عليه وسلم فصار قارنا، ويدل لذلك حديث البخارى « أنه صلى الله عليه وسلم أهلّ بالحج ، فلما كان بالعقيق أتاه آت من ربه فقال له : صل بهذا الوادى المبارك ، وقل لبيك بحجة وعمرة معا ، فصار قارنا بعد أن كان مفردا .

فمن روى القرآن اعتمد آخر الأمر ، أى ومنه قول سيدنا أنس رضى الله عنه: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبيك عمرة وحجا » .

ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوى ، وهو الانتفاع والارتفاق بالقران انتهى : أى بالقران المذكور الذى هو إدخال العمرة على الحج ، لأنه يكفى فيه الاقتصار على عمل واحد فى النسكين، أى فلا يأتى بطوافين ولا بسعيين ، أى وليس مراده التمتع الحقيقى، بأن أحرم بعمرة فقط ، ثم بعد فراغه من أعمالها أحرم بالحج كما هو حقيقة التمتع . ومن ثم قال بعضهم: أكثر السلف يطلقون المتعة على القران :

ومن روى الإفراد اعتمد أول الأمر ، ومنه قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وقد سئل عن ذلك « لبى بالحج وحده » أو أن ابن عمر سمعه يقول: لبيك بحج ولم يسمع قوله وعمرة فلم يحك إلا ما سمع ، وأنس رضى الله عنه سمع ذلك: أى سمع الحج والعمرة ، أى فإن ابن عمر رضى الله عنه قيل له عن أنس بن مالك « أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يلبى بالحج والعمرة فقال ابن عمر لبى بالحج وحده ، فقيل لأنس عن ابن عمر ذلك ، فقال أنس رضى الله عنه : مايعدونا إلا صبيانا : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لبيك لبيك عمرة وحجا » أى يصرح بهما جميعا وقال : « إنى لرديف لأبى طلحة وإن ركبتى لتمس ركبة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو يلبي بالحج والعمرة ، وذلك مثبت لماقاله ابن عمر وزائد عليه فليس مناقضا له . أي ودليل من قال إنه أحرم مطلقا مارواه إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « خرج هو وأصحابه رضي الله عنهم مهلين : أي محرمين إحراما مطلقا ينتظرون القضاء » أي نزول الوحي لتعيين مايصرفون إحرامهم المطلق إليه أي بإفراد أو تمتع أو قران » أي فجاءه صلى الله عليه وسلم الوحي أن يأمر من لاهدى معه أن يجعل إحرامه عمرة فيكون متمتعا ، ومن معه هدى أن يجعله حجا فيكون مفردا ، لأن من معه هدى أفضل ممن لاهدى معه ، والحج أفضل من العمرة .

ويدل لكون الصحابة أطلقوا إحرامهم مارواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها «خرجنا نلبي لانذكر حجا ولا عمرة » لكن أجيب عن ذلك بأنهم لايذكرون ذلك مع التلبية وإن كانوا سموه حال الإحرام هذا .

وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليفعل» فلينظر الجمع بين هذا وماقبله .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم « من لم يكن معه هدى وأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا » أي فلا يجعلها عمرة بل يجعل إحرامه حجا ، ولم يذكر القران . وجاء في بعض الطرق « أنه أمر من كان معه هدى أن يحرم بالحج والعمرة معا» .

وفي بعض الروايات « خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة لا يسمى حجا ولا عمرة ينتظر القضاء ، فنزل عليه القضاء وهو بين الصفا والمروة ، فأمر أصحابه من كان منهم أهل بالحج ولم يكن معه هدى أن يجعله عمرة » .

وفي الهدى : الصواب أنه صلى الله عليه وسلم أحرم بالحج والعمرة معا من حين أنشأ الإحرام ، فهو قارن ، ولم يحل حتى حل منهما جميعا وطاف لهما طوافا واحدا وسعيا واحدا كما دلت عليه النصوص المستفيضة التي تواترت تواترا يعلمه أهل الحديث . وماورد أنه صلى الله عليه وسلم طاف طوافين وسعى سعيين لم يصح .

قال : وغلط من قال لبي بالحج وحده ثم أدخل عليه العمرة : أي الذي تقدم في الجمع بين الروايات عن النووي رحمه الله تعالى . ومن قال لبي بالعمرة ثم أدخل عليها الحج : أي وهذا لم يتقدم . ومن قال أحرم إحراما مطلقا لم يعين فيه نسكا ثم عينه بعد إحرامه أي وهو

ما تقدم عن إمامنا الشافعي رضي الله عنه . ومن قال أفرد الحج ، أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالا ، وهذا محمل مافى بعض الروايات . وأفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ولم يعتمر . على أن بعض الحفاظ قال : إنه حديث غريب جدا ، وفيه نكارة شديدة .

ثم لبى صلى الله عليه وسلم أى بعد أن استقبل القبلة [ ] فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وروى أنه زاد على ذلك لبيك إله الخلق لبيك : أى وروى أنه زاد : لبيك حقا ، تعبدا ورقا على تلبيته المذكورة والناس معه يزيدون فيها وينقصون لم ينكر عليهم ، وبه استدل أئمتنا على عدم كراهة الزيادة على تلبيته المشهورة المتقدمة [ ] فكان ابن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها : لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، لبيك والرغباء إليك والعمل .

وأتاه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه الصلاة السلام ، وأمره أن يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية من شعائر الحج ، فعن زيد بن خالد الجهنى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام » فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فانها من شعائر الحج » .

واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا دجانة رضي الله عنه ، وقيل سباع بن عرفطة رضي الله عنه [ ] وولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق رضي الله عنهما ولدها محمد بن أبى بكر رضي الله عنهم فى ذى الحليفة ، وأرسلت إليه صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تغتسل وتستثفر ، أى بخرقة عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن ، وتربط طرفى تلك الخرقة فى شىء تشدة فى وسطها لتمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض وتحرم .

ثم حاضت سيدتنا عائشة رضي الله عنها فى أثناء الطريق بمحل يقال له سرف بكسر الراء ، وكانت قد أحرمت بعمرة ؛ فى البخارى « أنها قالت : وكنت فيمن أهلّ بعمرة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتدخل الحج على العمرة » .

أقول : وقد جاء « أنها قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقال : مايبكيك ياعائشة ؟ » وفى لفظ « مايبكيك ياهنتاه ؟ لعلك نفست : أى حضت ، قلت : نعم : والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا فى هذا السفر ، قال : لا تقولين ذلك ، فهذا شىء كتبه الله على بنات آدم » .

أى واستدل البخارى رحمه الله بهذا على أن الحيض كان فى جميع بنات آدم، وأنكر به على من قال إن الحيض أول ماوقع فى بنى إسرائيل ، وفى لفظ « قال : ماشأنك ؟ قلت : لا أصلى ، قال : لاصبر عليك ، إنما أنت امرأة من بنات آدم ؛ كتب الله عليك ما كتب عليهن ، أهلى بالحج » وفى رواية « ارفضى عمرتك » أى لا تشرعى فى شىء من أعمالها « وأحرمى بالحج » فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج » أى تفعلين كل ما يفعل الحاج وأنت حائض « إلا أنك لا تطوفين بالبيت » ، ففعلت ذلك ؟ أى أدخلت الحج على العمرة ، ووقفت المواقف » فوقفت بعرفة وهى حائض حتى إذا طهرت : أى وذلك يوم النحر ، وقيل عشية عرفة طافت بالبيت وبالصفا والمروة « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حللت من حجك وعمرتك جميعا » .

وذكر بعضهم أن فى هذه الحجة كان جمل عائشة رضى الله عنها سريع المشى مع خفة حمل عائشة ؛ وكان جمل صفية بطىء المشى مع ثقل حملها ، فصار يتأخر الركب بسبب ذلك فأمر صلى الله عليه وسلم أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة ، وأن يجعل حمل عائشة على جمل صفية ، فجاء صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرها ، فقال لها : يا أم عبد الله ، حملك خفيف وجملك سريع المشى ؛ وحمل صفية ثقيل وجملها بطىء ، فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على جملها ، وحملها على جملك ليسير الركب ، فقالت له : إنك تزعم أنك رسول الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : أفى شك أنى رسول الله أنت ياأم عبدالله ؟ قالت : فمالك لاتعدل؟ قال : فكان أبو بكر رضى الله عنه فيه حدة ، فلطمنى على وجهى ، فلامه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما سمعت ماقالت ؟ فقال : دعها فإن المرأة الغيراء لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

قالوا : ولما نزلوا بمحل يقال له العرج فقد البعير الذى عليه زاملته صلى الله عليه وسلم وزاملة أبى بكر ، أى زادهما ، وكان ذلك البعير مع غلام لأبى بكر . فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه للغلام : أين بعيرك ؟ قال : ضللته البارحة . فقال أبو بكر وقد اعترته حدة : بعير واحد تضله ، وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع ويتبسم لا يزيد على ذلك ، فلما بلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضلت جاء بحيس ووضعه بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله تعالى عنه وهو يغتاظ على الغلام هون عليك

ياأبابكر ، فإن الأمر ليس لك ولا إلينا . وقد كان الغلام حريصا على أن لايضل بعيره ، وهذا غذاء طيب قد جاء الله به ، وهو خلف عما كان معه ، فأكل صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ومن كان يأكل معهما حتى شبعوا ، فأقبل صفوان بن المعطل رضى الله تعالى عنه وكان على ساقة القوم ، أى لأن هذا كان شأنه كما تقدم فى قصة الإفك والبعير معه وعليه الزاملة حتى أناخه على باب منزله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟ فقال : مافقدت شيئا إلا قعبا كنا نشرب فيه ؛ فقال الغلام : هذا القعب معى . ولما بلغ سعد بن عبادة وابنه قيسا رضى الله تعالى عنهما أن زاملته صلى الله عليه وسلم قد ضلت جا آ بزاملة وقالا : أى كل واحد منهما : يارسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة ، وهذه زاملة مكانها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء الله بزاملتنا . فارجعا بزاملتكما . بارك الله لكما اه ثم نزل صلى الله عليه وسلم بذى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح أى بعد أن اغتسل بها . أى ثم سار صلى الله عليه وسلم ونزل بالمسلمين ظاهر مكة ودخل مكة نهارا : أى وقت الضحى من الثنية العليا التى هى ثنية كداء بفتح الكاف والمد . قال أبو عبيدة : لا ينصرف ، وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة ، وهى التى يقال لها الآن الحجون التى دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كما تقدم ، ودخل المسجد الحرام صبحا من باب عبد مناف ، وهو باب بنى شيبة المعروف الآن بباب السلام . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أبصر البيت . قال . اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أواعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما وبرا .

وفى مسند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : أخبرنا سعيد بن سالم عن جريج عن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال . اللهم زد هذا البيت » الخ . وفى رواية « كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة فرأى البيت رفع يديه وكبر وقال : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت » الخ .

وعند دخوله صلى الله عليه وسلم المسجد طاف بالبيت : أى سبعا ماشيا ، فعن جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « دخلنا مكة عند ارتفاع الشمس ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم باب المسجد فأناخ راحلته ، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه ، وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا ، فلما فرغ صلى الله

عليه وسلم قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه» رواه البيهقى فى السنن الكبرى بإسناد جيد .

وقيل طاف صلى الله عليه وسلم على راحلته الجدعاء ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم قدم مكة وهو يشتكى ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم مكة وهو يشتكى فطاف على راحلته ، فلما أتى الركن استلمه بمحجن ، فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين» رواه أبوداود ، ورد بأن هذا الحديث تفرد به يزيد بن أبى زياد وهو ضعيف .

على أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يذكر أن ذلك كان فى حجة الوداع ولا فى الطواف الأول من طوافاتها الثلاثة التى هى : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع ؛ فينبغى أن يكون ذلك فى غير الطواف الأول ، بأن يكون فى طواف الإفاضة أو طواف الوداع ، فلا ينافى ما تقدم عن جابر ولا ما فى مسلم عنه أنه قال « طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع على راحلته بالبيت ليراه الناس فيسألوه» وقوله «ورمل فى ثلاث منها: أى يسرع المشى مع تقارب الخطا ، ومشى : أى على هينته فى أربع يستلم الركن اليمانى والحجر الأسود فى كل طوفة ، وابتداء الرمل كان فى عمرة القضاء لما قال المشركون : غدا يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ليرى المشركون جلدهم » ومن ثم قال بعضهم لبعض : هؤلاء الذين زعمتم أن بالحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا كما تقدم ، فلما كانت هذه الحجة فعلوا كذلك فصارت سنة .

قال : وثبت أنه صلى الله عليه وسلم قبل الحجر الأسود وثبت أنه استلمه بيده ثم قبلها . وثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن ؛ ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليمانى ولا قبل يده حين استلمه اهـ .

وعند إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه يستحب أن يقبل ما استلمه به . روى إمامنا الشافعى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال « استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر فاستلمه ، ثم وضع شفتيه عليه طويلا ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا استلم الحجر قال: بسم الله والله أكبر ، وقال بينهما : أى بين الركن اليمانى والحجر (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم شىء من

الأذكار فى غير هذا المحل حول الكعبة ، ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، أى لأنهما ليسا على قواعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه « إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر » أى الأسود تؤذى الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه ، وإلا فاستقبله وهلل وكبر » [ ] وأخذ منه بعض فقهائنا أن من شق عليه استلام الحجر الأسود يسن له أن يهلل ويكبر .

ثم بعد الطواف صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جعل المقام بينه وبين الكعبة أى استقبل جهة باب المحل الذى به المقام الآن ، وهو المراد بخلف المقام ، قرأ فيهما مع أم القرآن (قل يا أيها الكافرون : وقل هو الله أحد) ودخل صلى الله عليه وسلم زمزم فنزع له دلو فشرب منه ، ثم مج فيه ، ثم أفرغها فى زمزم ، ثم قال : لولا أن الناس يتخذونه نسكا لنزعت . أى وتقدم فى فتح مكة أنه صلى الله عليه وسلم قال « لولا أن تغلب بنو عبدالمطلب لانتزعت منها دلوا » ، وانتزع له العباس . ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم خرج إلى الصفا ، وقرأ (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ابدءوا بما بدأ الله به ، فسعى بين الصفا والمروة سبعا راكبا على بعيره » .

وعن إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه ، أن سعيه الذى طاف لقدومه كان على قدميه لا على بعير ، أى فذكر البعير فى هذا السعى غلط من بعض الرواة .

ثم رأيت بعضهم قال : بعض الروايات عن جابر وغيره يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان ماشيا بين الصفا والمروة . ولعل بين الصفا والمروة مدرجة ، أو أنه صلى الله عليه وسلم سعى بين الصفا والمروة بعض المرات على قدميه ، فلما ازدحم الناس عليه ركب فى الباقى . ويدل لذلك أنه قيل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن قومك يزعمون أن السعى بين الصفا والمروة راكبا سنة ، فقال : صدقوا وكذبوا ، فقيل : كيف صدقوا وكذبوا ؟ فقال صدقوا فى أن السعى سنة ، وكذبوا فى أن الركوب سنة ، فإن السنة المشى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى فى السعى ، فلما كثر عليه الناس يقولون هذا محمد هذا محمد حتى خرج العواتق من البيوت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضرب الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب ، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم مشى بين الصفا والمروة ، والأحاديث

الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم ركب فيه وصار صلى الله عليه وسلم فى السعى يخب ثلاثا ويمشى أربعا ، ويرقى الصفا ، ويستقبل الكعبة ، ويوحد الله ويكبره ويقول : لا إله إلا الله والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » أى من غير قتال « ثم يفعل على المروة مثل ذلك » .

واعترض بأن كونه كان يخب ثلاثا ويمشى أربعا كان فى الطوف بالبيت لافى السعى بين الصفا والمروة ، وهذا السياق يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم سعى بعد طواف القدوم .

وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم حج ، فأول شيء بدأ به حين قدم مكة «أنه توضأ ثلاثا ثم طاف بالبيت ولم يذكر السعى» أى وفى مسلم فى سبب نزول قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) أن المهاجرين فى الجاهلية كانوا يهلون بصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة ، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ، ثم يحلقون ، فلما جاءهم الإسلام كرهوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، يرون أن ذلك من أمر الجاهلية ، فأنزل الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) .

وقيل إن سبب نزولها «أن الأنصار كانوا فى الجاهلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة ، وأنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا ، فأنزل الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الآية ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم من لا هدى معه بالإحلال ، أى وإن لم يكن أحرم بالعمرة بأن لم يكن سمع أمره صلى الله عليه وسلم بأن من لا هدى معه يحرم بالعمرة ، فأحرم بالحج قارنا أو مفردا » قال السهيلى رحمه الله : ولم يكن ساق الهدى معه من أصحابه رضى الله تعالى عنهم إلا طلحة ابن عبدالله ، وكذا على كرم الله وجهه جاء من اليمن وقد ساق الهدى معه ، ويأتى ما فيه . أى وأمره صلى الله عليه وسلم من ذكر بالإحلال كان بعد الحلق والتقصير ، لأنه أتى بعمل العمرة فحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب والمخيط ، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية الذى هو اليوم الثامن من ذى الحجة فيهل : أى يحرم بالحج .

وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه الماء ويحملونه معهم فى ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها فى ذلك الزمن . وأمر صلى الله عليه وسلم من معه الهدى أن يبقى على إحرامه أى بالحج قارنا أو مفردا ، حتى قال بعضهم : لو استقبلت من أمرى

ما استدبرت ماسقت الهدى : قال : ويروى أن قائل ذلك هو صلى الله عليه وسلم ، فعن جابر ابن عبدالله رضى الله تعالى عنهما أنه صلى الله عليه وسلم لما تم سعيه قال « لوأنى استقبلت من أمرى مااستدبرت لمأسق الهدى وجعلتها عمرة » قال ذلك جوابا لقول بلغه عن جمع من الصحابة ، ننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر . وفى لفظ : وفرجه يقطر منيا ، أى قد جامع النساء . أى وفيه أنهم لا ينطلقون إلى منى إلا بعد الإحرام بالحج ، لأنهم يحرمون من مكة إلا أن يقال مرادهم أنا كيف نجامع النساء بعد إحرامنا بالحج وكيف نجعلها عمرة بعد الإحرام بالحج كما سيأتى فى بعض الروايات .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان ، فقلت : من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار ، فقال : أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون ؟ » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لو استقبلت الخ » تأسف على فوات أمر من أمور الدين ومصالح الشرع ، كذا قال الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه ، لأنه يرى أن التمتع أفضل ؛ وردّ بأنه لم يتأسف على التمتع لكونه أفضل ، وإنما تأسف عليه لكونه أشق على أصحابه فى بقائه محرما على إحرامه وأمره لهم بالاحلال . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لو تفتح عملَ الشيطان » محمول على التأسف على فوات حظ من حظوظ الدنيا فلا تخالف .

ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه تلك المقالة قام خطيبا فحمد الله تعالى ، فقال : أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لأنا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هديا ولا حللت » وفى رواية « قالوا : كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اقبلوا ما أمرتكم به ، واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به » ففعلوا وأهلوا ، ففسخوا الحج إلى العمرة » وكان من جملة من ساق الهدى أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وعلى رضى الله تعالى عنهم ، فإن عليا كرم الله وجهه قدم إلى مكة من اليمن ومعه هدى . وعن جابر رضى الله تعالى عنه « لم يكن أحد معه هدى غير النبى صلى الله عليه وسلم وطلحة » وفى رواية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه : انطلق وطف بالبيت وحل كما أحل أصحابك ، فقال : يا رسول الله أهللت كما أهللت ، فقال له : ارجع فأحل

كما أحل أصحابك ، قال : يا رسول الله إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد ، فقال : هل معك من هدى ؟ قال : لا ، فأشركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هديه وثبت على إحرامه ، وهذا صريح فى أن إحرامه صلى الله عليه وسلم كان بالحج .

ويمكن الجمع بين رواية أن عليا قدم من اليمن ومعه هدى ، وبين رواية أنه لم يكن معه هدى بأن الهدى تأخر مجيئه بعده ، لأنه تعجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف على الجيش رجلا من أصحابه .

ويؤيد ذلك قول بعضهم : كان الهدى الذى قدم به على كرم الله وجهه من اليمن والذى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مائة ، أى وإلا فالذى أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستون بدنة ، والذى قدم به من اليمن لعلى كان سبعة وثلاثين بدنة ، ولا يخالف ذلك إشراكه له فى الهدى لأنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لاحتمال تلف ذلك الهدى وعدم مجيئه ، والذى فى البخارى لما قدم على كرم الله وجهه من اليمن قال له النبى صلى الله عليه وسلم بم أهللت يا على ؟ قال : بما أهل به النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فأهدوا مكث حراما كما أنت ، أى فإنه تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان أرسل خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى اليمن لهمدان يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء رضى الله تعالى عنه : فكنت ممن خرج مع خالد ، فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبى طالب كرم الله وجهه فأمره أن يقفل خالد بن الوليد ويكون مكانه ، وقال : مر أصحاب خالد ، من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ، ومن شاء فليقفل ، فكنت ممن أعقب مع على كرم الله وجهه ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ، وصلى بنا على كرم الله وجهه ، ثم صفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، فأسلمت همدان جميعا ، فكتب رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان السلام على همدان .

وكان من جملة من لم يسق الهدى أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه ، فإنه لما قدم من اليمن قال له : بم أهللت ؟ قال : أهللت كإهلال النبى صلى الله عليه وسلم ، قال له :

هل معك من هدى ؟ قال : قلت لا ، فأمرنى فطفت بالبيت والصفا والمروة » ورواية الشيخين عن أبي موسى رضى الله تعالى عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : له بم أهللت ؟ فقلت : لبيت بإهلال كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم قال : فقد أحسنت ، طف بالبيت وبالصفا والمروة وأحل » أى بعد الحلق أو التقصير .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان مهلا بالحج فقط أو مع العمرة ، إلا أن يقال جوز لأبي موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم . ومن جملة من لم يسق الهدى أمهات المؤمنين رضى الله تعالى عنهن فأحللن ، أى لأنهن أحرمن إحراما مطلقا ثم صرفنه للعمرة ، أو أحرمن متمتعات أى بالعمرة ، إلا عائشة رضى الله تعـالى عنها فإنها لم تحل أى لأنها أدخلت الحج على العمرة كما تقدم .

وممن أحل سيدتنا فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، أى لأنها لم يكن معها هدى وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما . وشكا علىّ كرم الله وجهه فاطمة رضى الله تعالى عنها للنبي صلى الله عليه وسلم إذ أحلت ، أى فإنه وجدها لبست صبيغا واكتحلت ، فأنـكر عليها ، فقالت رضى الله تعالى عنها : أمرنى أبي بذلك ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم محرّشا له عليها رضى الله تعالى عنها، فصدّقها عليه الصلاة والسلام فى أنه أمرها بذلك ، أى فإنه صلى الله عليه وسلم قال له : صدقت صدقت صدقت ، أنا أمرتها بذلك يا على .

وسأله سراقة بن مالك رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد : فشبك صلى الله عليه وسلم أصابعه فقال : بل لأبد الأبد « دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة » أى وفى رواية « فشبك بين أصابعه واحدة فى أخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج هكذا مرتين بل لأبد الأبد» بالإضافة أى إلى آخر الدهر ، وهذا الجواب بقوله دخلت العمرة فى الحج يدل على أن مراد السائل بالتمتع القران لا حقيقته الذى هو الإحرام بالحج بعد الفراغ من عمل العمرة ، لـكن قول بعضهم : لما كان آخر سعيه صلى الله عليه وسلم على المروة قال « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ، فمن كان منـكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد» الحديث » يدل على أن مراده بالتمتع حقيقته ،

لكن لا يحسن الجواب بقوله دخلت العمرة فى الحج ، إلا أن يقال المراد حصلت العمرة مع الإحرام بالحج لقلب الإحرام بالحج إلى العمرة لأن هذا كله يدل على أنه أمر من أحرم بالحج ممن لاهدى معه أن يقلب إحرامه عمرة .

وأجاب عنه أئمتنا بأن ذلك : أى فسخ الحج إلى العمرة كان من خصائص الصحابة فى تلك السنة ليخالفوا ما كان عليه الجاهلية : من تحريم العمرة فى أشهر الحج ويقولون إنه من أفجر الفجور ، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك وإمامنا الشافعى وجماهير العلماء من السلف والخلف رضى الله عنهم .

وفى مسلم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه « لم يكن فسخ الحج إلى العمرة إلا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » وخالف الإمام أحمد رضى الله عنه وطائفة من أهل الظاهر فقالوا : بل هذا ليس خاصا بالصحابة فى تلك السنة ، أى بل باق لكل أحد إلى يوم القيامة فيجوز لكل من أحرم بالحج وليس معه هدى أن يقلب إحرامه عمرة ويتحلل بأعمالها .

وبعضهم قال : إن قول سراقة رضى الله تعالى عنه معناه أن جواز العمرة فى أشهر الحج خاصة بهذه السنة أو جائزة إلى يوم القيامة ، وفيه أنه لا يحسن الجواب عنه بما تقدم من قوله « دخلت العمرة فى الحج » :

ثم نهض صلى الله عليه وسلم ونهض معه الناس يوم التروية الذى هو اليوم الثامن إلى منى وأحرم بالحج كل من كان أحل ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر بمنى ، والعصر والمغرب والعشاء ، وبات بها تلك الليلة أى وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة . وأمر صلى الله عليه وسلم أن تضرب له قبة من شعر بنمرة ، فأتى عليه الصلاة والسلام عرفة ونزل فى تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء بفتح القاف والمد ، وقيل بضم القاف والقصر ، وهو خطأ كما تقدم .

وفى كلام الأصل أن القصواء والعضباء والجدعاء اسم لناقة واحدة وفيه ما لا يخفى . فرحلت ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته خطبة ذكر فيها تحريم الدماء والأموال والأعراض . ووضع ربا الجاهلية ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس رضى الله تعالى عنه . ووضع الدماء فى الجاهلية ، وأول دم وضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قتلته هذيل فقال : هو أول دم أبدأ به من دماء الجاهلية ، موضوع فلا يطالب به فى الإسلام وأوصى صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا ، وأباح ضربهن غير المبرح إن أتين بما لا يحل ؛

وقضى لهن بالرزق والكسوة بالمعروف على أزواجهن . وأمر صلى الله عليه وسلم بالاعتصام بكتاب الله عز وجل ،أى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،وأخبر أنه لايضل من اعتصم به ، وأشهد الله عز وجل على الناس أنه قد بلغهم مايلزمهم ، فاعترف الناس بذلك . وأمر أن يبلغ ذلك الشاهد الغائب .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ؛ وإنكم لتسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس ، اللهم فاشهد ثلاث مرات » .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم أمر مناديا صار ينادى بكل ماقاله من ذلك : أى وهو ربيعة بن أمية بن خلف أخو صفوان بن أمية وكان صيتا . وصار صلى الله عليه وسلم يقول له : ياربيعة قل: ياأيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا كما تقدم ،فيصرخ به وهو واقف تحت صدر ناقته صلى الله عليه وسلم .

وربيعة هذا ارتد فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه ، فإنه شرب الخمر ، فهرب منه إلى الشام ، ثم هرب إلى قيصر فتنصر ومات عنده .

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه أنه طاف ليلة هو وعمر رضى الله تعالى عنهما للحرس بالمدينة فرأوا نورا فى بيت ، فانطلقوا يؤمونه ، فإذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه لعبد الرحمن : تدرى بيت من هذا ؟ قال: لا ، قال : هذا بيت ربيعة بن أمية ،وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قال : أرى أنا قد أتينا مانهى الله عنه (ولا تجسسوا) فانصرف عمر . ثم إن عمر رضى الله تعالى عنه غرب ربيعة إلى خيبر فكان ما تقدم . وقد رأى ربيعة قبل ذلك فى المنام كأنه فى أرض معشبة مخصبة وخرج منها إلى أرض مجدبة كالحة . ورأى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فى جامعة من حديد عند سرير إلى الحشر ، فقص ذلك على أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال

إن صدقت رؤياك تخرج من الإيمان إلى الكفر ، وأما أنا فإن ذلك دينى جمع لى فى أمة الناس إلى يوم الحشر .

وبعثت إليه صلى الله عليه وسلم أم الفضل زوجة العباس أم عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم لبنا فى قدح شربه أمام الناس ، فعلموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن صائما ذلك اليوم الذى هو التاسع ، أى لأنهم تماروا عندها فى صيامه صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم الذى هو يوم عرفة .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة » أى وبهذا استدل أئمتنا أنه لا يستحب للحاج صوم يوم عرفة الذى هو التاسع من ذى الحجة .

فلما تم صلى الله عليه وسلم خطبته أمر بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا فصلاهما مجموعتين فى وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين : أى لأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر لأنه دخلها فى اليوم الرابع وخرج يوم الثامن ، فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات ، فالجمع للسفر كما يقول إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه كالجمهور لا للنسك كما يقول غيرهم .

أقول : وفيه أن فقهاءنا ذكروا أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل الجمعة فى حجة الوداع مع عزمه على الإقامة أياما : أى تقطع السفر لعدم استيطانه .

ويرد بأنه من أين أنه صلى الله عليه وسلم عزم على الإقامة بمكة المدة التى تقطع السفر هذه دعوى تحتاج إلى دليل . وأيضا عزمه على ذلك إنما هو بعد عوده إلى مكة بعد فراغه من الوقوف والرمى ، ولا ينقطع سفره إلا بوصوله إلى مكة .

والأولى استدلال فقهائنا على وجوب الاستيطان فى إقامة الجمعة بعد أمره صلى الله عليه وسلم لأهل مكة باقامة الجمعة مع أنهم غير مسافرين لعدم استيطانهم للمحل . فما ذهب إليه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه من أن الجمع للسفر لا للنسك فى محله .

وقد رأيت أن مالكا رضى الله تعالى عنه سأل أبا يوسف وقد كان حج مع هرون الرشيد وذلك بحضرة الرشيد ، فقال له : ما تقول فى صلاة النبى صلى الله عليه وسلم بعرفات يوم الجمعة ، أصلى جمعة أم صلى ظهرا مقصورة ؟ فقال أبو يوسف : صلى جمعة ، لأنه خطب لها قبل الصلاة ، فقال مالك : أخطأت ، لأنه لو وقف يوم السبت لخطب قبل الصلاة ،

فقال أبو يوسف : ما الذى صلى ؟ فقال مالك : صلى الظهر مقصورة ، لأنه أسر بالقراءة فصوبه هرون فى احتجاجه على أبى يوسف ، والله أعلم .

ثم ركب صلى الله عليه وسلم راحلته إلى أن أتى الموقف ، فاستقبل القبلة ، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب. وفى الحديث « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى ، أى فى يوم عرفة » كما فى بعض الروايات « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

وجاء أن من جملة دعائه فى ذلك اليوم « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن وسوسة الشيطان ، ومن وسوسة الصدر ، ومن شتات الأمر ، ومن شر كل ذى شر » .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « كان فيما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك ربى شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما . يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين » واستمر كذلك صلى الله عليه وسلم حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة .

أى وخطب صلى الله عليه وسلم على ناقته فى ذلك اليوم . فعن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة رضى الله تعالى عنهم قال : بعثنى عتاب بن أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة فبلغته ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لعابها ليقع على رأسى ، فسمعته يقول : أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه . وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش ، وللعاهر الحجر . ومن دعى إلى غير أبيه أو مولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله له صرفا ولا عدلا ، وجاءه صلى الله عليه وسلم جماعة من نجد فسألوه كيف الحج ؟ فأمر مناديا ينادى : الحج عرفة . من جاء ليلة جمع ، أى المزدلفة قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج » وجمع بفتح الجيم وسكون الميم أيام منى ثلاثة (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) ، أى وقال صلى الله عليه وسلم « وقفت ههنا وعرفة كلها موقف » زاد مالك فى الموطأ « وارفعوا عن بطن عرنة » .

وفى كلام بعضهم نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) يوم الجمعة بعد العصر والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحى .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : اتفق فى ذلك اليوم أربعة أعياد: عيد للمسلمين وهو يوم الجمعة . وعيد لليهود . وعيد للنصارى . وعيد للمجوس، ولم تجتمع أعياد لأهل الملل فى يوم قبله ولا بعده .

ولما نزلت بكى عمر رضى الله تعالى عنه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : «ما يبكيك يا عمر ؟ فقال رضى الله تعالى عنه : أبكانى أنا كنا فى زيادة ، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص ، فقال : صدقت » . فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يعش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ولم ينزل بعدها شىء من الأحكام .

ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنه خلفه ودفع إلى مزدلفة وقد ضم زمام راحلته القصواء التى خطب عليها فى نمرة حتى إن رأسها ليصيب طرف رجليه ، يسير العنق ، حتى إذا وجد فسحة سار النص وهو فوق العنق ، وهو يأمر الناس بالسكينة فى السير ، فلما كان فى الطريق عند الشعب الأبتر نزل فيه فبال وتوضأ وضوءا خفيفا ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة التى هى جمع ، أى وتقدم أن وقوفه صلى الله عليه وسلم بعرفات وإفاضته إلى مزدلفة قبل أن يبعث كان مخالفا فى ذلك لقوله « وصلى المغرب والعشاء مجموعتين فى وقت العشاء » أى مقصورتين بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والضعفة : أى الصبيان أن يرموا ليلا ، أى أن يذهبوا من مزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الزحمة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما « فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيهم أن لا يرموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس » فليتأمل ذلك . فعن عائشة رضى الله عنها « أن سودة رضى الله عنها أفاضت فى النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يأمرها بالدم ولا النفر الذين كانوا معها » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: أنا ممن قدم النبى صلى الله عليه وسلم فى ضعفة أهله وروى ذلك الشيخان . ولم يأذن صلى الله عليه وسلم للرجال فى ذلك إلا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم ، أى فالمراد بالضعفة

الصبيان كما تقدم ، وبهذا استدل أئمتنا على أنه يستحب تقديم النساء والضعفة بعد نصف الليل إلى منى أى وأن يبقى غيرهم حتى يصلوا الصبح مغلسين .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « أنها قالت : فلأن أكون استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما استأذنت سودة أحب إلىّ من مفروح به ، أى لأرمى الجمرة قبل أن يأتى الناس » وفى لفظ « قبل حطمة الناس » لأن سودة رضى الله عنها كانت امرأة ضخمة ثقيلة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تفيض من مزدلفة مع النساء والضعفة .

وفى مسلم « مضت أم حبيبة من جمع بليل» أى فى نصف الليل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « أرسلنى صلى الله عليه وسلم مع ضعفة أهله ، فصلينا الصبح بمنى ورمينا الجمرة ، فلما كان وقت الفجر قام صلى الله عليه وسلم وصلى بالناس: أى بالمزدلفة الصبح مغلسا ثم أتى المشعر الحرام فوقف به : أى وهو راكب ناقته ، واستقبل القبلة ، ودعا الله ، وكبر ، وهلل ووحد ؛ ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا » وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم دعا بالمغفرة لأمته يوم عرفة ، فأجيب بأنه يغفر لها ما عدا المظالم ، ثم دعا بذلك أى بالمغفرة لأمته بمزدلفة ، فأجيب إلى ذلك : أى إلى غفران المظالم ، فجعل إبليس لعنه الله يحثو التراب على رأسه ، فضحك صلى الله عليه وسلم من فعله » وجاء ما بين أن المراد بالأمة من وقف بعرفة .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم دفع : أى من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس: أى قال جابر رضى الله تعالى عنه : وكان المشركون لا ينفرون حتى تطلع الشمس ، وأردف خلفه الفضل بن العباس . وجاءته امرأة تسأله ، فقالت له : يارسول الله إن فريضة الله على عباده الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر . وفى لفظ آخر « فوضع صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر » وفى لفظ آخر «أنه صلى الله عليه وسلم لوى عنق الفضل ، فقال له أبوه العباس رضى الله عنهما : يا رسول الله لويت عنق ابن عمك ؟ قال : رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان ، فلما وصل صلى الله عليه وسلم إلى محسر حرّك ناقته قليلا وسلك الطريق التى تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفلها سبع حصيات ، التقطها

له عبد الله بن عباس رضى الله عنهما من موقفه الذى رمى فيه مثل حصى الخذف » بفتح الخاء المعجمة وإسكان الذال المعجمة ، وهذا لا يخالف ما عليه أئمتنا من أن الأولى أن يلتقط حصى الرمى من مزدلفة .

ويكره أخذه من المرمى لجواز أن يكون التقط له ذلك من مزدلفة ثم سقط منه عند جمرة العقبة ، فأمر ابن عباس بالتقاطه .

لكن الذى فى مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل محسرا : أى الوادى المعروف ، وهو أول منى قال : عليكم بحصى الخذف الذى ترمى به الجمرة ، وهو يدل على أن أخذ الحصى من ذلك أولى ، إلا أن يقال يجوز أن يكون قال ذلك لجماعة تركوا أخذ ذلك من مزدلفة ، وأمر صلى الله عليه وسلم بمثلها ونهى عن أكبر منها ، وقطع صلى الله عليه وسلم التلبية عند الرمى ، وصار يكبر عند رمى كل حصاة وهو راكب ناقته » . وفى رواية « على بغلة » . قال بعضهم : وهو غريب جدا « وبلال وأسامة أحدهما آخذ بخطامها والآخر يظله بثوبه ، لا ضرب ، ولا طرد ، ولا إليك إليك » .

وفى رواية « فرأيت بلالا رضى الله عنه يقود براحلته ، وأسامة بن زيد رضى الله عنه رافعا عليه ثوبه يظله من الحر حتى رمى جمرة العقبة » وخطب صلى الله عليه وسلم على بغلة الشهباء، وقيل على بعير بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض ، وذكر حرمة يوم النحر ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، فقال: « يا أيها الناس أى يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام ، قال : فأى بلد هذا ، قالوا : بلد حرام ، قال : فأى شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » أعادها مرارا « ثم رفع صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وأمرهم صلى الله عليه وسلم بأخذ مناسكهم عنه لعله لا يحج بعد عامه ذلك ، وكان وقوفه صلى الله عليه وسلم بين الجمرات والناس بين قائم وقاعد .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم خطب فى اليوم الأول واليوم الثانى من أيام التشريق وهو أوسطها » ويقال له يوم النفر الأول لجواز النفر فيه كما يقال لليوم الثالث فى أيام التشريق يوم النفر الآخر .

ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة ، أى وهى التى

قدم بها من المدينة وذلك بيده الشريفة لـكل سنة بدنة . قال بعضهم . وفى ذلك إشارة إلى منتهى عمره صلى الله عليه وسلم ، لأن عمره صلى الله عليه وسلم كان فى ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، فنحر صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة لـكل سنة بدنة ، وطبخ له اللحم من لحمها ، وأكل منه : أى أخذ من كل بدنة بضعة ، فجعل ذلك فى قدر وطبخ ، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقته ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرّم الله وجهه فنحر ما بقى وهو تمام المائة ، أى ولعله الذى أتى به علىّ كرّم الله وجهه من اليمن هذا .

وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ قال « أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مائة بدنة نحر منها ثلاثين بدنة ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عليا فنحر مابقى منها وقال له اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ، ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا من كل بعير جذية من لحم واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحثو من مرقها ففعل، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن منى كلها منحر ، وأن فجاج مكة كلها منحر. ثم حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه الشريف : أى حلقه معمر بن عبد الله وقال له : هنا وأشار بيده إلى الجانب الأيمن ، فبدأ بشقه الأيمن فحلقه ثم بشقه الأيسر ، وقسم شعره ، فأعطى نصفه لأبى طلحة الأنصارى » : أى شعر نصف رأسه الأيسر « بعد أن قال : ههنا أبو طلحة » وقيل أعطاه لأم سليم زوج أبى طلحة رضى الله عنهما ، وقيل لأبى كريب « وأعطى من نصفه الثانى » أى الذى هو الأيمن « الشعرة والشعرتين للناس » .

وفى رواية « ناول صلى الله عليه وسلم الحلاق شقه الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة الأنصارى فأعطاه إياه ، ثم ناول الحلاق الشق الأيسر فحلقه وأعطاه أباطلحة ، وقال : اقسمه بين الناس » .

قال فى النور : والحاصل أن الروايات اختلفت فى مسلم . ففى بعضها أنه أعطاه الأيسر ، وفى بعضها أنه أعطاه الأيمن . ورجح ابن القيم أن الذى اختص به أبو طلحة هو الشق الأيسر .

أقول : الذى فى مسلم قال للحلاق « ها وأشار بيده إلى جانبه الأيمن ، فقسم شعره بين من يليه » وفى رواية « فوزعه الشعرة والشعرتين ، ثم أشار إلى الحلاق وإلى جانبه الأيسر فحلقه فأعطاه لأم سليم » وفى رواية « قال ههنا أبو طلحة » وفى لفظ : « أين أبا طلحة ، فدفعه إلى أبى طلحة» .

وفى رواية « ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة فأعطاه إياه ، ثم ناوله الشق الأيسر فحلقه وأعطاه أبا طلحة ، فقال اقسم بين الناس » والجمع ممكن بين هذه الروايات ، والله أعلم .

وعن بعضهم قال ، شقت قلنسوة خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم اليرموك وهو فى الحروب فسقطت فطلبها طلبا حثيثا فعوتب فى ذلك ، فقال : إن فيها شيئا من شعر ناصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنها ما كانت معى فى موقف إلا نصرت بها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال: « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحلاق يحلقه وقد طاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل » .

ثم تطيب صلى الله عليه وسلم ، طيبته عائشة رضى الله عنها بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة ، ويقال له طواف الركن، ويقال له طواف الصدر؛ والأشهر أن طواف الصدر طواف الوداع . وحلق بعض أصحابه وقصر بعض آخر . وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم «اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : والمقصرين ، فأعاد صلى الله عليه وسلم وأعادوا ثلاثا ، وقال فى الرابعة والمقصرين » .

والصحيح المشهور أنه قال ذلك فى هذه الحجة التى هى حجة الوداع كما قال ذلك فى الحديبية كما تقدم ، وقيل لم يقله إلا فى الحديبية ، وبه جزم إمام الحرمين فى النهاية . وقال النووى : ولا يبعد أن يكون وقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم فى الموضعين . قال فى فتح البارى : بل هو المتعين لتضافر الروايات بذلك فى الموضعين ، أى فإن فى مسلم فى حجة الوداع عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يارسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يارسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : ياسول الله وللمقصرين ، قال . وللمقصرين ، ثم نهض صلى الله عليه وسلم راكبا إلى مكة فطاف فى يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر وشرب من نبيذ السقاية » .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما «مر النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة رضى الله عنه فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ » : أى من سقاية العباس رضى الله عنه ، فإنهم كانوا يضعون فى السقاية التمر والزبيب كما تقدم ، فشرب صلى الله عليه وسلم وسقى فضله لأسامة رضى الله تعالى عنه ، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. ثم شرب صلى الله عليه

وسلم من ماء زمزم بالدلو ، قيل وهو قائم ، وقيل وهو على بعير ، والذى نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب » أى وفعل ذلك عند فتح مكة أيضا كما تقدم . وقيل لما شرب صلى الله عليه وسلم صب منه على رأسه الشريف . وعن ابن جريج «أنه صلى الله عليه وسلم نزع الدلو لنفسه » .

وقيل إن هذا يخالف ما تقدم من قوله « لولا أن الناس يتخذونه نسكا لنزعت » ومن قوله يوم فتح مكة « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى منى فصلى بها الظهر » كما اتفق عليه الشيخان ، وقيل صلاه بمكة وبه انفرد مسلم ورجح بأمور .

وجمع بينهما بأنه يجوز أن يكون صلى الظهر بمكة أول الوقت ثم رجع إلى منى فصلاها مرة أخرى بأصحابه ، أى الذين تخلفوا عنه بمنى ، فإنه صلى الله عليه وسلم وجدهم ينتظرونه ، فهى له صلى الله عليه وسلم معادة . قال بعضهم : وهذا مشكل على من لم يجوّز الإعادة .

وعورض هذا بأنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم رمى جمرة العقبة ونحر ثلاثا وستين بدنة ، ونحر على كرّم الله وجهه بقية المائة ، وأخذ من كل بدنة بضعة ، ووضعت فى قدر وطبخت حتى نضجت ، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقه ، وحلق رأسه ، ولبس وتطيب وخطب » فكيف يمكن أن يكون صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمكة أول الوقت ، ويعود إلى منى فى وقت الظهر .

على أن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « أفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم من آخر يومه حين صلى الظهر ، ثم رجع إلى منى » رواه أبو داود .

وأجيب بأن النهار كان طويلا فلا يضر صدور أفعال منه صلى الله عليه وسلم كثيرة فى صدر ذلك اليوم .

على أن ابن كثير رحمه الله ، قال لست أدرى أن خطبته صلى الله عليه وسلم ذلك اليوم أكانت قبل ذهابه أو بعد رجوعه إلى منى؟ .

وأما رواية عائشة رضى الله تعالى عنها المقتضية لكونه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمنى قبل أن يذهب إلى البيت . فأجاب بعضهم عنها بأنها ليست نصا فى ذلك بل تحتمل فليتأمل .

فإن قيل : روى البخارى وأهل السنن الأربعة «أن النبى صلى الله عليه وسلم أخر الزيارة

إلى الليل » وفى لفظ «زار ليلا» قلنا المراد بالزيارة زيارة مجيئه ، لاطواف الزيارة الذى هو طواف الإفاضة .

فقد روى البيهقى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يزور البيت كل ليلة من ليالى منى » وهو قول عروة بن الزبير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخر الطواف يوم النحر إلى الليل ؛ فقد أخذه من قول عائشة المتقدم، وقد علمت ما فيه .

وقد قال بعضهم : الصحيح . من الروايات وعليه الجمهور أنه صلى الله عليه وسلم طاف يوم النحر بالنهار . والأشبه أنه كان قبل الزوال هذا كلامه .

وطافت أم سلمة رضى الله عنها فى ذلك اليوم على بعيرها من وراء الناس . قالت « وطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جانب البيت وهو يقرأ بالطور وكتاب مسطور » .

أى وعورض ذلك « بأنه صلى الله عليه وسلم أرسل أم سلمة رضى الله عنها ليلة النحر فرمت جمرة العقبة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت» فكيف يلتئم هذا مع طوافه قبل الظهر ؟ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ذلك الوقت بمكة .

ويجاب بأنه يجوز أن تكون أم سلمة أخرت طوافها لذلك الوقت وإن كانت قدمت مكة قبل الفجر .

وعورض بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ فى ركعتى الطواف بالطور ولا جهر بالقراءة فى النهار بحيث تسمعه أم سلمة من وراء الناس ، هذا من المحال .

ويجاب بأن كونه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ فى ركعتى الطواف بالطور شهادة نفى على من يثبت . وأم سلمة رضى الله عنها لم تدّع أنها سمعت قراءته صلى الله عليه وسلم . ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال : والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصبح يومئذ ، أى عند قدومه مكة لطواف الوداع عند الكعبة وأصحابه ، وقرأ فى صلاته (والطور) بكمالها. قال : ويؤيد ذلك ماروى عن أم سلمة قالت « شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أشتكى ، قال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة ،ومضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى حينئذ إلى جنب البيت وهو يقرأ (والطور وكتاب مسطور) » .

أى وحينئذ يكون ما تقدم من قول الراوى « وطافت أم سلمة فى ذلك اليوم الذى هو يوم النحر » وقوله فى الرواية الأخرى « أرسل أم سلمة ليلة النحر فرمت جمرة العقبة قبل

النحر ثم مضت فأفاضت » أى طافت طواف الافاضة . وماجاء عن أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن توافى معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة » قال بعضهم : ذكر يوم النحر غلط من الراوى أومن الناسخ ، وإنما هو يوم النفر . ويقال بمثل ذلك فما قبله فليتأمل ، فإنه سيأتى فى بعض الروايات أنه طاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح .

إلا أن يقال إنه صلى الله عليه وسلم مكث بعد الطواف لصلاة الصبح حتى صلاها . وفيه أن بعضهم ذكر أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت ، أى طواف الوداع بعد صلاة الصبح ، والله أعلم ، وطافت فى ذلك اليوم الذى هو يوم النحر عائشة رضى الله عنها بعد أن طهرت من حيضها وكانت حائضا يوم عرفة ، أى كما تقدم . وطافت أيضا صفية رضى الله عنها فى ذلك اليوم .

وسئل صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم عما تقدم بعضه على بعض من الرمى والحلق والنحر والطواف ، فقال : لا حرج : أى لا إثم .

ففى مسلم عن عمرو بن العاصى رضى الله عنه قال « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بمنى على راحلته للناس يسألونه ، فجاء رجل فقال : يارسول الله لم أشعر أن التحلل قبل النحر فحلقت قبل أن أنحر ، فقال : اذبح ولا حرج ، ثم جاءه رجل آخر فقال : يارسول الله لم أشعر أن الرمى قبل النحر فنحرت قبل أن أرمى ، فقال : ارم ولا حرج وجاءه آخر فقال : إنى أفضت إلى البيت قبل أن أرمى ؛ فقال : ارم ولا حرج ، قال : فما سئل عن شىء قدم ولا أخر إلا قال افعل ولا حرج » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أيضا فى تقديم السعى بين الصفا والمروة قبل الطواف بالبيت « أى فمن شاء قدم السعى عقب طواف القدوم ، ومن شاء أخره عن طواف الإفاضة » وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم أتى بالسعى عقب طواف القدوم .

وأقام صلى الله عليه وسلم بمنى ثلاثة أيام يرمى الجمار : أى ماشيا فى ذهابه وإيابه . وأمر صلى الله عليه وسلم شخصا أن ينادى فى الناس بمنى إنها أيام أكل وشرب وباءة . ورمى لكل جمرة من الجمرات الثلاث بعد الزوال ، أى قبل الصلاة للظهر سبع حصيات ، يبدأ بالتى تلى مسجد منى : أى الخيف ويقف عندها للدعاء ، ثم التى تليها وهى الوسطى ثم يقف للدعاء ثم جمرة العقبة ، ولم يقف عندها للدعاء : أى وكان أزواجه صلى الله عليه وسلم

يرمين بالليل. وخطبهم أى الناس فى اليوم الأول من أيام منى كما تقدم ، ويقال لذلك اليوم يوم القر لأنهم يقرون فيه فى منى وهو يوم الرءوس لأكلهم الرءوس فى ذلك اليوم ، وفى اليوم الثانى من أيام منى وهو يوم النفر الأول ، أى ويقال له يوم الأكارع : أى لأكلهم الأكارع فى ذلك اليوم .

وأوصى بذى الأرحام خيرا. فقد خطب صلى الله عليه وسلم فى الحج خمس خطب : الأولى يوم السابع من ذى الحجة بمكة . والثانية يوم عرفة . والثالثة يوم النحر بمنى . والرابعة يوم القر بمنى . والخامسة يوم النفر الأول بمنى أيضا .

ثم نهض صلى الله عليه وسلم من منى فى اليوم الثالث الذى هو يوم النفر الآخر ونفر معه المسلمون بعد الزوال أى وبعد الرمى .

واستأذنه عمه العباس رضى الله عنه فى عدم المَبيت بمنى فى الليالى الثلاث من أجل السقاية فرخص له فى ذلك .

وضربت له صلى الله عليه وسلم قبة بالمحصب وهو الأبطح ، أى ضربها له أبو رافع رضى الله عنه ، وكان على ثقله ولم يأمره صلى الله عليه وسلم بذلك . فعن أبى رافع رضى الله عنه : « لم يأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنزل بالأبطح ، ولكنى جئت فضربت قبة ، فجاء فنزل ؛ وكان صلى الله عليه وسلم قال لأسامة رضى الله عنه : غدا ننزل بالمحصب إن شاء الله » وهو المحل الذى تحالف فيه قريش وكنانة على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، أى وكان ذلك سببا لكتابة الصحيفة .

وفيه أنه تقدم فى فتح مكة أنه صلى الله عليه وسلم نزل بالحجون عند شعب أبى طالب المكان الذى حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب وأنه خيف بنى كنانة الذى تقاسمت قريش فيه جلتهم.

وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر » .

ولما نزل صلى الله عليه وسلم بالمحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة ، ثم إن عائشة رضى الله عنها قالت له : يارسول الله أأرجع بحجة ليس معها عمرة ، فدعا عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقال : اخرج بأختك من الحرم ، ثم افرغا من طوافكما حتى تأتيانى ههنا بالمحصب ، قالت : فقضى الله العمرة ، وفى لفظ «فاعتمرنا

من التنعيم مكان عمرتى التى فاتتنى ، وفرغنا من طوافها فى جوف الليل ، فأتيناه صلى الله عليه وسلم بالمحصب فقال : فرغتما من طوافكما ، قلنا نعم ، فأذن فى الناس بالرحيل » وفى رواية « فلقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعد من مكة وأنا منهبطة إليها ، أوأنا مصعدة وهو منهبط منها » .

واعترض كيف يأتى قولها عمرتى التى فاتتنى مع قوله صلى الله عليه وسلم « قد حللت من حجتك وعمرتك » وكيف أقرها صلى الله عليه وسلم على ذلك .

وأجيب بأنها لما رأت صواحبها أتين بعمرة ثم بحج وهى لم تأت إلا بحج أحبت أن تأتى بعمرة أخرى زائدة على الحج وإن كانت العمرة مندرجة فيه ، وأقرها صلى الله عليه وسلم تطييبا لخاطرها ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان معها إذا هويت الشىء الذى لا مخالفة فيه للشرع تابعها عليه . وبهذا استدل أئمتنا على جواز الإحرام بالعمرة قبل طواف الوداع .

وأمر صلى الله عليه وسلم الناس أن لا ينصرفوا : أى إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت: أى الذى هو طواف الوداع .

ورخص صلى الله عليه وسلم فى ترك المؤمنين ذلك للحائض التى قد طافت طواف الإفاضة قبل حيضها كصفية أم المؤمنين رضى الله عنها ، فإنها حاضت بعد طواف الإفاضة ليلة النفر من منى . أى وقالت : ماأرانى إلا حابستكم لانتظار طهرى وطواف الوداع ؛ فقال لها صلى الله عليه وسلم: أوما كنت طفت يوم النحر؟ » أوفى لفظ : « ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر ؟ قالت بلى ، قال : لا بأس انفرى معنا » وفى رواية « قال يكفيك ذلك » أى لأنه هو طواف الركن الذى لا بد لكل أحد منه ، بخلاف طواف الوداع لا يجب على الحائض ولايلزمها الصبر لتطهر وتأتى به ، ولادم عليها فى تركه .

قال الإمام النووى رحمه الله : وهذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة ، إلا ماحكى عن بعض السلف وهو شاذمردود .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى تلك الليلة ، وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى بضم الكاف والقصر : وهو عند باب شبيكة متوجها إلى المدينة : أي التى خرج منها لما فتح مكة كما تقدم .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من المسجد من باب الحزورة ، ويقال له باب الحناطين . وجاء عن جابر رضى الله عنه « أن خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة كان

عند غروب الشمس فلم يصلّ حتى أتى سرف » قال بعضهم : لعل هذا كان فى غير حجة الوداع ، فإنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت بعد صلاة الصبح فاذا أخره إلى وقف الغروب هذا غريب جدا هذا كلامه . وماروى أنه صلى الله عليه وسلم رجع بعد طواف الوداع إلى المحصب غير محفوظ .

أقول : هذا جمع به الإمام النووى رحمه الله بين الروايات المتقدمة عن عائشة حيث قال : ووجه الجمع أنه صلى الله عليه وسلم بعث عائشة مع أخيها بعد نزوله المحصب ، وواعدها أن تلحقه بعد اعتمارها ، ثم خرج هو صلى الله عليه وسلم بعد ذهابها فقصد البيت ليطوف طواف الوداع ، ثم رجع بعد فراغه من طواف الوداع فلقيها وهو صادر وهى داخلة لطواف عمرتها ، ثم لما فرغت لحقته وهو فى المحصب .

قال : وأما قولها فأذن فى أصحابه فخرج ومر بالبيت وطاف فمتأول بأن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، وإلا فطوافه صلى الله عليه وسلم كان بعد خروجها إلى العمرة وقبل رجوعها ، وأنه فرغ قبل طوافها للعمرة هذا كلامه فليتأمل ، فكانت مدة دخوله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وخروجه منها عشرة أيام ، وهذا السياق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يأت بعمرة بعد حجه ، وهو لايناسب القول بأنه أحرم مفردا بالحج ، بل يدل للقول بأنه أحرم قارنا أو نواهما بعد إطلاق الإحرام ، أو أدخل الحج على العمرة .

وفى كلام بعضهم لم يعتمر صلى الله عليه وسلم تلك السنة عمرة مفردة لا قبل الحج ولا بعده ولو جعل حجه منفردا لكان خلاف الأفضل ، أى لأنه لم يقل أحد إن الحج وحده من غير اعتمار فى سنته أفضل من القران .

وفى كلام بعض آخر : أجمعوا على أنه لم يعتمر بعد الحج ، فتعين أن يكون متمتعا تمتع قران .

وقد يطلق الإفراد على الإتيان بأعمال الحج فقط وإن كان قد أحرم بهما معا كما أن القران قد يطلق على الإتيان بطوافين وسعيين . فمن روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أفرد الحج أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالا .

ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فى هذه الحجة التى هى حجة الوداع .

ولما طاف صلى الله عليه وسلم سبعا وقف فى الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة فدعا الله وألزق جسده: أى صدره الشريف ووجهه بالملتزم.

أى ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدير خم بقرب رابغ جمع الصحابة وخطبهم خطبة بين فيها فضل على كرم الله وجهه، وبراءة عرضه مما تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التى ظنها بعضهم جورا وبخلا، والصواب كان معه كرم الله وجهه فى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب » أى وفى لفظ فى الطبرانى « فقال: يا أيها الناس إنه قد نبأنى اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبى إلا نصف عمر الذى يليه من قبله، وإنى لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب، وإنى مسئول، وإنكم مسئولون فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت، فجزاك الله خيرا، فقال صلى الله عليه وسلم: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد » الحديث « ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته، أى فقال: إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى، ولن تتفرقا حتى تردا علىّ الحوض »، وقال فى حق على كرم الله وجهه لما كرر عليهم: ألست أولى بكم من أنفسكم ثلاثا، وهم يجيبونه صلى الله عليه وسلم بالتصديق والاعتراف، ورفع صلى الله عليه وسلم يد على كرم الله وجهه وقال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار » وهذا أقوى ما تمسكت به الشيعة والإمامية والرافضة على أن عليا كرم الله وجهه أولى بالإمامة من كل أحد، وقالوا هذا نص صريح على خلافته سمعه ثلاثون صحابيا وشهدوا به، قالوا: فلعلى عليهم من الولاء ما كان له صلى الله عليه وسلم عليهم، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « ألست أولى بكم » وهذا حديث صحيح ورد بأسانيد صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح فى صحته كأبى داود وأبى حاتم الرازى. وقول بعضهم إن زيادة اللهم وال من والاه إلى آخره موضوعة مردود، فقد ورد ذلك من طرق صحح الذهبى كثيرا منها.

وقد جاء أن عليا كرم الله وجهه قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أنشد الله من ينشد يوم غدير خم إلا قام ، ولا يقوم رجل يقول أنبئت أو بلغني إلا رجل سمعت أذناه ووعى قلبه ، فقام سبعة عشر صحابيا وفى رواية ثلاثون صحابيا ، وفى المعجم الكبير ستة عشر . وفى رواية اثنا عشر ، فقال : هاتوا ما سمعتم ، فذكروا الحديث ، ومن جملته « من كنت مولاه فعلى مولاه » وفى رواية « فهذا مولاه » وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه وكنت ممن كتم ، فذهب الله ببصرى ، وكان على كرم الله وجهه دعا على من كتم .

قال بعضهم : ولما شاع قوله صلى الله عليه وسلم « من كنت مولاه فعلىّ مولاه » فى سائر الأمصار وطار فى جميع الأقطار ، بلغ الحارث بن النعمان الفهرى ، فقدم المدينة فأناخ راحلته عند باب المسجد ، فدخل والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله أصحابه ، فجاء حتى جثا بين يديه ، ثم قال : يامحمد إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك ، وإنك أمرتنا أن نصلى فى اليوم والليلة خمس صلوات ونصوم شهر رمضان ونزكى أموالنا ونحج البيت فقبلنا ذلك منك ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعى ابن عمك ففضلته ، وقلت : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فهذا شىء من الله أو منك ؟ فاحمرت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : والله الذى لا إله إلا هو إنه من الله وليس منى ، قالها ثلاثا ، فقام الحارث وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » وفى رواية « اللهم إن كان مايقول محمد حقا فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فوالله مابلغ باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه فخرج من دبره فمات ، وأنزل الله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) الآية ، وكان ذلك اليوم الثامن عشر من ذى الحجة » وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيدا فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد فى حدود الأربعمائة فى دولة بنى بويه . وما جاء : من صام يوم ثمانى عشرة من ذى الحجة كتب الله له صيام ستين شهرا . قال بعضهم قال الحافظ الذهبى هذا حديث منكر جدا أى بل كذب .

فقد ثبت فى الصحيح مامعناه «أن صيام شهر رمضان بعشرة أشهر» فكيف يكون صيام يوم واحد يعدل ستين شهرا هذا باطل ، هذا كلامه فليتأمل .

وقد رد عليهم فى ذلك بما بسطته فى كتابى المسمى بالقول المطاع فى الرد على أهل

الابتداع لخصت فيه الصواعق للعلامة ابن حجر الهيتمى ، وذكرتَ أن الرد عليهم فى ذلك من وجوه :

أحدها أن هؤلاء الشيعة والرافضة اتفقوا على اعتبار التواتر فيما يستدلون به على الإمامة من الأحاديث ، وهذا الحديث مع كونه آحادا طعن فى صحته جماعة من أئمة الحديث كأبى داود وأبى حاتم الرازى كما تقدم ، فهذا منهم مناقضة ؛ ومن ثم قال بعض أهل السنة : ياسبحان الله من أمر الشيعة والرافضة إذا استدللنا عليهم بشىء من الأحاديث الصحيحة قالوا هذا خبر واحد لايغنى ، وإذا أرادوا أن يستدلوا على مازعموا أتوا بأخبار باطلة كاذبة لاتصل إلى درجة الأحاديث الضعيفة التى هى أدنى مراتب الآحاد التى منها أنه قال لعلى أخى ووصيي وخليفتى فى دينى بكسر الدال وخبر : أنت سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين . وخبر : سلموا على علىّ بإمرة الناس ، فإنها أحاديث كاذبة موضوعة مفتراة عليه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثانيها أن اسم المولى يطلق على عشرين معنى ، منها : أنه السيد الذى ينبغى محبته ويجتنب بغضه ، ويؤيد إرادة ذلك « أن سبب إيراد ذلك أن عليا كرم الله وجهه تكلم فيه بعض من كان معه باليمن من الصحابة وهو بريدة ، قدم هو وإياه عليه صلى الله عليه وسلم فى تلك الحجة التى هى حجة الوداع ، وجعل يشكوه له صلى الله عليه وسلم لأنه حصل له منه جفوة ، فجعل يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يابريدة لاتقع فى على ، فإن عليا منى وأنا منه ، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلى مولاه » فقال ذلك لبريدة خاصة . ثم لما وصل صلى الله عليه وسلم إلى غدير خم أحب أن يقول ذلك للصحابة عموما أى فكما عليهم أن يحبونى فكذلك ينبغى أن يحبوا عليا . وعلى تسليم أن المراد أنه أولى بالإمامة ، فالمراد فى المآل لا فى الحال قطعا ، وإلا لكان هو الإمام مع وجوده صلى الله عليه وسلم ، والمآل لم يعين له وقت ، فمن أين أنه عقب وفاته صلى الله عليه وسلم ، وجاز أن يكون بعد أن يعقد له البيعة ويصير خليفة ، ويدل لذلك أنه كرم الله وجهه لم يحتج بذلك إلا بعد أن آلت إليه الخلافة ردا على من نازعه فيها كما تقدم . فسكوته كرم الله وجهه عن الاحتجاج بذلك إلى أيام خلافته ، قاض على كل من له أدنى عقل فضلا عن فهم بأنه لانص فى ذلك على إمامته عقب وفاته صلى الله عليه وسلم .

ثالثها أنه تواتر النقل عن على كرم الله وجهه، أنه صلى الله عليه وسلم لم ينص عند موته على خلافة أحد لا هو ولا غيره ، فقد قيل له كرم الله وجهه كما يأتى : حدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ماسمعت ، فقال : لا والله لئن كنت أول من صدّق به لا أكون أول من كذب عليه ، لو كان عندى من النبى صلى الله عليه وسلم عهد فى ذلك ما تركت القتال على ذلك ولو لم أجد إلا بردتى هذه . وفى رواية : ماتركت أخا بنى تيم وعدى يعنى أبا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما ينوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ولقاتلتهما بيدى .

رابعها أنه لو كان هذا الحديث نصا على إمامته لم يسعه الامتناع من متابعة عمه العباس رضى الله تعالى عنه لما قال له العباس : اذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان هذا الأمر فينا علمنا . وأيضا لو كان الحديث نصا لـكان لما قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير ، واحتج عليهم أبو بكر رضى الله تعالى عنه بأن الأئمة من قريش قالوا له : قد ورد النص بخلافة على كرم الله وجهه ، ولم يكن بين ذكر الحديث فى غدير خم وبين ذلك إلا نحو شهرين ، فاحتمال النسيان على علىّ والعباس وعلى جميع الأنصار رضى الله تعالى عنهم من أبعد البعيد . على أنه ورد أنه لما قيل لعلى إن الأنصار قالوا منا أمير ومنكم أمير قال كرم الله وجهه : هلا ذكرت الأنصار قول النبى صلى الله عليه وسلم « يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم » فكيف يكون الأمر فيهم مع الوصاية بهم ، ودعوى الرافضة والشيعة أن الصحابة رضوان الله عليهم علموا هذا النص ولم يعملوا به عنادا غير مسموعة إذ هى ظاهرة البطلان ، لأن فى ذلك تضليلا لجميع الصحابة وهم رضى الله تعالى عنهم معصومون عن أن يجتمعوا على ضلالة .

ومن العجب العجيب أن بعض غلاة الرافضة يقول بتكفير الصحابة بسبب ذلك ، وأن عليا كرم الله وجهه كفر لأنه أعان الكفار على كفرهم .

وأما دعواهم أن عليا إنما ترك النزاع فى أمر الخلافة تقية وامتثالا لوصيته صلى الله عليه وسلم أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا فكذب وافتراء ، إذ كيف يجعله إماما على الأمة ويمنعه أن يسل سيفا على من امتنع من قبول الحق ؟ وكيف منع سل السيف على أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله تعالى عنهم مع قلة أتباعهم وكثرة أتباعه ، وسله على معاوية رضى الله تعالى عنه مع وجود من معه من الألوف ، ولما ساغ له أن يقول كما تقدم ،

لو كان عندى من النبى صلى الله عليه وسلم عهد فى ذلك ماتركت أخا بنى تيم وعدى ينوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ، ولما بين سبب تركه لمقاتلة أبى بكر وعمر وعثمان ومقاتلته لمعاوية بأن أبا بكر اختاره صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعناه فولاها عمر فبايعناه وأعطيت ميثاق لعثمان ، فلما مضوا بايعنى أهل الحرمين وأهل المصرين البصرة والكوفة ، فوثب فيها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتى ولا علمه كعلمى ولا سابقته كسابقتى وكنت أحق بها منه : يعنى معاوية رضى الله تعالى عنه كما سيأتى . ومن ثم لما قيل للحسن المثنى ابن الحسن السبط إن خبر « من كنت مولاه فعلى مولاه » نص فى إمامة على كرم الله وجهه قال : أما والله لو يعنى النبى صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان لأفصح لهم ولقال لهم يا أيها الناس هذا وال بعدى والقائم عليكم بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، ووالله لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليه فى ذلك ثم تركه كان أعظم خطيئة .

وقد سئل الإمام النووى رحمه الله : هل يستفاد من قول النبى صلى الله عليه وسلم «من كنت مولاه فعلىّ مولاه » أنه كرم الله وجهه أولى بالإمامة من أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما . فأجاب إنه لايدل على ذلك ، بل معنى ذلك عند العلماء الذين هم أهل هذا الشأن وعليهم الاعتماد فى تحقيق ذلك« من كنت ناصره ومواليه ومحبه ومصافيه فعلىّ كذلك »

وقد قيل فى سبب ذلك أن أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما قال لعلى كرم الله وجهه : لست مولاى ؛ وإنما مولاى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك . ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحليفة بات بها ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان كره أن يدخل المدينة ليلا .

ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهارا من طريق المعرس بفتح الراء المشددة .

باب ذكر عمره صلى الله عليه وسلم

قد اعتمر صلى الله عليه وسلم : أى بعد الهجرة أربع عمر . فقد قال بعضهم : لاخلاف أن عمره صلى الله عليه وسلم لم تزد على أربع أى كلهن فى ذى القعدة ، مخالفا

للمشركين ، فإنهم كانوا يكرهون العمرة فى أشهر الحج ويقولون هى من أفجر الفجور أى كما تقدم .

وأول تلك الأربعة عمرة الحديبية ، أى وكانت فى ذى القعدة التى صده فيها المشركون عن البيت .

وثانيها عمرته صلى الله عليه وسلم من العام المقبل ، أى وهى عمرة القضاء ، وكانت فى ذى القعدة كما تقدم . وعن قتادة رضى الله تعالى عنه «كان المشركون فجروا عليه صلى الله عليه وسلم حيث ردوه فى الحديبية وكان فى ذى القعدة ، فاقتص الله منهم وأدخله مكة فى ذلك الشهر الذى هو ذو القعدة ، وأنزل الله (الشهر الحرام بالشهر الحرام) .

وثالثها عمرته صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين ، وكانت من الجعرانة ، وكانت فى ذى القعدة ، ودخل صلى الله عليه وسلم مكة ليلا ، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت بها . ومن ثم خفيت على الناس كما تقدم .

ورابعها عمرته صلى الله عليه وسلم مع حجة الوداع : أى التى دخلت فى الحج بناء على أنه أحرم قارنا أو التى أدخلها على الحج بناء على أنه أحرم بالحج خصوصية له ، أو عينهما بعد أن أحرم مطلقا على ماتقدم فإنه أحرم لخمس بقين من ذى القعدة. وقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها « اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا سوى التى قرنها بحجة الوداع » .

وأخرج البخارى ومسلم « أنه صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة إلا التى فى حجته » أى فإنه لم يوقعها فى ذى القعدة ، بل أوقعها فى ذى الحجة تبعا للحج . وأما إحرامه بها فكان فى ذى القعدة فى خمس بقين منه كما تقدم .

وأخرجا أيضا أن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال : كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها وإنا لنسمع صوتها بالسواك تستن ، فقلت: يا أبا عبد الرحمن اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب ؟ قال نعم ، فقلت لعائشة: أى أمتاه ألا تسمعين مايقول أبو عبد الرحمن ؟ قالت : وما يقول ؟ قلت : يقول اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رجب ، فقالت : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ، ماعتمر عمرة إلا وهو شاهدها ، وفى رواية إلا وهو معه ، وما اعتمر فى رجب قط ، أى وإنما عتمر فى ذى القعدة .

ولكن روى الدارقطنى رحمه الله عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة فى رمضان فأفطر وصمت وقصر وأتممت » قال

فى الهدى إنه غلط عليها وهو الأظهر ، فإنه صلى الله عليه وسلم مااعتمر فى رمضان قط .
أقول : وزاد بعضهم أنه اعتمر أيضا عمرتين عمرة فى رجب وعمرة فى شوال فيكون اعتمر ستة . إلاأن يقال : يجوزأن يكون مستند القائل بأنه اعتمرفى رجب قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما المتقدم ، وقد تقدم رده وجاز أن يكون قوله اعتمر فى شوال أى خرج للعمرة فى شوال وهى العمرة التى كانت فى ضمن حجة الوداع ، والله أعلم .

باب ذكر نبذ من معجزاته صلى الله عليه وسلم

التى يمكن التحدى بها ، سواء تحدى بها بالفعل كالقرآن وتمنى اليهود الموت أولا .
وتلك المعجزة اصطلاحا هى الحاصلة له صلى الله عليه وسلم بعدالبعثة إلى وفاته . وأما الأمور الحاصلة له بين يدى أيام مولده وبعثته ، وقبل ذلك من الأمور الخارقة للعادة الغريبة الموهنة للكفر ، التى يعجز عن بلوغها قوى البشر ، ولايقدرعليها إلاخالق القوى والقدر ، لأنها فى الاصطلاح يقال لها إرهاصات وتأسيسات للرسالة ، ولاتسمى فى الاصطلاح معجزات.

وهى إذا تليت على قلب المؤمن زادته إيمانا ، وإذا تفكر فيها ذوالبصيرة واليقين زادته إيقانا ، فإن كل من أرسله الله عز وجل لم يخله من آية أيده بها مخالفة للعادات ، لكون ما يدعيه من الرسالة مخالفا لها ، فيستدل بتلك الآية على صدقه فيما يدعيه ، لأن اقترانها بدعواه الرسالة تصديق له فيها .

وقدكانت للأنبياء : أى الرسل معجزات مختلفة ، أى وهو صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل معجزة ، وأعظمهم آية ، وأظهرهم برهانا أى فقد جاء «مامن الأنبياء من نبى إلاوقد أعطى من الآيات ما آمن عليه البشر» : أى آمنوا بسبب إظهاره « وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله عزوجل إلى» وهوالقرآن لأنه الذى تحداهم به «فأرجوأن أكون أكثرهم تبعايوم القيامة».

أى فإنه لما غلب السحر فى زمن موسى عليه الصلاة السلام جاءهم بجنسه فى معجزاته ، فأتى العصا ، وفلق البحر . ولما غلب الطب فى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام جاءهم بجنسه ، فأحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص . ولما غلبت الفصاحة وقول الشعر فى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام جاءهم بالقرآن . وهذا السياق يدل على أن المعجزة خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويوافق ذلك قول صاحب المواقف وشرحه ، وهى : أى المعجزة بحسب الاصطلاح عبارة عما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله :

لكنه قال فى شروط المعجزة : الرابع أن يكون أى الأمر الخارق للعادة ظاهرا على يد مدعى النبوة ليعلم أنه تصديق له انتهى . فيحتمل أنه أراد بالنبوة الرسالة . ويحتمل أنه أراد بها مايعم الرسالة للشخص نفسه ، لأن النبي غير الرسول مرسل لنفسه ، ودعواه النبوة متضمنة لدعواه الرسالة لنفسه ، فهو رسول إلى نفسه ، فتكون المعجزة عامة فى حق الرسول والنبي الذى ليس برسول .

ومما يؤيد هذا الثانى قول النسفى رحمه الله فى عقائده : وأيدهم ، قال السعد رحمه الله : أى الأنبياء بالمعجزات الناقضات للعادات .

ثم قال : وقد روى بيان عددهم فى بعض الأحاديث. قال السعد على ماروى« أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وفى رواية ، مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفا » ويؤيده أيضا قول الإمام السنوسى فى شرح عقيدته الكبرى : إن معجزة النبي غير الرسول ، يجوز أن تتأخر بعد موته ، بخلاف معجزة الرسول فإن فيها خلافا إلى آخر ماذكر . ومما يؤيد هذا الثانى أيضا مانقله فى الخصائص الصغرى عن بعضهم وأقره : فرض الله على الأنبياء إظهار المعجزات ليؤمنوا بها ، وفرض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتنوا بها انتهى : فقد قابل بين المعجزة والكرامة . وفيه تصريح بأنه يجب على النبي غير الرسل إظهار المعجزة .

وعن القرافى المالكى رحمه الله أنه يجب على النبى أنه يخبر بنبوته ، وذكر فى الأصل أن الغرض ذكر نبذة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإلا فمعجزاته صلى الله عليه وسلم كالبحر المتدافق بالأمواج .

وقد ذكر بعض العلماء أن معجزاته صلى الله عليه وسلم لاتنحصر . وفى كلام بعض آخر أنه صلى الله عليه وسلم أعطى ثلاثة آلاف معجزة : أى غير القرآن ، فإن فيه ستين ، وقيل سبعين ألف معجزة تقريبا .

قال فى الخصائص : قال الحليمى : وليس فى شيء معجزات غيره ماينجو نحو اختراع الأجسام ، فإن ذلك من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ، هذا كلامه .

وفيه أن هذا معارض بقول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام (إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير) الآية . والغرض ذكر تلك النبذة مجموعة وإن كان أكثرها قد سبق لكنه مفرق ، أى وأنبه على ماتقدم بقولى أى كما تقدم ، وأسكت عن ذلك فيما لم يتقدم.

فمن معجزاته صلى الله عليه وسلم وهو أعظمها القرآن ، أى لأنه تعالى أتى به مشتملا على أخبار الأمم السالفة وسير الأنبياء الماضية التى عرفها أهل الكتاب ، وهو صلى الله عليه وسلم أمى لايقرأ ولا يكتب ، ولا عرف بمجالسة الكهان والأحبار ، لأنه صلى الله عليه وسلم قد نشأ بين أظهرهم فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية والأمم السالفة التى اشتمل عليها ، أى ومن كان من العرب يكتب ويقرأ ويجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن خصوصا عن المغيبات المستقبلة الدالة على صدقه ، لوقوعها على ما أخبر به . وقد أعجز الفصحاء البلغاء ، أى لحسن تأليفه والتآم كلماته ، بهرت العقول بلاغته ، وظهرت على كل قول فصاحته ، أحكمت آياته وفصلت كلماته ، فحارت فيه عقولهم ، وتبلدت فيه أحلامهم ، وهم رجال النظم والنثر ، وفرسان السجع والشعر .

وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر ، لأن نظمه لم يكن كنظام الرسائل والخطب ، ولا الأشعار وأسجاع الكهان .

وقد تحداهم ودعاهم إلى معارضته والإتيان بأقصر سورة منه ، أى وهو دليل قاطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل له ذلك إلا وهو واثق مستيقن أنهم لايستطيعون ذلك ، لكونه من عند الله ، إذ يستحيل أن يقول صلى الله عليه وسلم ذلك وهو يعلم أنه الذى تولى نظمه ولم ينزل عليه من عند الله ، إذ لايأمن أن يكون فى قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وشعر وخطابة قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة ، وهو من جنس كلامهم ، فيصير كذابا ، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك إلى المحاربة التى فيها قتل صناديدهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم ، أى لأن النفوس إذا قرعت بمثل هذا استفرغت الوسع فى المعارضة ، فهو ممتنع فى نفسه عن المعارضة ، خلافا لمن قال إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها ، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن الإعجاز فى الأولى أكمل وأتم ، وهو اللائق بعظيم فضل القرآن .

ومن ثم لما جاءه الوليد بن المغيرة وكان المقدم فى قريش بلاغة وفصاحة ، وكان يقال له ريحانة قريش كما تقدم ، وقال له صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ ، فقرأ صلى الله عليه وسلم (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وقال له أعده ، فأعاد ذلك قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر ، وإنه ليعلو ولا يعلى

عليه . وفى رواية قرأ عليه (حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب) الآيات فانطلق حتى أتى منزل أهله بنى مخزوم فقال : والله كلام محمد ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إلى آخر ما تقدم، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش : قد صبأ الوليد ، والله لتصبأنّ قريش كلها ، فقال أبو جهل لعنه الله : أنا أكفيكموه ، فقعد على هيئة الحزين فمر به الوليد ، فقال له : مالى أراك كئيبا؟ قال : وما يمنعنى أن أحزن، وهذه قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك ، وزعموا أنك إنما زينت قول محمد لتصيب من فضل طعامه ، فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش أنى من أكثرهم مالا وولدا ، وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام ؟ فانطلق مع أبى جهل حتى أتى مجلس بنى مخزوم فقال : هل تزعمون أن محمدا كذاب فهل رأيتموه كذبكم قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : فتزعمون أنه مجنون فهل رأيتموه خرفكم قط ؟ أى أتى بالخرافات من القول ؟ قالوا : لا ، قال : تزعمون أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة ؟ قالوا لا ، فعند ذلك قالت له قريش ، فما هو يا أبا المغيرة ؟ فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر .

وقد سمع أعرابى رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر) فسجد ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : سجدت لفصاحة هذا الكلام . وسمع آخر رجلا يقرأ (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فقال : أشهد أن مخلوقا لن يقدر على مثل هذا الكلام .

أى ولما سمع الأصمعى من جارية خماسية أو سداسية فصاحة فعجب منها ، فقالت له : أو تعدّ هذا فصاحة بعد قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره وقد أوتى من الفصاحة والبلاغة الحظ الأوفى، فسمع صبيا فى المكتب يقرأ (وقيل ياأرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر) رجع عن المعارضة ومحا ما كتبه . وقال والله ماهذا من كلام البشر . قال بعضهم : ولم يتحدّ صلى الله عليه وسلم بشىء من معجزاته إلا بالقرآن . قال بعضهم : كل جملة من القرآن معجزة ، وحفظ من التبديل والتحريف على ممر الدهور ، وقارئه لا يمله ، وسامعه لا يمجه ، بل لا يزال مع تكريره وترديده غضا طريا ، تتزايد حلاوته ، وتتعاظم محبته ، وغيره من الكلام ولو بلغ الغاية يمل من الترداد ويعادى ، إذا أعيد يؤنس به فى الخلوات

ويستراح بتلاوته من شدائد الأزمات ، واشتمل على جميع ماشتملت عليه جميع الـكتب الإلهية وزيادة .

وقد قال بعض بطارقة الروم لما أسلم لعمر رضى الله تعالى عنه : إن آية (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) جمعت جميع ماأنزل على عيسى عليـــه الصلاة والسلام من أحوال الدنيا والآخرة .

قال الحليمى فى منهاجه : ومن عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة وحجة ، ولم يكن هذا لنبى قط ، إنما يكون لـكل منهم دعوة ، ثم يكون له حجة غيرها ، وقد جمعهما الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن، فهو دعوة وحجة ،دعوة بمعانيه ، حجة بألفاظه .

وكفى الدعوة شرفا أن تكون حجتها معها ، وكفى حجتها شرفا أن لا تنفصل دعوتها عنها . وجمع كل شيء أى خصوصا الإخبار بالمغيبات ، وتوجد على طبق ماأخبر به . والإخبار عن القرون السالفة ، كقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام ، وقصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين . والأمم الماضية كقصص الأنبياء مع أممهم ، وتيسره للحفظ ؛ ولا تنقضى عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، ولاتزيغ به الأهواء .

ومنها شق صدره الشريف صـلى الله عليه وسلم ، أى والتـآمه من غير حصول أدنى ضرر ولا مشقة مع تكرر ذلك أربعا أو خمسا كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس: أى لما أخبر قريشا بأنهأسرى به إلى بيت المقدس كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بموت النجاشى يوم موته، وصلاته عليه مع أصحابه؛ فقال المنافقون : انظروا هذا يصلى على علج نصرانى : أى لم يره قط ، فأنزل الله تعالى (وإن من أهل الـكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليـكم) الآية .

ومنها انشقاق القمر كما تقدم .

ومنها أن الملأ من قريش لما تعاقدوا على قتلهصلى الله عليه وسلم فى دار الندوة، وجاءوا إلى منزله صلى الله عايه وسلم ، وقعدوا إلى بابه ، فخرج عليهم وقد خفضوا أبصارهم ، وسقطت ذقونهم فى صدورهم ، وأقبل صلى الله عليه وسلم حتى قام على رءوسهم فقبض قبضة من تراب ، والقبضة بضم القاف : الشيء المقبوض ، وبفتحها : المرة الواحدة ،

وقال « شاهت الوجوه » أى قبحت ، وألقاها على رءوسهم ، فكل من أصابه شىء من ذلك قتل يوم بدر كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم هزم القوم يوم حنين بقبضة من تراب رمى بها فى وجوههم كما تقدم له فى بدر مثل ذلك .

ومنها نسج العنكبوت عليه صلى الله عليه وسلم فى الغار ، أى وعلى بعض أتباعه كما تقدم .

ومنها ماوقع لسراقة رضى الله تعالى عنه ، من غوص قوائم فرسه فى الأرض الجلد كما تقدم فى خبر الهجرة .

ومنها در الشاة التى لم ينز الفحل عليها كما تقدم فى قصة شاة أم معبد . وفى قصة أخرى عن أبى العالية قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبياته التسعة يطلب طعاما وعنده ناس من أصحابه فلم يجد ، فنظر إلى عناق فى الدار مانتجت قط ». فمسح مكان ضرعها ، فدفقت بضرع مدلى بين رجليها ، فدعا بقعب فحلب فيه ، فبعث إلى أبياته قعبا ، ثم قعبا ، ثم حلب فشرب وشربوا » .

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه أن يعز الله به الإسلام فكان كذلك كما تقدم .

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعلى أن يذهب عنه الحر والبرد فلم يشك واحدا منهما وكان كرم الله وجهه يلبس ثياب الشتاء فى الصيف وثياب الصيف فى الشتاء ولا يتأثر كما تقدم .

أى ومن ذلك ماحدث به بلال رضى الله تعالى عنه قال : « أذنت فى غداة باردة فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلم ير فى المسجد أحدا ، فقال : أين الناس ؟ فقلت : حبسهم البرد . فقال : اللهم أذهب عنهم البرد ، قال : فلقد رأيتهم يتروحون فى الصلاة » .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه وقد أصابه مرض واشتد به وسمعه يقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى ، وإن كان متأخرا فاشفنى ، وإن كان بلاء فصبرنى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف قلت ؟ فأعاد ذلك عليه ، فمسح صلى الله عليه وسلم بيده المباركة الشريفة ، ثم قال : اللهم اشفه ، فما عاد ذلك المرض إليه .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لحذيفة رضى الله تعالى عنه فى الخندق ليلة انهزام الأحزاب ، بأن الله يذهب عنه البرد ، فكان كأنه يمشى فى حمام كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عينى على كرم الله وجهه وهو أرمد ، فعوفى من ساعته كما تقدم فى خيبر .

أى ومنها أنه صلى الله عليه وسلم بصق فى نحر كلثوم بن الحصين وقد رمى فيه بسهم يوم أحد فبرأ كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل على أثر سهم فى وجه أبى قتادة فى غزاة ذى قرد ، فما ضرب عليه ولا قاح كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم تفل على شجة عبد الله بن أنيس فلم تؤلمه كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه يوم خيبر فبرئت كما تقدم .

أى ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على رجل ورأس زيد بن معاذ رضى الله تعالى عنه حين أصابهما السيف عند قتل كعب بن الأشرف فبرآ كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على ساق بن على الحكم يوم الخندق وقد انكسرت ، فبرأ مكانه ولم ينزل عن فرسه كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على يد معوذ بن عفراء وقد قطعها عكرمة بن أبى جهل يوم بدر ، وجاء يحملها فألصقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتصقت كما تقدم .

ومنها أن محمد بن حاطب يحدث عن أمه أنها ولدته بأرض الحبشة وأنها خرجت به ، قالت : حتى إذا كنت من المدينة على ليلة أو ليلتين طبخت لك طعاما ففنى الحطب ، فذهبت أطلب ، فتناولت القدر فانكفأت على ذراعك ، فقدمت المدينة ، فأتيت بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هذا محمد بن حاطب ، وهو أول من سمى بك : أى بعد الإسلام قالت : فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فيك ومسح على ذراعك ودعا لك ثم تفل على يدك ، ثم قال : « أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافى لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » قالت : فما قمت من عنده صلى الله عليه وسلم حتى برئت يدك .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم نفث على عاتق خبيب وقد أصيبت يوم بدر بضربة على عاتقه حتى مال شقه فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه، فالتصق كما تقدم .

ومنها رد عين قتادة بعد أن سالت على خده ، فكانت أحسن عينيه كما تقدم .

ومنها أن ضريرا شكا إليه صلى الله عليه وسلم ذهاب بصره وأنه لا قائد له ، فقال له صلى الله عليه وسلم : توضأ وصلّ ركعتين ولقنه دعاء فدعا به فأبصر لوقته .

أى ومنها أن رجلا ابيضت عيناه ، فكان لا يبصر بهما شيئا ، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر . قال بعضهم : رأيته وهو ابن ثمانين يدخل الخيط فى الإبرة .

ومنها أن عتبة بن فرقد السلمى كان يشم منه رائحة الطيب ولا يمس طيبا ، لكونه صلى الله عليه وسلم نفث فى يده الشريفة ومرّ بها صلى الله عليه وسلم على جسده . قال بعض نساء عتبة : كنا أربع نسوة مامنا امرأة إلا وهى تجتهد فى الطيب لتكون أطيب من صاحبتها ومايمس عتبة الطيب ، وإذا خرج إلى الناس ، قالوا : ماشممنا ريحا أطيب من ريح عتبة ، فقلن له يوما : إنا لنجهد فى الطيب ولأنت أطيب ريحامنا فممّ ذلك؟ فقال : أخذنى الشرا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكوت إليه ذلك ، فأمرنى أن أتجرد فتجردت وقعدت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وألقيت ثوبى على فرجى ، فنفث صلى الله عليه وسلم فى يده الشريفة ودلك بها الأخرى ثم مسح ظهرى وبطنى بيديه فعبق هذا الطيب من يديه يومئذ ، وإلى ذلك أشار صاحب الأصل بقوله رحمه الله ورحمنا به :

وعتبة لما مسه راح عاطرا　　　يضوع الشذا منه بأعطر مايحوى

ومنها دعوته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بأن الله يعلمه التأويل والفقه فى الدين ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما « ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وقال : اللهم علمه الكتاب » ، وفى لفظ « الحكمة » وعنه رضى الله عنه ، قال : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم الخلاء فوضعت له وضوءا ، فلما خرج قال : من وضع هذا ؟ فأخبر ، فقال : اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، قال : اللهم بارك فيه ، وانشر منه فكان كما دعا » .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لجمل جابر رضى الله عنهما ، فصار سابقا بعد أن كان مسبوقا كما تقدم .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأنس بطول العمر وكثرة المال والولد فكان كما دعا . فقد ذكر أنه عاش فوق المائة ، وأخبر عن نفسه أنه أكثر الأنصار مالا ، ولم يمت حتى رأى مائة واد من صلبه ، وقد كان دفن مائة وعشرين من أولاده حين قدم الحجاج البصرة ، وولد له بعد ذلك .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأم أبى هريرة رضى الله عنهما بالإسلام فأسلمت . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « كنت أدعو أمى للإسلام وهى مشركة فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقلت : يا رسول الله قد كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىّ ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أمّ أبى هريرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اهد أم أبى هريرة للإسلام ، فخرجت مستبشرا بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جئت قصدت إلى الباب فإذا هو مجاف : أى مردود ، فسمعت أمى حسّ قدمى ، فقالت : على رسلك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، فاغتسلت ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، فقلت : يارسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك ، وهدى أمّ أبى هريرة ، فحمد الله وقال خيرا .

ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم فى تمر حائط جابر رضى الله عنه بالبركة ، فأوفى منه ما عليه وهو ثلاثون وسقا بسبب دين استدانه والده من يهودى ، وفضل بعد ذلك ثلاثة عشر وسقا . وفى رواية : سبعة عشر وسقا ، أى مع قلة ما كان فيه من التمر حتى قال جابر رضى الله عنه : كنت أود أن يؤدى الله دين والدى ولا أرجع إلى إخوتى بتمرة واحدة فإن النخل فى ذلك العام لم يحمل إلا القليل ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودى فى أن يصبر إلى عام قابل وهو يأبى ويقول : يا أبا القاسم لا أنظره ؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف فى النخيل ، ثم قال : يا جابر جذّ ، أى اقطع واقض ، فأخذت فى الجذاذ ووفيته ثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا ، فجئته صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك ، وقال : أخبر بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذهبت فأخبرته فقال : لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركنّ فيها .

وفى لفظ آخر عن جابر : توفى أبى وعليه دين فعرضت على غرمائه أن يأخذوا النخل بما عليه . فأبوا ولم يروا أن فيه وفاء ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : إذا جذذته ووضعته فى المربد فأعلمنى فجذذته ، فلما وضعته فى المربد آذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء ومعه أبو بكر وعمر فجلس عليه ودعا بالبركة ، أى وهذا محمل رواية : ودعا صلى الله عليه وسلم فى تمر جابر بحذف حائط .

وقد يقال : يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم طاف فى النخل أولا ودعا ، ثم لما قطع التمر ووضع فى المربد جاء وجلس عليه ودعا فلا مخالفة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ادع غرماءك فأوفهم ، فما تركت أحدا له دين إلا قضيته وفضل مثله ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشرته ، فقال : أشهد أنى رسول الله .

ومنها استسقاؤه صلى الله عليه وسلم فأمطرت السماء أسبوعا ، ثم شكى له من كثرة المطر فاستصحى لهم فانجاب السحاب كما تقدم .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم دعا على عتيبة بالتصغير ابن أبى لهب بأن يسلط عليه كلب فافترسه الأسد من بين القوم كما تقدم ، أى والأسد إنما يسمى كلبا لأنه يشبه الكلب فى أنه إذا بال رفع رجله ، ومن ثم قيل : إن كلب أهل الكهف كان أسدا . وحكى أنه كان رجلا يسمى بالكلب لملازمته للحراسة . ويرده ماجاء ليس فى الجنة من الدواب إلا كلب أهل الكهف ، وحمار العزير ، وناقة صالح ، وتقدم ذلك مع زيادة . وأما عتبة مكبرا فقد أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه معتب هذا هو المشهور وبعضهم عكس ، فقال : عتبة المكبر هو عقير الأسد ، وعتيبة المصغر هو الذى أسلم يوم الفتح .

ومنها شهادة الشجرة له صلى الله عليه وسلم بالرسالة فى خبر الأعرابى الذى دعاه إلى الإسلام ، فقال : هل من شاهد على ما تقول ؟ قال : نعم هذه الشجرة ادعها ، فدعاها فأقبلت فاستشهدها فشهدت أنه كما قال ثلاثا ثم رجعت إلى منبتها .

ومنها أمره صلى الله عليه وسلم للشجرتين اللتين كانتا بشاطئ الوادى أن يجتمعا ليستتر بهما عند قضاء الحاجة ، فاجتمعتا ثم افترقتا وذهبتا إلى محلهما كما تقدم فى غزاة خيبر .

ومنها أمره صلى الله عليه وسلم أنسا أن يتلطف إلى نخلاته يقول لهن ، أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجتمعن ليقضى حاجته بينكن ، فلما قضى حاجته أمره أن يأمرهن بالعود إلى أماكنهن فعدن كما تقدم .

ومنها مجيء الشجرة إليه صلى الله عليه وسلم لتظله وتسلم عليه . فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم نام : أي فى الشمس فجاءت شجرة تشق الأرض حتى قامت عليه، فلما استيقظ ذكر له ذلك . فقال : هى شجرة استأذنت ربها عزوجل فى أن تسلم عليّ فأذن لها .

ومنها حنين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم كما تقدم . ومنها تسبيح الحصا فى كفه صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

أى ومنها تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه صلى الله عليه وسلم آمين آمين آمين كما تقدم .

ومنها تسبيح الطعام بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم ومنها إعلام الشاة المسمومة له صلى الله عليه وسلم بأنها مسمومة كما تقدم . ومنها شكوى البعير له صلى الله عليه وسلم قلة العلاف وكثرة العمل كما تقدم .

أى ومنها شكوى بعض الطيور له صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ بيضه أو فراخه . فقد جاء « أن حمرة جاءت فوق رأسه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أيكم فجع هذه ؟ فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضها، فقال: رده رده رحمة لها» . وفى لفظ : « من فجع هذه بفرخيها ؟ فقلنا : نحن ، فقال صلى الله عليه وسلم : ردوهما إلى موضعهما » ولا مانع من وجود البيض مع الفراخ .

ومنها سجود البعير له صلى الله عليه وسلم الذى استصعب على أهله وصار كالكلب الكلب لا يقدر أحد أن يقرب إليه كما تقدم .

ومنها سجود الغنم له صلى الله عليه وسلم فى بعض حوائط الأنصار كما تقدم .

ومنها تكليم الجمل له صلى الله عليه وسلم كما تقدم .

ومنها تكليم الحمار له صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وهو اليعفور كما تقدم .

ومنها شهادة الجمل عنده صلى الله عليه وسلم أنه لصاحبه الأعرابى دون من ادعاه . ففى المعجم الكبير للطبرانى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه ، قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصرنا بأعرابى أخذ بخطام بعيره حتى وقف على النبى صلى الله عليه وسلم ونحن حوله ، فقال : السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم السلام . وجاء رجل آخر كأنه حرسى ، فقال الحرسى : يا رسول الله هـذا الأعرابى سرق سرب البعير ، فرغا البعير ساعة وحنّ فأنصت له رسول الله

صلى الله عليه وسلم ساعة فسمع رغاءه وحنينه ، فلما هدأ البعير أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال للرجل : انصرف عنه فإن البعير شهد عليك أنك كاذب فانصرف ، وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على الأعرابى ؟ فقال : أى شيء ، قلت حين جئت لى ، قال : قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله اللهم صلّ على محمد حتى لا تبقى صلاة ، وبارك على محمد حتى لا تبقى بركة ، اللهم سلم على محمد حتى لايبقى سلام ، اللهم وارحم محمدا حتى لايبقى رحمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عزوجل أبداها لى والبعير ينطق بعذرك وإن الملائكة قد سدوا الأفق .

أى ومنها سؤال الظبية له صلى الله عليه وسلم ، أن يخلصها لترضع ولدها وتعود ، فخلصها ، وعادت وتلطفت بالشهادتين. فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظبية مربوطة إلى خباء ، فقالت : يا رسول الله خلصنى حتى أذهب فأرضع خشفى ثم أرجع فترّ بطنى ، فقال لها : صيد قوم وربيطة قوم، ثم استحلفها أن ترجع ، فحلفت له ، فحلها فمكثت قليلا ثم جاءت وقد نفضت ضرعها ، فربطها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى خباء أصحابها فاستوهبها منهم فوهبوها له فحلها » .

وعن زيد بن أرقم نحو هذا ، وزاد فأنا والله رأيتها لتسبح فى البرية وتقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وذكر بعضهم أن حديث الغزالة موضوع :

أى ومنها شهادة الذئب له صلى الله عليه وسلم بالرسالة كما تقدم .

ومنها شهادة الضبّ له صلى الله عليه وسلم بالرسالة كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم عن مصارع المشركين ببدر ، فلم يعد أحد منهم من مصرعه كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن طائفة من أمته يغزون البحر ، وأن أم حرام بالراء المهملة بنت ملحان منهم » فكان كذلك كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان رضى الله عنه بأنه تصيبه بلوى شديدة فأصابته وقتل فيها .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى » والأثرة : بضم الهمزة وسكون الثاء المثلثة أى يستأسر عليكم غيركم بأمور

الدنيا، فكان ما وقع فى زمن معاوية فى وقعة الجمل وصفين، وفى زمن ولده يزيد فى وقعة الحرة كما تقدم .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه لا يبقى أحد من أصحابه بعد المائة : أى من الهجرة. والذى ينبغى أن تكون المائة من حين وفاته صلى الله عليه وسلم، لأن أبا الطفيل رضى الله عنه آخر من مات من الصحابة فكان موته بعد المائة من الوفاة .

وعن أبى الطفيل رضى الله عنه قال « وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسى ، وقال : يعيش هذا الغلام قرنا فعاش مائة سنة » .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات وهو باب واسع جدا .

فمن ذلك أنه جىء إليه صلى الله عليه وسلم برجل سرق ، فقال : اقتلوه ، فقيل له إنه سرق . فقال : اقطعوه ، ثم أتى به بعد إلى أبى بكر رضى الله عنه وقد سرق فقطع ، ثم ثالثة ورابعة إلى أن قطعت قوائمه ، ثم جىء به إلى أبى بكر وقد سرق ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : لا أجد لك شيئا إلا ما قضى به فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أمر بقتلك ، فإنه كان أعلم بذلك ، ثم أمر بقتله .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لقيس بن خرشة العبسى رضى الله عنه وقد قال له « يا رسول الله أبايعك على ما جاء من الله ، وعلى أن أقول الحق يا قيس عسى أن مر بك الدهر أن يليك ولاة لا تستطيع أن تقول معهم الحق ، فقال قيس : لا والله لا أبايعك على شىء إلا وفيت به ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذن لا يضرك شىء » وكان قيس رضى الله عنه يعيب زيادا وابنه عبيدالله بن زياد ومن بعده ، فبلغ ذلك عبيدالله ابن زياد ، فأرسل إليه فقال له : أنت الذى تفترى على الله وعلى رسوله ؟ فقال : لا والله ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفترى على الله ورسوله ؟ قال : ومن هو ؟ قال : من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : ومن ذلك ؟ قال : أنت وأبوك ومن أمركما . قال : وأنت الذى تزعم أنك لا يضرك بشر ؟ قال نعم ، قال : لتعلمن اليوم أنك كاذب ، ائتونى بصاحب العذاب ، فمال قيس عند ذلك فمات .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لزوجاته « أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ؟ وأيتكن صاحبة الجمل الأدبب » بالدال المهملة والفك لغة فى الأدب بالإدغام : وهو كثير الشعر « يقتل حولها قتلى كثير وتنجو بعدما كادت » فكانت تلك عائشة رضى الله عنها ، فإنه

لما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه كانت عائشة بمكة ، لأنها خرجت إلى مكة وهو محاصر وكلمها مروان بن الحكم فى عدم الخروج ، وقال لها : لاتخرجى يا أماه ، فجاء إليها طلحة والزبير رضى الله عنهما بعد أن بايعا عليا على كره ، واستأذنا عليا كرم الله وجهه فى العمرة فأذن لها فقدما مكة ، وخرجت بنو أمية من المدينة ولحقت بمكة قبل المبايعة لعلىّ ، فخرج مروان وغيره من أهل المدينة ، وجاء إلى عائشة رضى الله عنها يعلى بن أمية رضى الله عنه وكان عاملا لعثمان باليمن . فلما بلغه حصار عثمان قدم لنصرته فسقط من على بعيره فى أثناء الطريق فكسر فخذه ، وبلغه قتل عثمان ، فلا زالوا بعائشة حتى وافقت على الخروج إلى العراق فى طلب دم عثمان رضى الله عنه ، ودفع لها ذلك الجمل يعلى بن أمية اشتراه بمائتى دينار ، وأعان الزبير بأربعمائة ألف دينار ، وصار يقول : من خرج فى طلب دم عثمان فعلىّ جهازه ، فحمل سبعين رجلا من قريش ، وطلبت عائشة رضى الله عنها عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن يكون معها . فقال : معاذ الله أن أدخل فى الفتنة ، ويقال إن طلحة والزبير دعوا عبد الله بن عمر رضى الله عنهم إلى الخروج معهم ، فقال لهم : أما تخافون الله أيها القوم ، وتدعوا هذا الأباطيل عنكم؟ وكيف أضرب فى وجه على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالسيف وقد عرفت فضله وسابقته ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنكما بايعتماه وسألتماه القيام بهذا الأمر ثم نكثتما بعد أن جعل الله عليكما شهيدا ؛ وإنه مابدل ولا غير . والقاتل لعثمان رضى الله تعالى عنه أخو زعيمتكم ورئيستكم يعنى عائشة وأخوها محمد بن أبى بكر رضى الله عنهم ، فإنه أخذ بلحيته فضربها حتى تقلقلت أضراسه وضربه بالمشقص ، فلما كانت عائشة رضى الله عنها فى أثناء الطريق سمعت كلابا تنبح ، فسألت عن ذلك المحل ، فقيل لها : هذا الحوأب ؛ فأرادت الرجوع لما تذكرت ماقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم. أى فإنها صرخت وأناخت بعيرها ، وقالت: والله أناصاحبة الحوأب ، ردونى ردونى ردونى . فعند ذلك يقال إن طلحة والزبير أحضرا خمسين رجلا شهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب ، وأن المخبرلها كذاب .

قال الشعبي : وهى أول شهادة زورت فى الإسلام ، وقال لها الزبير رضى الله عنه : ولعل الله أن يصلح بك بين الناس ؛ فلما بلغ عليا كرم الله وجهه توجه عائشة ومن ذكر معها إلى العراق توجه إلى العراق بعد أن كان أرادالذهاب إلى الشام وقام فى الناس ، وقال: ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالئوا على سخط إمارتى ، وإنى خارج إليهم ، ثم

جاءه الخبر أن ستين ألف شيخ تبكى تحت قميص عثمان ، وهو منصوب على منبر دمشق ومعلق فيه أصابع زوجة عثمان ، فقال : أمني يطلبون دم عثمان ؟ .

ولما أراد الخروج جاءه عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تخرج منها : أى المدينة ، فوالله لئن خرجت منها لا يرجع إليها سلطان المسلمين فسبوه ، وقالوا له : يا ابن اليهودية مالك ولهذا الأمر ؟ فقال لهم على كرم الله وجهه : دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم إن طلحة والزبير وأم المؤمنين وصلوا إلى البصرة ووقع بينهم وبين أهل البصرة مقتلة كبيرة ، بعد أن افترقوا فرقتين إحداهما تقول صدقت وبرت ، يعنى عائشة وجاءت بالمعروف . وقالت الأخرى كذبت . ثم انحازت الأخرى إلى عسكر أم المؤمنين وقهروا أهل البصرة ، ونادى منادى الزبير وطلحة : ألا من كان عنده أحد ممن غزا المدينة فليأت به ، فجيء بهم كما يجاء بالكلاب وكانوا ستمائة فقتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير . وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام : إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله ، فوافقنا خيار أهل البصرة وخالفنا شرارهم ، ولم يفلت من قتلة أمير المؤمنين عثمان من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير ، والله مقيده إن شاء الله . وكتبوا لأهل الكوفة بمثله وكتبوا إلى أهل اليمامة بمثل ذلك ، وكتبوا إلى أهل المدينة بمثل ذلك .

ثم سار على كرم الله وجهه إلى البصرة ، ثم أرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم إليه فنفروا إليه بعد أمور يطول ذكرها ، وكانوا سبعة آلاف . والتقى الجيشان جيش على كرم الله وجهه وجيش عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، بعد أن كتب لطلحة والزبير : أما بعد ، فقد علمتما أنى لم أرد البيعة حتى أكرهت عليها ، وأنتما ممن رضى ببيعتى وألزمنى إياها ، فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا إلى الله وارجعا عما أنتما عليه فانك ياطلحة شيخ المهاجرين ، وأنت يازبير فارس قريش ، لودفعتما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه لكان أوسع لكما من خروجكما منه والسلام .

وكتب لعائشة رضى الله عنها : أما بعد ، فإنك قد خرجت من بيتك تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين المسلمين ، وطلبت بزعمك دم عثمان وأنت بالأمس تؤلبين عليه فتقولين فى ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلوا نعثلا فقد كفر ، قتله الله ؛ واليوم تطلبين بثأره ، فاتقى الله وارجعى إلى بيتك وأسبلى عليك سترك قبل أن يفضحك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فلما قرءوا الكتابين عرفوا أنه على الحق .

وعند ذلك خرج طلحة والزبير رضى الله عنهما على فرسين وخرج إليهما على كرم الله وجهه ، ودنا كل واحد من الآخر. فقال لهما علىّ : لعمرى لقد أعددتما خيلا ورجالا وسلاحا ، فاتقيا الله ولا تكونا (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) ألم تكونا : أخوىّ فى الله تحرمان دمى وأحرم دمكما ؟ فقال له طلحة رضى الله عنه : ألبت الناس على عثمان ، فقال له على كرم الله وجهه : أنتما خذلتماه حتى قتل ، فسلط الله اليوم على أشرنا على عثمان مايكره ، ثم توافقوا على الصلح ، وقتل من كان له دخل فى قتل عثمان رضى الله عنه .

وبات الفريقان على ذلك . وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة وباتوا يتشاورون . ثم اتفقوا على إنشاب الحرب ؛ فلما كان وقت الغلس ثاروا ووضعوا السلاح ، فثار الناس ، فخرج طلحة والزبير فى وجوه الناس. وقالا : ماهذا ؟ قالوا : طرقنا جيش علىّ فقالا : علمنا أن عليا غير سفيه حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمة : فقام على كرم الله وجهه فى وجوه الناس . وقال : ماهذا ، قالوا : طرقنا جيش عائشة . فقال : لقد علمت أن طلحة والزبير غير سفيهين حتى يستفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، ونشبت الحرب فألبسوا هودج عائشة رضى الله عنها الدروع ، ووقفت على الجمل ، وصار كل من أخذ زمامه قتل ، وقتل طلحة رضى الله عنه جاءه سهم غرب يقال أرسله له مروان بن الحكم وهو كان فى جيش أم المؤمنين . وفر الزبير رضى الله عنه لما قال له على كرم الله وجهه : يا زبير أتذكر لما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تقاتلنى وأنت ظالم لى ؟ فقال : والله لو ذكرت ذلك ما قاتلتك ولا سرت سيرى هذا ، ولكن رجوعى عين العار فقال له على كرم الله وجهه : ترجع بالعار ولا ترجع بالنار ، فترك وذهب ، وصار الهودج مثل القنفذ من كثرة النشاب . فعند ذلك عقروا الجمل ، ووقع الهودج على الأرض ، وجعلت تقول عائشة رضى الله عنها : يابنى اتبعنه اتبعنه .

وعند ذلك قال على كرم الله وجهه لمحمد بن أبى بكر رضى الله عنهما ، انظر أختك هل أصابها شيء ؟ فلما جاءها وأدخل يده ، قالت : من أنت ؟ قال : ابن الخثعمية ، قالت : محمد ؟ قال نعم . قالت : بأبى أنت وأمى ، الحمد لله الذى عافاك . وفى رواية قال لها : أخوك محمد البار ، فقالت : بل مذمم العاق فضرب عليها فسطاطا ، فلما كان من آخر الليل خرج بها ، وأدخلها البصرة وأنزلها فى دار صفية بنت الحارث أم طلحة الطلحات ، وبكت

عائشة رضى الله عنها بكاء كثيرا وقالت : وددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة . وقد قال على كرم الله وجهه مثل ذلك لما رأى من كثرة القتلى ، فقد قيل : إن القتلى بلغت عشرة آلاف ، وقيل ثلاثة عشر ألفا .

ثم إن عليا كرم الله وجهه صلى على القتلى من الفريقين ، ثم دخل البصرة على بغلته متوجها لعائشة رضى الله عنها ، فلما دخل عليها سلم عليها وقعد عندها ثم جهزها بكل شيء ينبغي لها ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأمرهن بلبس العمائم وتقليد السيوف ، ثم قال لهن : لا تعلمنها بأنكن نسوة وتلثمن مثل الرجال وكن حولها من بعيد ولا تقربنها ، وقال لأخيها محمد : تجهز معها . وفى رواية جهز معها أخاها عبد الرحمن فى جماعة من شيوخ الصحابة . فلما كان يوم خروجها جاء إليها على كرم الله وجهه ووقف الناس وخرجت فودعها وودعتهم ، وقالت : يابنى والله ماكان بينى وبين على فى القدم إلا مايكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على معتبتى عليه عندى لمن الأخيار ، فقال على : أيها الناس صدقت والله وبرت ، ماكان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، وذهب معها نحو سبعة أميال : ثم ذهبت إلى مكة حتى حجت ، ثم رجعت إلى المدينة وعلمت عند وصولها إلى مكة أن هؤلاء الرجال حولها نساء فانهن كشفن عن وجوههن وعرفنها الحال فشكرت وقالت : والله لا يزداد ابن أبى طالب إلا كرما .

وقيل إن كعب بن سعد أتى عائشة رضى الله تعالى عنها وقال : لعل الله أن يصلح بك ، والأولى الصلح والسكون والنظر فى قتلة عثمان بعد ذلك ، فوافقت وركبت هودجها وقد ألبسوه الأدراع ثم بعثوا جملها وذهب إلى على كرم الله وجهه وقال له مثل ذلك ، فقال له : قد أحسنت ، وأشرف القوم على الصلح ، فخافت قتلة عثمان رضى الله عنه فأشار عليهم ابن السوداء الذى هو السبائى الذى هو أصل الفتنة أن يفترقوا فرقتين تكون كل فرقة فى عسكر من العسكرين ، فإذا جاء وقت السحر ضربت كل فرقة منهما إلى العسكر الذى فيه الفرقة الأخرى فنادت كل فرقة فى العسكر الذى هى فيه غررنا ، ففعلوا ذلك ، فنشبت الحرب وحصل ماتقدم .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى الحسن رضى الله عنه « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فصالح معاوية رضى الله عنهما ، وحقن دماء الفئتين من المسلمين . أى فإن الحسن رضى الله عنه لما بويع له بالخلافة يوم مات أبوه

كان فى الخلافة سبعة أشهر ، وقيل ستة أشهر . ولما سار إلى قتال معاوية كان معه أكثر من أربعين ألفا ، فلما سار عدا عليه شخص وضربه بخنجر فى فخذه ليقتله ، فقال الحسن : قتلتم أبى بالأمس ، ووثبتم علىّ اليوم ، تريدون قتلى ، زهدا فى العادلين ، ورغبة فى القاسطين ، لتعلمن نبأ بعد حين .

أى ويذكر أنه بينما هو يصلى إذ وثب عليه شخص فطعنه بخنجر وهوساجد، ثم خطب الناس ، فقال : ياأهل العراق اتقوا الله فينا فإنا أمراؤكم ونحن أهل البيت الذين قال الله فيهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فمازال يقولها حتى مابقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يبكى .

ثم كتب إلى معاوية رضى الله عنهما بتسليم الأمر : أى بعد أن أرسل إليه معاوية رضى الله عنه رجلين يكلمانه فى الإصلاح ، فإن عمرو بن العاص لما رأى الكتائب مع الحسن أمثال الجبال ، قال لمعاوية : إنى لأرى هذه الكتائب لاتولى حتى تقتل أقرانها ، فخلع الحسن رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية، تورعا وزهدا، وقطعا للشر، وإطفاء لثائرة الفتنة ، وتصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله المتقدم، وغص منه شيعته حتى قال له بعضهم : ياعار المؤمنين سوّدت وجوه المؤمنين ، فقال : العار خير من النار . وقال له بعضهم: السلام عليك يامذل المؤمنين ، فقال له : لاتقل ذلك كرهت أن أقتلكم فى طلب الملك ، وعند ذلك : أى لما انبرم الصلح طلب منه معاوية رضى الله عنهما أن يتكلم بجمع من الناس ويعلمهم أنه سلم الأمر إلى معاوية ، فأجابه إلى ذلك وصعد المنبر وحمد الله إلى أن قال فى خطبته : أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، إلا إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه إما أن يكون أحق به منى أو يكون حقى ، فان كان حقى فقد تركته لله ولصلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحقن دمائهم ، ثم التفت رضى الله عنه إلى معاوية وقال (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ، أى ثم انتقل من الكوفة إلى المدينة وأقام بها، وكان من جملة مااشترطه على معاوية رضى الله عنه أن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعده، ولا يعهد إلى أحد من بعده عهدا .

وقيل على أن يكون الأمر للحسن بعده ، فلما سم الحسن اتهم بذلك زوجته بنت الأشعث بن قيس ، وأن ذلك بدسيسة من يزيد ولد معاوية ، ووعدها أن يتزوجها، وبذل

لها مائة ألف درهم حرصا على أن يكون الأمر له ، فإن معاوية عرّض بذلك فى حياة الحسن ولم يكشفه إلا بعد موته .

ولما جاء الخبر لمعاوية بموته رضى الله عنه قال : ياعجبا من الحسن بن على شرب شربة من عسل بماء رومة ، يعنى بئر رومة فقضى نحبه . وأتى ابن عباس رضى الله عنهما معاوية وهو لا يعلم الخبر ، فقال له معاوية : هل عندك خبر المدينة ؟ قال لا ، فقال معاوية : ياابن عباس احتسب الحسن ، لا يحزنك الله ولا يسؤك ، فأظهر عدم التشوش وقال : أماما أبقاك الله لى يا أمير المؤمنين فلا يحزننى الله ولا يسوءنى ، فأعطاه على تلك الكلمة ألف ألف .

وذكر بعضهم قال : كنا عند الحسن رضى الله عنه ومعنا الحسين رضى الله عنه ، فقال الحسن : لقد سقيت السم مرارا وماسقيته مثل هذه المرة ، ولقد لفظت طائفة من كبدى ، فقال له الحسين : أى أخى ومن سقاك؟ قال : وماتريد ؟ أتريد أن تقتله ؟ قال نعم : قال لئن كان الذى أظن فالله أشد نقمة ، ولئن كان غيره ما أحب أن يقتل بى بريئا .

وكان الحسن رضى الله عنه رجلا حليما لم يسمع منه كلمة فحش ، وكان مروان وهو وال على المدينة يسبه ويسب عليا كرم الله وجهه كل جمعة على المنبر ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لا أمحو عنه شيئا بأن أسبه ، ولكن موعدى وموعده الله ، فإن كان صادقا جازاه الله بصدقه ، وإن كان كاذبا فالله أشد نقمة .

وأغلظ عليه رضى الله تعالى عنه مروان يوما وهو ساكت ، ثم امتخط مروان بيمينه ، فقال له الحسن رضى الله تعالى عنه : أف لك ، أما علمت أن اليمين لها شرف ، فخجل مروان . وبكى مروان فى جنازته ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟ فقال : إنى كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا وأشار إلى الجبل .

ومن ثم لما وقع بين الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما بعض الشحناء فتهاجرا ، ثم أقبل الحسن على الحسين فأكب على رأسه يقبله ، فقال له الحسين : إن الذى منعنى من ابتدائك بهذا أنك أحق بالفضل منى ، وكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به منى ، وقد تقدم ذلك .

ومن شعر الحسن رضى الله تعالى عنه :

من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالواثق

ومن ذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بقتل الأسود العنسى الكذاب : أى الذى ادعى النبوة ليلة قتله بصنعاء وبمن قتله كما تقدم .

أى ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن رجلا من أمته يتكلم بعد الموت ، فكان كذلك وهو زيد بن حارثة . وتكلم غيره أيضا ؛ فعن ابن المسيب أن رجلا من الأنصار توفى ، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم ، فقال : محمد رسول الله ، فلعل المراد بالرجل جنس الرجل .

ومنها إخباره صلى الله عليه وسلم بأن أمته تتخذ الخصيان ، وأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يستوصوا بهم خيرا ، فقال « سيكون قوم ينالهم الخصاء ، فاستوصوا بهم خيرا » وهو يقتضى أن الخصاء لم يكن فى غير هذه الأمة .

ومن ذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بذهاب الأمانة والعلم والخشوع وعلم الفرائض أى قرب قيام الساعة .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس « تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا » فقتل رضى الله تعالى عنه يوم اليمامة فى قتال مسيلمة الكذاب لعنه الله .

وإخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات باب واسع . منه الإخبار بالحوادث الكائنة بعده إلى آخر الزمان . والإخبار عن أحوال يوم القيامة من القضاء والحشر والحساب ، والإخبار عن الجنة والنار .

فعن حذيفة رضى الله تعالى عنه « لقد حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يكون حتى تقوم الساعة » وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوما وصعد المنبر فخطب حتى حضرت الظهر فنزل فصلى الظهر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى العصر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى غربت الشمس فأخبر بما كان وبما هو كائن .

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن فى جماعة من المهاجرين والأنصار « يامعاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى غدا وقبرى» وكان كذلك ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن ، ولم يقدم إلا فى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ستفتح عليكم مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم رحما وصهرا ، والمراد بالرحم ، أم إسمعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام جده

صلى الله عليه وسلم فإنها كانت قبطية ، والمراد بالصهر أم ولده إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها كانت قبطية كما علمت .

ومنها إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم غير ماتقدم : فمن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لثعلبة بن حاطب الأنصارى أى غير البدرى ، لأن ذاك قتل بأحد ، وهذا تأخر إلى زمن عثمان رضى الله تعالى عنه كما سيأتى خلافا لمن وهم فى ذلك ، لأن من شهد بدرا لايدخل النار : وكثيرا مايقع الاشتراك فى الاسم واسم الأب كما قال بعض الصحابة ، وهو طلحة ابن عبيد الله : لئن مات محمد صلى الله عليه وسلم لأتزوجن عائشة من بعده ، فأنزل الله تعالى (وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية ، ظن بعضهم أن المراد بطلحة هذا أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وحاشاه من ذلك ، وهو أجل مقاما من أن يصدر منه مثل ذلك .

ولما قال ثعلبة بن حاطب له : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ويحك ياثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ، ثم أتاه مرة أخرى فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ويحك ياثعلبة أما ترضى أن تكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذى نفسى بيده ، لو سألت ربى أن يسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ؛ فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأوتين كل ذى حق حقه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فاتخذ غنما فصارت تنمى كما تنمى الدود ، وضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها ، فكان يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك الجماعة فيما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجماعة فيما سوى الجمعة فإنه كان يشهدها مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ترك الجمعة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مافعل ثعلبة ؟ فأخبروه بخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم : ياويح ثعلبة قالها ثلاثا ، فلما نزل قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية بعث النبى صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة وكتب لهما فرائض الصدقة وأسنانها وقال لهما مرا بثعلبة ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : انطلقا حتى تفرغا ؛ ثم تعودا إلى فانطلقا ثم مرا عليه ، فقال : أريانى كتابكما أنظر فيه ؛ فنظر فيه ، فقال : ماهذه إلا أخية الجزية ؛ انطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رآهما قال قبل أن يكلماه : ياويح ثعلبة ، فلما

أخبراه بالذى صنع ثعلبة، أنزل الله تعالى (ومنهم من عاهد الله) الآيات ، وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فأرسل إليه بأن الله قد أنزل فيك قرآنا وهو كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه الصدقة فقال : إن الله منعني أن أقبل صدقتك ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني ، وأبى أن يقبل منه شيئا ، فأتى أبا بكر رضى الله تعالى عنه حين استخلف فسأله قبول صدقته ، فقال له : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا لا أقبلها . ثم فعل كذلك مع عمر رضى الله تعالى عنه ، ثم مع عثمان رضى الله تعالى عنه ، وكل يأبى أن يقبل صدقته ، ومات فى خلافة عثمان .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى رجل ارتد ولحق بالمشركين : اللهم اجعله آية . فعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رجل من بنى النجار حفظ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فارتد ولحق بأهل الكتاب ، وكان يقول ما يدرى محمد إلا ما كتب له ، فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله آية ، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوه وألقوه فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا مثل الأول ، فحفروا وأعمقوا ، فلفظته الأرض فى المرة الثالثة ، فعلموا أنه ليس من فعل الناس .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لرجل يأكل بشماله « كل بيمينك ، فقال : لا أستطيع » أى قال ذلك تكبرا وعنادا « فقال له صلى الله عليه وسلم : لا استطعت، فلم يطق أن يرفعها إلى فيه بعد » .

أى ومن ذلك المرأة التى خطبها صلى الله عليه وسلم فقال له أبوها إن بها برصا ولم يكن بها برص ، وإنما قال ذلك امتناعا من خطبته صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : فلتكن كذلك ، فبرصت .

ومن ذلك « أن فاطمة رضى الله تعالى عنها جاءت إليه صلى الله عليه وسلم فنظر إليها وقد ذهب الدم من وجهها وغلبت الصفرة على وجهها من شدة الجوع ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : ادن منى يا فاطمة ، فدنت منه ، فرفع يده فوضعها على صدرها وفرج بين أصابعه ، وقال : اللهم مشبع الجاعة ، ورافع الوضيعة ، ارفع فاطمة بنت محمد ، فذهبت الصفرة عنها حالا ، ولم تشك بعد ذلك جوعا » .

ومن ذلك ما حدّث به واثلة بن الأسقع قال « حضر رمضان ونحن فى أهل الصفة فصمنا : فكنا إذا أفطرنا أتى كل رجل منا رجلا من أهل الصفة فأخذه فانطلق به فعشاه فأتت علينا ليلة فلم يأتنا أحد ، فأصبحنا صياما ، ثم أتت علينا الليلة القابلة فلم يأتنا أحد ، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بالذى كان من أمرنا ، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء ؟ فما بقيت امرأة إلا أرسلت تقسم ما أمسى فى بيتها ما يأكل ذو كبد ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجتمعوا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم إنى أسألك من فضلك ورحمتك فإنهما بيدك لا يملكهما أحد غيرك ، فلم يكن إلا مستأذن يستأذن ، فإذا بشاة مصلية ورطب ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت بين أيدينا فأكلنا حتى شبعنا » .

ومنها تساقط الأصنام التى حول الكعبة بإشارته صلى الله عليه وسلم إليها ، أو طعنه فيها بقضيب كان فى يده قائلا (جاء الحق وزهق الباطل) كما تقدم .

ومنها تكثير الطعام ، وقد وقع له ذلك فى مواطن كثيرة .

فمن ذلك إطعام ألف من صاع شعير فى حفر الخندق فشبعوا والطعام أكثر مما كان كما تقدم .

ومن ذلك إطعام أهل الخندق من تمر يسير كما تقدم .

ومن ذلك جمع ما فضل من الأزواد ودعاؤه صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وقسمتها فى العسكر ، فقامت بهم كما تقدم فى الحديبية وتبوك .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة فى تمرات قد صفهن فى يده ، وقال ادع لى فيهن بالبركة » أى فدعا له صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : فأخرجت من ذلك التمر كذا وكذا وسقا فى سبيل الله ، وكنا نأكل منه ونطعم حتى انقطع فى زمن عثمان رضى الله تعالى عنه ، أى بانقطاع المزود الذى أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون به التمر . والمزود : وعاء من جلد يوضع فيه الزاد وقال له : إذا أردت شيئا فأدخل يدك ولا تكفأ فيكفأ عليك ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه وكان لا يفارق حقوى ، فلما قتل عثمان انقطع حقوى فسقط . وفى رواية : كان معلقا خلف رحلى فوقع فى زمن عثمان : أى فى زمن محاصرته وقتله فذهب وفى رواية : فلما قتل عثمان انتهب بيتى وانتهب المزود : أى بعد سقوطه من حقوه فلا يخالف ما سبق .

وقد جاء فى بعض الروايات عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم بتمرات ، فقلت : يا رسول الله ادع لى فيهن بالبركة ، فصفهن ثم دعا فيهن بالبركة وقال : خذهن واجعل فى مزودك ما أردت منهن ، أى إذا أردت أخذ شىء منهن أدخل يدك فيه فخذه ولا تنثره نثرا. أى وفى لفظ «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه سلم فأصاب الناس مجاعة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة هل من شىء ؟ قلت: نعم شىء من تمر فى المزود ، فقال : ائتنى به فأتيته به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ، ثم قال لى : ادع لى عشرة ، فدعوت عشرة فأكلوا حتى شبعوا ، فما زال يصنع ذلك حتى أطعم الجيش كلهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم خذ ما جئت به أدخل يدك فاقبض ولا تكفأه ، قال : فقبضت على أكثر ما جئت به ، ثم أكلت منه حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أبى بكر وأطعمت ، وحياة عمر وأطعمت ، وحياة عثمان وأطعمت ، فلما قتل عثمان انتهب منى .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصابعه . فقد جاء « أنه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الصفة لقصعة ثريد ، فأكلوا حتى لم يبق إلا اليسير فى نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصار لقمة ، فوضعها على أصابعه وقال لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه » أى لأنه كان من أهل الصفة «كل بسم الله . قال أبو هريرة: فوالذى نفسى بيده ما زلت آكل منها حتى شبعت كما تقدم » قيل وكان أصحاب الصفة حينئذ تسعين ، وقيل مائة ونيفا ، وقيل أربعمائة .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى جاء به أنس رضى الله تعالى عنه للنبى صلى الله عليه وسلم . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله ، فصنعت أمى أم سليم حيسا فجعلته فى تور ، فقالت يا أنس اذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل : بعثت بهذا إليك أمى ، وهى تقرؤك السلام ، وتقول لك : إن هذا لك منا قليل ، قال فذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منا لك قليل ، فقال ضعه ، ثم قال : اذهب فادع لى فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت ، فدعوت من سمى ومن لقيت . قيل لأنس : كم كانوا ؟ قال : زهاء ثلثمائة ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس هات التور ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليحلق عشرة عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه ،

فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، ثم قال : يا أنس ارفع ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر أو حين رفعت » .

ومن ذلك تكثير الطعام الذى صنعه أبو أيوب الأنصارى . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله تعالى عنه طعاما قدر ما يكفيهما فأتيتهما به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فادع لى ثلاثين من أشراف الأنصار ، قال : فشق ذلك علىّ ، ماعندى ما أزيده ، فقال : اذهب فادع لى ثلاثين من أشراف الأنصار . قال أبو أيوب رضى الله تعالى عنه : فدعوتهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعموا ، فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا ، ثم قال : اذهب فادع لى ستين من أشراف الأنصار ، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا ، ثم قال اذهب فادع لى تسعين من الأنصار ، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا ، ثم شهدوا أنه رسول الله صلى الله عايه وسلم قبل أن يخرجوا ، فأكل من طعامى ذلك مائة وثمانون رجلا كلهم من الأنصار » .

قال : ومنها تكثير اللبن فى القدح . فعن أبى هريرة رضى الله تعالى تعالى عنه « أنه اشتد به الجوع يوما ، قال : فمر علىّ أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فقمت إليه وسألته عن آية من كتاب الله ليشبعنى ، فمرّ ولم يفعل ، ثم مر علىّ عمر ففعلت معه وفعل معى كذلك ، ثم مر صلى الله عليه وسلم ، فتبسم حين رآنى وعرف مافى نفسى ، ثم قال : يا أبا هريرة » وفى لفظ « يا أبا هر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق ، فتبعته صلى الله عايه وسلم إلى أن دخل بيته وأذن لى ، فدخلت فوجدت لبنا فى قدح ، فقال صلى الله عليه وسلم » أى لأهل بيته « من أين هذا اللبن ؟ فقيل : أهدى لك ، فقال : يا أبا هريرة ، قلت لبيك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، قال : ادع لى أهل الصفة ، فساءنى ذلك ، فقلت : ما هذا اللبن فى أهل الصفة ، وما أظن أن ينالنى من هذا اللبن شىء » أى لأنهم كانوا أربعمائة على ما تقدم « فدعوتهم ، فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت ، فقال : يا أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، فأخذت القدح ، فجعلت أعطيه الرجل ، فيشرب حتى يروى ، حتى لم يبق إلا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : اقعد فاشرب ، فشربت فقال لى : اشرب فشربت ، فما زال يقول لى اشرب فأشرب ، حتى قلت : لاوالذى بعثك بالحق ماأجد له مسلكا ، فأعطيته القدح ، فحمد الله

عز وجل وسمى وشرب الفضلة » اهـ أى وقد تقدم ذلك . وفى لفظ « حتى إذا لم يبق إلا أنا وهو فأخذ القدح على يده ونظر إلىّ وتبسم، فقال : يا أباهريرة ، قلت لبيك يارسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت ، قلت صدقت يارسول الله، قال : اقعد فاشرب » الحديث . وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لأبى هريرة : يا أبا هر ، قال إنما أنا أبو هريرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : الذكر خير من الأنثى » .

ولما وقع القتال بين على ومعاوية رضى الله تعالى عنهما كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يصلى خلف على كرم الله وجهه ، ويحضر طعام معاوية ، وعند القتال يصعد على تل فقيل له فى ذلك فقال : الصلاة خلف علىّ أقوم، وطعام معاوية أدسم ، والقعود على هذا التل أسلم .

ومن ذلك ماحدثت به بنت خباب بن الأرت رضى الله تعالى عنهما « قالت : خرج خباب فى سرية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهدنا وكان لنا عنز ، فكان يحلبها فيملأ حلابها جفنة لنا، فلما جاء خباب عاد حلابها لما كان عليه أولا . فقلت لأبى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلبها فتمتلىء جفنتنا ، فلما حلبتها رجع حلابها » .

ومن ذلك ما حدث به بعض الصحابة أنه قال « كنا زهاء أربعمائة رجل فنزلنا فى موضع ليس فيه ماء فشق ذلك على أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فجاءت شويهة لها قرنان فقامت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلبها، فشرب حتى روى وسقى أصحابه حتى رووا ثم قال لى صلى الله عليه وسلم املكها الليلة وما أراك تملكها ، فأخذتها فوتدت لها وتداً ثم ربطتها بحبل ، ثم قمت فى بعض الليل ، فلم أر الشاة ، ورأيت الحبل مطروحا فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : ذهب بها الذى جاء بها » .

ومنها « أن امرأة كانت أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم سمنا فى عكة فقبله ، وترك فى العكة قليلا ونفخ فيه ودعا بالبركة ، فكان يأتيها بنوها يسألونها الأدم ، فتعمد إلى تلك العكة فتجد فيها سمنا، فمازالت تقيم بها أدم بيتها بقية حياته صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، حتى كان من أمر على ومعاوية رضى الله تعالى عنهما ماكان » وفى رواية « أنها عصرتها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : عصرتيها؟ قالت نعم قال : لو تركتيها مازال دائما » ويحتمل أن الواقعة تعددت .

وعن أم سليم أم أنس رضى الله تعالى عنهما، قالت : « كان لى شاة ، فجمعت من سمنها

ماملأت به عكة وأرسلت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها ، وأمر ففرغوها وردوها فارغة وكنت غائبة عن المنزل ، فلما جئت رأيت العكة مملوءة سمنا ، قالت : فقلت للتى أرسلتها معها : كيف الخبر ؟ فأخبرتنى الخبر فما صدقتها ، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ، وقلت له : يارسول الله وجهت إليك عكة سمن ، قال : قد وصلت . فقلت : بالذى بعثك بالهدى ودين الحق لقد وجدتها مملوءة سمنا تقطر ، قال : أفتعجبين أن أطعمك الله كما أطعمت نبيه صلى الله عليه وسلم : اذهبى فكلى واطعمى » الحديث .

أى ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم لفرس جعيل الأشجعى . فعنه رضى الله تعالى عنه قال « خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته وأنا على فرس عجفاء ضعيفة فكنت فى آخر الناس ، فلحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سر ياصاحب الفرس. فقلت : يا رسول الله عجفاء ضعيفة فرفع مخفقة كانت معه فضربها بها. وقال: اللهم بارك له فيها ، فلقد رأيتنى ماأملك رأسها قدام القوم ، ولقد بعت من بطنها باثنى عشر ألفا » .

ومنها أن جليبيا على وزن قنيديل الأنصارى ، وكان قصيرا دميما ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه ، فقال : يا رسول الله إذا تجدنى كاسدا ، فقال : إنك عند الله لست بكاسد ، فخطب له صلى الله عليه وسلم جارية من أولاد الأنصار ، فكره أبو الجارية وأمها ذلك ، فسمعت الجارية بما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قبلت (وما كان لمؤمن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقالت : رضيت وسلمت لما رضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اصبب الخير عليها صبا ولا تجعل عيشها كدا ، فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالا مع كونها أيما ، فإنه رضى الله تعالى عنه قتل عنها فى بعض غزواته معه صلى الله عليه وسلم بعد أن قتل سبعة من المشركين ، ووقف عليه صلى الله عليه وسلم ودعا له ، وقال : هذا منى وأنا منه ، وحمله صلى الله عليه وسلم على ساعديه ، ماله سرير غير ساعديه صلى الله عليه وسلم ، ثم حفروا له فوضعه فى قبره ولم ولم يغسله ولم يصل عليه .

ومنها نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم ، حتى شرب القوم وتوضئوا وهم ألف وأربعمائة . قال : وفى رواية ألف وخمسمائة . وفى رواية : فشربوا وسقوا وملئوا

قرابهم ، وكان فى العسكر اثنا عشر ألف بعير ، والخيل اثنا عشر ألف فرس ، أى وهذه فى غزوة تبوك ، وقد تكرر ذلك منه صلى الله عليه وسلم عدة مواطن عظيمة تقدمت ، وتكررت الروايات بحسب تكرر الوقائع ، وهو أشرف المياه كما قاله السراج البلقينى ولم يسمع بمثل هذه المعجزة التى هى خروج الماء من بين الأصابع عن غير نبينا صلى الله عليه وسلم، وهى أبلغ من نبع الماء من الحجر الذى ضربه موسى عليه الصلاة والسلام ، لأن خروج الماء من الحجر معهود ، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم والعظم والعصب كما تقدم اه .

ومنها : أن الماء فار بغرز سهم من كنانته صلى الله عليه وسلم فى محله . وقع له ذلك فى الحديبية ، وفى تبوك ، فقد جاء « أنه ورد فى منصرفه من غزوة تبوك على ماء قليل لا يروى واحدا ، وشكوا إليه صلى الله عليه وسلم العطش ، فأخذ سهما من كنانته وأمر أن يغرز فيه ، ففار الماء ، وارتوى القوم ، وكانوا ثلاثين ألفا » كما تقدم .

قال : ومنها ما تقدم له صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب بذى المجاز من ضربه صلى الله عليه وسلم الأرض أو صخرة برجله حين عطش فخرج الماء كما تقدم .

ومنها: ركوبه صلى الله عليه وسلم الفحل الذى قطع الطريق على من يمر لما سافر صلى الله عليه وسلم مع عمه الزبير بن عبد المطلب إلى اليمن كما تقدم :

ومنها : انقلاب الماء الملح عذبا ببركة ريقه الشريف . فقد جاء « أن قوما شكوا إليه صلى الله عليه وسلم ملوحة فى ماء بئرهم ، فجاء صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه حتى وقف على ذلك البئر ، فتفل فيه ، فتفجر بالماء العذب المعين » .

ومنها « أنه كان باليمن ماء يقال له زعاق من شرب منه مات ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم وجه إليه : أيها الماء أسلم فقد أسلم الناس ، فكان بعد ذلك من شرب منه حم ولا يموت » .

ومنها : زوال القراع بمرور يده الشريفة صلى الله عليه وسلم . فقد جاء « أن امرأة أتته بصبى لها أقرع ، فمسح صلى الله عليه وسلم رأسه فاستوى شعره وذهب داؤه » .

ومنها: إحياء الموتى له صلى الله عليه وسلم وسماع كلامهم. فمن ذلك «أنه صلى الله عليه وسلم دعا رجلا للإسلام فقال: لا أومن بك حتى تحيى لى بنتى ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرنى قبرها ، فأراه قبرها فقال صلى الله عليه وسلم : «يا فلانة ، فقالت : لبيك وسعديك ، فقال

صلى الله عليه وسلم : أتحبين أن ترجعى إلى الدنيا ؟ فقالت : لا والله يا رسول الله ، إنى وجدت الله خيرا لى من أبوىّ ؛ ووجدت الآخرة خيرا من الدنيا » .

ومنها: إبراء الأبرص . فقد روى « أن امرأة معاوية بن عفراء كان بها برص فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح عليه بعصا ، فأذهبه الله » .

ومنها : إبراء الرئة واللقوة والقرحة والسلعة والحرارة والدبيلة والاستسقاء ؛ فإن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء ، فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله ، فأخذها متعجبا يرى أنه قد هزئ به ، فأتاه بها وهو على شفا ، فشربها فشفاه الله وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية بقوله :

وبكف من تربة الأرض داوى　　　من تشكى من مؤلم استسقاء

ومنها : أن أخت إسحاق الغنوى هاجرت من مكة تريد المدينة هى وأخوها إسحاق المذكور ، حتى إذا كانت فى بعض الطريق قال لها أخوها : اجلسى حتى أرجع إلى مكة ، فآخذ نفقة أنسيتها ، قالت له: إنى أخشى عليك الفاسق أن يقتلك : تعنى زوجها فذهب أخوها إلى مكة وتركها ، فمر عليها راكب جاء من مكة ، فقال لها: مايقعدك ههنا؟ قالت : أنتظر أخى ، قال لا أخ لك ، قد قتله زوجك بعد ماخرج من مكة ، قالت: فقمت وأنا أسترجع وأبكى حتى دخلت المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فى بيت حفصة ، فأخبرته الخبر ، فأخذ ملء كفه ماء فضربنى به ، فمن يومئذ لم ينزل من عينى دمعة ، وكانت تصيبنى المصائب العظام ، غايته أن ينفر الدمع على مقلتى ولا يسيل على وجنتى .

ومنها : إبراء الجراحة كما تقدم .

ومنها : إبراء الكسر « فقد مسح صلى الله عليه وسلم على رجل ابن عتيك رضى الله تعالى عنه وقد انكسرت فكأنها لم تكسر قط » كما تقدم .

ومنها: إبراء الجنون . أى ومنها أن امرأة جاءته صلى الله عليه وسلم بابن لها لا يتكلم وقد بلغ أوان الكلام ، فأتى بماء فمضمض وغسل يديه ثم أعطاها صلى الله عليه وسلم إياه وأمرها أن تسقيه وتمسه به ، ففعلت ذلك ، فبرئ وعقل عقلا يفضل عقول الناس .

ومنها « أن بعض الصحابة ثبتت فى كفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة فشكا ذلك له صلى الله عليه وسلم ، فما زال صلى الله عليه وسلم يطحنها بكفه الشريفة حتى زالت ولم يبق لها أثر .

ومنها « أنه صلى الله عليه وسلم أعطى جذلا من الحطب فصار سيفا » وقع ذلك لعكاشة ابن محصن رضى الله تعالى عنه يوم بدر كما تقدم . ووقع ذلك لعبد الرحمن بن جحش أيضا يوم أحد كما تقدم .

أى ومنها : انقلاب الماء لبنا وزبدا . ومنها « أنه عرضت كدية بالخندق ولم يقدر أحد على إزالة شىء منها فضربها فصارت كثيبا » كما تقدم .

أى ومن إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ماروى عن النابغة الجعدى رضى الله تعالى عنه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياتا منها :

فلا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدّرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أجدت ، لا أفضض الله فاك من هذه إشارة إلى أسنانه » قال النابغة رضى الله تعالى عنه : فلقد أتت على نيف ومائة سنة وماذهب لى سن . قيل عاش مائة واثنتى عشرة سنة ، وقيل مائة وثمانين سنة ، أى كما تقدم . وفى لفظ : كان من أحسن الناس ثغرا ، وكان إذا سقطت له سن نبت له أخرى . أى وعلى هذا الأخير فالمراد لا أخلى الله فاك من الأسنان .

ومن ذلك : أن امرأة جاءت بابن لها صغير ، فقالت : يا رسول إن بابنى هذا جنونا ، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا له ، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى » .

ومنها : إبراء وجع الضرس. فقد جاء «أن بعض الصحابة شكا إليه صلى الله عليه وسلم وجع ضرسه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أدن منى ، فوالذى بعثنى بالحق لأدعون لك بدعوة لا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله عنه كربه ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على الخد الذى فيه الوجع وقال اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المكين عندك سبع مرات ، فشفاه الله تعالى قبل أن يبرح» هذا مايتعلق ببعض معجزاته صلى الله عليه وسلم التى يمكن التحدى بها ، والحمد لله وحده .

باب نبذة من خصائصه صلى الله عليه وسلم

أى ما اختص به صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم ، وما اختص به عن غير الأنبياء ، وفيما اختصت به أمته صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم ، وفيما اشتركت فيه مع الأنبياء دون أممهم .

لا يخفى أن ذكر خصائصه صلى الله عليه وسلم مندوب . قال فى الروضة : ولا يبعد القول بوجوب ذلك ليعرف ، فلا يتأسى به جاهل فى ذلك . ثم لا يخفى أن الذى من خصائصه صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس إما أن يكون اختص بوجوبه عليه لأن الله علم أنه صلى الله عليه وسلم أقوم به وأصبر عليه من غيره ، ولأن ثواب الفرض أفضل من ثواب النفل غالبا(١) .

وقد جاء «ما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه» أو اختص بتحريمه عليه ، لأن الله علم أنه صلى الله عليه وسلم أصبر على تركه ولمزيد فضل تركه ، أو اختص بإباحته له تسهيلا عليه ، أو اختص باتصافه به لمزيد فضله وشرفه .

فمن القسم الأوّل صلاة الضحى : أى بما هو أقلها ، وهو ركعتان ، وركعتا الفجر وصلاة الوتر . قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث علىّ فرائض ولكم تطوّع : الوتر ، وركعتا الفجر ، وركعتا الضحى » .

أى وفى الإمتاع أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه ومع ذلك ففى ثبوت خصوصية هذه الثلاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم نظر . فإن الذى ينبغى ولا يعدل عنه إلى غيره أن لا تثبت خصوصيته إلا بدليل صحيح .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها « ما سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط ، وإنى لأسبحها » وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ، قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى حتى نقول لا يدعها ،

---

(١) وجد فى نسخة بعد قوله غالبا (ومن غير الغالب إبراء المعسر فإنه سنة وإنظاره واجب ، وثواب الإبراء أفضل ، والتطهير قبل الوقت سنة وبعد الوقت واجب والأول أفضل ، وابتداء السلام سنة ورده واجب والأول أفضل اه) .

ويدعها حتى نقول لا يصليها » وهذا يدل بظاهره ، ويقتضى عدم الوجوب ، إذ لو كانت واجبة فى حقه صلى الله عليه وسلم لـكان مداومته عليها أشهر من أن تخفى هذا كلامه .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لما صلى الضحى يوم الفتح فى بيت أم هانى واظب عليها إلى أن مات ، وأنه صلى الله عليه وسلم صلى ثمان ركعات : وجاء فى حديث مرسل « كان صلى الله عليه وسلم يصلى ركعتين وأربعا وستا وثمانيا » وهل المراد بالوتر أقله أو أكثره أو أدنى كماله ؟ والسواك قال فى الإمتاع وهل هو بالنسبة إلى الصلاة المفروضة أو فى كل الأحوال المؤكدة فى حقنا أو فيما هو أعم من ذلك . وغسل الجمعة والأضحية واستدل لوجوبهما بقوله تعالى (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى) إلى قوله (وبذلك أمرت) قال فى الإمتاع : والأمر على الوجوب ، هذا كلامه ؟ وفيه نظر ، لأن أمر للوجوب والندب ، والذى للوجوب إنما هو صيغة أفعل .

قال فى الإمتاع : إن الآمدى وابن الحاجب رحمهما الله عدّا ركعتى الفجر من خصائصه صلى الله عليه وسلم ولا سلف لهما فى ذلك إلا حديث ضعيف عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

واعترض كون الوتر واجبا عليه صلى الله عليه وسلم ، بأنه صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيحين صلاه على البعير ، إذ لو كان واجبا لما صلاه على الراحلة . وأجاب النووى رحمه الله بأن جواز هذا الواجب على الراحلة من خصائصه صلى الله عليه وسلم وأجاب القرافى المالكى رحمه الله بأن الوتر لم يكن واجبا عليه صلى الله عليه وسلم إلا فى الحضر ، ووافقه على ذلك من أئمتنا الحليمى والعز ابن عبد السلام .

والعقيقة وأنه صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن يؤدى فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها ، وأنه يجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى كل يوم وليلة خمسين صلاة على وفق ما كان فى ليلة الإسراء ، كذا فى الخصائص الصغرى للسيوطى .

والمشاورة فى أمر الدين والدنيا لذوى الأحلام من الأمور الاجتهادية . وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهما ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما نزلت هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة فى أمتى ، فمن شاور

منهم لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » وقد قيل : الاستشارة حصن من الندامة ومصابرة العدو وإن كثر .

وفى الحاوى للماوردى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا بارز رجلا لا ينفك عنه قبل قتله » هذا كلامه ، ولم أقف على أنه صلى الله عليه وسلم بارز أحدا .

وقضاء دين من مات معسرا من المسلمين ، وأداء الجنايات والكفارات عن من لزمته وهو معسر ، وتخيير نسائه صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة أى بين زينة الدنيا ومفارقته ، وبين اختيار الآخرة والبقاء فى عصمته ، وأن من اختارت الدنيا يفارقها ومن اختارت الآخرة يمسكها ولا يفارقها : أى لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (يا أيها النبى قل لأزواجك ، إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) .

قيل اختلف سلف هذه الأمة فى سبب نزول هذه الآية على تسعة أقوال : فقد قيل نزلت لما طلبن منه صلى الله عليه وسلم زيادة فى النفقة ، فاعتزلهن شهرا ، ثم أمر بتخييرهن فيما ذكر كما تقدم .

عن جابر رضى الله تعالى عنه ، قال : جاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه يستأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه ليأذن لهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجدا النبى صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه ، أى قد سألنه النفقه وهو حاجم ساكت لايتكلم ؛ فقال عمر رضى الله تعالى عنه : لأقولن شيئا أضحك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله لو رأيت فلانة يعنى زوجته سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة ، فقام أبوبكر رضى الله تعالى عنه إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر رضى الله تعالى عنه إلى حفصة فوجأ عنقها ، وكل يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لايجتمع بهن شهرا .

فعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا ودق عليه بابه وناداه ، قال عمر : فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت ماذا ؟ أجاءت غسان ، لأنا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا . فقال : لا ، بل أعظم من

ذلك وأطول ، طلق رسول الله صـلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا ؛ حتى إذا صليت الصبح شددت علىّ ثيابى ودخلت على حفصة وهى تبكى ، فقلت : أطلقكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: لاأدرى هو هذا معتزلا فى هذه المشربة ، أى لأن نساءه صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن عليه فى طلب النفقة أقسم أن لايدخل عليهن شهرا من شدّة موجدته عليهنّ ، قال عمر رضى الله تعالى عنه : لأقولنّ من الـكلام شيئا أضحك به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتيت غلاما له أسود ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم خرج ، فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المسجد فجلست قليلا ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلىّ ، فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فلما كان فى المرة الرابعة وقال لى مثل ذلك وليت مدبرا فإذا الغلام يدعونى ، فقال : أدخل ، قد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكىء على زمل حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ قال : فرفع رأسه إلىّ وقال لا فقلت : الله أكبر ، ثم قلت : كنا معاشر قريش بمـكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن منهنّ ، فـكلمت فلانة يعنى زوجته فراجعتنى فأنكرت عليها ، فقالت تنكر علىّ أن أراجعك ؟ فو الله إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لتراجعنه ، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها بغضب زوجها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبت إلى حفصة فقلت : أتراجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : نعم ، وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منـكن وخسر ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها بغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لا تراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسألينه شيئا ، وسلينى ما بدالك ، ولايغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ؟ يعنى عائشة ، فتبسم أخرى ، فقلت ، استأنس يارسول لله قال نعم ، فجلست وقلت : يا رسول الله قد أثر فى جنبك زمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لايعبدون الله ، فاستوى جالسا وقال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : أستغفر الله يارسول الله [ ] فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى

عليه أن يخير نساءه فى قوله تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية ، فنزل ودخل على عائشة رضى الله تعالى عنها ، فقالت له : يارسول الله أقسمت أن لاتدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن ، قال : إن الشهر تسع وعشرون . وفى رواية : يكون هكذا وهكذا وهكذا ، يشير بأصابع يديه ، وفى الثالثة حبس إبهامه ثم قال : يا عائشة إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لاتعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . فقالت : وما هو يا رسول الله ، فقرأ (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية . قلت ، أفى هذا أستأمر أبوى ، فإنى أريد الله ، ورسوله والدار الآخرة . وفى رواية « أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ » بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : ثم قلت له : لاتخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى متعنتا ولكن بعثنى معلما بشيرا . ثم فعل أزواجه صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت عائشة رضى الله تعالى عنهن . وقد ذكر الأقوال التسعة فى الإمتاع وذكر فيه أن التخيير كان بعد فتح مكة ، لأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يقدم المدينة إلا بعد الفتح مع أبيه العباس رضى الله تعالى عنهما ، وذكر أنه حضر الواقعة .

ومن القسم الثانى تحريم أكل الصدقة واجبة أو مندوبة ، وكذا الكفارة والمنذورة والموقوف عليه إلا على جهة عامة كالآبار الموقوفة على المسلمين ، ويشاركه فى الصدقة الواجبة آله دون صدقة التطوع على الجهة الخاصة دون الجهة العامة ، والصدقة الواجبة هى المعنية بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة لاتنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » ولما سأله عمه العباس رضى الله تعالى عنه أن يستعمله على الصدقات قال صلى الله عليه وسلم « ماكنت لأستعملك على غسلات ذنوب الناس » ولما أخذ الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه قال له النبى صلى الله عليه وسلم : كخ كخ ، ارم بها ، أما علمت أنا لانأكل الصدقة » وفى رواية « إن آل محمد لا يأكلون الصدقة » .

واختلف علماء السلف هل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تشارك النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ؟ فذهب الحسن رحمه الله تعالى إلى أن الأنبياء تشاركه فى ذلك . وذهب سفيان بن عيينة إلى اختصاصه بذلك دونهم ، وأن يعطى شيئا لأجل أن يأخذ شيئا أكثر منه ، وأن يتعلم الكتابة أو الشعر وإنشاءه وروايته لا التمثل به ، وأنه إذا لبس لامته للقتال

لابدعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وخائنة الأعين ، وهى الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر كما تقدم . وإمساك من كرهته ، ونكاح الكتابية ، قيل والتسرى بها والراجح خلافه . ونكاح الأمة المسلمة لأنه لايخشى العنت ؛ أى الزنا .

ومن القسم الثالث القبلة فى الصوم مع وجود الشهوة . فقدكان صلى الله عليه وسلم يقبل عائشة رضى الله تعالى عنها وهو صائم ويمص لسانها ، ولعله صلى الله عليه وسلم لم يكن يبلع ريقه المختلط بريقها . والخلوة بالأجنبية ، وأنه صلى الله عليه وسلم إذا رغب فى امرأة خلية كان له أن يدخل بها من غير لفظ نكاح أو هبة ومن غير ولى ولا شهود ، كما وقع له صلى الله عليه وسلم فى زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها كما تقدم ، ومن غير رضاها ، وأنه إذا رغب فى امرأة متزوجة يجب على زوجها أن يطلقها له صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا رغب فى أمة وجب على سيدها أن يهبها له . وله أن يزوج المرأة لمن يشاء بغير رضاها ، وله أن يتزوج فى حال إحرامه ، ومن ذلك نكاح ميمونة على ماتقدم ؛ وأن يصطفى من الغنيمة ما شاء قبل القسمة من جارية أو غيرها .

ومن صفاياه صلى الله عليه وسلم صفية وذو الفقار كما تقدم ، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لصفية رضى الله تعالى عنها . وقد قال المحققون : معنى مافى البخارى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم جعل عتقها صداقها أنه صلى الله عليه وسلم أعتقها بلا عوض وتزوجها بلا مهر ، فقول أنس رضى الله تعالى عنه أمهرها نفسها معناه أنه لما لم يصدقها شيئا كان العتق كأنه المهر وإن لم يكن فى الحقيقة كذلك ، وأن يدخل مكة بغير إحرام إتفاقا ، وأن يقضى بعلمه ولو فى حدود الله تعالى ؛

قال القرطبي فى تفسيره أجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يقضى بعلمه إلا النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الجلال السيوطى فى الخصائص الصغرى : وجمع له صلى الله عليه وسلم بين الحكم بالظاهر والباطن معا وجمعت له الشريعة والحقيقة ، ولم يكن للأنبياء إلا إحداهما بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، وقوله : إنى على علم لا ينبغى لك أن تعلمه وأنت على علم لا ينبغى لى أن أعلمه هذا كلامه .

وكتب عليه الشهاب القسطلانى رحمه الله : هذه غفلة كبيرة وجراءة على الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام ، إذ يلزمْ منه خلوّ بعض أهل العزم عليهم الصلاة والسلام من علم الحقيقة الذى لا يجوز خلوّ بعض آحاد الأولياء عنه وإخلاء الخضر بل بقية بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم الشريعة . وأعجب من ذلك أنه بين له وجه الخطأ ، فأجاب بقوله : مرادى الجمع بين الحكم والقضاء هذا كلامه .

وأقول : ذكر السيوطى فى كتابه [الباهر فى حكم النبى بالباطن والظاهر] هل يقول مسلم إن الذى خص به نبينا صلى الله عليه وسلم ، أى عن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يورث نقصا فى حق سائر الأنبياء ؟ معاذ الله ، وكل مسلم يعتقد أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء على الإطلاق ، وذلك لا يورث نقصا فى حق أحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الاعتراض كان لا يحتاج إلى جواب عنه ، لكن خشيت أن يسمعه جاهل فيؤديه ذلك إلى إنكار خصائص النبى صلى الله عليه وسلم التى فضل بها على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، توهما منه أن ذلك يورث نقصا فيهم ، فيقع والعياذ بالله فى الكفر والزندقة هذا كلامه .

ومما حكم فيه بالظاهر والباطن معا ، قوله صلى الله عليه وسلم فى ولد وليدة زمعة والد سودة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها لما اختصم فيه سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه وعبد بن زمعة ، فقال سعد : يا رسول الله هذا ابن أخى ، عهد إلى أنه ابنه ، انظر إلى شبهه به ، وقال عبد بن زمعة : هذا أخى ولد على فراش أبى من وليدته ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شبهه ، فرأى شبها بينا بعتبة ، ثم قال : « هو لك يا عبد الولد للفراش واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة » زاد فى رواية « فليس بأخ لك » فقد جعله صلى الله عليه وسلم أخا لسودة عملا بظاهر الشرع ، ونفى أخوته عنها بمقتضى الباطن . فقد حكم فى هذه القصة بالظاهر والباطن معا .

وأما حكمه صلى الله عليه وسلم بالباطن فقد جاء فى أمور متكثرة

من ذلك قتله الحارث بن سويد بقتله المجذر بن زياد غيلة من غير دعوى وارث ولا قيام بينة ولا قبل الدية كما تقدم .

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل مات أخوه : « إن أخاك محبوس بدينه فاقض عنه ، فقال يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة ، قال أعطها فإنها محقة » .

ومن ذلك أن امرأة جاءت إلى أخرى وقالت لها : فلانة تستعيرك حليك وهى كاذبة فأعارتها إياه ، فبعد مدة جاءت للمرأة تطلب حليها فقالت : لم أطلب حليك فجاءت للمرأة التى أخذته فأنكرت أخذه ، فجاءت النبى صلى الله عليه وسلم وأخبرته القصة فدعاها ، فقالت : والذى بعثك بالحق ما استعرت منها شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم : «اذهبوا فخذوه من تحت فراشها فأخذ وأمر بها فقطعت» .

وأن يقضى لنفسه ولولده ، وأن يشهد لنفسه ولولده وأن يقبل الهدية ممن يريد الحكومة عنده ، وأن يقضى فى حال غضبه ، وأن يقطع الأرض قبل أن يفتحها .

ومما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى هذا القسم أن له صلى الله عليه وسلم أن يصلى بعد نومه غير متمكن ، أى فى النوم الذى تنام فيه عينه وقلبه ، بناء على أنه صلى الله عليه وسلم كان له نومان ، وحينئذ يكون قوله «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» المراد به غالبا ، إذ يبعد أن يكون بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس لهم إلا نوم واحد وله صلى الله عليه وسلم نومان .

وإباحة ترك إخراج زكاة المال ، لأنه كبقية الأنبياء لا ملك لهم مع الله ، وما فى أيديهم من المال وديعة لله عندهم يبذلونه فى محله ويمنعونه فى غير محله ، ولأن الزكاة طهرة وهم مبرءون من الدنس كذا فى الخصائص الصغرى نقلا عن سيدى الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله .

وفيها بعد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم اختص بأن ماله باق بعد موته على ملكه ينفق منه على أهله فى أحد الوجهين ، وصححه إمام الحرمين ، والذى صححه النووى الوجه الآخر ، وهو خروجه عن ملكه ، لكنه صدقة على المسلمين ، لا يختص به الورثة ، وما قاله ابن عطاء الله بناه على مذهب إمامه سيدنا مالك ، ومذهب الشافعى رحمه الله تعالى خلافه . ففى الخصائص الصغرى قبل هذا : وذكر مالك رضى الله تعالى عنه ، من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يملك الأموال ، إنما كان له التصرف وأخذ قدر كفايته . وعند الشافعى رضى الله تعالى عنه وغيره أنه يملك هذا كلام الخصائص .

ومن القسم الرابع أنه صلى الله عليه وسلم أول من أخذ عليه الميثاق يوم (ألست بربكم) وأنه أول من قال بلى ؛ أى وأنه خص بالبسملة : وفيه ماتقدم أن ذلك على وجه وأن الأصح خلافه لما فى القرآن فى سورة النمل وفى المرفوع «أنزل على آية لم تنزل على نبى بعد سليمان

غيرى (بسم الله الرحمن الرحيم) وجاء « بسم الله فاتحة كل كتاب » وفيه أن الإنجيل من جملتها وهو كتاب عيسى ابن مريم وهو بعد سليمان عليهما السلام ، وقد قدمنا ذلك عند الكلام على أوائل البعث وبفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة (آمن الرسول) إلى ختامها وآية الكرسى أعطيها من كنز تحت العرش وكذا الفاتحة والكوثر .

فقد جاء « أربع نزلت من كنز تحت العرش لم ينزل منه شيء غيرهن أم الكتاب ، وآية الكرسى ، وخواتيم سورة البقرة والكوثر » .

وذكر الجلال السيوطى رحمه الله فى الخصائص الصغرى ، أن مما خص به أنه أعطى من كنز تحت العرش ولم يعط منه أحد غيره والسبع الطوال والمفصل .

وأن دار هجرته التى هى المدينة آخر الدنيا خرابا ، وأن جميع ما فى الكون خلق لأجله ، وأنه تعالى كتب اسمه على العرش وعلى كل سماء ، وما فيها كما تقدم وعلى بعض الأحجار وورق الأشجار وبعض الحيوانات كما تقدم . قال بعضهم وعلى سائر ما فى الملكوت وذكر الملائكة له صلى الله عليه وسلم فى كل ساعة ، وذكر اسمه صلى الله عليه وسلم فى الأذان فى عهد آدم والملكوت الأعلى كما تقدم .

ومما اختص به صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يحرم نكاح أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته حتى على الأنبياء بخلاف زوجات الأنبياء بعد موتهم لا يحرم نكاحهن على المؤمنين . قال شيخنا الشمس الرملى والأقرب عدم حرمتهن على الأتقياء من أممهم .

وفيه أنه إذا لم يحرمن على آحاد المؤمنين فعلى الأتقياء بطريق الأولى ، إلا أن يقال الفرق ممكن ، يدل عليه قوله : والأقرب وإلا فهذا مما يتوقف فيه على النقل .

وقيل ومن ذلك أنه يجب على أزواجه صلى الله عليه وسلم من بعده الجلوس فى بيوتهن ويحرم عليهن الخروج منها ولو لحج أو عمرة والراجح خلاف ذلك ، فقد حججن مع عمر رضى الله تعالى عنه وعنهن إلا سودة وزينب فخرجن فى الهوادج عليهن الطيالسة الخضر . وعثمان رضى الله تعالى عنه يسير أمامهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن إليك إليك . وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه خلفهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن مثل ذلك ، ولا ترى هوادجهن إلا مد البصر ، ولما ولى عثمان رضى الله تعالى عنه حج بهن أيضا إلا سودة وزينب .

وأنه يحرم أيضا رؤية أشخاص زوجاته صلى الله عليه وسلم فى الأزر ، وسؤالهن مشافهة أى من غير حجاب .

ولا يجوز كشف وجوههن لشهادة بلا خلاف ، وأن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على سائر النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم وينصروه إن أدركوه وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك كما تقدم ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحشر على البراق ، فقد جاء «تبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدواب ويبعث صالح على ناقته ، ويحشر ابنا فاطمة رضى الله تعالى عنهم على ناقته العضباء والقصوى ، ويبعث بلال رضى الله تعالى عنه على ناقة من نوق الجنة ، وأن فى كل يوم ينزل على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم سبعون ألف ملك يضربونه بأجنحتهم ويحفون به ، ويستغفرون له ، ويصلون عليه إلى أن يمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك كذلك حتى يصبحون لايعودون إلى أن تقوم الساعة » وأنه شق صدره الشريف صلى الله عليه وسلم عند ابتداء الوحى ، وأنه تكرر له ذلك خمس مرات على ماتقدم ، وأن خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره . وخاتم الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام كان فى يمينهم كما تقدم ، وتقدم مافيه ، وأن له صلى الله عليه وسلم ألف اسم ، ونقل عن تفسير الفخر الرازى أن له صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف اسم ، وأنه صلى الله عليه وسلم تسمى من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسما ؛ وأنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على الصورة التى خلق عليها مرتين كما تقدم ، وغيره لم يره كذلك ، وأنه عليه الصلاة والسلام يحكم بالظاهر والباطن كما تقدم ، وأنه صلى الله عليه وسلم أحلت له مكة ساعة من نهار ، وأنه حرّم مابين لابتى المدينة كما تقدم ، وأنه لم تر عورته قط ، وأن من رآها طمست عيناه كما تقدم ، وأنه إذا مشى فى الشمس أو فى القمر لا يكون له صلى الله عليه وسلم ظل لأنه كان نورا ، وأنه إذا وقع شئ من شعره فى النار لا يحترق ، وأن وطأه أثر فى الصخر على ماتقدم ، وأن الذباب لايقع على ثيابه فضلا عن جسده الشريف ، ولا يمتص نحو البعوض والقمل دمه كما تقدم ، وهذا لاينافى كون القمل يكون فى ثوبه ، ومن ثم جاء « كان صلى الله عليه وسلم يفلى ثوبه » وأن عرقه أطيب من ريح المسك كما تقدم .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ركب دابة لاتبول ولا تروث وهو راكبها ، ولو بنى مسجده إلى صنعاء اليمن كان مسجده أى فى المضاعفة خلافا لجمع منهم ابن حجر الهيتمى .

وقد قال الحافظ السيوطى : نص العلماء على أن المسجدين : أى المكى والمدنى ، ولو وسعا لم تختلف أحكامهما الثابتة لهما .

وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : لو مدّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحليفة لكان منه ، فهذا الأثر مصرح بأن أحكام مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة له ، فالتوسعة لاتمنع استمرار الحكم ، وتقدم مافى ذلك ، وأنه يجب على أمته صلى الله عليه وسلم أن تصلى وتسلم عليه فى التشهد الأخير وعند كل مايذكر عند بعضهم ، وأن القمر شق له صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، وأن الحجر والشجر سلما عليه صلى الله عليه وسلم ، وشهادة الشجر له صلى الله عليه وسلم بالنبوة وإجابتها دعوته ، وكلام الصبيان المراضع ، وشهادتهم له بالنبوة كما تقدم ،وأن الجذع اليابس حن إليه صلى الله عليه وسلم كما تقدم، وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة الإنس والجن إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكفر جاحد ذلك ، وقد يتوقف فى كفر العامى بجحد إرساله صلى الله عليه وسلم للجن وإلى الملائكة على ماهو الراجح كما تقدم .

قال بعضهم والقول بمقابله مبنى على تفضيل الملائكة على الأنبياء ،وهو قول مرجوح ذهب إليه المعتزلة والفلاسفة وجماعة من أهل السنة الأشاعرة . واستدلوا بأمور كلها مردودة. وتقدم عن البارزى رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الحيوانات والجمادات ، لكن استدل له بشهادة الضب والشجر له بالرسالة صلى الله عليه وسلم . وقد يتوقف فى الاستدلال بذلك .

وتقدم عن الحافظ السيوطى رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم أرسل لنفسه ، وتقدم الفرق بين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام وعموم رسالة نوح صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم بعث رحمة للبر والفاجر ،ورحمة للكفار بتأخير العذاب ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الخسف والمسخ والغرق كسائر الأمم المكذبة كما تقدم ،وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل خاطبه صلى الله عليه وسلم (ياأيها النبى—ياأيها الرسول—ياأيها المدثر—ياأيها المزمل) وقال (يا آدم ، يانوح ، ياإبراهيم ، ياداود ، يازكريا ، يايحيى ، ياعيسى) وأن الله أقسم بحياته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « ماحلف الله تعالى بحياة أحد

إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم » وأقسم الله على رسالته بقوله (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) وأن إسرافيل عليه السلام أهبط إليه صلى الله عليه وسلم ولم يهبط إلى نبي قبله كما تقدم، وأنه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الله، وأنه يحرم نكاح موطوآته صلى الله عليه وسلم من الزوجات والسرارى إلا من باعه أو وهبه من السرارى فى حياته إن فرض ذلك، وذهب الماوردى إلى تحريمها .

وفى كلام بعضهم : وتحرم زوجاته صلى الله عليه وسلم على غيره ولو قبل الدخول ولو مختارة للفراق، خلافا لما فى الشرح الصغير للرافعى من حل المختارة للفراق، وأنه يحرم التزوّج على بناته صلى الله عليه وسلم ، وقيل على فاطمة خاصة رضى الله تعالى عنها .
وأما التسرى عليهن فلم أقف على حكمه؛ وما علل به منع التزويج عليهن حاصل فى التسرى إلا أن يفرق .

وأوتى صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلا من أهل الجنة فى الجماع ، وقوة الرجل من أهل الجنة كمائة من أهل الدنيا ، فيكون أعطى صلى الله عليه وسلم قوة أربعة آلاف رجل ، وسليمان صلوات الله وسلامه عليه أعطى قوة مائة رجل . وقيل ألف رجل أى من رجال الدنيا ، وأن فضلاته صلى الله عليه وسلم طاهرة كما تقدم ، وأنه كان له صلى الله عليه وسلم أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاع فرساً من أعرابى فاستبقه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبى صلى الله عليه وسلم وتباطأ الأعرابى والفرس معه فساومه فى الفرس رجال لايعرفون أن النبى صلى الله عليه وسلم اشتراه بزيادة عما اشتراه به صلى الله عليه وسلم فقال الأعرابى للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت مبتاعا لهذا الفرس فابتعه وإلا بعته ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمع نداء الأعرابى : أو ليس قد ابتعته منك ، فقال الأعرابى : لا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك ، فقال الأعرابى : شاهدان يشهدان أنى بعتك ، فلما سمع خزيمة رضى الله تعالى عنه ذلك ، قال : أنا أشهد أنك بعته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخزيمة : كيف تشهد ولم تكن معنا ؟ فقال : يا رسول الله إنا نصدقك بخبر السماء أفلا نصدقك بما تقول ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته رضى الله تعالى عنه فى القضايا بشهادة رجلين . ومنه أخذ جواز الشهادة له صلى الله عليه وسلم بما ادعاه .

وترخيصه صلى الله عليه وسلم لأم عطية رضى الله تعالى عنها ، ولخولة بنت حكيم رضى الله تعالى عنها فى النياحة لجماعة مخصوصين .

وترخيصه صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها فى عدم الإحداد لما قتل زوجها سيدنا جعفر بن أبى طالب حيث قال لها تسلى ثلاثا ثم اصنعى ماشئت .

وتجويز التضحية بالعناق لأبى بردة ولعقبة بن عامر رضى الله تعالى عنهما : وزاد بعضهم ثلاثة آخرين .

وتزويجه صلى الله عليه وسلم لشخص امرأة على سورة من القرآن وقال : لاتكون لأحد غيرك مهرا ولعل المراد سورة مجهولة ، فلا يخالفه ذلك ماعند أئمتنا من جواز ذلك على معين من السور القرآنية .

وتزويجه صلى الله عليه وسلم أم سليم أبا طلحة رضى الله تعالى عنهما على إسلامه كماتقدم وإعادة امرأة أبى ركانة إليه بعد أن طلقها ثلاثا من غير محلل :

وتخصيصه صلى الله عليه وسلم نساء المهاجرين بأن يرثن دور أزواجهن دون بقية الورثة وقد ألغز فى ذلك بعضهم بقوله :

سلم على مفتى الأنام وقل له ... هـذا سؤال فى الفرائض مبهم
قوم إذا ماتوا تحوز ديارهم ... زوجاتهم فلغـيرها لاتقسم
وبقية المال الذى قد خلفوا ... يجرى على أهل التوارث منهم

وأنه صلى الله عليه وسلم أول من ينشق عنه القبر ، فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم أهل البقيع فيخرجون معى ثم أنتظر أهل مكة » ، أى وفى رواية « وأنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى عليه الصلاة والسلام آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أو كان ممن استثنى الله » .

وفيه أن الاستثناء إنما هو من نفخة الفزع التى هى النفخة الأولى التى يفزع بسببها أهل السموات والأرض ، وتمر الجبال مر السحاب ، وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة فى البحر تضربها الأمواج المعنية بقوله تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) والمعنية بقوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) الآية . قال صلى الله عليه وسلم «والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك ، قلنا يا رسول الله

فمن استثنى الله فى قوله : إلا من شاء الله : قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه» .

وفيه أن هذا يقتضى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يفزعون لأنهم أحياء ، ولم يذكرهم صلى الله عليه وسلم مع الشهداء ، والقياس قد يمنع لأنه يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل . وأنه من يكسى فى الموقف أعظم الحلل من الجنة ، وأنه صلى الله عليه وسلم يقوم فى المقام المحمود على يمين العرش ، وأنه الذى يشفع فى فصل القضاء بين أهل الموقف ، وأنه له صلى الله عليه وسلم شفاعات فى ذلك اليوم وهى إحدى عشرة شفاعة ذكرها فى [مزيل الخفاء] وأنه صلى الله عليه وسلم صاحب لواء الحمد فى ذلك اليوم ، آدم فمن دونه تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، وأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإمامهم فى ذلك اليوم كما تقدم .

وأول من يؤذن له فى السجود . وأول من ينظر إلى الرب عزوجل ، وأنه يسجد أولا فيقول له الرب جل جلاله ، ارفع رأسك يا محمد ، قل تسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، ثم ثانيا ، ثم ثالثا كذلك فيشفع .

وأنه أول من يفيق من الصعقة . وفيه أن نفخة الصعقة ، وهى النفخة الثانية التى هى نفخة الموت لأهل السموات والأرض ، إلا أن يقال المراد بالصعقة هنا نفخة رابعة أثبتها ابن حزم .

فقد قال الحافظ الجلال السيوطى رحمه الله : وأغرب ابن حزم رحمه الله تعالى ، فادعى أن النفخ فى الصور يقع أربع مرات ، فعليه تكون هذه النفخة ليست هى المذكورة فى القرآن ، وأنها تكون فى الموقف بعد النفخة الثالثة التى هى نفخة البعث التى بسببها يكون القيام من القبور إلى المحشر المعنية بقوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وهذه النفخة الرابعة تسمى نفخة الصعق أيضا ، لأن بها يحصل لجميع أهل السموات والأرض فى ذلك الوقت غشى وهو شبيه بالموت ، ويكون أول من يفيق من تلك الصعقة هو صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يجد موسى عليه الصلاة السلام آخذا بقائمة من قوائم العرش ، ويكون قوله « أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أنا أول من رفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » من تخليط بعض الرواة . وحينئذ لا يحتاج إلى الجواب بأنه صلى الله عليه وسلم أخبر بقوله لا أدرى قبل أن أعلمه الله تعالى بأنه أول من

تنشق عنه الأرض على الإطلاق ، وأن موسى عليه الصلاة والسلام سبقه إلى العرش لأنه صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من الأرض ينتظر خروج أهل البقيع ، ومجيء أهل مكة فليتأمل ذلك .

وأول من يمر على الصراط ، وأول من يدخل الجنة ومعه فقراء المسلمين ، وأن له الوسيلة وهى أعلى درجة فى الجنة .

وقيل إنه فى الجنة لا يصل لأحد شيء إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يقرأ فى الجنة إلا كتابه ، ولا يتكلم فى الجنة إلا بلسانه .

ومما شارك فيه الأنبياء فى هذا القسم ، أن من دعاه صلى الله عليه وسلم ، فى الصلاة تجب عليه الإجابة قولا وفعلا ولو كثيرا ، ولا تبطل صلاته بالنسبة لنبينا صلى الله عليه وسلم بخلاف غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنها تبطل .

ومنه أيضا العصمة من الذنب مطلقا كبيرا أو صغيرا عمدا أو سهوا ، وعدم التثاؤب والاحتلام ، لأن كلا من الشيطان ، ولم ير أثر لقضاء حاجته صلى الله عليه وسلم، بل كانت الأرض تبتلعه ويشم من مكانه رائحة المسك . قال : وأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر بالليل فى الظلمة كما يرى بالنهار فى الضوء .

واستشكل بما جاء « أنه صلى الله عليه وسلم لما ابتنى بأم سلمة رضى الله تعالى عنها دخل عليها فى الظلمة ، فوطئ صلى الله عليه وسلم على ابنتها زينب فبكت ، فلما كانت الليلة القابلة دخل صلى الله عليه وسلم فى ظلمة أيضا فقال « أنظروا ربائبكم لا أطأ عليها » وزينب هذه ولدتها من أبى سلمة بالحبشة ، ودخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل وهى إذ ذاك طفلة فنضح صلى الله عليه وسلم وجهها بالماء ، فلم يزل ماء الشباب بوجهها حتى عجزت وقاربت المائة سنة .

وكان صلى الله عليه وسلم ينظر من خلفه كما ينظر أمامه ، أى وعن يمينه وعن شماله ، فقد جاء « إنى لأنظر إلى ما وراء ظهرى كما أنظر إلى أمامى » فقيل كان له صلى الله عليه وسلم بين كتفيه عينان كسم الخياط يبصر بهما لاتحجبهما الثياب ، وقيل كانت تنطبع صورة المحسوسات التى خلفه فى حائط قبلته كما تنطبع الصور فى المرآة . وهذا يدل على أن ذلك خاص بالصلاة ، وهو ظاهر أكثر الروايات أى وكانت تلك الصلاة إلى حائط فليتأمل .

وكان صلى الله عليه وسلم يرى الثريا اثنا عشر نجما وغيره لا يزيد على تسعة ولو أمعن النظر .

واختصت هذه الأمة المحمدية بأمور لم يشاركها فيه من قبلهم من الأمم ، وهى أنها خير الأمم ، وأكرم الخلق على الله . قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

وفى الحديث « إن الله اختار أمتى على سائر الأمم . وإن الله ينظر إليها فى أول ليلة من رمضان » وأعطيت الاجتهاد فى الأحكام ، وأظهر الله ذكرها فى الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل ، وأثنى عليها ؛ وأعطيت الصلوات الخمس : أى جمعت لهم على ماتقدم ، وأعطيت صلاة العشاء .

فقد أخرج أبو داود والبيهقى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إنكم فضلتم بها » أى بصلاة العشاء « على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم » وفيه ما تقدم .

وأعطيت افتتاح الصلاة بالتكبير . وأعطيت التأمين : أى قول آمين عقب الدعاء ؛ فقد جاء « أعطيت آمين ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها هرون فإن موسى كان يدعو ويؤمن هرون عليهما الصلاة والسلام » وتقدم أن آمين عقب الفاتحة ليس من القرآن اتفاقا .

وأعطيت الاستنجاء بالحجر . وأعطيت الأذان والإقامة والركوع فى الصلاة ، وأما قوله تعالى لمريم (واركعى مع الراكعين) فالمراد بالركوع الخضوع كما تقدم ، ويلزمه أنها أعطيت فى الرفع منه « سمع الله لمن حمده » . وفى الاعتدال « اللهم ربنا لك الحمد » إلى آخره . وأعطيت تحريم الكلام فى الصلاة دون الصوم عكس من قبلهم . وأعطيت الجماعة فى الصلاة . وأعطيت الاصطفاف فيها كصفوف الملائكة . وأعطيت صلاة العيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر . وأعطيت قصر الصلاة فى السفر ، والجمع بين الصلاتين فيه على ما تقدم وفى المطر والمرض على قول اختاره جمع من العلماء ومنهم والدى رحمه الله . وأعطيت صلاة الخوف وصلاة شدته . وأعطيت شهر رمضان على ما تقدم . وأعطيت فيه أمورا منها تصفيد الشياطين .

وقد سئلت : مافائدة تصفيد الشياطين فى رمضان مع وجود الفساد والشر وقتل الأنفس فيه ؟ وقد أجيبت عنه أربعة أجوبة ، حاصلها أن فائدة ذلك قلة الشر لانفيه بالكلية ، وقد

ذكرت ذلك فى كتابى [إسعاف الإخوان فى شرح غاية الإحسان] وهو كتاب ألفته فى الصوم وما يتعلق به .

ومنها صلاة الملائكة عليهم حين يفطروا . ومنها أن ريح فمهم بعد الزوال أطيب عند الله من ريح المسك ، وفيه أن هذا لا يختص بصوم رمضان . ومنها أن الجنة تزين فيه من رأس الحول إلى رأس الحول ، وتفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب النيران ، وتفتح أبواب السماء فى أول ليلة منه .

ومنها أنه يغفرلهم فى آخر ليلة منه .وأعطيت العقيقة عن الأنثى. وأعطيت العذبة فى العمامة. وأعطيت الوقف ، والوصية بالثلث عند الموت . وأعطيت غفران الذنوب بالاستغفار ، وجعل الندم توبة . وأعطيت صلاة الجمعة . وأعطيت ساعة الإجابة فى يومها . وأعطيت ليلة القدر . وأعطيت السحور وتعجيل الفطر . وأعطيت الاسترجاع عند المصيبة . وأعطيت الحوقلة : أى لا حول ولا قوة إلا بالله . وأعطيت رفع الإصر عنها ، ومنه وجوب القصاص فى الخطأ والمؤاخذة بحديث النفس والنسيان وما وقع عليه الإكراه؛ وأن إجماعها حجة لأنها لا تجتمع على ضلالة : أى محرم . وأعطيت أن اختلاف علمائها رحمة ، وكان اختلاف من قبلهم عذابا ، والمراد بعلماء الأمة المجتهدون ، كما أن المراد ذلك بما رواه البيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أصحابى رحمة » أى ويقاس بأصحابه غيرهم ممن بلغ رتبة الاجتهاد . قال بعضهم : وما ذكره بعض الأصوليين والفقهاء أنه صلى الله عليه وسلم قال « اختلاف أمتى رحمة » لا يعرف من خرّجه بعد البحث الشديد، وإنما يعرف عن القاسم بن محمد بلفظ « اختلاف أمة محمد رحمة » قال الحافظ السيوطى : ولعله خرّج فى بعض كتب الحفاظ التى لم تصل إلينا ، وأن الطاعون لهم رحمة وكان على من قبلهم عذابا. وأعطيت الإسناد للحديث . قال أبو حاتم الرازى رحمه الله : لم يكن فى أمة من الأمم منذ خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام من يحفظون آثار الرسل ، أى ويأخذها واحد عن الآخر إلا فى هذه الأمة ، أى حتى إن الواحدمنهم يكتب الحديث الواحد من ثلاثين طريقا أوأكثر ، وأن فيها الأقطاب والأنجاب والأوتاد ، ويقال لهم العمد والأبدال والأخيار والعصب ؛ فالأبدال بالشام . واختلفت الروايات فى عددهم : فأكثر الروايات أنهم أربعون رجلا ، وفى بعض الروايات أربعون

رجلا، وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ،وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة ، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم ، فعند ذلك تقوم الساعة .

وعن الفضل بن فضالة قال : الأبدال بالشام فى حمص خمسة وعشرون رجلا ، وفى دمشق ثلاثة عشر ، وفى نيسان اثنان . وفى رواية عن حذيفة بن اليمان « الأبدال بالشام ثلاثون رجلا على منهاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام » .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايزال أربعون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض ، يقال لهم الأبدال .

وعن الحسن البصرى رحمه الله : لن تخلو الأرض من سبعين صدّيقا وهم الأبدال : أربعون بالشام ، وثلاثون فى سائر الأرض .

وعن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها : الرضا بالقضاء ، والصبر عن محارم الله ، والغضب فى ذات الله » .

وجاء فى وصف الأبدال « إنهم لم ينالوا مانالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة القلوب ، والنصيحة لأئمتهم » وفى لفظ « لجميع المسلمين » .

وعن أبى سليمان : الأبدال بالشام والنجباء بمصر . وفى لفظ : الأبدال من الشام ، والنجباء من أهل مصر . وفى رواية عن على كرم الله وجهه أيضا : والنجباء بالكوفة ، والعصب باليمن ، والأخيار بالعراق . وفى لفظ : والعصب بالعراق .

وعن بعضهم : النقباء ثلاثمائة وسبعون ، والبدلاء أربعون ، والأخيار سبعة ،والعمد أربعة ، والغوث : أى الذى هو القطب واحد ؛ فسكن النقباء الغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سائحون فى الأرض ، والعمد فى زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النجباء ، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العمد ، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث ، فما تتم مسألته حتى يجاب .

وجاء عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يكن نبى

قط إلا أعطى سبعة نجباء وزراء رفقاء ، وإنى أعطيت خمسة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله بن مسعود ، وسلمان ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة ، وأبوذر ، والمقداد ، وبلال ، ومصعب » وأسقط الترمذى حذيفة وأبا ذر والمقداد .

وأنهم : أى أمته صلى الله عليه وسلم يخرجون من قبورهم بلاذنوب يمحصها الله عنهم باستغفار المؤمنين لهم ، وأنها أول من تنشق عنها الأرض ، وأنها فى الموقف تكون على مكان عال مشرف على الأمم ، وأنها أول من يحاسب ، وأنها أول من يدخل الجنة من الأمم ، وأن لكل منها نورين كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنها تمر على الصراط كالبرق الخاطف وأنها تشفع فى بعضها ، وأن لها ماسعت وما سعى لها ، وأنها اختصت عن من الأمم ماعدا الأنبياء بوصف الإسلام على الراجح كما تقدم لأنه لم يوصف بالإسلام أحد الأمم السالفة سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد شرفت بأن توصف بالوصف الذى توصف به الأنبياء تشريفا لها وتكريما ، فقد قال زيد بن أسلم أحد أئمة السلف العالمين بالقرآن والتفسير : لم يذكر الله بالسلام غير هذه الأمة ، أى وما ورد مما يوهم خلاف ذلك مؤول .

وقد خصت هذه الأمة بخصائص لم تكن لأحد سواها إلا للأنبياء فقط ؛ فمن ذلك الوضوء ، فإنه لم يكن أحد يتوضأ إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فعن ابن مسعودرضى الله تعالى عنه مرفوعا ، فى التوراة والإنجيل وصف هذه الأمة أنهم يوضئون أطرافهم .

وفى بعض الآثار : افترضت عليهم أن يتطهروا فى كل صلاة كما افترضت على الأنبياء لكن تقدم فى الحديث » أنه صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة، فقال : هذا وضوء لايقبل الله الصلاة إلا به ، ثم توضأ مرتين مرتين فقال : هذا وضوء الأمم من قبلكم ، من توضأ مرة آتاه الله أجره مرتين ، ثم توضأ ثلاثا ثلاثا ، فقال . هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ووضوء خليل الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين » وهذا الحديث كما ترى يقتضى مشاركة الأمم مع هذه الأمة فى أصل الوضوء ، والاختصاص إنما هو بالتثليث ، وتقدم الكلام على ذلك ، أى والغسل من الجنابة .

ففيما أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام فى وصف هذه الأمة « وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأن منها سبعين ألفا » مع كل واحد من هؤلاء

السبعين ألفا سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، أى وباجلال الله تعالى توقير المشايخ منهم ، وأنهم اذا حضروا القتال فى سبيل الله حضرتهم الملائكة لنصرة الدين ، وأن الملائكة تنزل عليهم فى كل سنة ليلة القدر تسلم عليهم ، وأكل صدقاتهم فى بطونهم ، وإثابتهم عليها ، وتعجيل الثواب فى الدنيا مع ادخاره فى الآخرة ، كصلة الرحم فإنها تزيد فى العمر ويثاب عليها فى الآخرة ومادعوا به استجيب لهم .

روى الترمذى رحمه الله « أعطيت هذه الأمة مالم يعط أحد بقوله تعالى(ادعونى أستجيب لكم) » وإنما يقال هذا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلاة فى وصف هذه الأمة « إن دعونى استجبت لهم ، فإما أن يكون عاجلا ، وإما أن أصرف عنهم سوءا ، واما أن أدخرلهم فى الآخرة » ومخالطة الحائض سوى الوطء وما ألحق به ، وهو مباشرة مابين سرتها وركبتها ، وتقدم وصفهم فى الكتب القديمة بمالا ينبغى إعادته هنا لطوله .

باب ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم

ولدله صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله تعالى عنها قبل البعثة : القاسم ، وهو أول أولاده صلى الله عليه وسلم ، وبه كان يكنى ، قيل عاش سنتين ؛ وقيل سنة ونصفا ، وقيل حتى مشى ، وقيل بلغ ركوب الدابة ، وقيل عاش سبع ليال . وهو أول من مات من ولده قبل البعثة ، ثم ولدت قبل البعثة أيضا زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم رضى الله تعالى عنهن . وقيل أول بناته صلى الله عليه وسلم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم رضى الله تعالى عنهن . وقيل أكبر بناته صلى الله عليه وسلم رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ثم فاطمة . وقيل أول بناته صلى الله عليه وسلم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة. وبعض الناس ذكر رقية بعد فاطمة .

وبعد البعثة ولد له صلى الله عليه وسلم عبد الله : ويسمى الطيب الطاهر . وقيل الطيب والطاهر غير ، عبد الله المذكور ولدا فى بطن واحدة قبل البعثة . .

أى وقيل اللذان ولدا فى بطن واحدة قبل البعثة الطاهر والمطهر. وقيل ولد له أيضا قبل البعثة فى بطن واحدة الطيب والمطيب . وقيل والد له قبل البعثة عبد مناف ، مات هؤلاء

قبل البعثة وهم يرضعون ، أما عبد الله الذى ولد له بعد بعثته صلى الله عليه وسلم فكان آخر الأولاد من خديجة رضى الله تعالى عنها .

وبهذا يظهر التوقف فى قول السهيلى رحمه الله كلهم ولدوا بعد النبوة . وأجاب بعضهم بأن المراد بعد ظهور دلائل النبوة .

وفيه أن دلائل النبوة وجدت قبل تزوجه بخديجة رضى الله تعالى عنها .

وعند موت عبد الله هذا قال العاص بن وائل والد عمرو بن العاصى . وقيل أبو لهب قد انقطع ولده : أى لا ولد له ذكر لأن ماعدا الذكر عند العرب لا يذكر فهو أبتر ، فأنزل الله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) .

أقول : فى مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه قال « بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضحكك يارسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) ولا يخفى أن هذا يقتضى أن السورة المذكورة مدنية ، ثم رأيت الإمام النووى رجح ذلك لما ذكر .

وقد يقال : يجوز أن يكون (إن شانئك هو الأبتر) نزل بمكة وما عداه نزل بالمدينة . وقد يعبر عن معظم السورة بالسورة . ثم رأيته فى الإتقان ذكر أن مما نزل دفعة واحدة سورا منها الفاتحة والإخلاص والكوثر . ثم رأيت الإمام الرافعى رحمه الله قال : فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت فى تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحى ماكان يأتيه فى النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، وهذا غير صحيح ، لكن الأشبه أن يقال : القرآن كله نزل يقظة ، وكان صلى الله عليه وسلم خطر له فى النوم سورة كوثر المنزل عليه فى اليقظة : أى قبل ذلك .

وفيه أن قوله آنفا لايناسبه ، قال: أو يحمل الإغفاء على الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى . ثم رأيت الجلال السيوطى فى الإتقان نظر فى جواب الرافعى الأول بما ذكرته واستحسن الجواب الثانى .

وفى المواهب أن العاصى بن وائل اجتمع هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب من أبواب المسجد فتحدثا وصناديد قريش جلوس فى المسجد ، فلما دخل العاص المسجد قالوا له : من ذا الذى كنت تتحدث معه ؟ قال : ذاك الأبتر ، يعنى النبى صلى الله عليه

وسلم ، وقد كان توفى أولاده صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله تعالى عنها أى الذكور ، فرد الله سبحانه وتعالى عليه وتولى جوابه بقوله : (إن شانئك هو الأبتر) أى عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير : أى باغضك هو الأبتر : أى المقطوع عن كل خير ؛ أو المقطوع رحمه بينه وبين ولده ، لأن الإسلام حجزهم عنه فلا توارث بينهم . فلا يقال العاص وأبو لهب لهما أولاد ذكور ؟ فالأول له عمرو وهشام رضى الله تعالى عنهما . والثانى له عتبة ومعتب رضى الله تعالى عنهما .

قيل وكان بين كل ولدين لخديجة سنة . وكانت رضى الله تعالى عنها تعق عن الغلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكانت تسترضع لهم .

وذكر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره فى قوله تعالى (يهب لمن يشاء إناثا) كلوط عليه الصلاة والسلام كان له إناث ولم يكن له ذكور (ويهب لمن يشاء الذكور) كإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإنه لم يكن له بنت (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) كنبينا صلى الله عليه وسلم (ويجعل من يشاء عقيما) كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإنهما لم يولد لهما ولد .

أما زينب رضى الله تعالى عنها ، فتزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة شقيقتها ، وهو العاصى بن الربيع كما تقدم . وذكر بعضهم بدل هالة هند . قال : وهالة صحابية ، وهند لا أعرف لها إسلاما . ويحتمل أن يكون أحدهما اسما والآخر لقبا ، فهما واحدة .

وفى سنة ثمان من الهجرة ، أى من ذى الحجة ولدت له صلى الله عليه وسلم مارية القبطية رضى الله تعالى عنها — وكان صلى الله عليه وسلم معجبا بها ، لأنها كانت بيضاء جميلة — ولده إبراهيم . وعق عنه صلى الله عليه وسلم بكبشين يوم سابعه ، وحلق رأسه ، وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين ، وأمر بشعره فدفن فى الأرض ، أى وغارت نساؤه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن من ذلك ولا كعائشة رضى الله تعالى عنها حتى إنه صلى الله عليه وسلم قال لها : انظرى إلى شبهه ، فقالت : ما أرى شيئا فقال . ألا ترى إلى بياضه ولحمه ، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى وكانت قبل ذلك مولاة عمته صلى الله عليه وسلم صفية رضى الله تعالى عنها وهبتها له صلى الله عليه وسلم ، وسلمى زوجة أبى رافع رضى الله تعالى عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لعمه العباس

رضى الله تعالى عنه قبل ذلك، وهبه له صلى الله عليه وسلم واسمه إبراهيم وكان قبطيا . وقيل غير ذلك ، أعتقه صلى الله عليه وسلم لما أخبره بإسلام العباس ، وزوّجه مولاته سلمى المذكورة . وقيل كان مولى لسعيد بن العاص، فورثه بنوه وهم ثمانية فأعتقوه كلهم إلا ولده خالد فإنه لم يعتق نصيبه منه ، فكلمه صلى الله عليه وسلم أن يعتق نصيبه أو يبيعه أو يهبه منه ، فوهبه منه صلى الله عليه وسلم فأعتقه ، قيل بعد أن سأله صلى الله عليه وسلم أبو رافع فى ذلك ، وبقى عقبة مع أشراف المدينة .

وكان ولده عبد الله كاتبا وخازنا لعلى كرم الله وجهه أيام خلافته، فخرجت إلى زوجها أبى رافع فأخبرته أن مارية قد ولدت غلاما ، فجاء أبو رافع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشره ، فوهب له عبداً .

وروى أبو رافع رضى الله تعالى عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نسائه واغتسل عند كل واحدة منهن غسلا » قال أبو رافع « فقلت له : يارسول الله لو جعلته غسلا واحداً ، قال : هذا أزكى وأطيب » وسمى صلى الله عليه وسلم ابنه يومئذ : أى يوم ولادته ؛ وقيل سماه سابع ولادته ، ودفعه لأم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس لترضعه، وأعطاها قطعة نخل، فكانت ترضعه فى بنى مازن وترجع به إلى المدينة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ، ثم يرجع .

ولما احتضر جاء صلى الله عليه وسلم فوجده فى حجر أمه ، فأخذه صلى الله عليه وسلم فى حجره وقال « يا إبراهيم إنا لن نغنى عنك من الله شيئا ، ثم ذرفت عيناه صلى الله عليه وسلم وقال : إنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكى العين ، ويحزن القلب، ولا نقول مايسخط الرب ونهانا عن الصياح . أى وفى لفظ « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب» ولولا أنه وعد صادق وموعود جامع — فإن الآخر منا يتبع الأول— وجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ماوجدناه » أى وفى لفظ « ولولا أنه أمر حق ووعد صدق وأنها سبيل مأتية لحزنا عليك حزنا شديدا أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » وفى لفظ « وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وعن سيرين : لما نزل بإبراهيم الموت صرت كلما صحت أنا وأختى نهانا صلى الله عليه وسلم عن الصياح ، أى ولما بكى صلى الله عليه وسلم قال له أبو بكر وعمر رضى الله تعالى

عنهما « أنت أحق من علم الله حقه ، قال : تدمع العين ، وقال له صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه : أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال : لاولكنى نهيت عن صوتين أحمقين وآخرين : صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وصوت عند نغمة لهو ، وهذه رحمة ،ومن لايرحم لايرحم » وذكر « أنه لما مات كان صلى الله عليه وسلم مستقبلا للجبل فقال : ياجبل لو كان بك مثل مابى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصرخ أسامة رضى الله تعالى عنه ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : رأيتك تبكى ، فقال له صلى الله عايه وسلم البكاء من الرحمة ، والصراخ من الشيطان » .

ولما مات ولد سليمان بن عبد الملك التفت إلى ولى عهده عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه وقال له : إنى أجد فى كبدى جمرة لايطفئها إلا عبرة ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : اذكر الله يا أمير المؤمنين ، وعليك بالصبر . والتفت إلى وزيره رجاء ، فقال له رجاء اقضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس ، فقد دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم ، فأرسل سليمان عينيه فبكى حتى قضى أربا ،ثم أقبل عليهما ، فقال : لو لم أنزف هذه العبرة لانصدعت كبدى ثم لم يبك بعدها ، ولذلك قيل :

فى إفاضة الكئيب لدمعته ... مايذهب من لوعته
وفى إرساله لعبرته ... ما يعينه على سلوته

ومات سنة عشر من الهجرة .

واختلف فى سنه؟ فقيل سنة وعشرة أشهر وستة أيام ، وقيل ثمانية عشر شهرا ، مات عند ظئره أم بردة ، وغسلته ، وحملته بين يديها على سرير .

وفى رواية غسله الفضل بن العباس رضى الله تعالى عنهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم على سرير .

وفى كلام ابن الأثير رحمه الله قيل : إن الفضل بن العباس رضى الله تعالى عنهما غسل إبراهيم ونزل فى قبره هو وأسامة بن زيد ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفير القبر ، قال الزبير : ورش على قبره ماء ، وعلم على قبره بعلامة . وهو أول قبر رش عليه الماء ، وفيه أنه رش على قبر عثمان بن مظعون بالماء ، وهو سابق على سيدنا إبراهيم كما تقدم ، وصلى عليه صلى الله عليه وسلم وكبر أربعا ، أى وقيل لم يصل عليه : أى لم تقع الصلاة

عليه من أحد . وفى كلام النووى رحمه الله القبول بالصلاة عليه ، هو قول جمهور العلماء وهو الصحيح .

وما جاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنه لم يصلّ عليه قال ابن عبد البر رحمه الله إنه غلط ، فقد أجمع جماهير العلماء على الصلاة على الأطفال إذا استهلوا عملا مستفيضا عن السلف والخلف .

وقال الإمام أحمد رحمه الله فى خبر عائشة رضى الله تعالى عنها : إنه خبر منكر جدا ، أى وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم « الطفل يصلى عليه » وجاء « صلوا على أطفالكم فإنه من أفراطكم » وقد جاء فى المرفوع « إذا استهل المولود صلى عليه وورّث وورث » وجاء « أحق ما صليتم على أطفالكم » ومن المقرر أنه إذا تعارض الإثبات والنفى قدم الإثبات على النفى .

ولما كسفت الشمس فى ذلك اليوم قال قائل : كسفت لموت إبراهيم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكسف لموت أحد ولا لحياته » . وفى لفظ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده ، فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » الحديث . ودفن بالبقيع وقال « الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون رضى الله عنه » ولقنه صلى الله عليه وسلم . قال الإمام السبكى : وهو غريب . وقد احتج به بعض أئمتنا على استحباب تلقين الطفل .

وفى التتمة للمتولى من أئمتنا : والأصل فى التلقين ما روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما دفن إبراهيم قال : قل الله ربى ، ورسول الله أبى ، والإسلام دينى . فقيل له : يا رسول الله أنت تلقنه فمن يلقننا ؟ فأنزل الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى وفى رواية « أنه صلى الله عليه وسلم لما دفن ولده إبراهيم وقف على قبره ، فقال : يا بنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بنى قل الله ربى ، والإسلام دينى ، ورسول الله أبى ، فبكت الصحابة رضوان الله عليهم . ومنهم عمر رضى الله عنه بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ولا جرى عليه القلم ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقنه التوحيد فى مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم ، وجرى عليه القلم ، وليس له ملقن مثلك ؟ فبكى

النبي صلى الله عليه وسلم وبكت الصحابة معه» ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) يريد بذلك وقت الموت : أى عند وجود الفتانين وعند السؤال فى القبر ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم الآية ، فطابت الأنفس وسكنت القلوب ، وشكروا الله ».

وفيه أن هذا يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم لم يلقن أحدا قبل ولده إبراهيم ، وهذا الحديث استند إليه من يقول بأن الأطفال يسألون فى القبر فيسن تلقينهم .

وذهب جمع إلى أنهم لا يسألون ، وأن السؤال خاص بالمكلف ، وبه أفتى الحافظ ابن حجر رحمه الله ، فقال : والذى يظهر اختصاص السؤال بمن يكون مكلفا ، ويوافقه قول النووى رحمه الله فى الروضة وشرح المهذب : التلقين إنما هو فى حق الميت المكلف أما الصبى ونحوه فلا يلقن . قال الزركشى : وهو مبنى على أن غير المكلف لا يسأل فى قبره .

وذكر القرطبي رحمه الله أن الذى يقتضيه ظواهر الأخبار أن الأطفال يسألون ، وأن العقل يكمل لهم .

وذكر أن الأحاديث مصرحة بسؤال الكافر ، أى من هذه الأمة . ويخالفه قولهم حكمة السؤال تمييز المؤمن من المنافق الذى كان يظهر الإسلام فى الدنيا ، وأما الكافر الجاحد فلا يسأل . قال الفاكهانى : إن الملائكة لا يسألون .

قال بعضهم : ووجهه ظاهر ، فإن الملائكة إنما يموتون عند النفخة الأولى ، أى فلم يبق منهم من يقع منه السؤال . وأما عذاب القبر فعام للمسلم والكافر والمنافق، فعلم الفرق بين فتنة القبر وعذابه ، وهو أن الفتنة تكون بامتحان الميت بالسؤال ، وأما العذاب فعام يكون ناشئا عن عدم جواب السؤال ، ويكون عن غير ذلك .

وقد اختص نبينا صلى الله عليه وسلم بسؤال أمته عنه ، بخلاف بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما ذاك إلا أن الأنبياء قبل نبينا كان الواحد منهم إذا أتى أمته وأبوا عليه اعتزلهم وعوجلوا بالعذاب . وأما نبينا صلى الله عليه وسلم، فبعث رحمة بتأخير العذاب ولما أعطاه الله السيف دخل فى دينه قوم مخافة من السيف ، فقيض الله تعالى فتانى القبر ليستخرجا بالسؤال ما كان فى نفس الميت فيثبت الله المسلم ويزل المنافق .

وفى بعض الآثار تكرر السؤال فى المجلس الواحد ثلاث مرات . وفى بعضها أن المؤمن يسأل سبعة أيام والمنافق أربعين يوما ، أى قد يقع ذلك .

وفى بعض الآثار أن فتانى القبر أربعة : منكر ، ونكير ، وناكور ، وسيدهم رومان وفى بعضها ثلاثة ، أنكر ، ونكير ، ورومان . وقيل أربعة : منكر ، ونكير يكونان للمنافق ، ومبشر وبشير للمؤمن .

ونقل الحافظ السيوطى عن شيخه الجلال البلقينى رحمهما الله أن السؤال يكون بالسريانية ، واستغربه وقال : لم أره لغيره . وفى كلام الحافظ السيوطى : لم يثبت فى التلقين حديث صحيح ولا حسن ، بل حديثه ضعيف باتفاق جمهور المحدثين . ولهذا ذهب جمهور الأمة إلى أن التلقين بدعة ،وآخر من أفتى بذلك العز بن عبد السلام ،وإنما استحسنه ابن الصلاح وتبعه النووى نظرا إلى أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال ؛ وحينئذ فقول الإمام السبكى : حديث تلقين النبى صلى الله عليه وسلم لابنه ليس له أصل أى صحيح أو حسن ؛

وقال صلى الله عليه وسلم فى حق إبراهيم « إن له ظئرا تتم رضاعه » وفى رواية « إن له ظئرين يكملان رضاعه فى الجنة» وقال «لو عاش لوضعت الجزية عن كل قبطى» وفى لفظ « لأعتقت القبط وما استرق قبطى قط » وفى لفظ « مارق له خال » .

قال بعضهم : معناه لو عاش فرآه أخواله القبط لأسلموا فرحا به وتكرمة له ، فوضعت الجزية عنهم ، لأنها لا توضع على مسلم . ومعنى الثانى إذا أسلموا وهم أحرار لم يجر عليهم الرق ، لأن الحر المسلم لا يجرى عليه الرق .

وذكر أن الحسن بن على رضى الله عنهما كلم معاوية فى أن يضع الخراج عن أهل بلد مارية وهى حفنة بالحاء المهملة وإسكان الفاء وبالنون ؛قرية من قرى الصعيد ، ففعل معاوية ذلك رعاية لحرمتهم .

أى وقال النووى رحمه الله : وأما ما روى عن بعض المتقدمين لوعاش إبراهيم لكان نبيا فباطل ، وجسارة على الكلام فى المغيبات، ومجازفة وهجوم على بعض الزلات . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وهو عجيب مع وروده عن ثلاثة من الصحابة ، وكأنه لم يظهر له وجه تأويله ، وهو أن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع ؛ أى وكان اللائق به أن يكون نبيا وإن لم يكن ذلك . ثم رأيت الجلال السيوطى رحمه الله نقل عن الأستاذ أبى بكر بن فورك وأقره «أنه صلى الله عليه وسلم لما دفن ولده إبراهيم وقف على قبره وقال : يابنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، إنا لله وإنا إليه راجعون » وكنى به صلى الله

عليه وسلم ، فقد جاء « أن جبريل عليه السلام قال له : السلام عليك يا أبا إبراهيم ، إن الله قد وهب لك غلاما من أم ولدك مارية ، وأمرك أن تسميه إبراهيم ، فبارك الله لك فيه ، وجعله قرة عين لك فى الدنيا والآخرة » زاد الحافظ الدمياطى رحمه الله «فاطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك » .

أقول : وسبب اطمئنانه صلى الله عليه وسلم بذلك أن مابورا كان يأوى إليها ويأتى إليها بالماء والحطب ، فاتهمت به وقال المنافقون علج يدخل على علجة ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فبعث عليا كرم الله وجهه ليقتله ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله أقتله أو أرى فيه رأيى ؟ فقال : بل ترى رأيك فيه ، فلما رأى السيف بيد على كرم الله وجهه تكشف ، وفى لفظ : فإذا هو فى ركى يتبرد ، فقال على كرم الله وجهه : اخرج ، فناوله يده ، فأخرجه فإذا هو مجبوب ، أى ممسوح ، فكف عنه على كرم الله وجهه ورجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : أصبت ، إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب . أى وتكون هذه القضية متقدمة على قول جبريل عليه الصلاة والسلام المذكور ، فالمراد مزيد الاطمئنان .

وفى كلام بعضهم « أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على مارية رضى الله تعالى عنها وهى حامل بولده إبراهيم فوجد عندها من ذكر ، فوقع فى نفسه شىء ، فخرج صلى الله عليه وسلم وهو متغير اللون ، فلقيه عمر رضى الله تعالى عنه فعرف الغيظ فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره ، فأخذ عمر السيف ثم دخل على مارية رضى الله عنها وهو عندها فأهوى إليه بالسيف ، فلما رأى ذلك كشف عن نفسه فإذا هو مجبوب فلما رآه عمر رضى الله عنه رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : ألا أخبرك يا عمر ؟ إن جبريل عليه الصلاة والسلام أتانى فأخبرنى أن الله برأها ونزهها مما وقع فى نفسى ، وبشرنى أن فى بطنها غلاما منى ، وأنه أشبه الخلق بى ، وأمرنى أن أسميه إبراهيم ، وكنانى بأبى إبراهيم ، ولولا أنى أكره أن أحول كنيتى التى تكنيت بها لتكنيت بأبى ابراهيم » والله أعلم .

أى وفى النور : إنى لا أعرف فى الصحابة خصيا إلا هذا وشخص آخر يقال له سفد ، رآه مولاه يقبل جارية له فخصاه وجدعه ، وأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأعتقه سيده ؛

وفى كلام بعضهم عد ابن منده وأبو نعيم مابورا فى الصحابة ، وقد غلطا فى ذلك ، فإنه لم يسلم وما زال نصرانيا، ومنه أى بسببه فتح المسلمون مصر فى خلافة عمر رضى الله عنه .

باب ذكر أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم

أعمامه صلى الله عليه وسلم اثنا عشر ، وهم : الحارث وهو أكبر أولاد جده عبدالمطلب وبه كان يكنى . وشقيقه قثم وقد هلك صغيرا . وأبو طالب . والزبير . وعبد الكعبة ، وهؤلاء الثلاثة أشقاء لعبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل الحارث لاشقيق له ، وحمزة وشقيقاه المقوم بفتح الواو وكسرها مشددة ، وجحل بتقديم الجيم على الحاء ،واسمه المغيرة ، والجحل السقاء الضخم ، أى وقيل بتقديم الحاء مفتوحة على الجيم ، وهو فى الأصل الخلخال . والعباس وشقيقه ضرار ، وقد تقدم أن أم العباس رضى الله عنه أول من كست الكعبة الحرير ، وأبولهب واسمه عبد العزى ، والغيداق واسمه مصعب ، وقيل نوفل، ولقب بالغيداق لكثرة جوده ، أى لأنه كان أجود قريش وأكثرها طعاما ومالا، وذكر بعضهم فى أعمامه العوام .

وعماته صلى الله عليه وسلم ست وهن أم حكيم وعاتكة وبرة وأروى وأميمة ، وهؤلاء الخمسة أشقاء لعبد الله والده صلى الله عليه وسلم وصفية : أى وهى شقيقة حمزة ولم يسلم من أعمامه صلى الله عليه وسلم الذين أدركوا البعثة إلا حمزة والعباس، وحكى إسلام أبى طالب وقد تقدم ما فيه ولم يسلم من عماته اللاتى أدركن البعثة من غير خلاف إلا صفية أى وهى أم الزبير بن العوام ، أسلمت وهاجرت أى وماتت فى خلافة عمر رضى الله عنه .
قيل وأسلمت عاتكة التى هى صاحبة الرؤيا يوم بدر ، وقيل وأروى . قال بعضهم : والمشهور أن عاتكة لم تسلم .

باب ذكر أزواجه وسراريه صلى الله عليه وسلم

لا يخفى أن أزواجه صلى الله عليه وسلم المدخول بهن اثنتا عشرة امرأة : خديجة رضى الله عنها ، وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم وكانت قبله تحت أبى هالة بن زرارة التيمى ، وقيل كانت تحت عتيق بن عائذ المخزومى أولا ثم تحت أبى هالة كما تقدم . وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب

فيه ولا نصب » أى ليس فيه رفع صوت ولا تعب : أى من درة مجوفة ، فقد جاء « أنها قالت له : يا رسول الله هل فى الجنة قصب ؟ فقال : إنه من لؤلؤ مجبى » بالجيم وبالموحدة مشددة : أى مجوف . وجوزيت رضى الله عنها بهذا البيت ، لأنها أول من بنى بيتا فى الإسلام بتزوجها برسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء « من كسا مسلما على عرى كساه الله من حلل الجنة ، ومن سقى مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق جزاء وفاقا » .

وعن عائشة رضى الله عنها : ما غرت على أحد ماغرت على خديجة رضى الله عنها ، ولقد هلكت قبل أن يتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت له صلى الله عليه وسلم يوما وقد مدح خديجة رضى الله عنها : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » واتفق له صلى الله عليه وسلم « أنه أرسل لحما لامرأة تناوله صلى الله عليه وسلم ودفعه لآخر يدفعه لها ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : لم تحرز يدك(١) فقال : إن خديجة أوصتنى بها ، فقالت عائشة : لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا ؛ فلبث ما شاء الله ثم رجع ، فإذا أم رومان أم عائشة رضى الله عنهما ، فقالت يارسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها ، فأخذ بشدق عائشة رضى الله عنها ؛ وقال : ألست القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة ، والله لقد آمنت بى إذ كفر بى قومك ورزقت منها الولد وحرمتموه » .

ثم سودة بنت زمعة أى وأمها من بنى النجار لأنها بنت أخى سلمى بن عبدالمطلب(٢) كما تقدم .

ثم أم عبد الله عائشة رضى الله عنها بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، اكتنت بابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير رضى عنهم بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فصار يقال لها أم عبد الله كما تقدم .

---

(١) (قوله لم تحرز يدك) هكذا فى بعض النسخ وفى بعضها (لم تحررت بذلك) وليحرر .

(٢) (قوله لأنها بنت أخى سلمى بن عبد المطلب) الذى فى الزرقانى على المواهب (بنت أخى سلمى من عمرو بن زيد أم عبد المطلب) وهى ظاهرة .

وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة « هو عبد الله وأنت أم عبد الله » قالت : فما زلته أكنى به ، أى وكان يدعوها أما لأنه رضى الله عنه تربى فى حجرها .

ويقال إنها أتت منه صلى الله عليه وسلم بسقط : أى وسمى عبد الله . قال الحافظ الدمياطى ولم يثبت كما تقدم ، وتزوجها صلى الله عليه وسلم بمكة فى شوال وهى بنت سبع سنين ، وبنى صلى الله عليه وسلم بها وهى بنت تسع سنين أى فى شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة على الصحيح كما تقدم ، وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لها : أريتك فى النوم مرتين ، أرى ملكا يحملك فى سرقة » أى شقة حرير « فيقول : هذه امرأتك فأكشف فأراك فأقول ، إن كان من عندالله يمضه » وقبض صلى الله عليه وسلم عنها وهى بنت ثمان عشرة ولم يتزوج بكرا غيرها ، وقبض صلى الله عليه وسلم ورأسه فى حجرها ، ودفن فى بيتها كما سيأتى ، وماتت وقد قاربت سبعا وستين سنة فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه بالبقيع ، وقيل سعيد بن زيد ، ودفنت به ليلا وذلك فى زمن ولاية مروان بن الحكم على المدينة فى خلافة معاوية . وكان مروان استخلف أبا هريرة رضى الله عنه لما ذهب إلى العمرة فى تلك السنة .

ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وهى شقيقة عبد الله بن عمر وأسن منه ، وأمها زينب أخت عثمان بن مظعون ، وكانت قبله صلى الله عليه وسلم تحت خنيس ابن حذافة رضى الله عنه ، فتوفى عنها بجراحة أصابته ببدر ، وقيل بأحد وهو خطأ لما سيأتى من أن تزوجه صلى الله عليه وسلم لها فى شعبان على رأس ثلاثين شهرا من الهجرة قبل أحد بشهرين .

أقول : وكانت ولادتها قبل النبوة بخمس سنين وقريش تبنى البيت . وماتت بالمدينة فى شعبان سنة خمس وأربعين ، وصلى عليها مروان بن الحكم ، وهو أمير المدينة يومئذ ، وحمل سريرها ، وحمله أيضا أبو هريرة رضى الله عنه وقد بلغت ثلاثا وستين سنة . وقيل ماتت لما بويع معاوية سنة إحدى وأربعين والله أعلم ، وطلقها صلى الله عليه وسلم .

وقيل فى سبب طلاقها أنه صلى الله عليه وسلم كان فى بيتها فاستأذنت فى زيارة أبيها ، أى وقيل فى زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين : أى بينهما المصافاة فأذن لها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مارية وأدخلها بيت حفصة وواقعها ، فرجعت حفصة

فأبصرت مارية مع النبي صلى الله عليه وسلم فى بيتها ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، وقالت له : إنى رأيت من كان معك فى البيت وغضبت وبكت ، أى وقالت : يا رسول الله لقد جئت إلىّ بشيء ما جئت به إلى أحد من نسائك فى يومى وفى بيتى وعلى فراشى ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهها الغيرة ، قال لها : اسكتى فهى حرام علىّ أبتغى بذلك رضاك .

وفى رواية : « أما ترضين أن أحرمها على نفسى ولاأقربها أبدا ؟ قالت : بلى ،وحلف أن لا يقربها » : أى قال إنها حرام .

وفى رواية : « قد حرمتها علىّ ، ومع ذلك أخبرك أن أباك الخليفة من بعد أبى بكر فاكتمى علىّ » .

وفى رواية قال لها : « لا تخبرى بما أسررت إليك » فأخبرت بذلك عائشة رضى الله عنهما ، فقالت : قد أراحنا الله من مارية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمها على نفسه وقصت عليها القصة .وقيل خلا صلى الله عليه وسلم بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمى علىّ قد حرمت مارية على نفسى ، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا متصادقتين بينهما المصافاة كما تقدم ، فطلقها وأنزل الله تعالى عند تحريم مارية قوله (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك) إلى قوله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى أوجب عليكم كفارة ككفارة أيمانكم ، لأن الكفارة تحل ما عقدته اليمين لأن هذا ليس من الأيمان : أى وأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن حفصة قد نبأت عائشة بما أسرّه إليها من أمر مارية ، وأمر الخلافة ، فلما أخبر صلى الله عليه وسلم عائشة ببعض ما أسرته لها وهو أمر مارية وأعرض عما أسره إليها من أمر الخلافة خوفا أن ينتشر ذلك فى الناس ، قالت عائشة : من أنبأك هذا ؟ قال : « نبأنى العليم الخبير » ، ومن ثم كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : والله إن خلافة أبى بكر وعمر لنى كتاب الله ثم يقرأ هذه الآية .

ولما أفشت حفصة رضى الله عنها سره صلى الله عليه وسلم طلقها كما تقدم ، فجاءه جبريل عليه السلام يأمره بمراجعتها ، لأنها صوامة قوامة ، وإنها إحدى زوجاته صلى الله عليه وسلم فى الجنة .

وفى رواية ، تأتى : راجعها رحمة لعمر . وقيل همّ صلى الله عليه وسلم بتطليقها ولم

يفعل ، فقد جاء عن عمار بن ياسر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يطلقها ، فقال له جبريل عليه السلام : إنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك فى الجنة . وعليه فيراد بالمراجعة المصالحة والرضا عنها كما سيأتى . قال فى الينبوع : وهذا هو المشهور ، فسيأتى ما يدل على صحته أى والذى سيأتى قول عمر رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم لما اعتزل نساءه : يا رسول الله أطلقتهن ؟ قال لا .

وفيه أن هذا كان عند طلبهن منه صلى الله عليه وسلم النفقة ، وهذه الواقعة غير تلك ، وقيل فى سبب نزول الآية غير ذلك .

وفى البخارى فى سبب نزول الآية عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها ، فلتقل له صلى الله عليه وسلم أكلت مغافير : أى أجد منك ريح مغافير ، فدخل على حفصة رضى الله عنها ، فقالت له ذلك ، فقال لها : لا ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا » أى لأنه صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يظهر منه ريح كريهة ، لأن المغافير صمغ العوسج من شجر الثمام كريه الريح .

وعن عمر رضى الله عنه أن امرأته راجعته فى شىء فأنكر عليها مراجعتها ، فقالت له : عجبا لك يا ابن الخطاب : ما تريد أن تراجع ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقام عمر رضى الله عنه ، فدخل على حفصة رضى الله عنها فقال لها : يا بنية إنك لتراجعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقالت له حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم ، يا بنية لا تغررك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، يريد عائشة ، قال ثم دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت : يا ابن الخطاب دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فأخذتنى والله أخذا كسرتنى عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها ، فأنا فى منزلى ، فجاءنى صاحب لى من الأنصار ، وأخبرنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه ، فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة فأخذت ثوبى وجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو فى مشربة له يرقى إليها بعجلة ، وهو

جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشربة وينحدر منها عليه، وغلام له أسود يقال له رباح على رأس العجلة ، فقلت له قل له هذا عمر بن الخطاب ، فأذن لى : أى بعد أن قال له: يارباح استأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وفى كل مرة ينظر رباح إلى المشربة ولا يرد له جوابا ، وفى الثالثة رفع له عمر رضى الله عنه صوته فأومأ إليه أن ارق ، قال : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصت عليه القصة ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم ، ويأتى أن هذا كان عند اجتماعهن عليه فى النفقة لا لأجل معاتبة الله إياه بسبب الحديث الذى أفشته حفصة . ويحتمل أنه لاجتماع الأمرين .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لم أزل حريصا على أن أسأل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن المرأتين من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى فيهما (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) فقال : واعجبا لك يا ابن عباس : هما عائشة وحفصة : أى فإن الله خاطبهما بقوله (إن تتوبا إلى الله) أى فهو خير لكما (فقد صغت قلوبكما) أى مالتا عما يجب عليكما من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتغاء مرضاته ، ثم استقبل الحديث قال : كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نسائهم ، فصخبت على امرأتى فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعنى ذلك منهن ، فدخلت على حفصة ، فقلت لها: أتغاضب إحداكن النبى صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ؟ قالت : نعم فقلت: قدخبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكى ، لا تستكثرى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولاتراجعيه فى شىء ، ولا تهجريه ، وسلينى مابدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يريد عائشة ، فأخبرت أن النبى صلى الله عليه وسلم طلق نساءه ، فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا ، فدخلت على حفصة ، فإذا هى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتك هذا ؟ أطلقكن النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لاأدرى ، ها هو معتزل فى المشربة : أى الغرفة ، فانه صلى الله عليه وسلم لما عاتبه الله سبحانه بسبب الحديث الذى أفشته حفصة على عائشة حلف

لا يدخل على نسائه شهرا ، فصار صلى الله عليه وسلم يتغدى ويتعشى وحده فى تلك المشربة ، فجئت المشربة ، فقلت لغلام أسود : استأذن لعمر ، فدخل الغلام فكلم النبى صلى الله عليه وسلم ثم رجع ، فقال : كلمته وذكرتك له فصمت ، فانصرفت ، ثم غلبنى ما أجد ، فجئت ، فقلت للغلام : استأذن لعمر ، فدخل ثم رجع إلىّ فقال : ذكرتك له فصمت ، فرجعت ، ثم غلبنى ما أجد ، فجئت الغلام ، ثم قلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم رجع إلىّ ، فقال ذكرتك له ، فصمت ، فلما وليت منصرفا إذا الغلام يدعونى ، فقال : قد أذن لك النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف ، فسلمت عليه ثم قلت له : وأنا قائم : يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرفع بصره إلىّ فقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، كنا معاشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة فإذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت يا رسول الله لو رأيتنى ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم تبسمة أخرى ، فجلست حين رأيته صلى الله عليه وسلم تبسم .

وفى رواية أن عمر رضى الله عنه لما بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم طلق حفصة حثا على رأسه التراب ، وقال : ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها فنزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم من الغد وقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصه رحمة لعمر .

وقد يراد بالمراجعة المصالحة والرضا فلا ينافى ما تقدم أنه لم يطلقها وإنما أراد ذلك ، ويدل له ما جاء عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يطلقها فقال له جبريل عليه السلام : إنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك فى الجنة ، ومن هذا وما يأتى يعلم أنه صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه ، وأما الظهار فلم يظاهر أبدا خلافا لمن زعمه :

أى وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما فى سبب اعتزاله صلى الله عليه وسلم لنسائه فى المشربة أنه شجر بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين حفصة أمر ، فقال لها : اجعلى بينى وبينك رجلا ، قالت : نعم ، قال : فأبوك إذن ، فأرسلت إلى عمر فجاء ، فلما دخل عليهما قال لها النبى صلى الله عليه وسلم : تكلمى ، فقالت : بل أنت يارسول الله تكلم

ولا تقل إلا حقا ، فرفع عمر رضى الله عنه يده فوجأها فى وجهها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كف ياعمر ، فقال عمر : ياعدوة الله ، النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق ، والذى بعثه بالحق لولا مجلسه مارفعت يدى حتى تموتى ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم فصعد إلى الغرفة ، فمكث فيها شهرا لا يعرف شيئا من نسائه ونزلت آية التخيير . ويقال : لا مانع من اجتماع هذا السبب مع ما تقدم .

ويروى أن سبب نزول آية التخيير أن نساءه صلى الله عليه وسلم اجتمعن عليه فسألنه النفقة ولم يكن عنده شئ فآلى أن لا يجتمع بهن شهرا وصعد المشربة الحديث .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال : جاء أبو بكر يستأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه ليؤذن لهم ، قال فأذن لأبى بكر رضى الله عنه فدخل ، ثم أقبل عمر ماشيا ، فأذن له فدخل فوجد النبى صلى الله عليه وسلم حوله نساؤه : أى قد سألنه النفقة وهو واجم ساكت لا يتكلم ، فقال عمر رضى الله عنه : لأقولن شيئا أضحك به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله لو رأيت فلانة يعنى زوجته سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة فوجأ عنقها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة فوجأ عنقها وكل يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمع بهن شهرا .

وفى رواية أخرى عن عمر رضى الله عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا ، فدق عليه بابه وناداه ، قال عمر : فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، فقلت : ماذا أجاءت غسان ، لأنا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا ، فقال : لا ، بل أمر أعظم من ذلك وأطول ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابى ودخلت على حفصة وهى تبكى ، فقلت أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا أدرى هو هذا معتزلا فى هذه المشربة : أى لأن نساءه صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن عليه صلى الله عليه وسلم فى طلب النفقة أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن ، قال عمر رضى الله عنه : لأقولن من الكلام شيئا أضحك به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتيت غلاما له صلى الله عليه وسلم أسود ، فقلت له : استأذن لعمر ، فدخل الغلام ثم

خرج وقال : قد ذكرتك له فصمت ، فانطلقت حتى أتيت المسجد ، فجلست قليلا ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام ، فقلت : استأذن لعمر ، فدخل ثم خرج إلىّ ، فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فلما كان فى المرة الرابعة وقال لى مثل ذلك وليت مدبرا ، فإذا الغلام يدعونى ، فقال : ادخل ، قد أذن لك ، فدخلت ، فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ قال : فرفع رأسه إلىّ وقال : لا ، فقلت : الله أكبر ، ثم قلت : كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت فلانة يعنى زوجته فراجعتنى ، فأنكرت عليها ، فقالت : تنكر أن راجعتك ؟ فوالله لقد رأيت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبت إلى حفصة فقلت : أتراجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : نعم ، وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاتسأليه شيئا ، وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ؟ يعنى عائشة رضى الله تعالى عنها ، فتبسم أخرى ، فقلت ، أستأنس يارسول الله؟ قال : نعم فجلست وقلت : يا رسول الله قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : أستغفر الله يا رسول الله ، فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه فى قوله تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية ، فنزل ودخل على عائشة رضى الله تعالى عنها ، فقالت له : يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الشهر تسع وعشرون . وفى رواية يكون هكذا وهكذا وهكذا ، يشير بأصابع يديه وفى الثالثة حبس إبهامه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة إنى ذاكر لك أمرا : فلا عليك أن لاتعجلى . وفى رواية : إنى أعرض عليك أمرا وأحب أن لا تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت : وما هو يا رسول الله

فقرأ عليّ (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية ، قلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وفى رواية : أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة . قالت رضى الله تعالى عنها : ثم قلت اه لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت لك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، ثم فعل بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم مثل مافعلته عائشة رضى الله تعالى عنهن .

ثم زينب بنت خزيمة رضى الله تعالى عنها ، وهى أخت ميمونة لأمها ، كانت تدعى : أى فى الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم أى كما سمى صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بأبى المساكين لحبه لهم ، وجلوسه عندهم ، وتحدثه معهم ، وإحسانه إليهم رضى الله تعالى عنه ، كانت قبله تحت الطفيل بن الحارث ، فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث ، فقتل يوم بدر شهيدا ، فخطبها صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أمرها إليه فتزوجها صلى الله عليه وسلم وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا ، أى وذلك على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة قبل أحد بشهر . وفى لفظ أن عبيدة بن الحارث قتل عنها يوم أحد فخلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ أنها كانت تحت عبد الله بن جحش ، قتل عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فى المواهب : وهو أصحّ .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب ، فعمدت أم سليم إلى تمر وسمن وأقط ، فصنعت حيسا فجعلته فى تور ، فقالت : يا أنس إذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل : بعثت بهذا إليك أمى وهى تقرئك السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادع لى فلانا وفلانا رجالا سماهم ، وادع لى من لقيت ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، فرجعت ، فإذا البيت غاصّ بأهله ، قيل لأنس : ماعددهم ؟ قال : كانوا ثلثمائة فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وضع يده الشريفة على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله ، ثم جعل يدعو عنده عشرة يأكلون منه ، ويقول لهم : اذكروا الله وليأكل كل رجل مما يليه ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لى : يا أنس ارفع فرفعت ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت ، فكثت عنده صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر وقيل شهران أو ثلاثة ، ثم توفيت وصلى عليها رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، ودفنت بالبقيع ، وقد بلغت ثلاثين سنة أو نحوها . ولم يمت من أزواجه صلى الله عليه وسلم فى حياته إلا هى وخديجة رضى الله تعالى عنهما .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعد زينب هذه أم سلمة . واسمها هند . وكانت قبله صلى الله عليه وسلم عند أبى سلمة رضى الله تعالى عنه عبد الله بن عبد الأسد ابن عمته صلى الله عليه وسلم برة بنت عبد المطلب ، وأخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، وكانت هى وهو أول من هاجر إلى الحبشة على ماتقدم ، فلما مات أبو سلمة رضى الله تعالى عنه ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا ، فقالت : ومن يكن خيرا من أبى سلمة ؟ ولما اعتدت أم سلمة رضى الله تعالى عنها أرسل صلى الله عليه وسلم يخطبها مع حاطب بن أبى بلتعة رضى الله تعالى عنه ، أى وكان خطبها أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأبت، وخطبها عمر فأبت، فلما جاءها حاطب ،قالت: مرحبا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقول له : إنى امرأة مسنة ، وإنى أم أيتام : أى لأنها رضى الله تعالى عنها كان معها أربع بنات : برة وسامة وعمرة ودرة ، وإنى شديدة الغيرة ، فأرسل صلى الله عليه وسلم يقول لها : أما قولك إنى امرأة مسنة فأنا أسن منك ، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسن منها . وأما قولك :إنى أم أيتام فإن كلهم على الله وعلى رسوله . وأما قولك : إنى شديدة الغيرة فإنى أدعو الله أن يذهب ذلك عنك . أى وفيه أنهم قالوا : يارسول الله ألا تتزوج من نساء الأنصار ؟ قال : إن فيهن غيرة شديدة . وفى لفظ أنها قالت زيادة على ماتقدم : ليس لى ههنا أحد من أوليائى فيزوجنى ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : أما ماذكرت من غيرتك فإنى أدعو الله أن يذهبها عنك . وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم . وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكرهنى ، فقالت لابنها : زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجه أى على متاع منه رحى وجفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، وقيل أربعون درهما . قالت : فتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدخلنى بيت زينب أم المساكين رضى الله تعالى عنها بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شىء من شعير ،وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب : أى ظرف الأدم ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه .

وماتت أم سلمة رضى الله تعالى عنها فى ولاية يزيد بن معاوية ، وكان عمرها أربعا وثمانين سنة ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ،وقيل سعيد بن زيد وغلط قائله .

وذكر بعضهم أن تزويج ولدها لها رضى الله تعالى عنهما إنما كان بالعصوبة لأنه كان ابن ابن عمها .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعد أم سلمة رضى الله تعالىعنها زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها ، وكان اسمها برة ، فسماها صلى الله عليه وسلم زينب : أى خشى أن يقال خرج من عند برة ، وهى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وكانت قبله صلى الله عليه وسلم عند مولاه زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما ثم طلقها ، فلما انقضت عدتها زوجه الله إياها ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة يخطبها له صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فذهبت إليها فجعلت ظهرى إلى الباب فقلت : يازينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، فقالت : ماكنت لأحدث شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل ، فأنزل الله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن ، فكانت رضى الله تعالى عنها تفتخر بذلك على نسائه صلى الله عليه وسلم وتقول : إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سموات ، وهذا يرد ما قيل إن أخاها أبا أحمد بن جحش زوجها منه صلى الله عليه وسلم .

قال فى النور : ويمكن تأويل تزويج أخيها إياها .

أى وقد ذكر مقاتل رحمه الله أن زيد بن حارثة رضىالله تعالى عنهما لما أراد أن يتزوج زينب جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله اخطب على ، قال له : من؟ قال : زينب بنت جحش ، قال : لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نفسا ، فقال : يا رسول إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس على فعلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنها امرأة لسناء ، فذهب زيد رضى الله تعالى عنه إلى على كرم الله وجهه ، فحمله على أن يكلم له النبى صلى الله عليه وسلم ، فانطلق معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فقال إنى فاعل ذلك ومرسلك يا على إلى أهلها فتكلمهم ، ففعل ، ثم عاه يخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك ، فأرسل إليهم النبى صلى الله عليه وسلم يقول : قد رضيته لكم ، وأقضى أن تنكحوه ، فأنكحوه ، وساق لهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا

وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر أعطاه ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولم عليها ، وأطعم المساكين خبزا ولحما : أى وتزوجها صلى الله عليه وسلم هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة على الصحيح وهى بنت خمس وثلاثين سنة ، وقيل نزلت فى ذلك اليوم آية الحجاب ، فإنه صلى الله عليه وسلم لما دعا القوم وطعموا تهيأ صلى الله عليه وسلم للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) الآية وتكلم فى ذلك المنافقون وقالوا : محمد حرم نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه أى لأن زيد بن حارثة كان يقال له زيد بن محمد : أى لأنه صلى الله عليه وسلم كان تبناه كما تقدم ، فأنزل الله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وأنزل (أدعوهم لآبائهم) فمن حينئذ كان يقال له رضى الله تعالى عنه زيد بن حارثة كما تقدم .

وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقا به . ماتت رضى الله تعالى عنها بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة . وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أى فإن عمر رضى الله تعالى عنه أرسل إلى زينب رضى الله تعالى عنها بالذى لها من العطاء ، فسترته بثوب ، وأمرت بتفرقته ، فكان خمسة وثمانين درهما ، ثم قالت : اللهم لا تدركنى عاما لعمر بعد عامى هذا فماتت .

وهى أول من جعل على نعشها قبة ، أى بعد فاطمة رضى الله تعالى عنها ، فلا يخالف ماسبق مما ظاهره أنه فعل لها ذلك .

وفى كلام بعضهم أن زينب هذه أول من حمل على نعش ، وقيل أول من حمل على نعش فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول فى حقها : هى التى كانت تساوينى فى المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت امرأة قط خيرا فى الدين وأتقى لله وأصدق فى حديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة من زينب رضى الله تعالى عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حقها : إنها لأواهة ، فقال رجل : يارسول الله ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع . وهى أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقا به كما تقدم . وقال له صلى الله عليه وسلم بعض نسائه : أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يدا ، فأخذن

قصبة يذرعنها ، وفى لفظ عن عائشة رضى الله تعالى عنها : فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فكانت سودة رضى الله تعالى عنها أطولهن . فلما ماتت زينب رضى الله تعالى عنها ، أى وكانت امرأة قصيرة علموا أن المراد بطول اليد الصدقة ، لأنها كانت تعمل وتتصدق لا الجارحة وما فى البخارى من أنها سودة ؛ قال ابن الجوزى : غلط من بعض الرواة .

والعجب من البخارى رحمه الله كيف لم ينبه عليه ولا علم بفساد ذلك الخطأ ، فإنه قال: لحوق سودة به صلى الله عليه وسلم من أعلام النبوّة وكل ذلك وهم ، وإنما هى زينب فإنها كانت أطولهن يدا بالعطاء . وجمع الطيبى رحمه الله بأنه يمكن أن يقال إن سودة رضى الله تعالى عنها أوّل نسائه صلى الله عليه وسلم موتا التى اجتمعن عند موته ، وكانت زينب رضى الله تعالى عنها غائبة .

وفيه أن فى رواية أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم اجتمعن عنده لم يغادر منهن واحدة أى فقد قال له بعضهن . وفى لفظ قلن له : أينا أسرع لحوقا بك يارسول الله ؟ وقد قال الإمام النووى : أجمع أهل السير على أن زينب رضى الله تعالى عنها أوّل من مات من أزواجه صلى الله عليه وسلم بعده .

ثم جويرية رضى الله تعالى عنها بنت الحارث من بنى المصطلق . سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على تسع أواق ، فأدى عليه الصلاة والسلام عنها ذلك وتزوّجها .

وقيل جاء أبوها فافتداها ، ثم نكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم .وقيل إنها كانت بملك اليمين فأعتقها صلى الله عليه وسلم وتزوّجها ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية ؛ أى لما تقدم . وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسافع بن صفوان ، وتقدم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت كانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة ، لايكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه . وكانت بنت عشرين سنة . أى وتوفيت فى المدينة سنة ست وخمسين ، وصلى عليها مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة يومئذ ، وقد بلغت سبعين سنة ، وقيل خمسا وستين سنة .

ثم ريحانة بنت يزيد من بنى النضير . وقيل من بنى قريظة ، وكانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجل من بنى قريظة ، يقال له الحكم . قال الحافظ الدمياطى

رحمه الله : ولذلك ينسبها بعض الرواة إلى بنى قريظة ، وكانت جميلة وسيمة ، وقعت فى سبى بنى قريظة ، فكانت صفىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام ودينها ، فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوّجها ، وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا ، وقيل كانت موطوءة له صلى الله عليه وسلم بملك اليمـين .

أى فقد ذكر بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم خيرها بين أن يعتقها ويتزوّجها ، وبين أن تكون فى ملكه ، وعليه فتكون من السرارى لا من الزوجات .

قال الحافظ الدمياطى : والأوّل ، أى أنها زوجة أثبت عند أهل العلم . وقال العراقى إن الثانى : أى كونها سرية أضبط . ودخل بها صلى الله عليه وسلم بعد أن حاضت حيضة أى وذلك فى بيت أمّ المنذر سلمى بنت قيس النجارية سنة ست من الهجرة ، وغارت عليه صلى الله عليه وسلم غيرة شديدة فطلقها فأكثرت البكاء ، فراجعها صلى الله عليه وسلم ، وهذا مؤيد للقول بأنها كانت زوجة .

قيل ماتت مرجعه صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ودفنها بالبقيع .

ثم أم حبيبة رضى الله عنها ، وهى رملة بنت أبى سفيان بن حرب رضى الله تعالى عنهما وهى بنت عمة عثمان بن عفان . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى ، وهى ربيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى حجره رضى الله تعالى عنها ، وتنصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هى على الإسلام رضى الله تعالى عنها .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى رحمه الله فزوّجه صلى الله عليه وسلم إياها ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، أى والذى تولى عقد النكاح خالد بن سعيد بن العاصى على الأصح وكلته فى ذلك ، وهو ابن عم أبيها .

وقيل الذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، وقيل كان الصداق أربعة آلاف درهم ، وجهزها النجاشى من عنده ، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة فى سنة سبع . وقيل تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وعليه يحمل ما فى

كلام العامرى أن النبي صلى الله عليه وسلم جدد نكاح أم حبيبة رضى الله تعالى عنها بنته أبى سفيان رضى الله تعالى عنه تطييبا لخاطره .

ثم صفية رضى الله تعالى عنها بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل مع بنى قريظة كما تقدم . وكانت عند سلام بن مشكم ، ثم خلف عليها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، وتقدمت قصة قتله فى خيبر ، ولم تلد لأحد منهما ، واصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، لأنه لما جمع سبى خيبر جاءه دحية الكلبى رضى الله تعالى عنه . فقال : يارسول الله أعطنى جارية من السبى فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية رضى الله تعالى عنها . فقيل : يا رسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير لاتصلح إلا لك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم خذ جارية من السبى غيرها ، فحجبها وجهزتها له أم سليم رضى الله تعالى عنها ، وأهدتها له من الليل وكان عمرها لم يبلغ سبع عشرة سنة ، فأولم صلى الله عليه وسلم عليها بتمر وسويق .

وفى لفظ : لما أصبح صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده شيء فليجيء به ، فبسط نطعا ، فجعل الرجل يأتى بالأقط ، وجعل الرجل يأتى بالتمر ، وجعل الرجل يأتى بالسمن ، فحاسوا حيسا ، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس قال : كانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها صلى الله عليه وسلم يوما وهى تبكى . فقال لها فى ذلك ؟ فقالت قد بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ، ويقولان : نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولى لهن : كيف تكن خيرا منى ، وأبى هرون ، وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام ، وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم : أى فهى بنت نبى وزوج نبى ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرا فى وجهها ، فسألها عن ذلك . فقالت : رأيت كأن القمر وقع فى حجرى ، فذكرت ذلك لأبى . وتقدم فى رواية أنها ذكرت ذلك لزوجها كنانة ، فضرب وجهى ضربة أثرت فىّ هذا الأثر ، وقال : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب .

ولا مانع من تعدد الواقعة . فقد قال فى النور : لعلهما فعلا بها ذلك ،وتقدم فى رواية أنها رأت الشمس وقعت على صدرها ، وتقدم أنه يجوز تعدد الرؤيا ، أو أنها رأت الشمس والقمر فى وقت واحد .

وفى زمن خلافة عمر رضى الله عنه أتت جارية لها إلى عمر رضى الله عنه ، فقالت له : ياأمير المؤمنين إن صفية تحبّ السبت وتصل اليهود ، فسألها عمر رضى الله عنه ، فقالت : أما السبت فإنى لا أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود ، فإن لى فيهم رحما ، فأنا أصلها ، ثم قالت للجارية : ماحملك على ماصنعت ؟ قالت : الشيطان ، قالت : اذهبى فأنت حرة .

قال الحافظ الدمياطى رحمه الله : ماتت فى رمضان سنة خمسين . وقيل سنة اثنتين وخمسين ودفنت بالبقيع ، وخلفت ماقيمته مائة ألف درهم من أرض وعرض . وأوصت لابن أختها بثلثها وكان يهوديا .

وذكر الرافعى رحمه الله عنّ إمامنا الشافعى رضى الله عنه أنها أوصت لأخيها ، وكان يهوديا بثلاثين ألفا ، أى وهذا لايعارض ماذكر لأنه يجوز أن يكون من روى عنه إمامنا لم يعتبر مازاد على الثلاثين الذى هو تتمة الثلث ، وهو ثلاثة وثلث ، لأن ثلث المائة ثلاثة وثلاثون وثلث ، أو أن القائل أوصت بثلثها تجوّز وأطلق على الثلاثين ثلثاً .

ثم ميمونة رضى الله عنها بنت الحارث ، وكان اسمها برة فسماها صلى الله عليه وسلم ميمونة ، زوّجها له صلى الله عليه وسلم عمه العباس رضى الله عنه ، وهى خالة ابنه عبدالله ابن عباس ، وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين ، وخالة خالد بن الوليد رضى الله عنه . وكانت فى الجاهلية عند مسعود بن عمرو ففارقها ، فخلف عليها أبورهم فتوفى عنها فتزوجها صلى الله عليه وسلم وهو محرم ، أى كما عليه جمهور علماء المدينة فى عمرة القضاء .

وفى الهدى : يشبه أنه صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو محرم خلافا لابن عباس ووهمه فى ذلك ، قال : لأن السفير بينهما فى النكاح وهو أبو رافع أعلم بالقصة وهو رجل بالغ ، وابن عباس كان سنه نحو عشر سنين ، قال : ولا يخفى أن مثل هذا الترجيح موجب للتقديم ، وكان ذلك سنة سبع .

وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثا وبنى بها بسرف بعد أن أحل على ماتقدم ، وماتت سنة إحدى وخمسين على الأصح وبلغت ثمانين سنة ، ودفنت بسرف الذى هو محل الدخول بها .

والحاصل أن جملة من خطبه صلى الله عليه وسلم من النساء ثلاثون امرأة منهن من لم

يعقد عليه ومنهن من عقد عليه ، وهـذا القسم أيضا منه من دخـل به ومنه من لم يدخل به .

وفى لفظ : جملة من عقد عليه ثلاث وعشرون امرأة ، والذى دخـل به منهن اثنتا عشرة .

فمن غير المدخول بها غزية ، وهى أم شريك العامرية ، وهـذه قبل دخوله بها طلقها ولم يراجعها . وهناك أم شريك السلمية أخرى ، وهى خولة أو خويلة ولم يدخل بها . وهناك أم شريك ثالثة وهى الغفارية . وأم شريك رابعة وهى الأنصارية .

واختلف فى الواهبة نفسها ، فقيل ميمونة ، وقيل أم شريك غزية ، وقيل أم شريك خولة التى لم يدخل بها .

ورجح القول الثانى الحصنى حيث اقتصر عليه فى كتاب المؤمنات ، فقال : ومنهن أم شريك ، واسمها غزية ، وهى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها على ما قاله الأكثرون ، فلم تتزوج حتى مات عليه الصلاة والسلام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : وقع فى قلب أم شريك الإسلام وهى بمكة فأسلمت ، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن للإسلام وترغبهن فيه حتى ظهر أمرها لأهل مكة فأخذوها ، وقالوا لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكنا نسيرك إليهم ، قالت : فحملونى على بعير ليس تحتى شىء ثم تركونى ثلاثا لايطعمونى ولا يسقونى ، وكانوا إذا نزلوا منزلا أوقفونى فى الشمس واستظلوا ، فبينماهم قد نزلوا منزلا وأوقفونى فى الشمس إذا أنا بأبرد شىء على صدرى فتناولته ، فإذا هو دلو من ماء ، فشربت قليلا ثم نزع منى ورفع ، ثم عاد فتناولته فشربت منه ثم رفع ، ثم عاد ثم رفع مرارا فشربت منه حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدى وثيابى ، فلما استيقظوا إذا هم بأثر الماء على ثيابى فقالوا : انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه ، فقلت : لا والله ، ولكنه كان من الأمر كذا وكذا ، فقالوا : لئن كنت صادقة لدينك خير من ديننا ، فلما نظروا إلى أسقيتهم وجدوها كما تركوها فأسلموها عند ذلك ، وأقبلت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فوهبت نفسها له بغير مهر فقبلها ودخل عليها .

قال : وفى ذلك أن من صدق فى حسن الاعتماد على الله وقطع طمعه عما سواه جاءته الفتوحات من الغيب ، هذا كلامه .

وقد كان صلى الله عليه وسلم أرجأ من نسائه خمسا : سودة وصفية وجويرية وأم حبيبة

وميمونة ؛ وآوى إليه أربعا : عائشة وزينب وأم سلمة وحفصة ، وهؤلاء التسعة مات عنهن صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نظمهن بعضهم فقال :

توفى رسول الله عن تسع نسوة ‏ ‏ إليهن تعزى المكرمات وتنسب

فعائشة ميمونة وصفية ‏ ‏ وحفصة تتلوهن هند وزينب

جويرية مع رملة ثم سودة ‏ ‏ ثلاث وست ذكرهن مهذب

ومن جملة اللاتى لم يدخل به النبى صلى الله عليه وسلم التى ماتت من الفرح ، لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم تزوج بها وهى عز أخت دحية الكلبى رضى الله تعالى عنهما التى ماتت قبل دخوله بها .

ومن جملتهن سودة القرشية التى خطبها صلى الله عليه وسلم فاعتذرت ببنيها ، وكانوا خمسة ، وقيل ستة ، فقال لها خيراً .

ومن جملتهن التى تعوذت منه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أعوذ بالله منك ، فقال لها : لقد عذت بمعاذ ، وقد أعاذك الله منى . وفى لفظ : عذت بعظيم ، وفى لفظ : عائذ الله ؛

وفى كلام بعضهم أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم خفن أن تغلبهن عليه لجمالها ، فقلن لها : إنه صلى الله عليه وسلم يعجبه إذا دنا منك أن تقولى له أعوذ بالله منك ، فلما دنا منها قالت : أعوذ بالله منك . وفى رواية : قلن لها : إن أردت أن تحظى عنده فتعوّذى بالله منه فلما دخل عليها قالت له : أعوذ بالله منك ، فصرف صلى الله عليه وسلم وجهه عنها وقال ماتقدم وطلقها ، وأمر أسامة رضى الله تعالى عنه فمتعها بثلاثة أثواب .

وفى لفظ أتى أبو أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجونية : أى أسماء بنت النعمان بن أبى الجون الكندية ، فلما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها فقالت تعال أنت . وفى رواية فقال : هبى نفسك ، فقالت : تهب الملكة نفسها للسوقة ، فأهوى صلى الله عليه وسلم بيده إليها لتسكت ، فقالت : أعوذ بالله منك ، قال : عذت بمعاذ ، فخرج فقال : يا أبا أسيد اكسها رازقيين وألحقها بأهلها ، وهذا هو المشهور .

وروى هذا الخبر عن أسيد بن أبى أسيد قال : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى امرأة يتزوجها من بلجون : أى من بنى الجون ، فجئت بها ، فأنزلتها بالشعب فى أجم

ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله جئتك بأهلك ، فأتاها صلى الله عليه وسلم ، فأهوى إليها ليقبلها فقالت : أعوذ بالله منك» الحديث .

ومن جملتهن التي اختارت الدنيا . وقيل التي كانت تلتقط البعر هي المستعيذة منه .

ومن جملتهن قتيلة بضم القاف وفتح التاء المثناة فوق ، بنت قيس أخت الأشعث ابن قيس الكندى ، زوجه إياها أخوها وهى بحضرموت ، ومات صلى الله عليه وسلم قبل قدومها عليه، وأوصى صلى الله عليه وسلم بأن تخير ، فإن شاءت ضرب عليها الحجاب وكانت من أمهات المؤمنين ، وإن شاءت الفراق فتنكح من شاءت فاختارت الفراق ، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل رضى الله تعالى عنه بحضرموت ، فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال : هممت أن أحرق عليها بيتها ، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه : ماهى من أمهات المؤمنين ، مادخل بها صلى الله عليه وسلم ولا ضرب عليها الحجاب ، وقال صلى الله عليه وسلم : «ماتزوجت شيئا من نسائى ولازوجت شيئا من بناتى إلا بوحى جاءنى به جبريل عليه الصلاة والسلام من ربى عز وجل» أى وعنه صلى الله عليه وسلم أن خديجة رضى الله تعالى عنها تزوجها قبل نزول الوحى .

أى وقد ألف فى أزواجه صلى الله عليه وسلم الحافظ الدمياطى جزءا فليطلب ، وكذا ألف فيهن الشمس الشامى .

وأما سراريه صلى الله عليه وسلم فأربع : مارية القبطية أم ولده سيدنا إبراهيم ، وريحانة على ماتقدم، وجارية وهبتها له صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها، أخرى اسمها زليخة القرظية .

باب ذكر المشاهير من خدمه صلى الله عليه وسلم من الأحرار

فمن الرجال أنس بن مالك الأنصارى رضى الله تعالى عنه ، كان من أخص خدامه صلى الله عليه وسلم . خدمه من حين قدم المدينة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم عشر سنين كما تقدم، فعن أنس رضى الله تعالى عنه «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة يعنى زوج أمه بيدى فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله

إن أنسا غلام كيس فليخدمك ، فخدمته صلى الله عليه وسلم فى السفر والحضر » وتقدم فى بعض الروايات أن ابتداء خدمته له صلى الله عليه وسلم كان عند خروجه صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ، ومات وقد جاوز المائة .

وعبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب سواكه ونعله صلى الله عليه وسلم ، إذا قام صلى الله عليه وسلم ألبسه إياهما ، فإذا جلس جعلهما فى ذراعيه حتى يقوم . وكان رضى الله تعالى عنه يمشى بالعصا أمامه صلى الله عليه وسلم حتى يدخل الحجرة.

أى ومعيقيب الرومى رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب خاتمه صلى الله عليه وسلم :

وعقبة بن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنه ، كان صاحب بغلته صلى الله عليه وسلم ، يقودها فى الأسفار ، وكان عالما بكتاب الله عز وجل وبالفرائض ، فصيحا ، شاعرا مفهما . ويأتى أنه ولى مصر لمعاوية رضى الله تعالى عنهما وتوفى بها ، وصرف عنها بمسلمة بن مخلد رضى الله تعالى عنه .

وأسقع بن شريك ، صاحب راحلته صلى الله عليه وسلم . كان رضى الله تعالى عنه يرحل ناقته صلى الله عليه وسلم « وعنه أنه صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم: ياأسقع ، قم فارحل ، فقال : يارسول الله أصابتنى جنابة ولا ماء ، فسكت صلى الله عليه وسلم وجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بآية التيمم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قم ياأسقع فتيمم ، فأرانى التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين ، فقمت وتيممت ثم رحلت له صلى الله عليه وسلم ، ثم سار صلى الله عليه وسلم حتى مر بماء ، فقال لى : يا أسقع أمسّ هذا جلدك . وتقدم أن سبب نزول آية التيمم ضياع عقد عائشة رضى الله تعالى عنها فى بعض الغزوات .

وبلال مؤذنه صلى الله عليه وسلم . وكان رضى الله تعالى عنه على نفقاته ، وهو مولى أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه الذى اشتراه وهو يعذب فى الله وأعتقه كما تقدم .

ومن النساء أمة الله بنت رزينة ، وخولة ، ومارية أم الرباب ، ومارية وجدة المثنى ابن صالح ، وقيل التى قبلها .

باب ذكر المشاهير من مواليه صلى الله عليه وسلم الذين أعتقهم

فمن الرجال زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما ، كما تقدم أن خديجة رضى الله تعالى عنها وهبته له صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فتبناه صلى الله عليه وسلم . وكان يقال له ابن محمد ، فلما نزل (ادعوهـــم لآبائهم) أى وقوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالـكم) الآية قيل له زيد بن حارثة كما تقدم . وكان حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه أسامة وأخو أسامة لأمه أيمن ابن أم أيمن بركة الحبشية رضى الله تعالى عنهم .

وأبو رافع كان قبطيا ، وكان للعباس رضى الله تعالى عنهما فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم . ولما أسلم العباس وبشر أبو رافع رضى الله تعالى عنه النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام العباس أعتقه .

وشقران كان حبشيا ، وقيل فارسيا ، وكان لعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ، فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم .

وثوبان . وأنجشة ، اشتراه صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأعتقه . وكان رضى الله تعالى عنه يحدو بالنساء ، قال له صلى الله عليه وسلم وقد حدا بهن : رويدا رويدا يا أنجشة ، رفقا بالقوارير ، يعنى النساء، لأن الحداء إذا سمعته الإبل أسرعت فى المشى فتزعج الراكب والنساء يضعفن من شدة الحركة ، وشبههن صلى الله عليه وسلم فى ضعفهن بالقوارير وهى الأوانى من الزجاج .

ورباح كان أسود ويسار كان نوبيا على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قتله العرنيون . وقد تقدم أن هذا غير يسار الذى كان دليلا لسرية غالب بن عبد الله الليثى إلى الميفعة .

وسفينة وكان أسود ، وكان لأم سلمة رضى الله تعالى عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم فأعتقته ، واشترطت عليه أن يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعاش . وكان اسمه بهران . وقيل رومان . وقيل غير ذلك ، وإنما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة لأنه حمل أمتعة للصحابة رضى الله تعالى عنهم ثقلت عليهم ، فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : احمل فإنما أنت سفينة ، قال رضى الله تعالى عنه : فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين إلى أن عدّ سبعة ماثقل عليّ . وقيل لأنه انكسرت به السفينة فى البحر فركب لوحا من ألواحها فنجا .

وذكر أن البحر ألقاه على أجمة سبع فأقبل نحوه ، فقال له : أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء إلىّ وضربنى بمنكبيه ثم مشى أمامى حتى أقامنى على الطريق ثم همهم وضربنى بذنبه فرأيت أنه يودعنى . وقيل إنما وقع له ذلك لما أضل الجيش الذى كان فيه بأرض الروم .

وسلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه صلى الله عليه وسلم هو الذى أدى عنه نجوم كتابته ، وفى كونه كان رقيقا ماتقدم .

أى والخصى الذى أهداه له المقوقس الذى هو مابور المتقدم ذكره . وآخر يقال له سندر .

وفى كلام بعضهم أعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه أربعين رقبة . ومن النساء أم أيمن وأميمة وسيرين التى أهديت له صلى الله عايه وسلم مع مارية، أى وتقدم أنها أختها .

وذكر بعضهم أن سيرين هذه وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه . وتقدم أن المقوقس أهدى معهما قنسر وأنها أخت مارية وسيرين فهن الثلاث أخوات ؛ وتقدم أنه أهدى إليه صلى الله عليه وسلم رابعة .

باب ذكر المشاهير من كتابه صلى الله عليه وسلم

فقد ذكر بعضهم أن كتابه صلى الله عليه وسلم كانوا ستة وعشرين كاتبا على ماثبت عن جماعة من ثقات العلماء .

وفى السيرة للعراقى أنهم كانوا اثنين وأربعين ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى . وهو أول من كتب له صلى الله عليه وسلم من قريش بمكة ثم ارتد وصار يقول كنت أصرّف محمدا حيث أريد ، كان يملى علىّ عزيز حكيم ، فأقول أو عليم حكيم ، فيقول : نعم ، كل صواب . وفى لفظ : كان يقول اكتب كذا ، فأقول أكتب كذا ؟ فيقول اكتب كيف شئت ، ونزل فيه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) .

أى ثم لما كان يوم الفتح ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتله فر إلى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، لأنه كان أخاه من الرضاعة ، أرضعت أمه عثمان فغيبه عثمان رضى الله تعالى عنه ثم جاء به بعدما اطمأن الناس ،واستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمت له رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال نعم ، فلما انصرف عثمان قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن حوله : ماصمتّ عنه إلا لتقتلوه إلى آخر ما تقدم . ثم أسلم وحسن إسلامه ، ودعا الله تعالى أن يختم عمره بالصلاة ، فمات ساجدا فى صلاة الصبح ، وقيل بعد التسليمة الأولى ، وقيل الثانية .

وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعامر بن فهيرة رضى الله تعالى عنهم . أى وعبد الله بن الأرقم ، وكان يكتب الرسائل للملوك وغيرهم ، قال عمر فى حقه : ما رأيت أخشى لله منه .

وأبىّ بن كعب رضى الله تعالى عنه ، وهو أول من كتب له صلى الله عليه وسلم من الأنصار بالمدينة ، كان فى أغلب أحواله يكتب الوحى ، وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يكتبون فى عهده عليه الصلاة والسلام .

وثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان أى وأخوه يزيد :

قال بعضهم : كان معاوية وزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهما ملازمين للكتابة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الوحى وغيره ، لاعمل لهما غير ذلك .

قال زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم بالسريانية ،قال : إنى لا آمن يهود على كتابى ، فما مر بى نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه فكنت أكتب له صلى الله عليه وسلم إليهم وأقرأ له كتبهم .

والمغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمى ، وعمرو بن العاصى ، وعبد الله بن رواحة ، أى ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله ابن أبىّ ابن سلول :

باب يذكر فيه حراسه صلى الله عليه وسلم
قبل أن ينزل عليه قوله تعالى (والله يعصمك من الناس)

سعد بن معاذ حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة يوم بدر : أى الليلة التى صبيحتها ذلك اليوم. وفى ذلك اليوم لم يحرسه صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه شاهرا سيفه حين نام بالعريش .

وفى كلام بعضهم أن سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه كان مع أبى بكر رضى الله عنه فى العريش يحرسانه صلى الله عليه وسلم فى بدر .

ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم يوم أحد :

والزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم يوم الخندق .

والمغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه حرسه يوم الحديبية .

وأبو أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة بنى بصفية يبعض طرق خيبر .

وبلال وسعد بن أبى وقاص وذكوان بن عبد قيس رضى الله عنهم حرسوه صلى الله عليه وسلم بوادى القرى .

أى وحرسه صلى الله عليه وسلم ابن أبى مرثد الغنوى فى الليلة التى كانت فى صبيحتها وقعة حنين حيث قال صلى الله عليه وسلم « ألا رجل يحرسنا الليلة ؟ فقال : أنا يارسول الله فدعا له صلى الله عليه وسلم ، وبعد نزول الآية وهى (والله يعصمك من الناس) ترك الحرس » .

باب يذكر فيه من ولى السوق فى زمنه
صلى الله عليه وسلم

وتصدق هذه الولاية الآن بالحسبة ومتوليها بالمحتسب . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل سعد بن سعيد بن العاصى بعد الفتح على سوق مكة . واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على سوق المدينة .

باب يذكر فيه من كان يضحكه صلى الله عليه وسلم

منهم نعيمان . كان صلى الله عليه وسلم إذا نظر إلى نعيمان لا يتمالك نفسه أن يضحك لأنه كان مزاحا ، وتقدم عنه . ويأتى أيضا ماوقع بينه وبين سليط أو سويط .

ومنهم الذى كان يحده فى الخمر ، واسمه عبد الله ، ويلقب بالحمار .

باب يذكر فيه أمناء رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه . كان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على نسائه .

وكذا أبو أسد بن أسيد الساعدى ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على نسائه . وهو آخر من مات من أهل بدر رضى الله تعالى عنهم . وكان ممن أبصر الملائكة يوم بدر وكف بصره .

وبلال المؤذن رضى الله تعالى عنه ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على نفقاته .

ومعيقيب ، كان أمينه صلى الله عليه وسلم على خاتمه الشريف .

باب يذكر فيه شعراؤه صلى الله عليه وسلم

الذين كانوا يناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش

حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

باب يذكر فيه من كان يضرب الأعناق بين يديه صلى الله عليه وسلم

وهم على كرم الله وجهه ، والزبير ، والمقداد ، ومحمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنهم ، وعاصم بن ثابت ، أى والضحاك بن سفيان رضى الله تعالى عنه .

ولعل المراد من كان يتكرر منه ذلك ، فلا ينافى ماتقدم فى قصة الحارث بن سويد أنه قال لعويمر بن ساعدة رضى الله تعالى عنه اضرب عنقه .

باب يذكر فيه مؤذنوه صلى الله عليه وسلم

وهم بلال ، وابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنهما بالمدينة ، وسعد القرظ مولى عمار ابن ياسر رضى الله تعالى عنهما بقباء ، وقيل له القرظ لاتجاره فيه . ومن قال القرظى فقد أخطأ ، وأبو محذورة رضى الله تعالى عنه بمكة : أى وأذن بين يديه صلى الله عليه وسلم زياد بن الحارث الصدائى كما تقدم :

وقد يقال : مراد الأصل من تكرر أذانه ، فلا يرد هذا ، وكذا لايرد عبد العزيز بن الأصم فإنه أذن أيضا بين يديه صلى الله عليه وسلم مرة واحدة .

باب يذكر فيه العشرة المبشرون بالجنة رضى الله تعالى عنهم

وهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ابن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وقد نظم ذلك بعضهم فى بيت ، فقال :

لقد بشرت بعد النبى محمد بجنة عدن زمرة سعداء
سعيد وسعد والزبير وعامر وطلحة والزهرى والخلفاء

أى وربما أسقط بعضهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ؛ وذكر بدله عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، وهو غريب جدا .

باب يذكر فيه حواريوه صلى الله عليه وسلم

بالحاء المهملة : أى أنصاره الذين اشتهروا بهذا الوصف، وهم الخلفاء الأربعة ، وحمزة وجعفر ، وأبو عبيدة ، وعثمان بن مظعون، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعدبنأبى وقاص ؛ وطلحة والزبير ، وهو أكثرهم شهرة بهذا الوصف بل هو المراد عند إطلاق حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

باب يذكر فيه سلاحه صلى الله عليه وسلم

كان له صلى الله عليه وسلم من السيوف تسعة : ومن الدروع سبعة . ومن القسى ستة . ومن الأتراس ثلاثة . ومن الرماح اثنان . ومن الحراب ثلاثة . ومن الخوداثنتان :

فأما السيوف : فسيف يقال له مأثور بهمزة ساكنة ثم ثاء مثلثة . ورثه صلى الله عليه وسلم من أبيه ، وقدم به المدينة ، أى ويقال : إنه من عمل الجن : وسيف يقال له العضب أى القاطع ، أرسل به إليه سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه عند توجهه صلى الله عليه وسلم إلى بدر . وسيف يقال له ذو الفقار ، كان فى وسطه مثل فقرات الظهر . غنمه صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، كان للعاص بن وائل قتل يوم بدر كافرا ، وكانت قائمته وقبيعته ، بفتح القاف وكسر الموحدة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم عين مهملة مفتوحة ، وحلقته بإسكان اللام وفتحها ، وعلاقته بكسر العين ، فضة ، وكان لايفارقه صلى الله عليه وسلم فى حرب من الحروب . ويقال إن أصله من حديدة وجدت مدفونة عند الكعبة . وسيف يقال له الصمصامة بفتح الصاد المهملة وإسكان الميم ، كان مشهورا عند العرب ، وهو سيف عمرو ابن معد يكرب . أهداه صلى الله عليه وسلم لخالد بن سعيد بن العاص حيث استعمله صلى الله عليه وسلم على اليمن . وسيف يقال له القلعى بفتح اللام ، نسبة إلى برج القلعة : موضع بالبادية . وسيف يقال له الحيف بفتح الحاء المهملة ثم مثناة تحت ساكنة : وهو الموت ، وهذه الثلاثة من سلاح بنى قينقاع مثلث النون . وسيف يقال له الرسوب بفتح الراء وضم

السين المهملة ثم واو ساكنة ثم موحدة : أى يرسب ويستقر فى الضريبة ، وهو أحد السيوف التسعة التى أهدتها بلقيس لسليمان عليه الصلاة والسلام . وسيف يقال له المخذم بكسر الميم ، ثم خاء ساكنة ثم ذال معجمة مفتوحة : القاطع وهما كانا معلقين على صنم طى الذى يقال له الغلس ، وسيف يقال له القضيب ، من قضب الشيء : قطعه ، فعيل بمعنى فاعل : أى قاطع .

وأما الدروع ، فدرع يقال لها ذات الفضول بضم الفاء وبالضاد المعجمة لطولها . أرسل بها إليه صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه حين سار إلى بدر ، أى وكانت من حديد ، وهي التى رهنها صلى الله عليه وسلم عند أبي الشحم اليهودى على ثلاثين صاعا من الشعير ، وكان الدين إلى سنة . ودرع يقال لها ذات الوشاح بكسر الواو وبالشين المعجمة مخففة وفى آخره حاء مهملة : ودرع يقال لها ذات الحواشى . ودرع يقال لها السفرية بالفاء ؛ والسفر : موضع يصنع به الدروع . قال فى النور : والذى أحفظه فى هذه الدرع السغدية بضم السين المهملة وبالغين المعجمة الساكنة ثم دال مهملة مفتوحة . ودرع يقال لها الفضة ، ويقال لها السعدية بالعين المهملة مفتوحة ، وهما من دروع بنى قينقاع ، يقال إنها درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها لقتال جالوت كما تقدم . ودرع يقال لها البتراء بفتح الموحدة ، ثم مثناة فوق ساكنة ممدودة ؛ قيل لها ذلك لقصرها . ودرع يقال لها الخرنق بالخاء المعجمة مكسورة ، ثم راء ساكنة ثم نون مكسورة ثم قاف ؛ قيل لها ذلك لنعومتها .

وأما القسى ؛ فقوس يقال لها البيضاء من شوحط ، وهو من شجر الجبال ، يتخذ منه القسى ، وهو من سلاح بنى قينقاع . وقوس يقال لها الروحاء . وقوس يقال لها الصفراء من نبع وهو شجر يتخذ منه القسى . ومن أغصانه السهام كسرت يوم أحد . وقوس يقال لها الزوراء ، ويقال لها الكتوم لا نخفاض صوتها إذا رمى عنها ، قيل وهى التى اندقت سيتها يوم أحد ، أى وقوس يقال لها السداد .

وأما الأتراس ؛ فترس يقال لها الزلوق ، لأن السلاح يزلق عنه . وترس يقال لها فتق بضم الفاء وفتح التاء المثناة فوق وبالقاف . وترس يقال لها تمثال عقاب أو كبش ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة عليه فذهب .

وأما الرماح ؛ فرمح يقال له المثنى . ورمح يقال لها المثوى بضم الميم وإسكان الثاء

المثلثة وكسر الواو ، من الثوى : وهو الإقامة ، لأن المطعون به يقيم موضعه ولا ينتقل : أى وثلاث رماح أصابها من سلاح بنى قينقاع ، يقال لأحدها المثنى بضم الميم وإسكان الثاء المثلثة ثم نون مفتوحة . وفى الأصل المنثى بتقديم النون على الثاء .

وأما الحراب ؛ فحربة يقال لها النبعة . وحربة يقال لها البيضاء . وحربة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العنزة قال : جاء بها الزبير رضى الله تعالى عنه من أرض الحبشة ، أعطاها له النجاشى رحمه الله ، وقاتل بها بين يدى النجاشى عدوا للنجاشى ، وظهر النجاشى على ذلك العدو ، وشهد بها الزبير رضى الله تعالى عنه بدرا وأحدا وخيبر ؛ ثم أخذها منه صلى الله عليه وسلم منصرفه من خيبر ، فكانت تحمل بين يديه صلى الله عليه وسلم يوم العيد ، يحملها بلال رضى الله تعالى عنه ، فتركز بين يديه صلى الله عليه وسلم ويصلى إليها ، وكذا كان يصلى إليها فى أسفاره ، أى وكان صلى الله عليه وسلم يمشى بها وهى فى يده . ورابعة يقال لها المهر . وخامسة يقال لها النمر ، وكان له صلى الله عليه وسلم محجن طوله قدر ذراع او أكثر بيسير ، يمشى به ، ويعلق بين يديه على بعيره يسمى الذقن ، وكان له رأس معقفة كالصولجان .

وكان له صلى الله عليه وسلم قضيب من شوحط يسمى الممشوق ، قيل وهذا القضيب هو الذى كانت تتداوله الخلفاء اهـ .

أى وكان له صلى الله عليه وسلم مخصرة بكسر الميم وإسكان الخاء المعجمة وفتح الصاد : وهى ما يمسكه بيده من عصا أو مقرعة تسمعرجون ، ويقال لها العسيب .

وأما الخود جمع خودة : وهى ما يجعل على الرأس من الزرد مثل القلنسوة : فخودة يقال لها الموشح بالميم وبالشين المعجمة مشددة مفتوحة والحاء المهملة . وخودة يقال لها السبوغ بالسين المهملة وبالغين المعجمة أو ذات السبوغ .

باب يذكر فيه خيله وبغاله وحمره صلى الله عليه وسلم

كان له صلى الله عليه وسلم سبعة أفراس . وكان له بغال ست وكان له من الحمر اثنان ؛ وكان له من الإبل المعدّة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه صلى الله عليه وسلم ، ففرس يقال له السكب : شبه بسكب الماء وانصبابه ،

لشدة جريه ؛ وهى أول فرس ملكه صلى الله عليه وسلم ، اشتراه من أعرابى بعشرة أواق ، وكان اسمه عند الأعرابى الضرس : أى بفتح الضاد وكسر الراء وبالسين المهملة : الصعب السيء الخلق ، وكان أغر : أى له غرة ، وهى بياض فى وجهه ، محجلا طلق اليمين ، كميتا : أى بين السواد والحمرة . وقال ابن الأثير كان أسود أدهم ، وفرس يقال له المرتجز : أى سمى به لحسن صهيله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر ؛ وكان أبيض ؛ وهو الذى شهد له فيه خزيمة بأنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من صاحبه بعد أن أنكر بيعه له ، وقال له ائت بمن يشهد لك ، فجعل شهادة خزيمة بشهادتين ، بعد أن قال له صلى الله عليه وسلم : كيف شهدت ولم تحضر ؟ فقال لتصديقى إياك يارسول الله ، وإن قولك كالمعاينة فقال له صلى الله عليه وسلم : أنت ذو الشهادتين ، فسمى ذا الشهادتين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « من شهد له ، خزيمة أو شهد عليه فهو حسبيه » لكن جاء أنه صلى الله عليه وسلم رد الفرس على الأعرابى وقال « لا بارك الله لك فيها » فأصبحت من الغد شائلة برجلها . وفرس يقال له اللحيف بالحاء المهملة واللام المضمومة فعيل بمعنى فاعل ، لأنه كان يلحف الأرض بذنبه لطوله أى يغطيها . وقيل لأنه كان يلتحف معرفته . وقيل هو بضم اللام مصغرا ، وقيل بالخاء المعجمة مع فتح اللام وهو الأكثر. وهذا الفرس أهداه له صلى الله عليه وسلم فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام . وفرس يقال له اللزاز ، أى أهداه له المقوقس كما تقدم ، مأخوذ من قولهم : لازرته : أى لاصقته ، فكان يلحق بالمطلوب لسرعته ، وقيل غير ذلك . وفرس يقال له الطرف أى بكسر الطاء المهملة وسكون الراء وبالفاء : الكريم الجيد من الخيل . وفرس يقال له الورد ، وهو بين الكميت والأشقر ، أهداه له صلى الله عليه وسلم تميم الدارى رضى الله تعالى عنه ؛ وأهداه صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه . وفرس يقال له سبحة : أى بفتح السين وإسكان الموحدة وفتح الحاء المهملة : أى سريع الجرى ، هذا هو المشهور . وعد بعضهم فى خيله صلى الله عليه وسلم غير ذلك ؛ فأوصل جملتها إلى خمسة عشر بل إلى العشرين . وقد ذكر الحافظ الدمياطى أسماء الخمسة عشر فى سيرته وقال فيها : وقد ذكرناها وشرحناها فى كتابنا كتاب الخيل .

وكان سرجه صلى الله عليه وسلم دفتين من ليف . قال : لم يكن شىء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل .

وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم مسح وجه فرسه ومنخريه وعينيه بكمّ قميصه فقيل له : يارسول الله تمسح بكم قميصك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم إن جبريل عليه السلام عاتبنى فى الخيل » . وفى رواية « فى الفرس » أى فى امتهانها . وفى رواية « فى سياستها » وقال « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها فخذوا بنواصيها ، وادعوا بالبركة » اﻫ .

أى وقد ذكر « أنه صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قام إلى فرسه الطرف فعلق عليه شعيره ، وجعل صلى الله عليه وسلم يمسح ظهره بردائه ، فقيل له : يارسول الله تمسح ظهره بردائك ؟ فقال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل عليه الصلاة والسلام أمرنى بذلك ؟ » .

وعن بعضهم قال : دخلت على تميم الدارى رضى الله تعالى عنه وهو أمير بيت المقدس ، فوجدته ينقى لفرسه شعيرا ، فقلت : أيها الأمير ماكان لهذا غيرك ؟ فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من نقى لفرسه شعيرا ثم جاء به حتى يعلقه عليه كتب الله له بكل شعيرة حسنة » وكان صلى الله عليه وسلم يضمر الخيل للسباق ، فيأمر باضمارها بالحشيش اليابس شيئا بعد شيء ، ويأمر بسقيها غدوة وعشيا ، ويأمر أن يقودها كل يوم مرتين ، ويؤخذ منها من الجرى الشوط والشوطان .

وأما بغاله صلى الله عليه وسلم ؛ فبغلة شهباء يقال لها دلدل ، أهداها له المقوقس كما تقدم . والدلدل فى الأصل : القنفذ ، وقيل ذكر القنافذ ، وقيل عظيمها ، وهذه أول بغلة ركبت فى الإسلام . وفى لفظ : رؤيت فى الإسلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يركبها فى المدينة وفى الأسفار . وعاشت حتى ذهبت أسنانها ، فكان يدق لها الشعير ، وعميت . وقاتل عليها علىّ كرم الله وجهه الخوارج بعد أن ركبها عثمان رضى الله تعالى عنه ، وركبها بعد علىّ ابنه الحسن ثم الحسين رضى الله تعالى عنهما ، ثم محمدا بن الحنفية رحمه الله .

وسئل ابن الصلاح رحمه الله : هل كانت أنثى أو ذكرا والتاء للوحدة ، فأجاب بالأول . قال بعضهم : وإجماع أهل الحديث على أنها كانت ذكرا ، ورماها رجل بسهم فقتلها . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى إلى زوجته أم سلمة ، فأتيته بصوف وليف ، ثم فتلت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لدلدل رسنا

وعذارا ، ثم دخل البيت فأخرج عباءة فثناها ثم ربعها على ظهرها ، ثم سمى وركب ، ثم أردفنى خلفه » . وبغلة يقال لها فضة ، أهداها له عمرو بن عمرو الجذامى كما تقدم . ووهبها صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى وأوصلها بعضهم إلى سبعة .

وفى [مزيل الخفاء] وفى [سيرة مغلطاى] : كان له صلى الله عليه وسلم من البغال دلدل وفضة ، والتى أهداها له ابن العلماء : أى بفتح العين المهملة وإسكان اللام وبالمد فى غزوة تبوك ، والأيلية : وبغلة أهداها له كسرى ، وأخرى من دومة الجندل ، وأخرى من عند النجاشى هذا كلامه .

وعقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه كان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود به فى الأسفار ، وتوفى بمصر ودفن بقرافتها ، وقبره معروف بها ، وكان واليها من قبل معاوية بعد عتبة بن أبى سفيان ، ثم صرف عنها بمسلمة بن مخلد .

وعن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال : قدت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته مدة من الليل ، فقال أنخ ، فأنخت فنزل عن راحلته ، ثم قال : اركب فقلت : سبحان الله أعلى مركبك يا رسول الله وعلى راحلتك ؟ فأمرنى ، فقال اركب ، فقلت له مثل ذلك ، ورددت ذلك مرارا حتى خفت أن أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فركبت راحلته. ذكره فى الإمتاع .

وأما حمره صلى الله عليه وسلم ، فحمار يقال له يعفور . وحمار يقال له عفير بالعين المهملة ، وقيل بالمعجمة وغلط قائله وكان أشهب ، ومات فى حجة الوداع . والأول أهداه له فروة بن عمرو الجذامى ، وقيل المقوقس .. والثانى أهداه له المقوقس ، وقيل فروة بن عمرو كذا فى سيرة الحافظ الدمياطى رحمه الله ، والعفرة هى الغبرة ، أى وأوصل بعضهم حمره صلى الله عليه وسلم إلى أربعة .

وتقدم أن يعفورا وجده صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وأنه يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم طرح نفسه فى بئر جزعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات ، وتقدمت قصته وما فيها .

وأما إبله صلى الله عليه وسلم التى كان يركبها . فناقة يقال لها القصواء . وناقة يقال لها الجدعاء ، وناقة يقال لها العضباء ، وهى التى كانت لاتسبق فسبقت ، فشق ذلك على

المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حقا على الله أن لايرفغ شيئا من الدنيا إلا وضعه » .

وفى رواية « إن الناس لم يرفعوا شيئا من الدنيا إلا وضعه الله عز وجل » ويقال إن هذه العضباء لم تأكل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تشرب حتى ماتت ، وقيل إن التى كانت لاتسبق ثم سبقت هى القصواء ، وكانت العضباء يسبق بها صاحبها الذى كانت عنده الحاج ، ومن ثم قيل لها سابقة الحاج . وقيل إن هذه الثلاثة اسم لناقة واحدة وهو المفهوم من الأصل ، وهو موافق فى ذلك لابن الجوزى رحمه الله حيث قال إن القصواء هى العضباء وهى الجدعاء . وقيل القصواء واحدة والعضباء والجدعاء واحدة .

وفى كلام بعضهم : وأما البقر فلم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم ملك شيئا منها : أى للقنية فلا ينافى أنه صلى الله عليه وسلم ضحى عن نسائه بالبقر .

وأما غنمه صلى الله عليه وسلم ، فقيل مائة ، وقيل سبعة أعنز كانت ترعاها أم أيمن رضى الله تعالى عنها ، وجاء « اتخذوا الغنم فإنها بركة » وكان له صلى الله عليه وسلم شياه يختص بشرب لبنها ، وماتت له صلى الله عليه وسلم شاة ، فقال : ما فعلتم بإهابها ؟ قالوا إنها ميتة ، قال دباغها طهورها . واقتنى صلى الله عليه وسلم الديك الأبيض ، وكان يبيت معه فى البيت وقال « الديك الأبيض صديقى وصديق صديقى وعدو عدوى ، والله يحرس دار صاحبه وعشرا عن يمينها ، وعشرا عن يسارها ، وعشرا من بين يديها ، وعشرا من خلفها » وقد جاء « اتخذوا الديك الأبيض فإن دارا فيها ديك أبيض لايقربها شيطان ولا ساحر ولا الدويرات حولها ، واتخذوا هذا الحمام المقاصيص فى بيوتكم فإنها تلهى الجن عن صبيانكم » .

وفى العرائس « أن آدم قال يارب شغلت بطلب الرزق لاأعرف ساعات التسبيح من أيام الدنيا فأهبط الله ديكا وأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح ، فهو أول داجن اتخذه آدم عليه السلام من الخلق ، فكان الديك إذا سمع التسبيح ممن فى السماء سبح فى الأرض ، فيسبح آدم بتسبيحه » .

باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الظاهرة
وإن شاركه فيها غيره

قال : قد خلق الله تعالى أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سليمة من العيب حتى صلحت لحلول الأنفس الكاملة ، وهم فى ذلك متفاوتون ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أصح الأنبياء مزاجا ، وأكملهم جسدا .

وعن أنس رضى الله عنه « ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها وصوتا » انتهى. وكانت صفاته صلى الله عليه وسلم الظاهرة لاتدرك حقائقها ، وإلى هذا يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله :

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

وتقدم بعض صفته صلى الله عليه وسلم فى خبر أم معبد رضى الله عنها .

ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه كان ضخم الهامة : أى الرأس . ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه كان فخما مفخما : أى عظيما فى الصدور والعيون ، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر قال : كان فى وجهه تدوير ، ليس بالمطهم ولا المكلثم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه . وفى رواية « تجرى من وجهه » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يقم صلى الله عليه وسلم مع شمس قط إلاغلب ضوؤه ضوء الشمس ؛ ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوؤه ضوء السراج انتهى . أقصر من المشذب بضم الميم وفتح الشين والذال المعجمتين مشددة ثم موحدة على وزن معظم : البائن الطويل فى نحافة . وأطول من المربوع . قال : وعن على كرم الله وجهه : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة القوم ، والممغط : المتناهى فى الطول . والمتردد المجتمع الخلق : أى القصير جدا ، لم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فارقه رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب للربعة : أى لا طويل ولا قصير ، عظيم الهامة . أى وفى رواية : ضخم الرأس ، رجل الشعر إذا انفرقت عقيصته ، وفى لفظ عقيقته : وهى الشعر المعقوص فرق: أى إذا انفرقت من

ذات نفسها فرقها :أى أبقاها مفروقة وإلا تركها معقوصة: أى تركها على حالها لم يفرقها، لم يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره . قال : أى جعله وفرة .

وحاصل الأحاديث أن شعره صلى الله عليه وسلم وصف بأنه جمة ، ووصف بأنه وفرة ، ووصف بأنه لمة . وفسرت اللمة : بالشعر الذى ينزل على شحمة الأذن ، والجمة بالذى ينزل على المنكبين : قال بعضهم : كان شعره صلى الله عليه وسلم يقصر ويطول بحسب الأوقات ، فإذا غفل عن تقصيره وصل إلى منكبيه ، وإذا قصره تارة ينزل عن شحمة أذنه وتارة لا ينزل عنها .

وجاء فى وصف شعره صلى الله عليه وسلم : ليس بجعد قطط : أى بالغ فى الجعودة، ولا رجل سبط : أى بالغ فى السبوطة فلا ينافى ما جاء عن على كرم الله وجهه : كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبطا .

وعن أم هانئ رضى الله عنها : كان له صلى الله عليه وسلم أربع غدائر : أى ضفائر، تخرج أذنه اليمنى من بين ضفيرتين ، وأذنه اليسرى كذلك . قال ابن القيم رحمه الله : لم يحلق صلى الله عليه وسلم رأسه الشريف إلا أربع مرات انتهى . أزهر اللون : أى أبيض مشرب بحمرة : أى وهى المراد بالسمرة ، وفى رواية : كان أسمر ، ومن ثم جاء فى رواية : كان بياضه صلى الله عليه وسلم إلى سمرة ، لأن العرب قد تطلق على من كان كذلك أى بياضه إلى حمرة أسمر ، ومن ثم جاء : ليس بالأبيض الأمهق : أى شديد البياض الذى لا يخالطه حمرة كلون الجص :

وعن على كرم الله وجهه: ليس أبيض شديد الوضح . وفى رواية: شديد البياض، ولا معارضة لأنه محمول على ما كان من جسده تحت الثياب، ومن ثم جاء:أنور المتجرد : وهو ما كشف عنه الثوب من البدن .

وقيل المراد بالأمهق الأخضر ، فقد قيل إن المهق خضرة الماء ، ولا بالآدم : أى شديد الأدمة . واسع الجبين ، أى وفى رواية مفاض الجبين : أى واسعه . وفى رواية

كان جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صلتا : أى أملس . وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلى الجبين كأنه السراج المتوقد يتلألأ ، أزج الحاجبين ، سوابغ من غير قرن : أى بين حاجبيه فرجة ، وهو البلج ، أى والقرن بالتحريك : اتصال شعر الحاجبين . وورد : مقرون الحاجبين : أى شعرهما متصل بالآخر ، لا حاجز بينهما .

ولا منافاة لأن ذلك يجوز أن يكون بحسب الرائى ، لأن الفرجة التى كانت بين حاجبيه يسيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر . بينهما عرق يدره الغضب : أى إذا غضب امتلأ ذلك العرق دما فيظهر ويرتفع . أقنى العرنين : أى سائله مرتفع وسطه : أى وفى وسطه احديداب . وفى رواية: دقيق العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم: أى مرتفعا . أدعج العينين أى شديد سواد العينين . وفى كلام بعضهم : الدعج سواد العين ، ويقابله الأشهل وهو من فى سواد عينيه حمرة . وقد جاء : أشهل العينين، وأشكل العينين : أى فى بياض عينيه صلى الله عليه وسلم حمرة . وكانت فى الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، أى وفى رواية : أنجل العينين : أى واسعهما . أهدب الأشفار : أى طويل هدب شعر العينين .

أى وعن أبى هريرة رضى الله عنه أكحل العينين . والكحل : سواد هدب العين خلقة .

وعن جابر رضى الله عنه : إذا نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت أكحل : أى فى عينيه كحل وليس بالكحل. سهل الخدّين أى وفى رواية أسيل الخدّين: أى ليس فى خديه نتوء وارتفاع ، ضليع الفم : أى واسعه . أشنب أى فى ريقه برد وعذوبة . مفلج الأسنان : أى مفرّق ما بين الثنايا كما فى رواية : أفلج الثنيتين ، لأن الفلج تباعد ما بين الثنايا والرباعيات . وفى رواية : برّاق الثنايا . كان إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه ، يفترّ عن مثل حب الغمام : أى إذا ضحك بانت أسنانه كالبرد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : حسن الثغر . وعن أنس رضى الله عنه : شممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهته صلى الله عليه وسلم . كث اللحية : أى كثير شعرها . وفى رواية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيف اللحية ، وكان يسرحها بالماء ، وكان له صلى الله عليه وسلم مشط من العاج وهو الذبل . وقيل شىء يتخذ من ظهر السلحفاة البحرية ، ويقال لعظم الفيل عاج أيضا : أى وليس مرادا هنا أى وكان له مقراض : أى مقص يقص به أطراف شاربه .

وفى المشكاة عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » .

أى وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالمقراض من عرض لحيته وطولها .

وقد لا ينافى ذلك ماجاء «أمرنى ربى باعفاء لحيتى وقص شاربى» وقال «من الفطرة قص الأظفار والشارب ، وحلق العانة» .

وكان صلى الله عليه وسلم يكثردهن رأسه حتى كأن ثيابه ثياب زيات أو دهان . أى وفى لفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التقنع حتى يرى حاشية ثوبه كأنه ثوب زيات أو دهان وليس فى شعر رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء .

وعن أنس رضى الله عنه أن شيب لحيته صلى الله عليه وسلم كان فى عنفقته وصدغيه متفرقا . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : عرف من مجموع الروايات أن الذى شاب فى عنفقته صلى الله عليه وسلم أكثر مما شاب فى غيرها .

وقال صلى الله عليه وسلم «شيبتنى هود وأخواتها ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ما أخواتها يا رسول الله؟ قال : الواقعة ، والقارعة ، وسأل سائل ، وإذا الشمس كورت ، واقتربت الساعة» .

وفى رواية «شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت ، واقتربت الساعة» وقال صلى الله عليه وسلم «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة» ولعل شيبه صلى الله عليه وسلم لم يخضب . وقيل كان يخضب بالحناء والكتم .

وقال صلى الله عليه وسلم «أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم» ونهى صلى الله عليه وسلم عن الخضاب بالسواد وقد تقدم . ضليع الفم : أى واسعه وهو مما تمدح به العرب ، وتذم بصغر الفم ، غاض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جلّ نظره الملاحظة ، دقيق المسربة بفتح الميم وإسكان السين ثم راء مضمومة : وهو الخيط الشعر الذى بين الصدر والسرة ، كأن عنقه جيد دمية : هى صورة تتخذ من العاج فى صفاء الفضة .

أى وعن على كرم الله وجهه : كأن عنقه إبريق فضة ، معتدل الخلق بادنا متماسكا : أى ذو لحم متماسك يمسك بعضه بعضا ، ليس مسترخى اللحم سواء البطن والصدر : أى مستويهما عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس : وهى رءوس العظام : أى ملتقى كل عظمين كالمرفقين والمنكبين والركبتين . موصول ما بين اللبة بفتح اللام وتشديد الموحدة المفتوحة : هو المنحر والسرة بشعر يجرى كالخيط ، وهو المعبر عنه فيما سبق بدقيق المسربة

عارى الثديين والبطن وما سوى ذلك : أشعر الذراعين والمناكب . وأعالى الصدر ، طويل الزندين : أى عظيم الذراعين ، رحب الراحة : أى واسعها :

قال أنس رضى الله تعالى عنه : مامسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سائل الأصابع أى طويلها شثن الكفين والقدمين : أى يميلان إلى الغلظ ، وذلك ممدوح فى الرجال مذموم فى النساء . أى وكانت سبابة يديه صلى الله عليه وسلم أطول من الوسطى . قال ابن دحية رحمه الله : وهذا باطل بيقين ، ولم يقله أحد من ثقات المسلمين : أى وإنما كان ذلك فى أصابع قدميه صلى الله عليه وسلم ، وهو فى ذلك كغيره من الناس . وفى رواية منهوس بالمهملة والمعجمة العقب : أى قليل لحم القدمين . مسبط العظام: أى ممتدها لانتوء فيها .

وفى رواية سبط العصب وهو كل عظم فيه مخ خمصان الأخمصين ، ينبو عنهما الماء: أى يتجافى أخمص القدم وهو وسطه : أى شديد التجافى عن الأرض . مسيح القدمين : أى أملسهما ، وهذا يوافق ماجاء فى رواية : إذا وطئ بقدمه وطىء بكلها ليس له أخمص ، إذا زال زال : تقلعا : أى يرفع رجله بقوة ويخطو تكفيا : أى يتمايل إلى قدامه . وقيل يمينا وشمالا كالمختال ، ولايذم إلا من تكلفه لا من كان ذلك جبلة له . ويمشى هونا : أى برفق ووقار دون عجلة . ذريع المشية : أى واسعها إذا امشى كأنما ينحط من صبب . أى وذكر فى [سفر السعادة] أن هذه المشية مشية أصحاب الهمم العلية ومن قلبه حى ، وإن هذا النوع من المشى يسمى مشى الهوينا المذكور فى قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وهو أعدل أنواع المشى ، لأن الماشى إما متهاون بالمشى كالخشبة ، أو طائش ينزعج وهذان النوعان فى غاية القبح ، لأن الأول يدل على الخمول وموت القلب . والثانى يدل على خفة الدماغ وقلة العقل ثم قال : وأنواع المشى عشرة هذه الثلاثة منها ، وذكر باقيها .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا التفت التفت جميعا أى بسائر جده ، ولا يلوى عنقه كما يفعله أهل الخفة والطيش ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه :

لايقال : قد ذم صلى الله عليه وسلم المتشدقين : لأنا نقول : المراد بهم من يكثر الكلام من غير احتياط ولا احتراز ومن يلوى أشداقه استهزاء بالناس .

وكان صلى الله عليه وسلم يتكلم بجوامع الكلم : أى بالكلام القليل الألفاظ الكثير

المعانى . فصلا لافضول فيه ولا تقصير ، قال صلى الله عليه وسلم « أعطيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارا .

قال : ومن تلك الكلمات « لاخير فى صحبة من لايرى لك مثل ماترى له . ماهلك امرؤ عرف قدر نفسه. رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم . ذو الوجهين لايكون عند الله وجيها . خير الأمور أوساطها . السعيد من وعظ بغيره » . إذا أشار أشار بكفه كلها اه وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث قارب يده اليمنى من اليسرى فضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى، أى وربما يسبح عند التعجب وربما حرك برأسه وعض شفته ، وربما ضرب بيده على فخذه ، وربما نكت الأرض بعود . وإذا غضب أعرض بوجهه .

أى وكان صلى الله عليه وسلم إذا غضب احمر وجهه الشريف ، وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته. وفى رواية : إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته وتنفس الصعداء أى تنفس طويلا وقال : حسبى الله ونعم الوكيل ، جلّ : أى معظم ضحكه التبسم ، وكون معظم ضحكه ذلك لا ينافى أنه صلى الله عليه وسلم ضحك غير ما مرة حتى بدت نواجذه .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا جرى به الضحك وضع يده على فيه ؛ قال : وكان أكثر أحواله صلى الله عليه وسلم يمشى منتعلا ، وربما مشى صلى الله عليه وسلم حافيا .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل من هدية أهديت إليه حتى يأكل منها صاحبها : أى بعد أن أهديت إليه صلى الله عليه وسلم الشاة المسمومة .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع ويلعقهن إذا فرغ بلعق الوسطى، ثم التى يليها ثم الإبهام ، وقال « إن لعق الأصابع بركة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بلعق الصحفة ويقول : « إنكم لا تدرون فى أىّ طعامكم البركة » اه .

ونحن نوضح بعض هذه الصفات الظاهرة بعبارة واضحة قريبة للأفهام فنقول :

كان صلى الله عليه وسلم عظيما معظما فى الصدور والعيون كبير الرأس ، لأن كبر الرأس يدل على كثرة العقل غالبا ، ووجهه كالقمر ليلة البدر ، لون جسده الذى ليس تحت الثياب أبيض مشرب بحمرة ، طويل الحاجبين مع دقة ما بينهما خال من الشعر وهو البلج ، وضده القرن ، وهو أن يتصل شعر أحدهما بالآخر .

بين حاجبيه عرق إذا غضب انتفخ ، طويل الأنف مع حدب فى وسطه ودقة فى طرفه ، ليس فى حدبه ارتفاع لأن العرب تذم به .

فى عينيه شكلة : وهى بياض وحمرة ، شديد سواد العين مع اتساعها ، واسع الفم ، لأن سعة الفم تدل على الفصاحة . بين ثناياه والرباعيات فرجة ، ويقال لها الفلج . كثير شعر اللحية ، شيبه قليل ، عنقه كالإبريق الفضة . إذا مشى مال إلى أمامه .

باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الباطنة

وإن شاركه فيها غيره

كان صلى الله عليه وسلم سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ولا مزاح : أى كثير المزاح ، فلا ينافى ماروى : كان صلى الله عليه وسلم يمازح أصحابه قال : وقد جاء « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا » لكن جاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مزاحا . وكان يقول : إن الله تعالى لا يؤاخذ المزّاح الصادق فى مزاحه .

وجاء عن بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم : مارأيت أحدا أكثر مزاحا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كانت فى النبى صلى الله عليه وسلم دعابة . وعن بعض السلف : كان للنبى صلى الله عليه وسلم مهابة ، فكان يبسط الناس بالدعابة . قال صلى الله عليه وسلم لعمته صفية لاتدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا) وهن العجائز الرمص : أى والعروب المتحببة لزوجها التى تقول وتفعل ماتهيج به شهوته إياها ، وأترابا : كأنهن ولدن فى يوم واحد لأنهن يكن بنات ثلاث وثلاثين سنة .

وجاءه صلى الله عليه وسلم رجل وطلب أن يحمله على بعير فقال له : إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال : يا رسول الله ماأصنع بولد الناقة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ .

وقد أتى أزيهر ، وفى لفظ زاهر وكان يهدى للنبى صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية ،

فكان كلما قدم من البادية يأتى معه بطرف وهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : زاهر باديتنا ونحن حاضروه . وفى لفظ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر ، وكان صلى الله عليه وسلم يحبه . جاءه يوما وهو يبيع متاعه فى السوق وكان رجلا دميما ، فاحتضنه من خلفه ، فقال أرسلنى ، من هذا ؟ فلما عرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم صار يمكن ظهره من صدره الشريف عليه الصلاة والسلام ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من يشترى العبد ؟ فقال : يارسول الله تجدنى كاسدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولكن عند الله لست بكاسد أو قال : أنت عند الله غال . ويجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم جمع بين هذين اللفظين ، وكل روى ما سمع منهما .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت « خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم ، فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال لى تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى إذا حملت اللحم ، وكنا فى سفرة أخرى ، قال صلى الله عليه وسلم للناس تقدموا فتقدموا ثم قال لى : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقنى ، فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك .

وعن أنس رضى الله عنه قال دخل صلى الله عليه وسلم على أمى فوجد أخى أبا عمير حزينا ، فقال : يا أم سليم ، ما بال أبى عمير حزينا ؟ فقالت : يا رسول الله مات نغيره : تعنى طيرا كان يلعب به ، فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ما فعل النغير : وكان كلما رآه قال له ذلك .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها فقلت لسودة والنبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينها كلى فأبت ، فقلت لها : كلى كلى ، أو لألطخن وجهك فأبت ، فوضعت يدى فيها فطليت وجهها ، فضحك صلى الله عليه وسلم وأرخى فخذه لسودة ، وقال : الطخى وجهها فلطخت وجهى ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم أى وقال صلى الله عليه وسلم يوما لعائشة : ما أكثر بياض عينك انتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم يتغافل عما لا يشتهى ، قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكبار ، وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب

عورته ، وكان صلى الله عليه وسلم يقابل السيئة بالحسنة ، ولا يذم ذواقا ولا يمدحه . والذواق الشيء ، يقال ماذقت ذواقا : أي شيئا من طعام أو شراب .

وعن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما عن رجل من العرب . قال: زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجلي نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعجني بعجة بسوط في يده ، وقال : بسم الله أوجعتني ، قال : فبت لنفسي لائما ، أقول أوجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان ، فانطلقت وأنا متخوف ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني فبعجتك بالسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها بها ، ولما نزل قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال له جبريل عليه السلام ، أي بعد أن سأله صلى الله عليه وسلم في ذلك : إن ربك عز وجل يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وفي الحديث « لاينال عبد صريح الإيمان حتى يكون كذلك » وفي الحديث إن ذلك أفضل أهل الدنيا والآخرة .

وكان صلى الله عليه وسلم لايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق والمسألة ، لايقطع على أحد حديثه ، ولا يتكلم في غير حاجة ، يعظم النعمة وإن دقت ، لايغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وإنما يغضب إذا تعرض للحق بشيء وعند غضبه لذلك لايثنيه شيء عن الانتصار له ، ويكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ويسأل عنهم ، فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده ، ويسأل الناس عما الناس فيه ، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة ، أحسنهم مواساة ، لايجلس ولا يقوم إلا عن ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ويعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

من جالسه أو نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . من سأله حاجة لم يردّه إلاّ بها أو بميسور من القول .

عنده الناس في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء : لاترفع فيه الأصوات ، ولا يتنازعون عنده الحديث .

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير : أى على غاية من السكون والوقار لأن الطير لا تكاد تقع إلا على ساكن ، وإذا تكلم عنده أحد أنصتوا له حتى يفرغ من حديثه : أى لايقطع بعضهم على بعض حديثه ، يضحك مما يضحكون ، ويعجب مما يعجبون .

فقد ذكر أن أبا بكر رضى الله عنه خرج تاجرا إلى بصرى ومعه نعيمان بن عمرو الأنصارى وسويط بن حرملة وكلاهما بدرى . وكان سويط على زاد أبى بكر فجاءه نعيمان وقال له أطعمنى ، فقال : لاحتى يأتى أبو بكر وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزاحا فيه دعابة وله أخبار ظريفة فى دعابته ، فقال لسويط : لأغيظنك ، فذهب إلى ناس ؛ وفى رواية : فمروا بقوم ، فقال لهم نعيمان : تشترون منى عبدا لى ؟ قالوا نعم . قال : إنه عبد له كلام وهو قائل لكم لست بعبده ، أنا رجل حر ، فإن كان إذا قال لكم هذه تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا علىّ عبدى ، قالوا لا بل نشتريه ، ولا ننظر فى قوله ، فاشتروه منه بعشرة قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا ، فجاء القوم له وقالوا له : قد اشتريناك ، فقال : هو كاذب أنا رجل حر ، وفى رواية أنهم وضعوا عمامته فى عنقه ، فقال لهم : إنه يتهزأ ولست بعبده ، فقالوا له قد أخبرنا بخبرك ، فطرحوا الحبل فى عنقه وذهبوا به ، ولم يسمعوا كلامه ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه ، فأخبره خبره ، فذهب هو وأصحابه وأتبعوا القوم ، وأخبروهم أنه يمزح ، وردوا عليهم القلائص ، وردوا سليطا منهم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فضحك من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حولا كاملا ، لأن سفر أبى بكر رضى الله عنه كان قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بعام .

ووقع لنعيمان هذا أنه مر بمخرمة بن نوفل رضى الله عنه وقد كف بصره وهو يقول ألا رجل يقودنى حتى أبول ، فأخذ بيده نعيمان ، فلما بلغ مؤخر المسجد قال له : ههنا ، فبال فصاح الناس به ، فقال : من قادنى ؟ قيل نعيمان ، فقال لله علىّ أن أضربه بعصاى هذه ، فبلغ نعيمان فأتاه ، فقال له : هل لك فى نعيمان ؟ قال نعم ، قال : فقم ، فقام معه ، فأتى به عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو إذ ذاك أمير المؤمنين وهو يصلى ، فقال : دونك الرجل ، فجمع يديه فى العصا ثم ضربه ، فقال الناس : أمير المؤمنين ، فقال : من قادنى؟ فقيل نعيمان ، قال : لا أعود إلى نعيمان أبدا :

وجاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه فقال بعض الصحابة لنعيمان: لو نحرتها فأكلناها ؟ فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقها ، فنحرها نعيمان ، فخرج الأعرابى فرأى راحلته ، فصاح : واعقراه يامحمد ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : من فعل هذا ؟ قالوا نعيمان ، فأتبعه النبى صلى الله عليه وسلم يسأل عنه، فوجده فى دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطاب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ورفع صوته: مارأيته يارسول الله وأشار بأصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تعفر وجهه بالتراب ، فقال له : ماحملك على ماصنعت ؟ قال : الذين دلوك علىّ يارسول الله هم الذين أمرونى ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم صلى الله عليه وسلم ثمنها .

وكان رضى الله عنه إذا دخل المدينة طرفة اشتراها فى ذمته ، ثم جاء بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : يارسول الله هذه هدية ، فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : أعط هذا ثمن ماجئت به إليك ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو لم تهد ذلك لى ؟ فيقول : يارسول الله لم يكن عندى ثمنه ، وأحببت أن يكون لك ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه .

وكان صلى الله عليه وسلم دائم البشر ضحوك السن : أى أكثر أحواله ذلك حسبما رآه هذا المخبر ، فلا ينافى أنه صلى الله عليه وسلم كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، فإنه بحسب ما كان عند ذلك المخبر .

وفى كلام ابن القيم رحمه الله : قد صانه الله عن الحزن فى الدنيا وأسبابها ، ونهاه عن الحزن على الكفار ، وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فمن أين يأتيه الحزن ، بل كان دائم البشر ضحوك السن ، كذا قال .

وفى كلام الإمام أبى العباس بن تيمية رحمه الله : ليس المراد الحزن الذى هو الألم على فوات مطلوب أو حصول مكروه ، فإن ذلك منهى عنه ، وإنما المراد به الاهتمام واليقظة لما يستقبله من الأمور ، وهذا مشترك بين القلب والعين .

وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت : خلقه القرآن : أى ما ذكره القرآن (وإنك لعلى خلق عظيم) وإنه تأدب بآدابه وتخلق بمحاسنه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال » .

قال : وذكر فى عوارف المعارف أن فى قول عائشة رضى الله عنها خلقه القرآن سرا غامضا ، حيث عدلت إلى ذلك عن قولها كان متخلقا بأخلاق الله سترا للحال بلطف المقال استحياء من سبحات ذى الجلال اه ، أى فكان صلى الله عليه وسلم متصفا بما فيه من الاجتهاد فى طاعة الله والخضوع له ، والانقياد لأمره والشدة على أعدائه ، والتواضع لأوليائه ، ومواساة عباده وإرداة الخير لهم ، والحرص على كمالهم ، والاحتمال لأذاهم ، والقيام بمصالحهم وإرشادهم إلى ما يجمع لهم خيرى الدنيا والآخرة مع التعفف عن أموالهم إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة التى اتصف بها صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم .

وكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية وخوفا من الله ، أى ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يقول « أنا أتقاكم لله ، وأخوفكم منه » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت « أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فدخل معى فى لحافى ، ثم قال : ذرينى أتعبد لربى ، فقام صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال رضى الله عنه فآذنه بالصلاة ، فقلت : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ، ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) إلى قوله (سبحانك فقنا عذاب النار) » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « أواه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أواه » أى وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول من صنعت له النورة ودخل الحمام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، فلما دخله وجد حره وغمه قال : أواه من عذاب الله ، أواه أواه قبل أن لا يكون أواه » .

أى وفى [سفر السعادة] : لم يدخل صلى الله عليه وسلم الحمام أبدا ، والحمام الموجودة الآن بمكة شرفها الله تعالى المشهورة بحمام النبى صلى الله عليه وسلم لعلها بنيت فى موضع اغتسل فيه صلى الله عليه وسلم مرة ، هذا كلامه .

وأرسل صلى الله عليه وسلم وصيفة فأبطأت عليه ، فقال لها : لولا خوف القصاص

لأوجعتك بهذا السواك . وماضرب صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة امرأة ولا خادماً من أهله .

قال : وعن خادمه أنس رضى الله عنه : ماأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر فتوانيت عنه ، أو ماصنعته فلامنى ، ولا لامنى أحد من أهله صلى الله عليه وسلم إلا قال دعوه . وفى لفظ : خدمته فى السفر والحضر عشر سنين والله ماقال لى فى شىء صنعته لم صنعت هذا هكذا ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وهذا يدل على أنه رضى الله عنه خدمه صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة ، وتقدم أن فى بعض الروايات مايدل على أن ابتداء خدمة أنس له صلى الله عليه وسلم فى فتح خيبر ، وتقدم ما فيه .

ووصف صلى الله عليه وسلم فى الكتب القديمة بأن حلمه صلى الله عليه وسلم يسبق غضبه ، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما .

وقد تقدمت قصته صلى الله عليه وسلم مع اليهودى الذى طلب منه وفاء مااقترض منه صلى الله عليه وسلم قبل حلول الأجل ونظيرها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فحاشا . استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم رجل ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال : بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة ، فلما جلس تطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه فقال صلى الله عليه وسلم : ياعائشة متى عهدتنى فحاشا ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره .

قال ابن بطال رحمه الله : إن هذا الرجل هو عيينة بن حصن ، لأنه كان يقال له الأحمق المطاع ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما تطلق فى وجهه تألفا له ليسلم قومه ، لأنه كان المطاع فيهم . وأما ذمه صلى الله عليه وسلم له فلأنه يعلم ما يقع منه بعد ، فإنه ارتد فى زمن الصديق رضى الله عنه وحارب ثم رجع وأسلم .

أى وقد قيل إن سبب نزول قوله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) الآية أن عيينة هذا قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال له أسلم قال : على أن تبنى لى مقصورة فى مسجدك هذا أكون أنا وقومى فيها وتكون أنت معى .

ومن تأمل سيرته صلى الله عليه وسلم مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين علم أنه صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية فى التواضع ورقة القلب ولين الجانب .

وعن أنس رضى الله عنه : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة يوما . فقلت : والله لا أذهب وفى نفسى أنى أذهب ، فخرجت على صبيان يلعبون فى السوق ، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت إليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال : يا أنيس اذهب حيث أمرتك . فقلت نعم أنا أذهب يا رسول الله اه .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وأرجح الناس حلما ، وأعظم الناس عفوا ، وأسخى الناس كفا .

وكان صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه وقد اضطروه إلى شجرة فخطفت رداؤه الشريف فوقف ، ثم قال : أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم .

وفى رواية : « لو أن لى مثل جبال تهامة ذهبا لقسمته بينكم ثم لا تجدونى كذوبا ولا بخيلا ، ولا جبانا » كما تقدم .

وكان صلى الله عليه وسلم أشجع الناس قلبا ، وأشد الناس بأسا وأشد الناس حياء . وكان أشد حياء من البنت البكر فى خدرها أى بيتها وسترها ، وكان إذا فرح ، غض طرفه ، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض صوته ، وربما غطى وجهه بيده أو ثوبه .

وكان يحب الفأل الحسن ، ويغير الاسم القبيح بالحسن كما تقدم ، وربما غير الحسن بالقبيح كما تقدم . وكان يقول لأصحابه : إذا أرسلتم لى رسولا فليكن حسن الاسم ، حسن الوجه .

من ذلك أن شخصا كان سادنا : أى خادما الصنم ، وكان يسمى غاوى بن ظالم . فبينما هو عند صنمه إذ أقبل ثعلبان إلى الصنم ورفع كل واحد منهما رجله وبال على رأس ذلك الصنم ، فلما رأى ذلك كسر ذلك الصنم وأنشد :

أرب يبول الثعلبان برأســه ‏ ‏ ‏ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له كيف اسمك ؟ فقال : غاوى بن ظالم .
فقال صلى الله عليه وسلم له : بل أنت راشد بن عبد ربه .

ومن هذا السياق يعلم أن الثعلبان بفتح الثاء المثلثة مثنى ثعلب لا بضمها ذكر الثعالب كما قيل .

ومن تغيير الاسم القبيح بالحسن ما وقع له صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذى قرد أنه مر على ماء فسأل عنه ، فقيل له : هذا اسمه بئسان وهو مالح . فقال : لا ، بل اسمه نعمان وهو طيب ، فانقلب عذبا . واشتراه طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ثم تصدق به ، فلما جاء إليه صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماأنت يا طلحة إلا فياض فسمى طلحة الفياض .

وكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها ما رأيت رجلا أكثر مشاورة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان صلى الله عليه وسلم إذاحلف قال: لاومقلب القلوب،وربما قال فى يمينه وأستغفر الله ، وإذا اجتهد فى اليمين قال : لا ، والذى نفس أبى القاسم بيده ، وربما قال : والذى نفس محمد بيده ، وربما قال فى يمينه : لا ، وأستغفر الله والذى نفسى بيده .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس إغضاء عن العورات. وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه ، ولم يشافه أحدا بمكروه حتى إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل مابال فلان يقول أو يفعل كذا . بل يقول : مابال أقوام يقولون أو يفعلون كذا .

لايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة . مادعاه أحد من أصحابه أو أهل بيته إلا قال لبيك ، يخالط أصحابه ، ويحادثهم ، ويداعب ، أى يمازح صبيانهم ، ويجلسهم فى حجره الشريف .

أى فقد كان صلى الله عليه وسلم يصفّ أولاد عمه العباس عبد الله وعبيد الله وغيرهما رضى الله عنهم ويقول : من سبق إلىّ فله كذا ، فيستبقون إليه فيقعدون على صدره الشريف فيقبلهم ويلتزمهم . ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويشهد الجنائز ، ويقبل عذر المعتذر . ماوضع أحد فمه فى أذنه إلااستمر صاغيا له حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده صلى الله عليه وسلم منه حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها .

وكان صلى الله عليه وسلم يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، لم يرقط مادا رجليه بين أصحابه . يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه بالجلوس عليها إن أبى ، ويدعو أصحابه بأحب أسمائهم ويكنيهم ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، وطعن فى الحديث الذى ورد بذلك ، وإذا سمع بكاء الصغير وهو يصلى تجوّز فيها : أى خففها .

أكثر الناس شفقة على خلق الله تعالى وأرأفهم بهم وأرحمهم بهم ، قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ومن ثم رغب صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أن يجعل سبه ولعنه لأحد من المسلمين رحمة له : أى إذا كان لا يستحق ذلك السب فى باطن الأمر ويستحقه فى ظاهر الأمر . أى وقال صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » أوصل الناس للرحم ، وأقومهم بالوفاء وحسن العهد .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

وكان يركب الحمار : أى وربما ركبه عريانا ويردف خلفه . فعن أنس رضى الله عنه : رأيته صلى الله عليه وسلم يوما على حمار خطامه ليف ؛ أى وقد جاء أن ركوب الحمار براءة من الكبر ، وكان يجلس على الأرض ، وكان يشرب قائما وقاعدا وينتعل قائما وقاعدا ، ويصلى منتعلا وحافيا .

وفى لفظ : كان أكثر صلاته صلى الله عليه وسلم فى نعليه وكان يحب التيامن فى شأنه كله فى طهوره وترجله وتنعله ، وكان يحب السواك حتى لقد أحفى لثته . وكان يكتحل بالإثمد عند النوم ثلاثا فى كل عين : وفى لفظ : ثلاثا فى اليمنى ومرتين فى اليسرى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالإثمد ، فإنه يجلو البصر ، وينبت الشعر ، وإنه من خير أكحالكم » وكان يعود المساكين ويجلس بين أصحابه .

« وحج صلى الله عليه وسلم على رحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم ، وقال : اللهم اجعله حجا مبرورا لا رياء فيه ولا سمعة » كما تقدم ، وأهدى فى حجه ذلك مائة بدنة كما تقدم .

وكان يفلى ثوبه ، أى وإن كان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن القمل لا يؤذيه ،

ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه وهو الجمل الذى يسقى عليه الماء ؛ ويقمّ البيت .

قال وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل عمل البيت ، وأكثر ما يعمل الخياطة ، ما يرى فارغا قط فى بيته ، إما يخصف نعلا لرجل مسكين ، أو يخيط ثوبا لأرملة انتهى ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويحب الطيب ، ويأمر به .

وكان يتطيب بالمسك والغالية ، ويتبخر بالعود والعنبر والكافور ، ويأمر أصحابه بالمشى أمامه . ويقول : « خلوا ظهرى للملائكة » زاهدا فى الدنيا . ما ترك درهما ولا دينارا .

توفى ودرعه مرهونة ، وتقدم أنها ذات الفضول عند يهودى وتقدم أنه أبوالشحم على نفقة عياله ، وتقدم أن ذلك كان ثلاثين صاعا من شعير ، وكان الأجل سنة .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» . ماشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز البر حتى فارق الدنيا . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه .

وفى رواية : ما شبع يومين من خبز الشعير ؟ أى ومعلوم أن ذلك إنما هو لتتأسى به أمته فى الإعراض عن الدنيا . قالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى عرض علىّ أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ، أجوع يوما ، وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

قال صلى الله عليه وسلم « مالى وللدنيا ، إنما أنا فى الدنيا كرجل سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة حتى مال الفىء فتركها ولم يرجع إليها » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما أبالى بما رددت به عنى الجوع » ولم ينخل له صلى الله عليه وسلم دقيق الشعير . قال : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : والذى بعث محمدا بالحق ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزا منخولا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض . فقيل لها : كيف كنتم تصنعون بالشعير ؟ قالت : كنا نقول أف أف انتهى ، أى فيطير ما طار ، وما بقى عجناه : ولا خبز له صلى الله عليه وسلم مرقق . ولا أكل التى من الخبز .

وعن أنس رضى الله عنه قال : جاءت فاطمة رضى الله عنها بكسرة خبز إلى النبى

صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ماهذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » أى فانه صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتابعة طاويا . ولا أكل على خوان قط ، إنما كان يأكل على السفرة ، وربما وضع صلى الله عليه وسلم طعامه على الأرض .

أى وخطب صلى الله عليه وسلم يوما فقال والله ما أمسى فى بيت محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات . قال الحسن : والله ما قالها استقلالا لرزق الله ، ولكن أراد صلى الله عليه وسلم أن تتأسى به أمته .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد فى بيت من بيوته رسول الله صلى الله عليه وسلم نار لا لخبز ولا لطبخ ، فقيل له : بأى شىء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟فقال : بالأسودين الماء والتمر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : والله لقد كان يأتى على آل محمد صلى الله عليه وسلم الليالى ما يجدون فيها عشاء .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : أهدى لنا أبوبكر شاة قالت إنى لأقطعها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلمة البيت ، فقال لها قائل : أما كان لكم سراج ؟ فقالت : لو كان لنا ما نسرج به أكلناه .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يجمع فى بطنه بين طعامين ، إن أكل لحما لم يزد عليه ، وإن أكل تمرا لم يزد عليه ، وإن أكل خبزا لم يزد عليه ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم إلا ثوب واحد من قطن ، قصيرالكمين ، كمه إلى الرسغ ، وطوقه مطلق من غير أزرار .

أى وفى لفظ : كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم قطنا ، قصير الطول ، قصير الكمين ، كمه إلى الرسغ .

وكان له صلى الله عليه وسلم جبة ضيقة الكمين ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر من نسج عمان .

وكان له صلى الله عليه وسلم بردة يمانية طولها ستة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع وشبر ، كان يلبسهما فى يوم الجمعة والعيدين ثم يطويان .

وكان له صلى الله عليه وسلم رداء أخضر طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر تداولته الخلفاء .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة تسمى السحاب ، كساها على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فكان ربما طلع عليه على كرم الله وجهه فيقول صلى الله عليه وسلم : أتاكم علىّ فى السحاب ، يعنى عمامته التى وهبها له صلى الله عليه وسلم .

وكان إذا اعتم يرخي عمامته بين كتفيه ، وكان يلبس القلنسوة اللاطئة : أى اللاصقة بالرأس ، وذات الآذان كان يلبسها فى الحروب ، والقلانس الطوال إنما حدثت فى أيام الخليفة المنصور .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « فرق بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس » أى فإنه صلى الله عليه وسلم كان يلبس القلانس تحت العمائم ، ويلبس القلانس بغير عمائم ويلبس العمائم بغير قلانس .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء دخل يوم فتح مكة لابسها . وعن جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال « كان للنبى صلى الله عليه وسلم عمامة سوداء يلبسها فى العيدين ويرخيها خلفه » .

وجاء أن جبريل عليه السلام كانت عمامته يوم غرق فرعون سوداء . ومقدار عمامته الشريفة صلى الله عليه وسلم لم يثبت فى حديث . قال بعض الحفاظ : والظاهر أنها كانت نحو العشرة أذرع أو فوقها بيسير ، وكانت له صلى الله عليه وسلم خرقة إذا توضأ تمسح بها ، هذا .

وفى [سفر السعادة] : لم يكن صلى الله عليه وسلم ينشف أعضاءه بعد الوضوء بمنديل ولا منشفة ، وإن أحضروا له شيئا من ذلك أبعده . والحديث المروى عن عائشة رضى الله عنها : كانت له صلى الله عليه وسلم نشافة يتنشف بها بعد الوضوء . وحديث معاذ رضى الله عنه فى معناه كلاهما ضعيف وقال : تنشيف الأعضاء من الوضوء لم يصح فيه حديث .

وكانت له صلى الله عليه وسلم ملحفة مورسة إذا أراد أن يدور على نسائه رشها بالماء أى لتظهر رائحتها . وكان يصبغ قميصه ورداءه وعمامته بالزعفران . أى وفى لفظ : كان يصبغ ثيابه كلها بالزعفران حتى العمامة .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قميص أصفر ورداء أصفر وعمامة صفراء .

وعن ابن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه : كان أحب الصبغ إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم الصفرة . وقال الحافظ الدمياطي رحمه الله : ويعارض هذه الأحاديث ما روى فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المزعفر ، وفى لفظ : نهى عن أن يتزعفر الرجل .

أى وقد يقال : على تقدير صحة تلك الأحاديث فهى منسوخة ، أو كلن ذلك من خصوصياته صلى الله عليه وسلم . وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم اشترى السراويل . واختلف هل لبسها ؟ فقيل نعم ، ففى الأوسط للطبرانى ومسند أبى يعلى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى بزازين ، فاشترى سراويل بأربعة دراهم ، وكان لأهل السوق وزّان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أوزن وأرجح . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السراويل فذهبت لأحمله عنه ، فقال «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم . قلت يارسول الله إنك لتلبس السراويل . قال : أجل فى السفر والحضر ، وبالليل وبالنهار ، فإنى أمرت بالستر ، فلم أجد شيئا أستر منه » ومخرجه هو وشيخه ضعيفان .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم توفنى فقيرا ولا توفنى غنيا ، واحشرنى فى زمرة المساكين» وفى لفظ آخر« اللهم أحيني مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين ، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة ، أتتنى الدنيا خضرة حلوة ، ورفعت إلىّ رأسها وتزينت لى ، فقلت : إنى لا أريدك ، لاحاجة لى فيك ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » انتهى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء .

قال : وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، الفاقة أحب إلىّ من اليسار » وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كنت أرثى له صلى الله عليه وسلم من الجوع ، وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنع عنك الجوع ، فيقول يا عائشة إن إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأكرمهم وأجزل ثوابهم أخشى إن ترفعت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلىّ من أن ينقص حظى غدا فى الأخرى ، وما من شيء أحب إلىّ من اللحوق بإخوانى » .

قال : وقال صلى الله عليه وسلم « يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد . يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ، وقال (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) والله لأصبرن جهدى ولا قوة إلا بالله » انتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله» وكان صلى الله عليه وسلم على غاية من الإعراض عن الدنيا ، وكان يصلى على الحصير وعلى الفروة المدبوغة ، وربما نام على الحصير فأثرت فى جسده الشريف .

وكان ينام على شىء من أدم محشو ليفا ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : « مالى وللدنيا ؟ » .

وعن عائشة رضى الله عنها : «دخلت امرأة من الأنصار فرأت ذلك الأدم . وفى لفظ رأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذا ؟ فقلت : يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت علىّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت هذا ، فقال: رديه ، فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : والله يا عائشة لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » .

وعنها رضى الله عنها أنها كانت تفرش تلك العباءة مثنية طاقين ، فنى بعض الليالى ربعتها ، فنام صلى الله عليه وسلم عليها ثم قال: « يا عائشة مالفراشى الليلة ليس كما يكون ؟ قلت : يا رسول الله ربعتها ، قال : فأعيديه كما كان » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استجدّ ثوبا قال : اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » . وكان يقول لأصحابه كلهم رضى الله عنهم « إذا لبس أحدكم ثوبا فليقل الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى » قال : وكان أرجح الناس عقلا : والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وجزء فى سائر الناس .

وعن وهب بن منبه: قرأت فى أحد وسبعين كتابا أنه صلى الله عليه وسلم أرجح الناس وأفضلهم رأيا : وفى رواية : وجدت فى جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انتهائها من العقل فى جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة بين رمال الدنيا . ومما يتفرع على العقل اقتناء الفضائل ، واجتناب الرذائل ، وإصابة الرأى ، وجودة الفطنة

وحسن السياسة والتدبير ، وقد بلغ من ذلك صلى الله عليه وسلم الغاية التى لم يبلغها بشر سواه .

ومما يكاد يقضى منه العجب حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة ، كيف ساسهم ، واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه صلى الله عليه وسلم ، واجتمعوا عليه ، واختاروه على أنفسهم ، وقاتلوا دونه أهلهم وآباءهم وأبناءهم وهاجروا فى رضاه أوطانهم انتهى ، والله أعلم .

باب يذكر فيه مدة مرضه ، وما وقع فيه ، ووفاته صلى الله عليه وسلم التى هى مصيبة الأولين والآخرين من المسلمين

ذكر أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى البقيع من جوف الليل فاستغفر لهم . فعن أبى مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له فى جوف الليل « إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى ، قال : فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم ، قال : السلام عليكم ياأهل المقابر ، ليهن لكم ماأصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون مانجاكم الله منه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والأخيرة شر من الأولى ، قال : ثم أقبل على ، وقال : يا أبا مويهبة هل علمت أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى ، فاخترت لقاء ربى والجنة » أى وفى رواية « أن أبا مويهبة قال له : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الأرض والخلد فيها ، ثم الجنة . قال لا ، والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى أهله ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك ابتدأه الصداع » أى وفى رواية « ذهب بعد ذلك إلى قتلى أحد فصلى عليهم ، فرجع معصوب الرأس ، فكان ذلك بدء الوجع الذى مات فيه » وفى رواية : « رجع من جنازة بالبقيع » .

قالت عائشة رضى الله عنها : « لما رجع من البقيع وجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول وارأساه ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل أنا وارأساه قال : لو كان ذلك وأنا حى فأستغفر لك وأدعو لك وأكفنك وأدفنك » وفى لفظ « وما يضرك لومت قبلى فقمت عليك وكفنتك

وصليت عليك ودفنتك ، فقلت : واثكلاه . والله : إنك لتحب موتى ، فلو كان ذلك لظللت يومك معرسا ببعض أزواجك ، قالت : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أنا وارأساه ، لقد هممت أن أرسل إلى أبيك وأخيك فأقص أمرى وأعهد عهدى فلا يطمع فى الدنيا طامع » . وفى لفظ « ثم قلت يأبى الله ويدفع المؤمنون ، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون » وفى رواية : «أنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه : ادعى لى أباك أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا فإنى أخاف أن يتمنى متمنٍ أو يقول قائل أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » وفى رواية : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما ائتنى بكتف أو لوح حتى أكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه ، فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم ، قال : أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر » .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بين فيها فضل الصديق رضى الله عنه من بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ولعل خطبته صلى الله عليه وسلم هذه كانت عوضا عما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتبه فى الكتاب .

وفى رواية أنه اجتمع عنده صلى الله عليه وسلم رجال ، فقال صلى الله عليه وسلم : هلموا أكتب لكم كتابا لاتضلوا بعده ، فقال بعضهم : أى وهو سيدنا عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه الوجع وعندكم القرآن ، أى وإنما قال ذلك رضى الله عنه تخفيفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتفعت أصواتهم ، فأمرهم بالخروج من عنده .

وجاء أن العباس رضى الله عنه قال لعلى كرم الله وجهه : لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصح من مرضه هذا فإنى أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أى وفى رواية : خرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مرضه الذى مات فيه ، فقال الناس : يأبا الحسن كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئا ، فأخذ بيده عمه العباس رضى الله عنهما . وقال له : والله أنت بعد ثلاث عبد العصى ، وإنى لا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتا ، فإنى رأيت فى وجهه ما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسأله فيمن هذا الأمر ؟ فإن

كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال علىّ كرم الله وجهه : والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة رضى الله عنها : وصار صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه فاشتدّ به المرض عند ميمونة رضى الله عنها ، وقيل فى بيت زينب رضى الله عنها ، وقيل فى بيت ريحانة رضى الله عنها ، قالت عائشة رضى الله عنها : فدعا صلى الله عليه وسلم نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيتى فأذنّ له ، وفى رواية : صار يقول وهو فى بيت ميمونة أين أنا غدا أين أنا غدا ؟ يريد يوم عائشة رضى الله عنها . وفى البخارى يقول : أين أنا اليوم أين أنا غدا ؟ استبطاء ليوم عائشة رضى الله عنها ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فكان فى بيت عائشة .

وفى رواية عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى النساء فى مرضه فاجتمعن ، فقال : إنى لاأستطيع أن أدور بينكن ، فإن رأيتن أن تأذنّ لى فأكون فى بيت عائشة فعلتن : فأذنّ له قالت : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله معتمدا عليهما الفضل بن العباس ورجل آخر ، وفى رواية بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر ، وفى رواية بين أسامة ورجل آخر عاصبا رأسه الشريف تخط قدماه الأرض حتى دخل بيتى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : الرجل الذى لم تسمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أى فإنه كان بينها وبين علىّ مايقع بين الأحماء ، وقد صرحت بذلك لما أرادت أن تتوجه من البصرة بعد انقضاء وقعة الجمل وخرج الناس ومن جملتهم على كرم الله وجهه لتوديعها ، حيث قالت : والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا مايكون بين المرأة وأحمائها فقال علىّ : أيها الناس صدقت والله وبرت ، ما كان بيننا وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، وقد تقدم ذلك .

ثم غمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد به وجعه ، فقال : هريقوا علىّ من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم ، فأقعدناه صلى الله عليه وسلم فى مخضب إناء من حجر ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم حسبكم ، وفى لفظ : حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن : أى وصب المياه المذكورة له دخل فى دفع السم . أى فإنه صلى الله عليه وسلم صار يقول لعائشة : ياعائشة ماأزال أجد ألم الطعام الذى أسمته بخيبر ، فهذا أوان انقطاع أبهرى من ذلك السم . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه الشريف حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ماتكلم به أن صلى على أصحاب

بأحد ، أى دعا لهم فأكثر الصلاة عليهم واستغفر لهم . ثم قال : إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده ؟ فاختار ذلك العبد ماعند الله ، ففهمها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وعرف أن نفسه يريد . أى فبكى أبو بكر [ ] فقال : نفديك بأنفسنا وأبنائنا . فقال : «على رسلك ياأبا بكر . أى وفى رواية قال : ياأبا بكر لاتبك ، أيها الناس إن أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر» وهذا حديث صحيح جاء عن بضعة عشر صحابيا ، ولكثرة طرقه عدّ من المتواتر .

وفى أخرى : «إن أعظم الناس علىّ منا فى صحبته وذات يده أبو بكر» وفى أخرى : «فانى لاأعلم امرأ أفضل عندى يدا فى الصحابة من أبى بكر».

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن نبى يموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة» أى وفى الحديث «حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم تعرض علىّ أعمالكم ، فإن رأيت شرا استغفرت لكم» أى وهذا بيان للثانى لاستغناء الأول عن البيان ، ومعلوم أن خيرا وشرا هنا ليسا أفعل تفضيل الذى يوصل بمن حتى يلزم التناقض ، بل المراد أن ذلك فضيلة ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : انظروا هذه الأبواب اللاصقة فى المسجد ، أى وفى لفظ : هذه الأبواب الشوارع فى المسجد فسدوها إلا باب أبى بكر . أى وفى لفظ : إلا ماكان من باب أبى بكر ، فإنى وجدت عليه نورا . وفى لفظ «سدوا عنى كل خوخة فى هذا المسجد إلا خوخة أبى بكر» فإن المراد بالأبواب الخوخ ؟ «فإنى لاأعلم أن أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه» أى وفى لفظ : «أبو بكر صاحبى ومؤنسى فى الغار ، سدوا كل خوخة فى المسجد غير خوخة أبى بكر» وفى لفظ «لاتؤذونى فى صاحبى ولولا أن الله سماه صاحبا لاتخذته خليلا ، ألا فسدوا كل خوخة إلا خوخة ابن أبى قحافة» أى وجاء فى الحديث «لكل نبى خليل من أمته ، وإن خليلى أبو بكر ، وإن الله اتخذ صاحبكم خليلا» وفى رواية «وإن خليلى عثمان بن عفان» وجاء «لكل نبى خليل» وخليلى سعد ابن معاذ» :

وفى أسباب النزول للثعالبى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، وإنه لم يكن نبى إلا وله خليل . ألا وإن خليلى أبو بكر» وفى رواية الجامع الصغير «إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، وإن خليلى أبو بكر» وفى رواية الجامع الصغير «خليلى من هذه الأمة

أويس القرنى » ولعل هذا كان قبل أن يقول صلى الله عليه وسلم فى مرض موته قبل موته بخمسة أيام « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » ولو كنت متخذا خليلا من أمتى لا تخذت أبا بكر خليلا ، لكن خلة الإسلام أفضل . وفى رواية « ولكن أخوة الإسلام ومودته » وفى رواية « لكن أخى وصاحبى » .

وجمع بأن الأول : أى إثبات الخلة لغير الله محمول على نوع منها ونفيها عن غير الله محمول على كمالها .

ثم لا يخفى أن قوله صلى الله عليه وسلم « ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لا تخذت أبا بكر خليلا » يدل على أن مقام الخلة أرقى من مقام المحبة ، وأن المحبة والخلة ليسا سواء خلافا لمن زعم ذلك .

أى ولا مانع أن يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل ، فلا حاجة إلى ما تكلفه بعضهم مما يدل على أن مقام المحبة أفضل من مقام الخلة : أى الذى يدل عليه ما جاء «ألا قائل قولا غير هجر؟ إبراهيم خليل الله ، وموسى صفى الله ، وأنا حبيب الله ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة » وعند ذلك : أى إغلاق الأبواب ، قال الناس : أغلق أبوابنا وترك باب خليله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قد بلغنى الذى قلتم فى باب أبى بكر ، وإنى أرى على باب أبى بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة ، لقد قلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدقت ، وأمسكتم الأموال وجاد لى بماله ، وخذلتمونى وواسانى . أى ولعل قولهم وترك باب خليله لا ينافى ما تقدم من عدم اتخاذه خليلا .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بسد الأبواب إلا باب أبى بكر ، قال عمر : يا رسول الله دعنى أفتح كوة أنظر إليك حيث تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، وقال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ما بالك فتحت أبواب رجال فى المسجد يعنى أبا بكر ، وما بالك سددت أبواب رجال فى المسجد ؟ فقال : يا عباس ما فتحت عن أمرى ولا سددت عن أمرى . وفى لفظ : ما أنا سددتها ، ولكن الله سدها .

وجاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسد الأبواب إلا باب على . قال الترمذى حديث غريب . وقال ابن الجوزى : هو موضوع

وضعه الرافضة ليقابلوا به الحديث الصحيح فى باب أبى بكر . وجمع بعضهم بأن قصة على متقدمة على هذا الوقت ، وأن الناس كان لكل بيت بابان باب يفتح للمسجد وباب يفتح خارجه إلا بيت على كرم الله وجهه ، فإنه لم يكن له إلا باب من المسجد ، وليس له باب من خارج ، فأمر صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب : أى التى تفتح للمسجد . أى بتضييقها وصيرورتها خوخا إلا باب على كرم الله وجهه ، فإن عليا لم يكن له إلا باب واحد ليس له طريق غيره كما تقدم ، فلم يأمر صلى الله عليه وسلم بجعله خوخة ، ثم بعد ذلك أمر صلى الله عليه وسلم بسد الخوخ إلا خوخة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وقول بعضهم حتى خوخة على كرم الله وجهه ، فيه نظر لما علمت أن عليا كرم الله وجهه لم يكن له إلا باب واحد ؛ فالباب فى قصة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ليس المراد به حقيقته بل الخوخة . وفى قصة على كرم الله وجهه المراد به حقيقته .

أقول : ومما يدل على تقدم قصة على كرم الله وجهه ما روى عنه قال « أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر أن سد بابك ، قال : سمعا وطاعة فسد بابه ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ففعلا ، وأمرت الناس ففعلوا ، وامتنع حمزة ، فقلت : يا رسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابه ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تحول بابك فحوله ، وعند ذلك قالوا : يارسول الله سددت أبوابنا كلها إلا باب علىّ ، فقال : ما أنا سددت أبوابكم ولكن الله سدها » وفى رواية « ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علىّ ولكن الله فتح باب علىّ وسد أبوابكم » .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد ، فإنى أمرت بسد هذه الأبواب غير باب على ، فقال فيكم قائلكم ، وإنى والله ما سددت شيئا ولا فتحته ، ولكنى أمرت بشىء فاتبعته ، إنما أنا عبد مأمور ما أمرت به فعلت (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) ومعلوم أن حمزة رضى الله تعالى عنه قتل يوم أحد ، فقصة على كرم الله وجهه متقدمة جدا على قصة أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وعلى كون المراد بسد الأبواب تضييقها وجعلها خوخا يشكل ماجاء « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على ، فقال العباس : يا رسول الله قدر ما أدخل أنا وحدى وأخرج ، قال ما أمرت بشىء من ذلك ، فسدها كلها غير باب

علی » فعلى تقدير صحة ذلك يحتاج إلى الجواب عنه ، وعلى هذا الجميع يلزم أن يكون باب على كرم الله وجهه استمر مفتوحا فى المسجد مع خوخة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، لما علم أنه لم يكن لعلى باب آخر من غير المسجد .

وحينئذ قد يتوقف فى قول بعضهم فى سد الخوخ إلا خوخة أبى بكر إشارة إلى استخلاف أبى بكر لأنه يحتاج إلى المسجد كثيرا دون غيره ، لـكن فى تاريخ ابن كثير رحمه الله : وهذا : أى سد جميع الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب علىّ لا ينافى ماثبت فى صحيح البخارى من أمره صلى الله عليه وسلم فى مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبى بكر ، لأن فى حال حياته صلى الله عليه وسلم كانت فاطمة رضى الله تعالى عنها تحتاج إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها صلى الله عليه وسلم فأبقى صلى الله عليه وسلم باب علىّ كرم الله وجهه لذلك رفقا بها ، وأما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فزالت هذه العلة فاحتيج إلى فتح باب الصديق رضى الله تعالى عنه لأجل خروجه إلى المسجد ليصلى بالمسلمين ، لأنه الخليفة بعده عليه الصلاة والسلام هذا كلامه . وهو يفيد أن باب على كرم الله وجهه سد مع سد الخوخ ولم يبق إلا خوخة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وجعل لبيت على كرم الله وجهه باب من الخارج .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى « يا على لا يحل لأحد جنب مكث فى المسجد غيرى وغيرك » .

وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها « أنها قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه حتى انتهى إلى صرحة المسجد ، فنادى بأعلى صوته إنه لا يحلّ المسجد لجنب ولا لحائض إلا لمحمدوأزواجه وعلىّ وفاطمة بنت محمد ، ألا هل بينت لـكم أن لاتضلوا» قال الحافظ ابن كثير : وهذا أى الثانى إسناده غريب وفيه ضعف هذا كلامه ، والمراد المـكث فى المسجد لا المرور به والاستطراق منه فإن ذلك لـكل أحد .

ثم رأيت الحافظ السيوطى رحمه الله أشار إلى ذلك ، وذكر أن مثل على كرم الله وجهه فيماذكر ولداه الحسن والحسين حيث قال : وكذا على بن أبى طالب والحسن والحسين اختصوا بجواز المـكث فى المسجد مع الجنابة والله أعلم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم «يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا إنهم كانوا عيبتى التى أويت إليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته هذه « أيها الناس من أحس من نفسه شيئا فليقم أدعُ الله له ، فقام إليه رجل ، فقال : يارسول الله إنى لمنافق ، وإنى لكذوب ، وإنى لنئوم ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ويحك أيها الرجل ، لقدسترك الله لو سترت على نفسك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا ، وأذهب عنه النوم إذا شاء » .

قال ابن كثير : فى إسناده ومتنه غرابة شديدة . وأمر صلى الله عليه وسلم فى مرضه أبا بكر أن يصلى بالناس ، قال : وكانت تلك الصلاة صلاة العشاء ، وقدأذن بلال ، وقال ضعوا لى ماء فى المخضب : أى وهو شبه الإجانة من نحاس ، فاغتسل فيه ، أى وهذا مع ماسبق يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان له مخضب من حجر ومخضب من نحاس .

ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ فقلنا : لا هم ينتظرونك ، أى وعند ذلك قال ضعوا إلى ماء فى المخضب ، فاغتسل ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال أصلى الناس ؟ قلنا : لاهم ينتظرونك يارسول الله ، قال : ضعوالى ماء فى المخضب فاغتسل ، ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ قلنا : لاهم ينتظرونك يا رسول الله ، والناس ملمومة فى المسجد ينتظرون النبى صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه بأن يصلى بالناس ، فأتاه الرسول ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه لعمر : ياعمر صل بالناس ، فقال له عمر رضى الله تعالى : عنه أنت أحق بذلك .

وفى رواية « أن بلالا رضى الله تعالى عنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فقال : الصلاة يا رسول الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : لا أستطيع الصلاة خارجا ، ومر عمر بن الخطاب فليصل ، بالناس ، فخرج بلال رضى الله تعالى عنه وهو يبكى ، فقال له المسلمون ما وراءك يابلال ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع الصلاة خارجا ، فبكوا بكاء شديدا ، وقال لعمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : ماكنت لأتقدم بين يدى أبى بكر أبدا ، فادخل على نبى الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن أبا بكر على الباب ، فدخل عليه صلى الله عليه وسلم بلال رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، فقال : نعم مارأى ، مر أبا بكر فليصل بالناس ، فخرج إلى أبى بكر فأمره أن يصلى فصلى بالناس .

وفى رواية فقال « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها فقلت : إن أبا بكر رجل أسيف : أى رقيق القلب إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فعاودته ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء . فمر عمر فايصل بالناس ففعلت حفصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحفصة مه إنكن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام » . وفى لفظ : « إنكن لأنتن صواحب يوسف عليه الصلاة والسلام » فقالت حفصة رضى الله تعالى عنها لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيرا ومروا أبابكر فليصل بالناس » : أى مثل صاحبة يوسف عليه الصلاة والسلام وهى زليخا أظهرت خلاف ما تبطن ، وظهرت للنساء اللاتى جمعتهن أنها تريد إكرامهن بالضيافة ، وإنما قصدها أن ينظرن لحسن يوسف عليه الصلاة والسلام فيعذرنها فى حبه والنبى صلى الله عليه وسلم فهم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها تظهر كراهة ذلك مع محبتها له باطنا هكذا يقتضيه ظاهر اللفظ .

والمنقول عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها إنما قصدت بذلك خوف أن يتشاءم الناس أبا بكر فيكرهونه حيث قام مقامه صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عنها رضى الله تعالى عنها أنها قالت : ماحملنى على كثرة مراجعتى له صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه .

وفى رواية : « إن الأنصار رضى الله تعالى عنهم لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد وجعا طافوا بالمسجد وأشفقوا من موته صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه الفضل رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه على كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه العباس رضى الله تعالى عنه فأخبره بذلك ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم متوكئا على علىّ والفضل والعباس أمامه ، والنبى صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلدنبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول (والعصر إن الإنسان لفى خسر) السورة

وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) وأوصيكم بالأنصار خيرا ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على أنفسكم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقونى بى ، ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى : أيها الناس إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر الناس برتهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم » وفى الحديث « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم » .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى خيرية الموت بأنه فرط ، فخير صفة لا أفعل تفضيل حتى يشكل بأنه يقتضى أن حياتى خير لكم من مماتى ومماتى خير لكم من حياتى كما مر ، ثم لازال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم مؤتما به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الثانية : أى أتى بها منفردا .

وقال صلى الله عليه وسلم « لم يقبض نبى حتى يؤمه رجل من قومه » أى وقد قال ذلك صلى الله عليه وسلم لما صلى خلف عبد الرحمن بن عوف كما تقدم فى تبوك .

قال : وفى رواية عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد خفة

أى وأبو بكر فى الصلاة . فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر ، فلما رآه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ذهب ليتأخر فأومأ إليه أن لا يتأخر ، وأمرهما فأجلساه إلى جنب أبى بكر عن يساره . وفى رواية عن يمينه ، وأنه صلى الله عليه وسلم دفع فى ظهر أبى بكر وقال : صل بالناس أى ومنعه من التأخر ، فجعل أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى قائما كبقية الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا انتهى .

وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم صلى مقتديا بأبى بكر رضى الله تعالى عنه . وحينئذ لا يحسن التفريع على ذلك بما جاء فى لفظ : فكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى وهو قائم بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ : يأتم بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم

والناس يصلون بصلاة أبي بكر . وفى لفظ : يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يقتدون بصلاة أبي بكر ، وهذا يدل على أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم صلوا خلف أبي بكر وأبو بكر يصلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وصار يسمع الصحابة التكبير ، وقد بوب البخارى على ذلك «باب من أسمع الناس تكبير الإمام» ، وقال بعد ذلك « باب الرجل يأتم بالإمام ويأتم الناس بالمأموم » فإن منعه صلى الله عليه أبا بكر رضى الله تعالى عنه من التأخر مع صلاته على يسار أبي بكر أو على يمينه يدل على أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لم يقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم بل استمر إماما ، إذ لا يجوز عندنا أن يقتدى أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم مع تقدم أبي بكر عليه صلى الله عليه وسلم فى الموقف . وحينئذ يخالف ذلك قول فقهائنا إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم اقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اقتدائهم بأبي بكر ، وجعلوه دليلا على جواز الصلاة بإمامين على التعاقب إذ لا يحسن ذلك إلا أن يكون أبو بكر رضى الله تعالى عنه تأخر ونوى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم . إلا أن يقال يجوز أن تكون صلاته صلى الله عليه وسلم خلف أبي بكر تكررت ، ففى مرة منعه صلى الله عليه وسلم من التأخر واقتدى به ، وفى مرة تأخر أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن موقفه ، واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، واقتدى الناس بالنبي بعد اقتدائهم بأبي بكر ، وصار أبو بكر يسمع الناس التكبير ، ولا ينافى ذلك قول البخارى الرجل يأتم بالإمام ويأتم الناس بالمأموم ، لجواز أن يكون المراد يقتدون ويتبعون تكبير المأموم ، ثم رأيت الترمذى رحمه الله تعالى صرح بتعدد صلاته صلى الله عليه وسلم خلف أبي بكر رضى الله تعالى عنه حيث قال ثبت أنه صلى الله عليه وسلم صلى خلف أبي بكر مقتديا به فى مرضه الذى مات فيه ثلاث مرات ، ولا ينكر هذا إلا جاهل لا علم له بالرواية هذا كلامه .

وبه يرد قول البيهقى رحمه الله : والذى دلت عليه الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى خلفه فى تلك الأيام التى كان يصلى بالناس فيها مرة ، وصلى أبو بكر رضى الله تعالى عنه خلفه صلى الله عليه وسلم مرة ، وقال صلى الله عليه وسلم فى مرضه ذلك يوما لعبد الله ابن زمعة بن الأسود : مر الناس فليصلوا : أى صلاة الصبح . وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه غائبا ، فقدم عبد الله عمر رضى الله تعالى عنه يصلى بالناس ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته أخرج رأسه الشريف حتى أطلعه للناس من حجرته ، ثم قال

صلى الله عليه وسلم : لا ، لا ، لا ، ثلاث مرات ، ليصل بهم ابن أبى قحافة ، فانتقضت الصفوف ، وانصرف عمر رضى الله تعالى عنه : أى من الصلاة ، فما برح القوم حتى طلع ابن أبى قحافة فتقدم وصلى بالناس الصبح . وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم لما سمع صوت عمر رضى الله تعالى عنه قال : أليس هذا صوت عمر ؟ فقالوا : بلى يارسول الله ، فقال : يأبى الله ذلك والمؤمنون . وفى لفظ : يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر ، قال ذلك ثلاثا . قال فى السيرة الهشامية : فبعث صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر رضى الله تعالى عنه تلك الصلاة فصلى بالناس .

وقد يقال : المراد بصلى عمر تلك الصلاة نوى تلك الصلاة ودخل فيها ، فلا يخالف ما تقدم من انتقاض الصفوف ، وانصراف عمر رضى الله تعالى عنه من الصلاة . وقال عمر رضى الله تعالى عنه لعبد الله بن زمعة : ويحك ماذا صنعت ياابن زمعة؟ والله ماظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بهذا ،فقال عبد الله بن زمعة رضى الله تعالى عنه : ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولكن حيث لم أر أبا بكر ورأيتك أحق من حضر بالصلاة ، وفى آخر يوم أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الستارة والناس خلف أبى بكر ، فأراد الناس أن ينحرفوا فأشار إليهم صلى الله عليه وسلم أن امكثوا ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من هيئة المسلمين فى صلاتهم سرورا منه صلى الله عليه وسلم بذلك ،وذلك يوم الاثنين يوم موته صلى الله عليه وسلم ثم ألقى الستارة .

وفى السيرة الهشامية : لما كان يوم الاثنين قبض الله تبارك وتعالى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج إلى الناس وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر وفتح الباب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على باب عائشة رضى الله تعالى عنها ،فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فرحا به ، فأشار إليهم : أن اثبتوا على صلاتكم ، ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفاق من وجعه ، فرجع أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى أهله بالسنح ، وفيها فى رواية أنه لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه إلى صلاة الصبح أبو بكر يصلى بالناس ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح الناس ، فعرف أبو بكر رضى الله تعالى عنه أن الناس لم يصيبوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظهره ، وقال : صل بالناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه على يمين أبى بكر رضى الله تعالى عنه فصلى قاعدا ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس رافعا صوته حتى خرج من باب المسجد يقول : «أيها الناس سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، إنى والله ما تمسكون علىّ بشىء ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن».

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه ، قال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه يارسول الله قد أراك أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟ قال نعم ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى أهله بالسنح ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من ذلك اليوم ، فليتأمل الجمع بين هذه الروايات . وقد أمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله تعالى عنه أن يصلى بالناس قبل مرضه ، فإنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى قباء بعد أن صلى الظهر وقد وقع بين طائفتين من بنى عمرو بن عوف تشاجر حتى تراموا بالحجارة ليصلح بينهم ، فقال صلى الله عليه وسلم لبلال رضى الله تعالى عنه : إن حضرت صلاة العصر ولم آتك فمر أبا بكر فليصلّ بالناس ، فلما حضرت صلاة العصر أذن بلال ، ثم أقام ثم أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه فتقدم وصلى بالناس ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يشق الناس حتى قام خلف أبى بكر فصفح الناس : أى صفقوا ، فلما كثر ذلك التفت أبو بكر رضى الله تعالى عنه ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه فأراد التأخر ، فأومأ إليه صلى الله عليه وسلم أن يكون على حاله ، وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ؟ قال : يا أبا بكر ما يمنعك إذ أومأت إليك أن لا تكون ثبتّ ، فقال أبو بكر يارسول الله لم يكن لابن أبى قحافة أن يؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال للناس : إذا نابكم فى صلاتكم شىء فلتسبح الرجال ولتصفق النساء .

وهذا استدل به القاضى عياض رحمه الله على أنه لا يجوز لأحد أن يؤمه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يصلح للتقدم بين يديه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ولا فى غيرها لا لعذر ولا لغيره .

وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك ، ولا يكون أحد شافعا له صلى الله عليه وسلم . وقد

قال صلى الله عليه وسلم « أئمتكم شفعاؤكم » وحينئذ يحتاج للجواب عن صلاته صلى الله عليه وسلم خلف عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه ركعة ، وسيأتى الجواب عن ذلك ، ولعل هذه المرة كانت فى اليوم الذى توفى فيه صلى الله عليه وسلم .

فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم صلى بالناس الغداة ، ورأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم قد برئ ففرحوا فرحا شديدا ، ثم جلس صلى الله عليه وسلم فى مصلاه يحدثهم حتى أضحى ، ثم قام صلى الله عليه وسلم إلى بيته فلم يتفرق الناس من مجلسهم حتى سمعوا صياح الناس ، وهب يقلب الماء ظنا أنه غشى عليه وابتدر المسلمون الباب فسبقهم العباس رضى الله تعالى عنه ، فدخل وأغلق الباب دونهم . فلم يلبث أن خرج إليهم فنعى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا عباس ما أدركت منه صلى الله عليه وسلم؟ فقال : أدركته وهو يقول : جلال ربى الرفيع ، قد بلغت ، ثم قضى ، فكان هذا آخر شئ تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيته فى الإمتاع نقل هذا القول الذى قدمته عن البيهقى .

وذكر فى رواية أخرى : لم يزل أبو بكر رضى الله تعالى عنه يصلى بالناس حتى كانت ليلة الاثنين ، فأقلع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوعك وأصبح مفيقا ، فعمد إلى صلاة الصبح يتوكأ على الفضل وعلى غلام له يدعى ثوبان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقد شهد الناس مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه ركعة من صلاة الصبح ، وقام ليأتى بالركعة الأخرى ، فجاء إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ينفرجون له حتى قام إلى جنب أبى بكر رضى الله تعالى عنه فاستأخر أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه فقدمه فى مصلاه وجلس صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ أبو بكر رضى الله تعالى عنه من صلاته أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركعة الأخيرة . ثم انصرف إلى جذع من جذوع المسجد فجلس إلى ذلك الجذع ، واجتمع إليه المسلمون يسلمون عليه ويدعون له بالعافية ثم قام صلى الله عليه وسلم فدخل بيت عائشة ، ودخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه على عائشة رضى الله تعالى عنها ، وقال : الحمد لله قد أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم معافى ، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد شفاه ، ثم ركب رضى الله تعالى عنه فلحق بأهله بالسنح ، وانقلبت كل امرأة من نسائه صلى الله عليه وسلم إلى بيتها ، فلما دخل صلى الله

عليه وسلم اشتد عليه الوعك ، فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، وأخذ فى الموت فصار يغمى عليه ثم يفيق ويشخص بصره إلى السماء ، فيقول فى الرفيق الأعلى الإله ، وكان عنده صلى الله عليه وسلم وقد اشتد به الأمر قدح فيه ماء . وفى لفظ بدل قدح علباء . وفى لفظ ركوة فيها ماء ، فلما اشتد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر صار يدخل يده الشريفة فى القدح ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول : اللهم أعنى على سكرات الموت : أى غمراته .

وعن فاطمة رضى الله تعالى عنها « صار صلى الله عليه وسلم لما يغشاه الكرب وتقول واكرب أبتاه يقول لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس على أبيك كرب بعد اليوم »

أقول : وجاء « أنه صلى الله عليه وسلم قال : واكرباه ، وقال : لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات ، اللهم أعنى على سكرة الموت » وفى رواية « اللهم أعنى على كرب الموت » والحكمة فى ذلك ، أى فيما شوهد من شدة مالقى من الكرب عند الموت تسلية أمته صلى الله عليه وسلم إذا وقع لأحد منهم شىء من ذلك عند الموت . ومن ثم قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : لا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية : لاأزال أغبط المؤمن بشدة الموت بعد شدته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وليحصل لمن شاهده من أهله وغيرهم من المسلمين الثواب لما يلحقهم من المشقة عليه كما قيل بمثل ذلك فى حكمة ما يشاهد من حال الأطفال عند الموت من الكرب الشديد .

ثم رأيت الأستاذ الأعظم الشيخ محمد البكرى رحمه الله ونفعنا به سئل عن ذلك . فأجاب بأجوبة منها هذا الذى ذكرته . ومنها أن مزاجه الشريف كان أعدل الأمزجة فإحساسه صلى الله عليه وسلم بالألم أكثر من غيره .

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : إنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم ، ولأن تشبث الحياة الإنسانية ببدنه الشريف أقوى من تشبثها ببدن غيره لأنه أصل الموجودات كلها أى كما تقدم . أى وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : مارأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم فى مرضه « ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء . كان النبى من أنبياء الله يسلط عليه القمل حتى يقتله وكان النبى صلى الله عليه وسلم ليعرى حتى مايجد ثوبا يوارى به عورته إلا العباءة يدرعها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء» .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما يبرح البلاء على العبد حتى يدعه يمشى على الأرض ليس عليه خطيئة » وقال « ليس من عبد مسلم يصيبه أذى فما سواه إلا حط عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها » وفى لفظ « لايصيب المؤمن نكبة من شوكة فما فوقها إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة » وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل يشتكى ويتقلب على فراشه . وكان يعوّذ بهذه الكلمات إذا اشتكى أحد من الناس منه «أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافى لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لايغادر سقما فلما ثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى مات فيه أخذت بيده اليمنى وجعلت أمسحه بها فأعوذه بتلك الكلمات ، فانتزع صلى الله عليه وسلم يده الشريفة من يدى وقال : اللهم اغفر لى ، واجعلنى فى الرفيق الأعلى مرتين » .

وفى رواية «لم يشتك صلى الله عليه وسلم شكوى إلا سأل الله العافية» حتى كان مرضه الذى مات فيه فإنه لم يكن يدعو بالشفاء ، وطفق صلى الله عليه وسلم يقول : يانفس مالك تلوذين كل ملاذ .

أى وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : دخل علىّ عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما ومعه سواك يستن به : أى من عسيب النخل ، وكان أحب السواك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضريع الأراك : وهو قضيب يلتوى من الإراكة حتى يبلغ التراب فيبقى فى ظلها فهو ألين من فرعها فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرفت أنه يريده لأنه كان يحب السواك ، فقلت ، آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته فقضمته ثم مضغته . وفى رواية : فتناولته وناولته إياه فاشتد عليه ، فقلت ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته ، فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستن به وهو مستند إلى صدرى . وكانت رضى الله تعالى عنها تقول : إن من نعم الله علىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وهو فى بيتى وبين سحرى ونحرى : أى والسحر : الرئة : وفى رواية : بين حاقنتى وذاقنتى ، وإن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته . وفى رواية : فجمع الله بين ريقى وريقه فى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة :

وجاء أنهم لدوه صلى الله عليه وسلم فى هذا المرض : أى سقوه لدودا من أحد جانبى فمه ، وجعل يشير إليهم وهو صلى الله عليه وسلم مغمى عليه أن لايفعلوا به وهم يظنون أن الحامل له على ذلك كراهة المريض للدواء ، فلما أفاق قال ، ألم أنهكم أن تلدونى ،

لايبقى أحد فى البيت إلا لد وأنا أنظره إلا العباس فإنه لم يشهدكم ، وهذا رد عليهم ؛ فإنه قد جاء أنهم قالوا له : عمك العباس أمر بذلك ولم يكن له فى ذلك رأى ، إنما قالوا ذلك تعللا وخوفا منه صلى الله عليه وسلم ، قالوا وتخوفنا أن يكون ذات الجنب ، فإن الخاصرة أى وهو عرق فى الكلية إذا تحرك وجع صاحبه ، كانت تأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذته ذلك اليوم فأغمى عليه حتى ظنوا أنه قد هلك فلددوه : أى لددته أسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها ، فلما أفاق وأراد أن يلدد من فى البيت لدد جميع من فى البيت حتى ميمونة رضى الله تعالى عنها وكانت صائمة ، هذا .

وفى رواية أنه لما اشتد عليه صلى الله عليه وسلم المرض دخل عليه عمه العباس رضى الله عنه وقد أغمى عليه ، فقال لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لو لددتنه . قلن إنا لانجترئ على ذلك ، فأخذ العباس يلدده ، فأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: من لدنى ، فقد أقسمت ليلددن إلا أن يكون العباس ، فإنكم لددتمونى وأنا صائم ، قلن فإن العباس هو قد لدك ، وقالت له أسماء بنت عميس رضى الله عنها ، إنما فعلنا ذلك ظننا أن بك يارسول الله ذات الجنب ، فقال لها : إن ذلك لداء ماكان الله ليعذبنى به . وفى رواية « أنا أكرم على الله من أن يعذبنى بها » وفى أخرى « إنها من الشيطان ، وما كان الله ليسلطها علىّ » :

قال بعضهم : وهذا يدل على أنها من سىء الأسقام التى استعاذ صلى الله عليه وسلم منها بقوله « اللهم إنى أعوذ بك من الجنون والجذام وسىء الأسقام » .

وفى السيرة الهشامية : لما أغمى عليه صلى الله عليه وسلم اجتمع عليه نساء من نسائه منهم أم سلمة وميمونة ، ومن نساء المؤمنين منهمّ أسماء بنت عميس ، وعنده صلى الله عليه وسلم العباس عمه ، واجتمعوا على أن يلددوه فلددوه ، فلما أفاق صلى الله عليه وسلم قال : من صنع هذا بى ؟ قالوا يا رسول الله عمك ، فقال عمه العباس رضى الله تعالى عنه : حسبنا يارسول الله أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : إن ذلك داء ما كان الله ليعذبنى به ، لايبقى فى البيت أحد إلا لد إلا عمى ، فلدوا حتى ميمونة ، وكانت رضى الله تعالى عنها صائمة عقوبة لهم بما صنعوا .

وأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه هذا أربعين نفسا ، وكانت عنده صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة رضى الله عنها أن تتصدق بها بعد أن

وضعها صلى الله عليه وسلم فى كفه وقال : ماظن محمد بربه ، أن لو لقى الله وهذه عنده فتصدقت بها .

وفى رواية : أمرها بإرسالها إلى على كرم الله وجهه ليتصدق بها ، فبعثت بها إليه فتصدق بها بعد أن وضعها فى كفه ، وقد كان العباس رضى الله عنه قبل ذلك بيسير رأى أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء، فقصها على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له هو ابن أخيك .

وجاءه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام صحبة ملك الموت وقال له : ياأحمد إن الله قد اشتاق إليك ، قال : فاقبض ياملك الموت كما أمرت . فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى لفظ : أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يامحمد إن الله أرسلنى إليك تكريما لك وتشريفا ، يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول لك : كيف تجدك؟ قال : أجدنى ياجبريل مغموما وأجدنى ياجبريل مكروبا ، ثم جاء اليوم الثانى والثالث ، فقال له ذلك ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك ؛ وجاء معه فى اليوم الثالث ملك الموت ، فقال له جبريل عليه السلام : هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ماأستأذن على أحد قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك ، أتاذن له فأذن له فدخل فسلم عليه ، ثم قال : يامحمد إن الله أرسلنى إليك ، فإن أمرتنى أن أقبض روحك قبضت ، وإن أمرتنى أن أترك تركت ، قال : أو تفعل ؟ قال : نعم وبذلك أمرت ، فنظر النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام ، فقال له : يا محمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك ، أى وفى رواية : أتاه جبريل عليه السلام، فقال : يامحمد إن الله يقرئك السلام ورحمة الله ، ويقول لك : إن شئت شفيتك وكفيتك ، وإن شئت توفيتك وغفرت لك ، قال : ذلك إلى ربى يصنع بى مايشاء .

وفى رواية : الخلد فى الدنيا ثم فى الجنة أحب إليك أم لقاء ربك ، ثم الجنة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقاء ربى ثم الجنة .

أى وجاء أن جبريل عليه السلام قال : هذا آخر وطئ بالأرض ، وفى لفظ آخر عهدى بالأرض بعدك ، ولن أهبط إلى الأرض لأحد بعدك . قال الحافظ السيوطى رحمه الله : هو حديث ضعيف جدا ، ولو صح لم يكن فيه معارضة ، أى لما ورد أنه ينزل ليلة القدر مع الملائكة يصلون على كل قائم وقاعد يذكر الله لأنه يحمل على أنه آخر نزوله بالوحى .

وفيه أنه ذكر أن حديث : يوحى الله إلى عيسى عليه السلام أى بعد قتله الدجال صريح

فى أنه يوحى إليه بعد النزول . والظاهر أن الجائى إليه عليه السلام بالوحى جبريل عليه السلام ، بل هو الذى يقطع به ولا يتردد فيه لأن ذلك وظيفته لأنه السفير بين الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لملك الموت : امض لما أمرت به فقبض روحه الشريفة ، وعند اشتداد الأمر به صلى الله عليه وسلم أرسلت عائشة رضى الله عنها خلف أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، أى لأنه كما تقدم لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مفيقا وقال له قد رد الله بك علينا عقولنا ، وقد أصبحت بنعمة من الله وفضل فقال له أبو بكر : يارسول الله اليوم يوم بنت خارجة يعنى زوجته وكانت بالسنح ، قال له : ائت أهلك ، فقام أبو بكر وذهب وأرسلت حفصة خلف عمر وأرسلت فاطمة خلف على كرم الله وجهه فلم يجئ أحد منهم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صدر عائشة ، وذلك يوم الاثنين حين زاغت الشمس لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول هكذا ذكر بعضهم .

وقال السهيلى : لايصح أن يكون وفاته يوم الاثنين إلا فى ثالث عشرة أو رابع عشرة لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة كانت يوم الجمعة وهو تاسع ذى الحجة وكان المحرم أما بالجمعة وإما بالسبت ، فإن كان السبت فيكون أول صفر إما الأحد أو الاثنين فعلى هذا لايكون الثانى عشر من شهر ربيع الأول بوجه . وقال الكلبى إنه توفى فى الثانى من شهر ربيع الأول . قال الطبرى : وهذا القول وإن كان خلاف الجمهور فلا يبعد إن كانت الثلاثة أشهر التى قبلها كلها تسعة وعشرين يوما ، وفيما قاله نظر لمتابعة أنس بن مالك فيما حكاه البيهقى والواقدى .

وقال الخوارزمى : توفى أول شهر ربيع الأول ، وفى رواية إن سالم بن عبيد ذهب وراء الصديق إلى السنح فأعلمه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف ماقبله لأنه يجوز أن يكون ذلك ذهب إلى الصديق بعد الرسول الذى أرسلته له عائشة رضى الله عنها قبل موته صلى الله عليه وسلم . وآخر ماتكلم به عليه الصلاة والسلام : «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يترغرغ بها فى صدره ولا يفيض بها لسانه . وآخر ماعهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايترك بجزيرة العرب دينان» وكانت مدة شكواه صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل اثنتى عشرة ليلة ، وقيل عشرا ، وقيل ثمانية .

وقالت فاطمة رضى الله عنها لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : واأبتاه أجاب داع دعاه ، ياأبتاه الفردوس مأواه ياأبتاه إلى جبريل ننعاه .

قال ابن كثير رحمه الله : وهذا لايعد نياحة بل هو من ذكر فضائل الحق عليه ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ قال : وإنما قلنا ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن النياحة .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنها قالت من سفاهة رأيى وحداثة سنى أنى أخذت وسادة فوسدت بها رأسه الشريف من حجرى ، ثم قمت مع النساء أبكى وأنتدم ، والانتدام : ضرب الخد باليد عند المصيبة .

وسمعوا قائلا ولايرون شخصه ، يقال إنه الخضر عليه السلام أى قال على كرم الله وجهه أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام ، وفى إسناده متروك يقول : السلام عليكم ياأهل البيت ورحمة الله وبركاته (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا عن كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا واياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال ابن كثير رحمه الله : هذا الحديث مرسل وفى إسناده ضعف . وسجى صلى الله عليه وسلم بثوب حبرة أى بالإضافة : بردمن برود اليمن ، ولم أقف على أن ثيابه صلى الله عليه وسلم التى كانت عليه قبل الموت نزعت عنه ثم سجى ، إلا أن كلام فقهائنا يشعر بذلك ، حيث جعلوا ذلك دليلا لنزع ثياب الميت وستره بثوب .

وعند ذلك دهش الناس وطاشت عقولهم واختلفت أحوالهم ، فأما عمر رضى الله تعالى عنه فخبل ، وأما عثمان رضى الله تعالى عنه فأخرس ، وأما على كرم الله وجهه فأقعد .

وجاء أبو بكر وعيناه تهملان ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا ، وتكلم كلاما بليغا سكن به نفوس المسلمين وثبت جأشهم .

أى فإن عمر رضى الله تعالى عنه صار فى ناحية المسجد يقول : والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيدى ناس من المنافقين كثير وأرجلهم ، وصار رضى الله عنه يتوعد من قال إنه مات ، بالقتل أو القطع .

ونقل عنه رضى الله عنه أنه قال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ، ما مات ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه

عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ، ولا زال رضى الله عنه يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه .

فقام أبو بكر رضى الله عنه وصعد المنبر وقال كلاما بليغا . ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) فقال عمر رضى الله عنه : هذه الآية فى القرآن . وفى لفظ : فكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله تعالى قبل الآن لما نزل . ثم قال (إنا لله وإنا إليه راجعون) صلوات الله وسلامه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعند الله نحتسب رسوله ، قال : يعنى أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (إنك ميت وإنهم ميتون) ، وقال تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) . وقال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) ، فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة كما سيأتى أقبلوا على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلفوا هل يغسل فى ثيابه أو يجرد منها كما تجرد الموتى ، فألقى الله عليهم النوم وسمعوا من ناحية البيت قائلا يقول : لاتغسلوه فإنه كان طاهرا ، فقال أهل البيت صدق فلا تغسلوه ، فقال العباس رضى الله عنه لاندع سنة لصوت لاندرى ماهو ، فغشيهم النعاس ثانية ، فناداهم أن غسلوه وعليه ثيابه ، أى وزاد فى رواية « فإن ذلك إبليس وأنا الخضر » وفى رواية « لاتنزعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه » قال الذهبى حديث منكر ، فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسلوه وعليه قميصه ، وفى لفظ وعليه قميص ومحول مفتوح يصبون عليه الماء ويدلكونه والقميص دون أيديهم على والعباس وكذا ولدا العباس الفضل وقثم ، فكان العباس وابناه الفضل وقثم يقلبونه مع على ، وفى لفظ « غسله على والفضل » محتضنه والعباس يصب الماء وجعل الفضل رضى الله عنه يقول : أرحنى قطعت وتينى ، وأسامة وشقران مولاه ، وفى لفظ « وصالح مولاه صلى الله عليه وسلم يصبان الماء ، ولف على كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها جسده الشريف .

وعن على كرم الله وجهه : ذهبت ألتمس منه مايلتمس من الميت : أى مايخرج من بطن

الميت فلم أر شيئا ، فكان صلى الله عليه وسلم طيبا حيا وميتا ، وما تناولت منه صلى الله عليه وسلم عضوا إلا كأنما يقلبه معى ثلاثون رجلا: أى ويحتاج إلى الجمع بين هذا ، وماتقدم عن الفضل رضى الله عنه .

قيل وتغسيل على كرم الله وجهه له صلى الله عليه وسلم كان بوصية منه صلى الله عليه وسلم له . فعن على كرم الله وجهه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن لايغسله أحد غيرى وقال : لايرى أحد عورتى إلا طمست عيناه غيرك ، أى على فرض وقوع ذلك فلا ينافى ماتقدم ، وادعى الذهبى أن هذا الحديث منكر . وفى رواية: فكان الفضل وأسامة رضى الله عنهما يناولان الماء من وراء الستر وأعينهما معصوبة . وفى لفظ : كان العباس وأسامة يناولان الماء من وراء الستر ، لأن العباس رضى الله عنه نصب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلة : أى خيمة رفيعة من ثياب يمانية فى جوف البيت وأدخل عليا فيها ؛ زاد بعضهم : والفضل وأبا سفيان بن الحارث ابن عمه صلى الله عليه وسلم .

ونصب الكلة دليل لقول فقهائنا رحمه الله : والأكمل وضع الميت عند الغسل بموضع خال من الناس مستور عنهم لايدخله إلا الغاسل ومن يعينه . والذى رواه ابن ماجه رحمه الله أنه تولى غسله صلى الله عليه وسلم على والفضل ، وأسامة بن زيد يناول الماء ، والعباس واقف : أى لايغسل ولا يناول الماء : أى ويحتاج للجمع بين هذه الروايات .

وقيل إن العباس لم يشاهد غسله صلى الله عليه وسلم ، وعن على رضى الله عنه : لما غسلت النبى صلى الله عليه وسلم اجتمع ماء فى حقويه فرفعته بلسانى وازدردته فأورثنى ذلك قوة حفظى .

ويروى أنه كرم الله وجهه ، رأى فى عينه صلى الله عليه وسلم قذاة فأدخل لسانه فأخرجها منها .

وعن عائشة رضى الله عنها : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه : أى لو ظهر لها قولها المذكور وقت غسله صلى الله عليه وسلم ماغسله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه ، وغسل ثلاث غسلات: واحدة بالماء القراح ، وواحدة بالماء والسدر ، أى والغسلة التى كانت بالماء القراح كانت قبل الغسلة التى بالسدر فهى المزيلة وواحدة بالماء مع الكافور ، أى وهذه هى المجزئة فى الغسل هذا :

وفى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله : وغسل صلى الله عليه وسلم فى المرة الأولى بالماء القراح ، وفى الثانية بالماء والسدر ، وفى الثالثة بالماء والكافور .

وفى لفظ : فغسلوه بالماء القراح ،وطيبوه بالكافور فى مواضع سجوده ومفاصله ، وغسل من ماء بئر غرس وهى بئر بقباء ، قال صلى الله عليه وسلم «نعم البئر بئر غرس هى من عيون الجنة وماؤها أطيب الماء » وكان صلى الله عليه وسلم يشرب منها ، ويؤتى له بالماء منها .

وعند ابن ماجه رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم ، قال لعلى كرم الله وجهه « إذا أنامت فاغسلنى بسبع قرب من بئرى بئر غرس » .

وكفن صلى الله عليه وسلم بثلاثة أثواب سحولية : أى بيض من القطن ، من عمل سحولة : قرية من قرى اليمن ؛ وفى رواية الشيخين عنها : كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة ، قيل إزار ورداء ولفافة ، وقوله ليس فيها قميص ولا عمامة : أى لم يكن فى كفنه صلى الله عليه وسلم ذلك كما فسر بذلك إمامنا الشافعى رحمه الله وجمهور العلماء ، قال بعضهم : وهو الصواب الذى يقتضيه ظاهر الحديث .

وماقيل إن معناه أن القميص والعمامة زائدان على الأثواب الثلاثة ليس فى محله ؛ لأنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم كفن فى قميص وعمامة ،وهذا يدل على أنه نزع عنه صلى الله عليه وسلم القميص الذى غسل فيه قبل تكفينه فى الأثواب الثلاثة .

وقيل كفن فى ذلك الثوب بعد عصره . وفيه أنه لايخلو عن الرطوبة وهى تفسد الأكفان . ويؤيد كونه صلى الله عليه وسلم كفن فى ذلك الثوب ماجاء فى رواية « كفن صلى الله عليه وسلم فى ثوبه الذى مات فيه وحلة نجرانية » والحلة : ثوب فوق ثوب ، قال ابن كثير : وهذا غريب جدا ، وفى كلام بعضهم أنه حديث ضعيف لايصح الاحتجاج به .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم كفن فى الأثواب الثلاثة المتقدمة وزيادة برد حبرة أحمر .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أتى بالبرد ولفوه فيه ولكنهم ردوه ؛ أى ثم نزع عنه صلى الله عليه وسلم ولم يكفنوه فيه ، وفى رواية : ثوبين وبرد أحمر ،وهذا يخالف ماعليه أئمتنا أن من كفن فى ثلاثة أثواب يجب أن تكون لفائف يستر كل منها جميع البدن . وفى رواية كفن فى سبعة أثواب .

وبعد تكفينه صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الثلاثاء وضع على سرير ، وفى لفظ : ثم

أدرج صلى الله عليه وسلم فى أكفانه وجمروه عودا وندا ، ثم احتملوه حتى وضعوه على سرير وسجوه .

وذكر أنه كان عند على كرم الله وجهه مسك ، وقال إنه من فضل حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصلى عليه صلى الله عليه وسلم الناس أفذاذا لم يؤمهم أحد ، وفى لفظ : لما أدرج صلى الله عليه وسلم فى أكفانه وضع على سريره ثم وضع على شفير حفرته ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء لايؤمهم أحد .

وذكر أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر مايسع البيت ؛ فقالا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، وسلم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهم ، ثم صفوا صفوفا لايؤمهم أحد ، وكان أبو بكر وعمر فى الصف الأول الذى حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالا اللهم إنا نشهد أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ ماأنزل إليه ، ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته ، فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذى أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما ، لانبتغى بالإيمان به بدلا ولا نشترى به ثمنا أبدا ، فيقول الناس آمين آمين ، وهذا يدل على أنه المراد بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم الدعاء لاالصلاة على الجنازة المعروفة عندهم ، والصحيح أن هذا الدعاء كان ضمن الصلاة المعروفة التى بأربع تكبيرات .

فقد جاء أن أبا بكر رضى الله عنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فكبر أربع تكبيرات ثم دخل عمر رضى الله عنه فكبر أربعا ، ثم دخل عثمان رضى الله عنه فكبر أربعا ، ثم طلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام رضى الله عنهما ، ثم تتابع الناس أرسالا يكبرون عليه ، أى وعلى هذا إنما خصوا الدعاء بالذكر لأنه الذى يليق به صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم استشاروا كيف يدعون له فأشير بمثل ذلك .

قال : وقال ابن كثير رحمه الله : وهذا الأمر : أى صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم فرادى من غير إمام يؤمهم مجمع عليه . ولايقال لأن المسلمين لم يكن لهم حينئذ إمام لأنهم لم يشرعوا فى تجهيزه عليه الصلاة والسلام إلا بعد تمام البيعة لأبى بكر رضى الله عنه لأنه لما تحقق موته صلى الله عليه وسلم ، واجتمع غالب المهاجرين على أبى بكر وعمر وانضم إليهم

من الأنصار أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل ومن معه من الأوس ، وتخلف على والزبير ، أي ومن كان معهما من المهاجرين كالعباس وطلحة بن عبيد الله والمقداد وجمع من بني هاشم في بيت فاطمة رضي الله تعالى عنها وتخلف الأنصار بأجمعهم واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ؛ أي وفي دار سعد بن عبادة وكان سعد مريضا مزملا بثيابه بينهم : أي اجتمعوا أولا ثم تفرق عنهم أسيد بن حضير رضي الله عنه ومن معه من الأوس .

فلا يخالف ذلك ماتقدم من انضمام أسيد بن حضير رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين رضي الله عنهم مع أبي بكر رضي الله عنه ، ولا يخالف ذلك ما في بعض الروايات عن عمر رضي الله عنه وتخلف الأنصار عنا بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة .

واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر رضي الله عنه إلا عليا والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة رضي الله عنها ؛ فقال عمر رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار . أي فإنه أتاهم آت ، فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم .

أي فعن عمر رضي الله عنه « بينا نحن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجل ينادي من وراء الجدران اخرج إليّ ياابن الخطاب ، فقلت : إليك عني فأنا عنك متشاغل ، يعني بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه قد حدث أمر ، إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة فأدركهم قبل أن يحدثوا أمرا يكون فيه حرب .

قال : فانطلقنا نؤمهم : أي نقصدهم حتى رأينا رجلين صالحين ، أي وهما عويمر بن ساعدة ومعدة بن عدي وهما من الأوس ، قالا : أين تريدون ؟ فقلت : نريد إخواننا من الأنصار فقالا : لاعليكم أن تقربوهم ، واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين بينكم . فقلت : والله لنأتينهم فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة ، فقلت : ماله ؟ قالوا إنه وجع ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة منكم : أي دب قوم بالاستعلاء والترفع علينا تريدون أن تختزلونا من أهلنا ، أي تنحونا عنه تستبدون به دوننا ، فلما سكت أردت أن أتكلم ، وقد كنت زورت مقالة أعجبتني أردت أن قولها بين يدي أبي بكر ؛

فقال أبو بكر رضى الله عنه : على رسلك ياعمر ، فكرهت أن أغضبه وكنت أرى منه بعض الحدةفسكت ، وكان أعلم منى ، والله ماترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلاقالها فى بديهته وأفضل ، فقال : أما بعد،فما ذكرتم من خير فأنتم له أهل ،ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا ، يعنى مكة ولدتنا العرب كلها فليست منها قبيلة إلا لقريش منها ولادة ودار ، وكنا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاما ونحن عشيرته صلى الله عليه وسلم وأقاربه وذوو رحمه ، فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة ،ولم يترك شيئا أنزل فى الكتاب بأيديهم إلا قاله ، ولا شيئا قاله رسول الله صلى الله عليهوسلم فى شأن الأنصار إلا ذكره ، ومنه «لو سلكت الناس وادياوسلكت الأنصار واديا لسلكتوادى الأنصار»وقال «لقد علمتياسعدأنرسول اللهصلى اللهعليهوسلمقالوأنت قاعد «قريش ولاة هذا الأمر » فقال سعد رضى الله تعالى عنه صدقت ، فقال أى الصديق رضى الله عنه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ،أى وفىرواية أنه:أىالصديق رضى الله عنه ، قال لهم : أنتم الذين آمنوا ونحن الصادقون ، وإنما أمركمالله أن تكونوا معنافقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) والصادقون : هم المهاجرون ، قال الله تعالى (للفقراء المهاجرين) إلى قوله (أولئك هم الصادقون) .

وفىرواية «أن أبا بكر رضىاللهعنه احتج على الأنصار بخبر « الأئمة من قريش » وهو حديث صحيح وردعن نحو أربعين صحابيا ، وأنتم يامعشر الأنصار إخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فىالدين وأنتم أحق بالرضابقضاء الله، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئت وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح فلم أكره ماقال غيرها ، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقى ولا يقربنى ذلك من إثم أحب إلى من أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، فقال كلمن عمر وأبى عبيدة : لاينبغى لأحد أن يكون فوقك ياأبا بكر أى وفى لفظ بل نبايعك ، وأنت سيدناوخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا منعمررضى الله عنه كانبعد أن أتى أبا عبيدة ، وقال : إنك أمين هذه الأمة على لسانرسول اللهصلىالله عليه وسلم ، فقال : مارأيت بك ضعف رأى قبلها منذأسلمت،أما بقى فيكم الصديق وثانى اثنين ؟وفى رواية أن أبا بكر رضى الله عنه قال لعمر ابسط يدك لأبايعك ، فقال له أنت أفضل منى ،فأجابه بأنت أقوى منى ثم كرر ذلك . فقال له : فأين قوتى مع فضلك .

واعترض قولأبى بكر المذكور،بأنه كيف يقول ذلك مع علمه بأنه أحق بالخلافة ؟ وكيفيقدم أبا عبيدة على عمر معأنه أفضل منه؟ .

وأجيب بأنه رضي الله عنه قال ذلك لأنه استحيي أن يقول : رضيت لكم نفسي مع علمه بأن كلا من عمر وأبي عبيدة لايقبل وأن أبا بكر رضي الله عنه كان يرى جواز تولية المفضول على من هو أفضل منه ، وهو الحق عند أهل السنة لأنه قد يكون أقدر من الأفضل على القيام بمصالح الدين وأعرف بتدبير الأمر وما فيه انتظام حال الرعية .

وعند قول أبي بكر رضي الله عنه ماذكر قال قائل من الأنصار ، أي وهو الحباب ، بحاء مهملة مضمومة فوحدة رضي الله عنه ، ابن المنذر : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب بالجيم والجذيل تصغير الجذل : وهو عود ينصب للإبل الجرباء فتحتك به ليزول جربها . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار أملس والعذيق تصغير العذق بفتح العين وهو النخلة ، والمرجب المسند بالرجبة وهى خشبة ذات شعبتين يسند بها النخلة إذا كثر حملها ، أى أناذو الرأى والتدبير الذى يستشفى به فى الحوادث لاسيما هذه الحادثة ، منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش ، وتتابعت خطباؤهم على ذلك . وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استعمل الرجل منكم قرن معه رجلا منا فنرى أن يلى هذا الأمر رجلان منا ومنكم ، فقام زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وقال للأنصار : أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين وكنا نحن أنصاره فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره ثم أخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه وقال هذا صاحبكم . فقال الحباب بن المنذر رضي الله عنه يامعشر الأنصار لاتسمعوا مقالة هذا فتذهب قريش بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم فأجلوهم من بلادكم ، فأنتم أحق به منهم ، أما والله وإن شئتم لنقيمها جذعة ، فقال له عمر رضي الله عنه إذن يقتلك الله فقال بل أراك تقتل ، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما فقال : يامعشر الأنصار إناكنا أول من سبق إلى هذا الدين وجهاد المشركين ، ماقصدنا إلا رضا الله ورسوله فلا ينبغى لنا أن نستطيل على الناس ، ولانطلب عرض الدنيا ، وإن قريشا أولى بهذا الأمر فلا ننازعهم ، فقال له الحباب ، ألفيت على ابن عمك يعنى سعد بن عبادة ، فقال : لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم وفى رواية قال عمر رضي الله عنه يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر يؤم الناس وأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر وفى لفظ أن يقيمه عن مقامه الذى أقامه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه . وفى لفظ قالوا : نستغفر الله ، لاتطيب أنفسنا ، ولعل المراد قال معظمهم :

فلا يخالف ذلك ماجاء عن عمر رضى الله تعالى عنه ولما كثر اللغط ، وعات الأصوات حتى خشيت الاختلاف . وقلت : سيفان فى غمد واحد لايكونان وفى رواية : هيهات لا يجتمع فحلان فى مغرس . فقلت : ابسط يدك ياأبا بكر ،وكذا قال له من الأنصار زيدبن ثابت وأسيد بن حضير وبشير بن سعد رضى الله عنهم ،فبسط يده: فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار . أى حتى سعد بن عبادة رضى الله عنه ، خلافا لمن قال إن سعد ابن عبادة أبى أن يبايع أبا بكر حتى لقى الله . أى فإنه رضى الله تعالى عنه توجه إلى الشام ومات بها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله والعذر له فى ذلك أنه رضى الله عنه تأول أن للأنصار فى الخلافة استحقاقا فبنى على ذلك ، وهو معذور ، وإن لم يكن ما اعتقده من ذلك حقا هذا كلامه .

ولا ينافيه ما جاء عن عمر رضى الله عنه : وثبنا على سعد بن عبادة . فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة : أى فعلتم معه من الإعراض والإذلال ما يقتله ، فقلت : قتل الله سعد بن عبادة ، فإنه صاحب فتنة ، نعم ينافيه ماحكاه ابن عبد البر أن سعدبن عبادة رضى الله عنه أبى أن يبايع أبا بكر حتى لقى الله .

قال بعضهم ويضعفه ما جاء فى بعض الروايات أن أبا بكر رضى الله عنه لما قال لسعد : لقد علمت ياسعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وأنت قاعد « قريش ولاة هذا الأمر » ، قال له سعد : صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وبه يظهر التوقف فيما تقدم عن ابن حجر رحمه الله هذا .

وفى كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله : فأنكروا على سعد أمره ، وكادوا يطئون سعدا فقال ناس من أصحابه : اتقوا سعدا لاتطئوه ، فقال عمر رضى الله عنه : اقتلوا سعدا قتله الله ، ثم قام عمر رضى الله عنه على رأس سعد وقال : قد هممت أن أطأك حتى تندر عيونك ، فأخذ قيس بن سعد رضى الله عنهما بلحية عمر رضى الله عنه وقال : والله لو خفضت منه شعرة ما رجعت وفيك جارحة ، فقال أبو بكر : مهلا يا عمر ، الرفق الرفق ، ماهنا أبلغ ، فقال سعد : أما والله لو كان لى قوة على النهوض لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع ، فلما عاد أبوبكر وعمر رضى الله عنهما إلى محلهما أرسلا له بايع فقد بايع الناس ، فقال : لا والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل ، وأخضب من دمائكم

سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكته يداى : والله لو اجتمع لكم الجن والإنس لما بايعتكم . فلما عاد الرسول وأخبرهم بما قال ، قال له عمر : لاندعه حتى يبايع ، فقال له قيس بن سعد : دعه فقد لج فاتركوه ، فتركوه ، وكان سعد رضى الله عنه لا يحضر معهم ، ولايصلى فى المسجد ، ولايسلم على من لقى منهم ، فلم يزل مجانبا لهم حتى إذا كان بعرفة يقف ناحية عنهم ، فلما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة لقيه فى بعض طرق المدينة ، فقال له : إيه يا سعد فقال له : إيه يا عمر ، فقال له عمر : أنت صاحب المقالة ، قال نعم أنا ذاك ، وقد أفضى الله إليك هذا الأمر ، كان والله صاحبك خيرا لنا ، وأحب إلينا من جوارك ، وقد أصبحت كارها لجوارك ، فقال له عمر رضى الله عنه : إنه من كره جوار جاره تحول عنه ، فقال له سعد : إنى متحول إلى جوار من هو خير من جوارك ، فخرج رضى الله عنه إلى الشام واستمر بها إلى أن مات فى السنة الخامسة عشر من الهجرة :

وذكر الطبرى رحمه الله أن سعدا رضى الله عنه بايع مكرها ، وهو وهم ، هذا كلام سبط ابن الجوزى رحمه الله .

قال عمر رضى الله عنه : وإنما بايعت أبا بكر خشية إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعهم على مالا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد ، وذلك كان فى يوم موته صلى الله عليه وسلم الذى هو يوم الاثنين ، فلما كان الغد كانت البيعة العامة صعد أبوبكر رضى الله عنه المنبر ، وقام عمر رضى الله عنه بين يدى أبى بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر رضى الله عنه بيعة عامة بعد بيعة السقيفة. ثم تكلم أبوبكر رضى الله عنه فقال فى خطبته ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوىّ حتى أرتج عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا أشيعت الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، فقوموا إلى صلاتكم رحمكم الله :

وشن الغارة بعض الرافضة على قول الصديق رضى الله عنه فقومونى ، بأنه كيف

تجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه مع أن الرعية تحتاج إليه . ورد بأن هذا من أكبر الدلائل على فضله ، لقوله الآخر أطيعونى ما أطعت الله ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، لأن كل أحد ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تجوز عليه المعصية .

ولما بويع بالخلافة أصبح رضى الله تعالى عنه على ساعده قماش وهو ذاهب به إلى السوق ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال السوق ، قال : تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ، قال : فمن أين أطعم عيالى ، فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إليه ، فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم : أى فى سعة النفقة ولا بأوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، وإذا أبليت شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرض له كل يوم نصف شاة . وفى رواية جعل له ألفين فقال : زيدونى فان لى عيالا وقد شغلت عن السفارة فزادوه خمسمائة .

وهو رضى الله تعالى عنه أول من جمع القرآن وسماه مصحفا ، واتخذ بيت المال ، وسها من جعل ذلك من أوليات عمر رضى الله تعالى عنه .

ولما تخلف على والزبير ومن معهما كالعباس وطلحة بن عبيد الله والمقداد وجمع من بنى هاشم فى بيت فاطمة كما تقدم عن المبايعة ، استمروا على ذلك مدة لأنهم رضى الله عنهم وجدوا فى أنفسهم حيث لم يكونوا فى المشورة : أى فى سقيفة بنى ساعدة مع أن لهم فيها حقا . وقد أشار سيدنا عمر رضى الله عنه إلى أن بيعة أبى بكر رضى الله تعالى عنه كانت فلتة : أى بغتة لا عن استعداد لها ، ولكن وقى الله شرها أى لم يقع فيها مخالفة ولا منازعة ، ولذلك لما اجتمعوا : أى على والزبير والعباس وطلحة بن عبيد الله ومن تخلف عن المبايعة منهم بأبى بكر رضى الله عنه قام خطيبا وقال : والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ، ولكن أشفقت من الفتنة : أى لو أخرت إلى اجتماعكم .

وقد روى أن شخصا قال لأبى بكر رضى الله عنه ما حملك على أن تلى أمر الناس وقد نهيتنى أن أتأمر على اثنين ، فقال : لم أجد من ذلك بدا ، خشيت على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الفرقة ، وقال : ما فى الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمرا عظيما مالى به من طاقة ، فقال على والزبير رضى الله تعالى عنهما ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ، ولذا أمره

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة من بين الناس وهو حى ، فلم يكن تأخرهم رضى الله تعالى عنهم للقدح فى خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه . ومن ثم قال إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه : أجمع الناس على خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، لأنهم لم يجدوا تحت أديم السماء خيرا من أبى بكر فولوه رقابهم . أى فالأمة أجمعت على حقية إمامة بكر رضى الله تعالى عنه ، وهذا : أى اجتماع على كرم الله وجهه بأبى بكر رضى الله تعالى عنهما كان بعد ماأرسل إليه على كرم الله وجهه فى الاجتماع به واجتمع به كما سيأتى ، لكن سيأتى أن ذلك كان بعد موت فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها ، وسياق غير واحد يدل على أن اجتماع علىّ والزبير ومبايعتهما أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان قبل موت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، وهو ما صححه ابن حبان وغيره ، ويؤيده ماحكاه بعضهم أن الصديق رضى الله تعالى عنه خرج يوم الجمعة فقال ، اجمعوا لى المهاجرين والأنصار ، فاجتمعوا ، ثم أرسل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه والنفر الذين كانوا تخلفوا معه ، فقال له : ما خلفك يا على عن أمر الناس ؟ فقال : خلفنى عظيم المعتبة ، ورأيتكم استقليتم برأيكم فاعتذر إليه أبوبكر رضى الله تعالى عنه بخوف الفتنة لو أخر ، ثم أشرف على الناس وقال : أيها الناس هذا على بن أبى طالب لا بيعة لى فى عنقه ، وهو بالخيار من أمره . ألا وأنتم بالخيار جميعا فى بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه ، فلما سمع ذلك على كرم الله وجهه زال ما كان قد داخله ، فقال أجل لا نرى لها غيرك ، امدد يدك ، فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه فإن هذا دليل على أن عليا كرم الله وجهه بايع أبا بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام .

وفى كلام المسعودى : لم يبايع أبابكر أحد من بنى هاشم حتى ماتت فاطمة رضى الله تعالى عنها . وقال رجل للزهرى : لم يبايع على كرم وجهه أبا بكر ستة أشهر ، فقال : لا والله ولا أحد من بنى هاشم حتى بايعه على كرم الله وجهه ، فليتأمل الجمع على تقدير الصحة .

وقد جمع بعضهم بأن عليا كرم الله وجهه بايع أولا ، ثم انقطع عن أبى بكر لما وقع بينه وبين فاطمة ما وقع .

أى ويدل لهذا الجمع أن فى رواية أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما صعد المنبر ونظر فى وجوه القوم ، فلم ير الزبير رضى الله تعالى عنه فدعا به فجاء ، فقال قلت ابن عمة رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ، فقال لاتثريب ياخليفة رسول الله ،

فقام فبايعه ، ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير عليا كرم الله وجهه ؛ فدعا به فجاء ، فقال : قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين ، فقال : لاتثريب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام فبايعه :

ويبعد هذا الجمع مافى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها فلما توفيت فاطمة رضى الله عنها التمس : أى على كرم الله وجهه مصالحة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ولم يكن بايع تلك الأشهر ؛ فأرسل إلى أبى بكر الحديث .

والسبب الذى اقتضى الوقوع بين فاطمة وأبى بكر رضى الله تعالى عنهما أن فاطمة رضى الله تعالى عنها جاءت إلى أبى بكر تطلب إرثها مما أعطاه الأنصار له صلى الله عليه وسلم من أرضهم وما أوصى به إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو وصية مخيريق عند إسلامه وهى سبعة حوائط فى بنى النضير . قال سبط ابن الجوزى : وهو أول وقف كان فى الإسلام ، ومما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض بنى النضير وفدك ، ونصيبه صلى الله عليه وسلم من خيبر وهما حصنان من حصونها الوطيح وسلالم فإنه صلى الله عليه وسلم أخذهما صلحا كما تقدم ، وحصته صلى الله عليه وسلم مما افتتح منها عنوة وهو الخمس . فإن ذلك كله كان للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان صلى الله عليه وسلم ينفق من ذلك على أهل بيته سنة ومابقى جعله فى الكراع : أى الخيل والسلاح فى سبيل الله ، فربما احتاج صلى الله عليه وسلم إلى شىء ينفقه قبل فراغ السنة فيقترض ، ولهذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند اليهودى على آصع من شعير ، وافتكها أبو بكر ، وتلك الدرع كانت ذات الفضول التى أهداها له صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة لما توجه إلى بدر كما تقدم ، ولم يشبع هو ولا أهل بيته ثلاثة أيام تباعا ، أى متتابعة كما تقدم فقال لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه : لست بالذى أقسم من ذلك شيئا ، ولست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به فيها إلا عملته ، وإنى أخشى إن تركت أمره أوشيئا من أمره أن أزيغ . وفى رواية قال لها قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما هى طعمة أطعمنيها الله فإذا مت عادت على المسلمين ، فإن اتهمتينى فسلى المسلمين يخبرونك بذلك . وقال لها : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لانورث ماتركناه صدقة » ولكن أعول من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله ، وأنفق على من كان ينفق عليه ، وقوله صدقة هو بالرفع كما هو الرواية : أى الذى تركناه فهو صدقة ، وقد منع بذلك عائشة وبقية أزواجه صلى الله عليه وسلم لما جئن إليه يطلبن ثمنهن :

وزعمت الرافضة أن الصديق رضى الله تعالى عنه كان ظالما لفاطمة رضى الله عنها بمنعه إياها من مخلف والدها ، وأنه لا دليل له فى هذا الخبر الذى رواه، لأن فيه احتجاجا بخبر الواحد مع معارضته لآية المواريث .

ورد بأنه إنما حكم بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنده قطعى فساوى آية المواريث من قطعية المتن ، وكان مخصصا لآية المواريث .

وذكر عن الرافضة أنهم زعموا أن صدقة بالنصب وأن مانافية . ويرده صدر الحديث « إنا معاشر الأنبياء لانورث » وأما رواية « نحن معاشر الأنبياء » فلم تجئ فى كتاب من كتب الحديث كما قاله غير واحد ، ومن رواه بذلك رواه بالمعنى لأن نحن وإنا مفادهما واحد ولايعارض ذلك قوله تعالى (وورث سليمان داود) وقوله تعالى حكاية عن زكريا : (فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث) إذ المراد وراثة العلم والحكمة :

وفى لفظ أنها رضى الله تعالى عنها قالت له : من يرثك ؟ قال : أهلى وولدى، فقالت فمالى لا أرث أبى . فقال لها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لانورث فغضبت رضى الله تعالى عنها من أبى بكر رضى الله تعالى عنه وهجرته إلى أن ماتت ، أى فإنها عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر على ما تقدم . ومعنى هجرانها لأبى بكر رضى الله تعالى عنه أنها لم تطلب منه حاجة ولم تضطر إلى لقائه ، إذ لم ينقل أنها رضى الله تعالى عنها لقيته ولم تسلم عليه ، ولا كلمته .

وروى ابن سعد أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه جاء إلى بيت على لما مرضت فاطمة فاستأذن عليها ، فقال على كرم الله وجهه : هذا أبو بكر على الباب يستأذن ، فإن شئت أن تأذنى له فأذنى ، قالت : وذاك أحب إليك ؟ قال نعم ، فأذنت له رضى الله تعالى عنه ، فدخل واعتذر إليها فرضيت عنه ، وأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه صلى عليها .

وقال الواقدى : وثبت عندنا أن عليا كرم الله وجهه دفنها رضى الله تعالى عنها ليلا ، وصلى عليها ومعه العباس والفضل رضى الله تعالى عنهم ولم يعلموا بها أحدا . قال بعضهم : وكأنها تأولت قوله صلى الله عليه وسلم « لا نورث » وحملت ذلك على الأموال . أى الدراهم والدنانير كما جاء فى بعض الروايات « لا تقسم ورثتى دينارا ولادرهما» بخلاف الأراضى ، ولعل طلب إرثها من فدك كان منها بعد أن ادعت رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاها فدكا . وقال لها : هل لك بينة فشهد لها على كرم الله وجهه وأم أيمن ، فقال لها رضى الله عنه أبرجل وامرأة تستحقيها .

واعترض عليه الرافضة بأن فاطمة معصومة بنص (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وخبر « فاطمة بضعة مني » فدعواها صادقة لعصمتها . وأيضا شهد لها بذلك الحسن والحسين وأم كلثوم رضي الله تعالى عنهم .

ورد عليهم بأن من جملة أهل البيت أزواجه صلى الله عليه وسلم ولسن بمعصومات اتفاقا فكذلك بقية أهل البيت . وأما كونها بضعة منه فمجاز قطعا ، وإنها كبضعة فيما يرجع للخير والشفقة . وأما زعم أنه شهد لها الحسن والحسين وأم كلثوم فباطل لم ينقل عن أحد ممن يعتمد عليه ، على أن شهادة الفرع للأصل غير مقبولة .

وفي كلام سبط ابن الجوزي رحمه الله أنه رضي الله تعالى عنه كتب لها بفدك ، ودخل عليه عمر رضي الله تعالى عنه فقال : ماهذا . فقال : كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها فقال : مماذا تنفق على المسلمين وقد حارب تلك العرب كما ترى ، ثم أخذ عمر الكتاب فشقه

وقد جاء أن بعد موت فاطمة رضي الله تعالى عنها: أي وذلك بعد ستة أشهر من موته صلى الله عليه وسلم إلا ليالي على ماتقدم ، أرسل علي كرم الله وجهه وقد اجتمع علي وبنو هاشم إلى أبي بكر وقالوا : ائتنا ولايأت معك أحد ، كراهة أن يحضر عمر رضي الله تعالى عنه لما علموا من شدته ، فخافوا أن ينتصر لأبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فيتكلم بكلام يوحش قلوبهم على أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه لأبي بكر لا والله لا تدخل عليهم وحدك ، قال ذلك خوفا عليه أن يغلظوا عليه في المعاتبة ، وربما كان ذلك سببا لتغير قلبه فيترتب عليه مالا ينبغي ، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : وما يفعلون بي ، والله لآتينهم ، أي فدخل عليهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحده، فقال له علي كرم الله وجهه : إنا قد عرفنا لك فضلك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيرا ساقه الله إليك : أي لا نحسدك عليه ، ولكن استبديت علينا بالأمر : أي لم تشاورنا فيه وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لنا نصيبا : أي في المشاورة ، ففاضت عينا أبي بكر رضي الله تعالى عنه وقال : والذي نفسي بيدي لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي من قرابتي ، فقال له علي كرم الله وجهه : موعدك العشية للبيعة ، فلما صلى أبو بكر رضي الله تعالى عنه الظهر ، أي وقد حضر عنده علي كرم الله وجهه رقي المنبر بكسر القاف ، فتشهد وذكر شأن علي كرم الله وجهه وعذره في تخلفه عن البيعة ثم إن عليا رضي الله تعالى عنه بايعه : أي بعد أن عظم أبا بكر رضي الله تعالى عنه

وذكر فضيلته وسابقته ، وذكر أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة حق على أبى بكر ، فأقبل الناس على علىّ كرم الله وجهه وقالوا : أصبت وأحسنت .

وقد علمت الجمع بين من قال بايع بعد ثلاثة أيام من موته صلى الله عليه وسلم ومن قال : لم يبايع إلا بعد موت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر ، وهو أنه بايع أولا ثم انقطع عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه لما وقع بينه وبين فاطمة ما وقع ، ثم بايعه مبايعة أخرى ، فتوهم من ذلك بعض من لا يعرف باطن الأمر أن تخلفه إنما هو لعدم رضاه ببيعته فأطلق ذلك من أطلقه . ومن ثم أظهر على كرم الله وجهه مبايعته لأبى بكر ثانيا بعد ثبوتها على المنبر لإزالة هذه الشبهة .

وبهذا يعلم ماوقع فى صحيح مسلم عن أبى سعيد من تأخر بيعة على هو وغيره من بنى هاشم إلى موت فاطمة ، ومن ثم حكم بعضهم عليه بالضعف .

ومما يؤيد الضعف ماجاء أن عليا وأبا بكر رضى الله عنهما جاآ لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بستة أيام ، فقال على كرم الله وجهه : تقدم ياخليفة رسول الله ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : ماكنت لأتقدم رجلا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « علىّ منى بمنزلتى من ربى » وصلاة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بالناس لم تختص بالمرض ؛ فقد جاء أنه وقع قتال بين بنى عمرو بن عوف ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم ، فقال : يا بلال إن حضرت الصلاة ولم آت مر أبا بكر فليصل بالناس ، فلما حضرت صلاة العصر أقام بلال الصلاة ، ثم أمر أبا بكر فصلى كما تقدم .

وفى شرح مسلم للإمام النووى رحمه الله : وتأخر على كرم الله وجهه أى ومن تأخر معه عن البيعة لأبى بكر ليس قادحا فيها ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل أهل العقد والحل ، بل مبايعة من تيسر منهم وتأخره كان للعذر أى الذى تقدم ، وكان عذر أبى بكر وعمر وبقية الصحابة واضحا لأنهم رأوا أن المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين ، لأن تأخرها ربما لزم عليه اختلاف ، فينشأ عنه مفاسد كثيرة كما أفصح به أبو بكر رضى الله تعالى عنه فيما تقدم :

وجاء كما تقدم أنه قيل لعلى كرم الله وجهه : هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة ؟ فحدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت ، فقال : لا والله لئن كنت

أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه ، لو كان عندى من النبي صلى الله عليه وسلم عهد فى ذلك ماتركت القتال على ذلك ، ولو لم أجد إلا بردتى هذه ، وما تركت أخا بنى تميم وعمر بن الخطاب ينوبان على منبره صلى الله عليه وسلم ، ولقاتلتهما بيدى ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يمت فجأة بل مكث فى مرضه أياماوليالى يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس وهو يرى مكانى ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اخترنا لدنيانا من رضيه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعناه وكان لذلك أهلا ، لم يختلف عليه منا اثنان ، فلما قبض تولاها عمر رضى الله تعالى عنه بمبايعته ، وأقام فيها لم يختلف عليه منا اثنان ، وأعطيت ميثاق لعثمان رضى الله تعالى عنه ، فلما مضوا بايعنى أهل الحرمين وأهل هذين المصرين : أى الكوفة والبصرة ، فوثب فيها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتى ولا علمه كعلمى ولا سابقته كسابقتى ، وكنت أحق بها منه ؛ يعنى معاوية فهو رأى رأيته وفى لفظ لكن شيء رأيناه من قبل أنفسنا ، فهذا تصريح منه كرم الله وجهه بأنه صلى الله عليه وسلم لم ينص على إمامته .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم عند مرجعه من حجة الوداع بعد أن جمع الصحابة وكرر عليهم «ألست أولى بكم من أنفسكم ثلاثا» وهم يجيبونه بالتصديق والاعتراف ثم رفع يد على كرم الله وجهه وقال : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه » الحديث فتقدم الكلام عليه وأن ذلك لايدل على الخلافة .

وإنما قال سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه : إن بيعة أبى بكر رضى الله تعالى عنه كانت فلتة : أى من غير استعداد ولا مشورة كما تقدم ، ردا على من بلغه عنه أنه قال إذا مات عمر بايعت فلانا ، والله ماكانت بيعة أبى بكر بمشورة ، فالبيعة لاتتوقف على ذلك فغضب فلما رجع من آخر حجة حجها المدينة قال على المنبر : قد بلغنى أن فلانا قال والله لو مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلانا ، إن بيعة أبى بكر كانت فلتة من غير مشورة ، فلا يغترن امرؤ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، فنعم ، وإنها كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها ، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر ، فمن بايع رجلا من غير مشورة المسلمين فإنه لابيعة له ولا الذى بايعه .

ولما ثقل المرض على الصديق رضى الله تعالى عنه دعا عبد الرحمن فقال : أخبرنى عن عمر بن الخطاب ، فقال : أنت أعلم به منى ، فقال الصديق : وإن فقال عبد الرحمن : هو

والله أفضل من رأيك فيه ، ثم دعا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال : أخبرنى عن عمر فقال : أنت أخبرنا به ، ثم دعا عليا كرم الله وجهه وقال له مثل ذلك، ثم قال على كرم الله وجهه : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، ودعا جمعا من الأنصار فيهم أسيد بن حضير وسألهم ، فقال : اللهم أعلمه يرضى للرضا ويسخط للسخط الذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ؛ فعند ذلك دعا عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقال : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد أبو بكر ابن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، فإن عدل فذلك ظنى فيه وعلمى به ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ثم أمر بالكتاب فختم ، ثم دعا عمر خاليا فأوصاه بالمسلمين ، وقبل أن يظهر الصديق رضى الله عنه هذا الأمر ، اطلع على الناس من كوة وقال : أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضون به ؟ فقال الناس : رضينا ياخليفة رسول الله ، فقام على كرم الله وجهه فقال : لانرضى إلا أن يكون عمر قال : فإنه عمر قال : وكانت صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم كصلاتهم على غيره : أى بتكبيرات أربع لامجرد الدعاء من غير تكبيرات اه ، وهو يخالف ماتقدم المفيد أن صلاتهم إنما كانت مجرد الدعاء لا الصلاة المعهودة .

وقد يقال : لا مخالفة ، وإنما نصوا على الدعاء لكونه مخالفا للدعاء المعروف فى صلاة الجنازة على غيره صلى الله عليه وسلم .

وفى شرح مسلم عن القاضى عياض : واختلف هل صلى عليه صلى الله عليه وسلم : فقيل : لم يصل عليه أحد أصلا ، وإنما كان الناس يدخلون أرسالا يدعون ويتضرعون ؛ والصحيح الذى عليه الجمهور أنهم صلوا عليه أفرادا ، فكان يدخل عليه فوج يصلون فرادى ثم يخرجون ، ثم يدخل فوج آخر فيصلون كذلك .

وعن ابن الماجشون : صلى عليه صلى الله عليه وسلم اثنان وسبعون صلاة كحمزة رضى الله عنه قيل له : من أين لك هذا ؟ قال : من الصندوق الذى تركه مالك رحمه الله تعالى بخطه عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، فصلى عليه الرجال الأحرار أولا ثم النساء الأحرار ثم الصبيان ثم العبيد ثم الإماء .

واختلفوا فى الموضع الذى يدفن فيه ، فمن قائل يدفن فى البقيع ، ومن قائل ينقل ويدفن عند إبراهيم الخليل ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : ادفنوه فى الموضع الذى قبض فيه ، فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب .

أى وفى رواية أنه رضى الله عنه قال : إن عندى فى هذا خبرا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يدفن نبى إلا حيث قبض » . وفى لفظ « لا يقبض الله روح نبى إلا فى الموضع الذى يحب أن يدفن فيه » .

وعن أبى بكر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبض النبى إلا فى أحب الأمكنة إليه » قال بعضهم : ولا شك أن أحبها : أى الأمكنة إليه أحبها إلى ربه تعالى ، فإن حبه صلى الله عليه وسلم تابع لحب ربه جل وعلا .

وفى الحديث « ما مات نبى إلا دفن حيث قبض » فحول فراشه وحفر له ودفن فى ذلك الموضع الذى توفاه الله فيه .

واختلفوا هل يجعل له صلى الله عليه وسلم لحد أو يجعل له شق ، وكان فى المدينة شخصان ، أحدهما يصنع اللحد ، والآخر يصنع الشق والأول هو أبو طلحة زيد بن سهل والثانى أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه .

وفى لفظ كان أبو عبيدة يحفر حينئذ لأهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل يحفر لأهل المدينة فكان يلحد ، فقال عمر رضى الله عنه : ترسلوا لهما ، وكل من حضر منهما نزلناه ، فأرسلوا خلفهما رجلين ، وقال عمر رضى الله عنه : اللهم خر لرسولك ، وقيل المرسل والقائل ما ذكر العباس رضى الله عنه ، فسبق أبو طلحة رضى الله عنه فصنع له صلى الله عليه وسلم لحدا وأطبق عليه بتسع لبنات ثم أهيل التراب . وقد جاء فى الحديث « ألحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » وقد روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال فى مرض موته : ألحدوا لى لحدا ، وانصبوا علىّ اللبن نصبا كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ صلى الله عليه وسلم من قبل رأسه كما رواه البيهقى وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما : أى وضع سريره صلى الله عليه وسلم عند مؤخر القبر ، فكان رأسه الشريف عند المحل الذى يكون فيه رجلاه فلما أدخل القبر سلّ من قبل رأسه ، ودخل قبره العباس وعلى والفضل وقثم وشقران : واقتصر ابن حبان عن ابن عباس رضى الله عنهما على الثلاثة الأول ، وفرش شقران فى اللحد تحته صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء :

وفى رواية بيضاء كان يجعلها على رجليه ، إذا سافر ، لأن الأرض كانت ندية وقال والله لا يلبسها أحد بعدك ، فدفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل أخرجت : أى عملا بوصيته صلى الله عليه وسلم ، فقد روى البيهقى عن أبى موسى رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن لاتتبعونى بصارخة ولامجمرة ، ولا تجعلوا بينى وبين الأرض شيئا ، لكن فى رواية الجامع الصغير « افرشوا لى قطيفتى فى لحدى ، فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» .

وكان دفنه صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء. وعن أم سلمة رضى الله عنها «كنا مجتمعين نبكى تلك الليلة لم ننم فسمعنا صوت المساحى ، فصحنا وصاح أهل المسجد ، فارتجت المدينة صيحة واحدة ، فأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم بكى وانتحب فزادنا حزنا ، فيالها من مصيبة ما أصابنا بعدها من مصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به صلى الله عليه وسلم .

وعن فاطمة رضى الله عنها : لما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لأنس يا أنس كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب ؟ وفى لفظ : أطابت نفوسكم أن دفنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التراب ورجعتم . وفى رواية أنها قالت لعلى كرم الله وجهه : يا أبا الحسن دفنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم ، قالت : كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه ؟ كان نبى الرحمة ، قال : نعم ، ولكن لاراد لأمر الله . وقد جاء أن الإنسان يدفن فى التربة التى خلق منها ، وهو يدل على أنه صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما خلقوا من تربة واحدة لأنهم دفنوا ثلاثتهم فى تربة واحدة .

فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره : إذا أنا مت وفرغتم من جهازى فاحملونى حتى تقفوا بباب البيت الذى فيه قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقفوا بالباب وقولوا : السلام عليك يارسول الله، هذا أبو بكر يستأذن ، فإن أذن لكم بأن فتح الباب ،وكان الباب مغلقا بقفل ، فأدخلونى وادفنونى ، وإن لم يفتح الباب فأخرجونى إلى البقيع وادفنونى به ، فلما وقفوا على الباب وقالوا ما ذكر سقط القفل وانفتح الباب ، وسمع هاتف من داخل البيت : أدخلوا الحبيب إلى الحبيب ، فإن الحبيب إلى الحبيب مشتاق .

ولما احتضر عمر رضى الله عنه قال لابنه عبد الله رضى الله عنه يا عبد الله ائت

أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ؛ فقل لها : إن عمر يقرئك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم بأمير المؤمنين ، وقل : يستأذن أن تدفنيه مع صاحبيه ؛ فإن أذنت فادفنونى وأن أبت فردونى إلى مقابر المسلمين ، فأتاها عبد الله وهو يبكى ، فقال : إن عمر يستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : لقد كنت ادخرت ذلك المكان لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى ، فلما رجع عبد الله إلى أبيه وأقبل عليه ، قال عمر : أقعدونى ، ثم قال لعبد الله : ماوراءك ، قال : قد أذنت لك ، قال : الله أكبر ، ماشيء أهم إلى من ذلك المضجع .

وقد ذكر أن الحسن رضى الله عنه لما سقى السم ورأى كبده تقطع أرسل إلى عائشة رضى الله عنها أن يدفن عند جده صلى الله عليه وسلم ، فأذنت له ، فلما مات منع من ذلك مروان وبنو أمية ، فدفن بالبقيع . ويذكر أنه رضى الله عنه قال لأخيه الحسين رضى الله عنه قال : كنت بلغت إلى عائشة إذا مت أن تأذن لى أن أدفن فى بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : نعم ولا أدرى لعلها كان ذلك منها حياء ، فإذا أنامت فاطلب ذلك منها ، فإن طابت نفسها فادفنى فى بيتها وما أظن القوم إلا سيمنعونك ، فان فعلوا فلا تراجعهم فى ذلك وادفنى فى بقيع الغرقد ، فان لى فيمن فيه أسوة ، فلما مات الحسن رضى الله عنه جاء الحسين رضى الله عنه إلى عائشة رضى الله عنها فطلب منها ذلك ، فقالت : نعم وكرامة فبلغ ذلك مروان ، فقال : كذب وكذبت ، والله لا يدفن هناك أبدا ، منعوا عثمان من دفنه هناك ويريدون دفن حسن ، فبلغ ذلك الحسين رضى الله عنه ، فلبس الحديد هو ومن معه ، وكذلك مروان لبس الحديد هو ومن معه ، فبلغ ذلك أباهريرة رضى الله عنه ، فانطلق إلى الحسين وناشده الله وقال له : أليس أخوك قد قال لك ما قال : فلم يزل به حتى رضى بدفنه بالبقيع فدفن بجانب أمه رضى الله عنها ، ولم يشهد جنازته أحد من بنى أمية إلا سعيد ابن العاص . لأنه كان أميرا على المدينة ، قدمه الحسين فصلى عليه إماما وقال هى السنة .

قال ابن كثير رحمه الله: والذى نص عليه غير واحد من الأئمة سلفا وخلفا أنه صلى الله عليه وسلم توفى يوم الإثنين قبل أن ينتصف النهار ، ودفن يوم الثلاثاء قبل وقت الضحى ، والقول أنه مكث ثلاثة أيام لايدفن غريب ، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم مكث بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثاء ويوم الثلاثاء وبعض ليلة الأربعاء .

وكان السبب فى تأخره صلى الله عليه وسلم ماعلمت من اشتغالهم ببيعة أبى بكر رضى الله عنه حتى تمت ، وقيل لعدم اتفاقهم على موته صلى الله عليه وسلم ، وكان آخر من طلع من

قبره الشريف قثم بن العباس رضى الله عنهما ، وقيل المغيرة بن شعبة رضى الله عنه لأنه ألقى خاتمه فى القبر الشريف وقال لعلى : ياأبا الحسن خاتمى ، وإنما طرحته عمدا لأمس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكون آخر الناس عهدا به قال : انزل فخذه ، وقيل ألقى الفأس فى القبر وقال : الفأس الفأس فنزل وأخذها ، ويقال إن عليا كرم الله وجهه لما قال له المغيرة ذلك نزل وناوله الخاتم أى أو الفأس ،أو أمر من نزل وناوله ذلك وقال له : إنما فعلت ذلك لتقول أنا آخر الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم عهدا؛ واعترض بأن المغيرة رضى الله عنه لم يكن حاضرا للدفن .

وقد روى أن جماعة من العراق قدموا على على كرم الله وجهه فقالوا : يا أبا الحسن جئناك لنسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه ، فقال لهم : أظن أن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : أجل ،عن هذا جئنا نسألك قال : كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم قثم بن العباس رضى الله عنهما .

وقام الإجماع على أن هذا الموضع الذى ضم أعضاءه الشريفة صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض حتى موضع الكعبة الشريفة ، قال بعضهم : وأفضل من بقاع السماء أيضا حتى من العرش .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : مانفضنا الأيدى من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا ، قال بعضهم : وأظلمت الدنيا حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض ، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا فرط لأمتى لن يصابوا بمثلى » وفى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بأمة خيرا قبض نبيها قبلها ، فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها » فياله من خطب جل عن الخطوب ، ومصاب علم دمع العيون كيف يصوب ، وطارق هجم هجوم الليل ،وحادث هد كل القوى والحيل ، ولشدة أسف حماره عليه صلى الله عليه وسلم الذى كان يركبه ألقى نفسه فى حفيرة فمات كما تقدم ، وتركت ناقته صلى الله عليه وسلم الأكل والشرب حتى ماتت ، وأنشد الحافظ الدمياطى عن غيره :

ألا ياضريحا ضم نفسا زكية   عليك سلام الله فى القرب والبعد
عليك سلام الله ماهبت الصبا   وما ناح قمرى على البان والرند

وما سجعت ورق وغنت حمامة وما اشتاق ذو وجد إلى ساكنى نجد
ومالى سوى حبى لكم آل أحمد أمرغ من شوقى على بابكم خدى

باب بيان ماوقع من الحوادث من عام ولادته صلى الله عليه وسلم إلى زمان وفاته صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال

وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا

اعلم أن الأكثر على أنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، وحكى بعضهم الإجماع عليه . قال : وكل قول خالفه فهو وهم .

وقيل بعد الفيل بخمسين يوما ، وقيل بزيادة خمسة أيام ، وقيل بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بشهرين وعشرة أيام ، وقيل بعشرين سنة ، وقيل بعشر سنين ، وقيل بخمس عشرة سنة .

وكانت ولادته صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين فى شهر ربيع الأول لعشر خلون منه وقيل لليلتين ، وقيل لثمان خلت ، واختاره الحميدى تبعا لشيخه ابن حزم: وحكى القضاعى رحمه الله عن [عيون المعارف] إجماع أهل التاريخ عليه . وقيل لاثنتى عشرة ليلة وهو المشهور ، وقيل لسبع عشرة ، وقيل لثمان بقين منه ، وذلك فى النهار عند طلوع الفجر ، وقيل ولد ليلا وعليه عمل أهل مكة فى زيارة موضع مولده الشريف صلى الله عليه وسلم وكونه فى شهر ربيع الأول هو قول الجمهور من العلماء ، وحكى ابن الجوزى رحمه الله الاتفاق عليه . وقيل فى صفر ، وقيل فى ربيع الآخر ، وقيل فى رجب ، وقيل فى شهر رمضان .

واختلف فى مكان ولادته صلى الله عليه وسلم ، فقيل بمكة وعليه قيل بالدار التى كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ، وقيل بالشعب شعب بنى هاشم وذلك المحل يزار الآن ، وقيل بالردم ، وقيل ولد صلى الله عليه وسلم بعسفان .

وفى السنة الثالثة من مولده صلى الله عليه وسلم شق صدره الشريف عند ظئره حليمة رضى الله تعالى عنها ، وقيل كان فى الرابعة ، وفيها ولد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بمنى .

وفى السنة السادسة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت وفاة أمه آمنة ودفنت بالأبواء، وقيل بشعب أبي ذئب بالحجون محل مقابر أهل مكة ، وقيل فى دار رائعة بالمعلاة ، وفيها ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وفى السنة السابعة من مولده صلى الله عليه وسلم استقل بكفالته جده عبد المطلب ، وفيها أصابه صلى الله عليه وسلم رمد شديد ، وفيها استسقى عبد المطلب وهو صلى الله عليه وسلم معه بسبب رؤيا دقيقة ، وفيها خرج عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذى يزن الحميرى بالملك .

وفى السنة الثامنة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت وفاة جده عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه السنة مات حاتم الطائى الذى يضرب به المثل فى الجود والكرم : ومات كسرى أنو شروان .

وفى السنة التاسعة من مولده صلى الله عليه وسلم قيل سافر به عمه أبو طالب إلى بصرى من أرض الشام ، وهى مدينة هوازن .

وفى السنة العاشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت حرب الفجار الأولى :

وفى السنة العاشرة وقيل الحادية عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان شق صدره الشريف .

وفى السنة الثانية عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان حرب الفجار الثانية : وكان سفر عمه أبي طالب به صلى الله عليه وسلم إلى بصرى من أرض الشام على ما عليه الأكثر .

وفى السنة الثالثة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وفى السنة الرابعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كانت حرب الفجار الثالثة ، وقيل كان عمره صلى الله عليه وسلم عشرين سنة .

وفى السنة السابعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم كان سفر عمه الزبير والعباس ابنى عبد المطلب لليمن للتجارة ، وصحبهما النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى السنة الخامسة والعشرين من مولده صلى الله عليه وسلم كان سفره صلى الله عليه

وسلم إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة رضى الله عنها . وتزوج صلى الله عليه وسلم خديجة .

وفى سنة ثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الكعبة .

وفى سنة أربع وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ولد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ومعاذ بن جبل رضى الله عنه .

وفى سنة خمس وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم هدمت قريش الكعبة وبنتها .

وفى سنة سبع وثلاثين رأى صلى الله عليه وسلم الضوء والنور ، وكان صلى الله عليه وسلم يسمع الأصوات .

وفى السنة الأولى من النبوة كان نزول الوحى عليه صلى الله عليه وسلم فى اليقظة بعد أن مكث صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يوحى إليه فى المنام .

وفى السنة الثالثة من النبوة قيل توفى ورقة بن نوفل .

وفى السنة الرابعة من النبوة كان إظهار الدعوة .

وفى السنة الخامسة من النبوة ولدت عائشة رضى الله عنها . وقيل ولدت فى الرابعة .

وفى السنة الخامسة أيضا كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة . وفيها ماتت سمية أم عمار بن ياسر رضى الله عنهم ، وهى أول شهيدة فى الإسلام .

وفى السنة السادسة من النبوة أسلم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وعمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقيل أسلما رضى الله عنهما فى سنة خمس ، وكان إسلام حمزة رضى الله عنه قبل إسلام عمر رضى الله عنه بثلاثة أيام .

وفى السنة السابعة من النبوة تقاسمت قريش وتعاهدت على معاداة بنى هاشم وبنى المطلب وقيل كان ذلك فى السادسة ، وقيل فى الخامسة ، وقيل فى الثامنة وذلك فى خيف بنى كنانة بالأبطح ويسمى محصبا ، وهو بأعلى مكة شرفها الله عند المقابر .

وفى السنة التاسعة من النبوة كان انشقاق القمر له صلى الله عليه وسلم .

وفى السنة العاشرة من النبوة مات أبو طالب وماتت خديجة رضى الله عنها . وكان صلى الله عليه وسلم يسمى ذلك العام عام الحزن . وفيها جاءه صلى الله عليه وسلم جن نصيبين وأسلموا . وفيها تزوج صلى الله عليه وسلم سودة رضى الله عنها بنت زمعة ودخل عليها فى مكة . وفيها عقد صلى الله عليه وسلم عقده على عائشة رضى الله عنها ، ولم يدخل صلى الله عليه وسلم عليها إلا فى المدينة .

وفى السنة الحادية عشرة من النبوة كان ابتداء إسلام الأنصار رضى الله عنهم .

وفى السنة الثانية عشرة من النبوة كان الإسراء والمعراج . وفيها وقعت بيعة العقبة الأولى .

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة كانت بيعة العقبة الثانية التى هى الكبرى ، وبعضهم يسميها العقبة الثالثة ، ويسمى إسلام الأنصار عقبة مع أنه لامبايعة فيه . وفى هذه السنة أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يهاجر للحبشة ، فلما بلغ برك الغماد رده ربيعة بن الدغنة سيد القارة .

وفى السنة الرابعة عشرة من النبوة وهى السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة ، فكانت الهجرة فيها فى صفر أو فى غرة ربيع الأول . وفيها كان بناء المسجد ومساكنه صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، قيل وكان ابتداء خدمة أنس رضى الله عنه له صلى الله عليه وسلم . فقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صارت الأنصار يبعثون إليه صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجالهم ونساؤهم ، وكانت أم أنس رضى الله عنهما لا شيء لها تهديه له صلى الله عليه وسلم فكانت تتأسف ، فأخذت يوما بيد أنس رضى الله عنه وقالت : يا رسول الله هذا يخدمك . وجاء أن زوجها أبا طلحة رضى الله عنه جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك .

وجمع بأن أمه جاءت به أولا ثم جاء به أبو طلحة ثانيا لأنه وليه وعصبته ، قال فى [الخميس] وهذا غير مجيئه به لخدمته صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر . وفيها كما فى الأصل ، وقيل فى السنة الثانية زيد فى صلاة الحضر ركعتان وتركت صلاة الفجر وصلاة المغرب لأنها وتر النهار ، وأقرت صلاة السفر ، وتركت على الفريضة الأولى كذا قيل . وفى هذه السنة مات من مشركى مكة الوليد بن المغيرة . ولما احتضر جزع ، فقال له أبو جهل لعنه الله : يا عم ما جزعك ؟ فقال : والله مابى من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبى كبشة بمكة ، فقال أبو سفيان رضى الله عنه : لاتخف ، إنى ضامن أن لايظهر . وفيها مات العاص بن وائل . وفيها مات أسعد بن زرارة رضى الله عنه وفيها ابتدئت الغزوات ؛ فكان فيها غزوة الأبواء وغزوة ودان كما فى الأصل . وفى هذه السنة بنى صلى الله عليه وسلم بعائشة رضى الله عنها ، وفيها شرع الأذان ، وفيها صلى صلى الله

عليه وسلم الجمعة فى طريقه حيث ارتحل صلى الله عليه وسلم من قباء إلى المدينة ، وهى أوّل جمعة صلاها، وأول خطبة خطبها فى الإسلام . وفيها أسلم عبدالله بن سلام رضى الله عنه . وكان فيها بعث عمه حمزة رضى الله عنه يعترض عيرا لقريش ، وبعث ابن عمه عبيدة بن الحارث رضى الله عنه إلى بطن رابغ . وبعث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه إلى الخرار يعترض عيرا لقريش .

وفى السنة الخامسة عشرة من النبوة والثانية من الهجرة تزوّج على كرم الله وجهه بفاطمة رضى الله عنها وتكنيته بأبى تراب ، وغزوة بواط وغزوة العشيرة ، وسرية عبدالله بن جحش رضى الله عنه إلى بطن نخلة ، وتحويل القبلة ، وتجديد بناء مسجد قباء ، وفرض رمضان وغزوة بدر الكبرى ، ووفاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنها ، وقتل عصماء وفرض زكاة الفطر ، وشروع صلاة عيده : وفرض زكاة الأموال ، وغزوة قرقرة الكدر . وسرية سالم بن عمير رضى الله عنه . وغزوة بنى قينقاع . وغزوة السويق ، وموت عثمان بن مظعون رضى الله عنه ، والتضحية وصلاة عيدها :

وفى السنة السادسة عشرة من النبوّة والثالثة من الهجرة سرية محمد بن مسلمة رضى الله عنه لقتل كعب بن الأشرف لعنه الله . وتزوّج عثمان رضى عنه أم كلثوم رضى الله عنها ، وغزوة غطفان وغزوة بحران ، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى قردة . وتزوّج حفصة رضى الله عنها ، وتزوّج زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ، وولادة الحسن ، وغزوة أحد ، وغزوة حمراء الأسد ، وعلوق فاطمة بالحسين رضى الله عنهما .

وفى السنة السابعة عشرة من النبوّة والرابعة من الهجرة سرية أبى سلمة رضى الله عنه إلى قطن . ووفاته . وسرية عبدالله بن أنيس رضى الله عنه إلى عرنة لقتل سنان بن خالد . وسرية القراء رضى الله عنهم إلى بئر معونة . وقصة الرجيع . وسرية عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه إلى مكة لقتل أبى سفيان رضى الله عنه ، وغزوة بنى النضير ، ووفاة زينب بنت خزيمة ، وغزوة ذات الرقاع ، وصلاة الخوف ، وولادة الحسين رضى الله عنه ، وغزوة بدر الصغرى ، وتزوّج أم سلمة رضى الله عنها ، وتحريم الخمر عند بعضهم .

وفى السنة الثامنة عشرة من النبوة والخامسة من الهجرة غزوة دومة الجندل ، وغزوة المريسيع ، ونزول آية التيمم ، وتزوّج جويرية رضى الله عنها ، وقصة الإفك ، وغزوة الخندق ، وغزوة بنى قريظة ، وقصة أولاد جابر رضى الله عنهم ، وتزوّج زينب بنت جحش رضى الله عنها ، ونزول آية الحجاب ، وفرض الحج ،

وفى السنة التاسعة عشرة من النبوّة والسادسة من الهجرة سرية محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى القرطاء، وقصة ثمامة ، وغزوة بنى لحيان ، وغزوة الغابة ، وسرية عكاشة رضى الله عنه إلى الغمر ، وسرية محمد بن مسلمة رضى الله عنه إلى ذى القصة ، وسرية أبى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه إلى مصارع أصحاب محمد بن مسلمة رضى الله عنهم، وسرية زيد ابن حارثة رضى الله عنهما إلى بنى سليم بالجموم ، وسرية زيد بن حارثة رضى عنهما إلى العيص، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى الطرف ، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى وادى القرى ، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى أم قرفة ، وسرية عبد الله ابن عتيك رضى الله عنه لقتل أبى رافع ، وسرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير ابن رزام اليهودى بخيبر ، وسرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى حسمى ، وغزوة الحديبية ، ونزول حكم الظهار ، وتحريم الخمر ، وتزوّجه صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رضى الله عنها .

وفى السنة العشرين من النبوّة والسابعة من الهجرة ، كان اتخاذ الخاتم ، وإرسال الرسل إلى الملوك ، ووقوع السحر به صلى الله عليه وسلم ، وغزوة خيبر ، وفتح وادى القرى ، والدخول بأم حبيبة رضى الله عنها ، وسرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى طائفة من هوازن، وعمرة القضاء، وتزوّج ميمونة رضى الله عنها ، وسرية ابن أبى العوجاء رضى الله عنه إلى بنى سليم .

وفى السنة الحادية والعشرين من النبوّة والثامنة من الهجرة ، كان إسلام خالد بن الوليد رضى الله عنه وعمرو بن العاصى رضى الله عنه وعثمان بن طلحة رضى الله عنه ، وسرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله عنه إلى بنى الملوح ، وسريته إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضى الله عنه بفدك ، واتخاذ المنبر الشريف ، وسرية شجاع بن وهب رضى الله عنه إلى بنى عامر ، وسرية كعب ابن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح ، وسرية مؤتة ، وسرية عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى ذات السلاسل ، وسرية أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى سيف البحر ، وسرية أبى قتادة رضى الله عنه إلى بطن أضم ، وسرية عبد الله بن أبى حدرد رضى الله عنه إلى الغابة ، وغزوة فتح مكة شرفها الله تعالى ، وسرية خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى العزى بنخلة ، وسرية عمرو ابن العاصى رضى الله عنه إلى سواع صنم هذيل ، وسرية سعد بن زيد الأشهلى رضى الله عنه إلى مناة صنم للأوس ، وسرية خالد بن الوليد رضى عنه إلى بنى جزيمة ، وغزوة حنين ، وسرية

أبى عامر رضى الله عنه إلى أوطاس، وسرية أبى الطفيل إلى ذى الكفين، وغزوة الطائف، وولادة ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقدوم أول الوفود عليه صلى الله عليه وسلم وهو وفد هوازن، ووفاة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها.

وفى السنة الثانية والعشرين من النبوة وهى التاسعة من الهجرة، بعث عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم، وبعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق، وسرية قطبة ابن عامر رضى الله عنه إلى خثعم، وسرية الضحاك الكلابى رضى الله عنه إلى بنى كلاب، وسرية علقمة بن محرز رضى الله عنه إلى أهل الحبشة، وبعث على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى القلس، وبعث عكاشة بن محصن رضى الله عنه إلى الجباب، وإسلام كعب ابن زهير، وهجره صلى الله عليه وسلم لنسائه، وغزوة تبوك، وسرية خالد بن الوليد رضى الله عنه من تبوك إلى أكيدر، وإرسال كتابه من تبوك إلى هرقل، وهدم مسجد الضرار، وقصة كعب بن مالك وصاحبيه رضى الله عنهم، وقصة اللعان، وإسلام ثقيف، ورجم الغامدية، ووفاة النجاشى، ووفاة أم كلثوم رضى الله عنها، وموت عبد الله بن أبى ابن سلول، وحج أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

وفى السنة الثالثة والعشرين من النبوة وهى العاشرة من الهجرة قدوم عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه، وبعث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ومعاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن، وبعث خالد ابن الوليد رضى الله عنه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وبعث على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى اليمن، وبعث جرير بن عبد الله البجلى إلى تخريب ذى الخلصة، وبعث جرير بن عبد الله أيضا رضى الله عنه إلى ذى الكلاع، وبعث أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى أهل نجران، وقصة بديل وتميم الدارى، ووفاة ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وخروجه صلى الله عليه وسلم للحج.

وفى السنة الرابعة والعشرين من النبوة وهى الحادية عشرة من الهجرة، قدوم وفد النخع، وسرية أسامة بن زيد رضى الله عنهما إلى أبنى، وقصة الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب وسجاح وطليحة، وما وقع فى ابتداء مرضه صلى الله عليه وسلم، ومدة مرضه، ووقت مرضه صلى الله عليه وسلم. وموته وغسله وتكفينه، والصلاة عليه، ودفنه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم، والله أعلم.

اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك. اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك،

وأتم علينا نعمتك من فضلك ، واجعلنا من عبادك الصالحين . اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا . اللهم ألهمنا رشدنا ، وأعذنا من شر نفوسنا . اللهم ارزقنا نفسا مطمئنة تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك. اللهم إنا مقصرون فى طلب رضاك فأعنا عليه بحولك وقوتك (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى ، وعلى آل محمد وأزواجه وذرياته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ، واختم لنا بخير ، وأصلح لنا شأننا كله ، وافعل ذلك بإخواننا وأحبابنا وسائر المسلمين ، وأستغفر الله من من قول بلا عمل ، وأستغفره من كل خطأ وزلل ، وأسأله علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وقلبا خاشعا ، وعملا متقبلا ، وشفاء من كل داء ، وأن يجعل ذلك حجة لنا ولا يجعله حجة علينا إنه جواد كريم رءوف رحيم لطيف خبير ، والحمد لله وحده .

اللهم صل على من لا نبى بعده عبدك ورسولك سيدنا محمد ، الذات المكملة ، والرحمة المنزلة من عندك . اللهم احشرنا فى زمرته ، واجعلنا من خدام سنته آمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فهرست

الجزء الثالث من إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون

صحيفة

٣ فتح مكة شرفها الله تعالى
٦١ غزوة حنين
٧٦ غزوة الطائف
٩٩ غزوة تبوك
١٣٤ باب سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه
١٣٥ سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه
١٣٦ سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه
١٣٨ سرية سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه
١٣٩ سرية عبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنه
١٤٤ سرية عمير بن عدى الخطمى الضرير
١٤٦ سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك
١٤٦ سرية عبد الله بن مسلمة رضى الله عنه
١٥١ سرية عبد الله بن عتيك رضى الله عنه
١٥٤ سرية زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى القردة
١٥٥ سرية أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد
١٥٧ سرية الرجيع

صحيفة

١٦٦ سرية القراء رضى الله تعالى عنهم إلى بئر معونة
١٧١ سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء
١٧٤ سرية عكاشة بن محصن رضى الله تعالى عنه إلى الغمر
سرية محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه لذى القصة
١٧٥ سرية أبى عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه إلى ذى القصة أيضا
سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه إلى بنى سليم بالجموح
سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى العيص
١٧٨ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى بنى ثعلبة
١٧٩ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى جذام
١٨٠ سرية أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه لبنى فزارة
١٨٣ سرية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إلى دومة الجندل
١٨٥ سرية زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما إلى مدين
سرية أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى بنى سعد بن بكر بفدك
١٨٦ سرية عبد الله بن رواحة رضى الله عنه إلى أسير
١٨٧ سرية عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم بن حريس رضى الله عنهما
١٨٩ سرية سعيد بن زيد رضى الله تعالى عنه
١٩١ سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى طائفة من هوازن
سرية أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه إلى بنى كلاب
١٩٢ سرية بشير بن سعد الأنصارى رضى الله تعالى عنه إلى بنى مرة بفدك
سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة
بالميفعة ، اسم محل وراء بطن نخل
١٩٤ سرية بشير بن سعد الأنصارى رضى الله تعالى عنه إلى يمن
١٩٥ سرية ابن أبى العوجاء السلمى رضى الله تعالى عنه إلى بنى سليم
سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى بنى الملوح
١٩٧ سرية غالب بن عبد الله الليثى رضى الله تعالى عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد
رضى الله تعالى عنه

صحيفة

١٩٨ سرية شجاع بن وهب الأسدى رضى الله تعالى عنه إلى بنى عامر
سرية كعب بن عمير الغفارى رضى الله تعالى عنه
سرية عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه إلى ذات السلاسل
٢٠١ سرية الخبط
٢٠٤ سرية أبى قتادة رضى الله تعالى عنه إلى غطفان
٢٠٥ سرية عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى رضى الله تعالى عنه إلى الغابة
٢٠٦ سرية أبى قتادة رضى الله تعالى عنه إلى بطن أضم
٢٠٨ سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى العزى
٢٠٩ سرية عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى سواع
سرية سعد بن زيد الأشهلى رضى الله عنه إلى مناة
سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى بنى جذيمة
٢١٤ سرية أبى عامر الأشعرى رضى الله عنه إلى أوطاس
٢١٥ سرية الطفيل بن عمرو الدوسى رضى الله عنه إلى ذى الكفين ، صنم عمرو بن حميمة الدوسى ليهدمه
٢١٦ سرية عيينة بن حصن الفزارى رضى الله تعالى عنه إلى بنى تميم
٢٢١ سرية قطبة بن عامر رضى الله تعالى عنه إلى حى من خثعم
٢٢٢ سرية الضحاك الكلابى رضى الله تعالى عنه
سرية علقمة بن مجزز رضى الله تعالى عنهما
٢٢٣ سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه
٢٢٤ سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج
٢٢٥ سرية خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان نصرانيا
٢٢٧ سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه
٢٣٥ باب يذكر فيه مايتعلق بالوفود التى وفدت عليه صلى الله عليه وسلم
٢٨١ باب بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التى أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

صحيفة

٢٨٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر
٢٩١ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس
٢٩٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة
٢٩٥ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمقوقس ملك القبط
٣٠٠ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوى العبدى بالبحرين على يد العلاء ابن الحضرمى
٣٠١ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان
٣٠٣ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوذة
٣٠٤ ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى
٣٠٧ حجة الوداع
٣٤٠ باب ذكر عمره صلى الله عليه وسلم
٣٤٢ باب ذكر نبذ من معجزاته صلى الله عليه وسلم
٣٧٢ باب ذكر نبذ من خصائصه صلى الله عليه وسلم
٣٩١ باب ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم
٤٠٠ باب ذكر أعمامه وعماته صلى الله عليه وسلم
باب ذكر أزواجه وسراريه صلى الله عليه وسلم
٤١٩ باب ذكر المشاهير من خدمه صلى الله عليه وسلم من الأحرار
٤٢١ باب ذكر المشاهير من مواليه صلى الله عليه وسلم الذين أعتقهم
٤٢٢ باب ذكر المشاهير من كتابه صلى الله عليه وسلم
٤٢٤ باب يذكر فيه حراسه صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه قوله تعالى (والله يعصمك من الناس)
باب يذكر فيه من ولى السوق فى زمنه صلى الله عليه وسلم
٤٢٥ باب يذكر فيه من كان يضحكه صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه أمناء رسول الله صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه شعراؤه صلى الله عليه وسلم

صحيفة

٤٢٦ باب يذكر فيه من كان يضرب الأعناق بين يديه صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه مؤذنوه صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه العشرة المبشرون بالجنة رضى الله تعالى عنهم
٤٢٧ باب يذكر فيه حواريوه صلى الله عليه وسلم
باب يذكر فيه سلاحه صلى الله عليه وسلم
٤٢٩ باب يذكر فيه خيله وبغاله وحمره صلى الله عليه وسلم
٤٣٤ باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الظاهرة وإن شاركه فيها غيره
٤٤٠ باب يذكر فيه صفته صلى الله عليه وسلم الباطنة وإن شاركه فيها غيره
٤٥٥ باب يذكر فيه مدة مرضه وما وقع فيه ، ووفاته صلى الله عليه وسلم التى هى مصيبة الأولين والآخرين من المسلمين
٤٩١ باب بيان ما وقع من الحوادث من عام ولادته صلى الله عليه وسلم إلى زمن وفاته صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال ، وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا